طبعة ثالثة

الدكتور علي الوردي

قصة الأشراف وابن سعود



قِصَّة الأشراف وابن سعود

الطبعة الشرعية الأولى للكتاب «المجموعة الكاملة 1969 - 1979. بغداد
الطبعة الشرعية الثانية للكتاب «المجموعة الكاملة 1991 - 1992 . لندن
الطبعة الشرعية الثالثة للكتاب «المجموعة الكاملة »2007 .لندن

* الكتاب : لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث
الجزء السادس - ملحق : قصة الأشراف وابن سعود
* المؤلف: د. علي الوردي
* الطبعة الأولى لشركة الوراق للنشر المحدودة: ٢٠٠٧
* الطبعة الثانية لشركة الوراق للنشر المحدودة: ٢٠١٠
* الطبعة الثالثة لشركة الوراق للنشر المحدودة: ٢٠١٣
* جميع الحقوق محفوظة
* تصميم الغلاف: جبران مصطفى.
* الناشر: شركة الوراق للنشر المحدودة

www.alwarrakbooks.com

ISBN:978-9933-493-14-1

التوزيع

Alwarrak Publishing Ltd.
26 Eastfields Road
London W3 0AD-UK
Tel: 00442087232775
Fax: 00442087232775
warraklondon@hotmail.com

الفرات للنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني ـ طابق سفلي أول
ص.ب ٦٤٣٥-١١٣ بيروت ـ لبنان
هاتف: ٠٠٩٦١-١-٧٥٠٠٥٤
فاكس: ٠٠٩٦١-١-٧٥٠٠٥٣
e-mail: info@alfurat.com

شركة بيت الورّاق للنشر والتوزيع المحدودة
العـراق ـ بغـداد ـ شارع المتنبي
تلفون : ٠٠٩٦٤٧٧٠٢٧٤٩٧٩٢
٠٠٩٦٤٧٨٠١٣٤٧٠٧٦

شركة دار الورّاق ش.م.م
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني ـ طابق سفلي
هاتف: ٠٠٩٦١-١-٣٤١٩٢٧
فاكس: ٠٠٩٦١-١-٧٥٠٠٥٣

الدكتور علي الوردي

قصة الأشراف وابن سعود





الفهرس

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الخاتمة

تصدير

لقد ترافق قيام دولة آل سعود (المملكة العربية السعودية) وانهيار دولة الأشراف في الحجاز (مملكة الحجاز) تغيرات كبيرة أثرت على العالم الإسلامي عموماً والمنطقة العربية خصوصاً.

وبقيت آثار تلك التغيرات الكبيرة بارزة إلى وقتنا الحاضر بالرغم من تقادم الزمن وكثرة العواصف التي مرّت بها هذه المنطقة.

ونظراً لأهمية هذا الكتاب من الناحية التاريخية والاجتماعية، واهتمام القارئ العربي الخليجي لمؤلفات الوردي وبالذات هذا الجزء ارتأينا أن نقوم بإصدار هذا الكتاب بشكل مستقل حتى يستطيع القارئ المهتمّ بشؤون هذه المنطقة الجغرافية ـ الجزيرة العربية ـ دون غيرها أن يقتني هذا الكتاب دون الحاجة إلى شراء المجموعة الكاملة من لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث.

المقدمة

إن هذا البحث قد وضعته ملحقاً للجزء السادس من كتابي «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث»، ولكنه في الواقع يصلح أن يكون ملحقاً لجميع أجزاء الكتاب ـ السابقة واللاحقة معاً. إنه بحث في أحداث وقعت في الحجاز ونجد وسوريا، وهي كلها ذات صلة وثيقة بالمجتمع العراقي وأحداثه ابتداءً من النزاع الصفوي العثماني حتى ثورة الرابع عشر من تموز. وقد يصحّ أن أقول إن تلك الأحداث تلقي ضوءاً غير قليل على أحداث العراق وتساعد على فهمها، كما أنها قد تساعد القارىء على فهم بعض خفايا الطبيعة البشرية وعقدها ومشاكلها بوجه عام.

نزاع الحسين وابن سعود:

يضم هذا الملحق تفاصيل مسهبة عن النزاع بين الحسين بن علي وعبد العزيز بن سعود، وهو نزاع يمكن اعتباره نموذجاً لما يجري بين البشر من تنازع على البقاء حيث يعتقد كل فريق منهم أن الحق معه وحده، وأن الباطل مع خصمه. ونحن إذ ندرسه الآن دراسة موضوعية حيادية نجد أن كلاًّ من الفريقين إنما يأخذ من الحقيقة الجانب الذي يعجبه وينبذ الجانب الآخر.

إني أدركت في صباي الزمن الذي كان فيه الصراع محتدماً بين الحسين وابن سعود، ورأيت الناس في العراق منقسمين إلى فريقين: أحدهما هاشمي الهوى والآخر سعودي. وكنت كغيري من الناس مندفعاً بما تمليه عليَّ بيئتي الاجتماعية، فكنت أتعصب لما يتعصّبون له، وأنطق كما ينطقون. ولكني بعدما

مرّت بي تجارب الحياة وأطّلعت على أسرار التاريخ أدركت أني كنت أنظر إلى الحقيقة من جانب واحد، وأن هناك جانباً آخر ينبغي النظر إليه أيضاً.

إن نزاع الحسين وابن سعود يمثل صراعاً بين شخصيتين متضادتين ـ على نحو ما صوّره برنارد شو في مسرحياته. فإحداهما مثالية مليئة بالأحلام والمبادىء، والثانية واقعية لا تميل إلى الأحلام والمثل بل تريد النجاح في الدنيا ولا تبالي بغيره. ومشكلة هذه الدنيا إن الشخصية الأولى كثيراً ما تخفق فيها وتتألم، وإن الثانية كثيراً ما تنجح وتزهو. ومن الممكن القول إن كُلاً من هاتين الشخصيتين لها دورها في مسيرة التاريخ، ولا بد للتاريخ من وجود عاملين يتفاعلان عليه أحدهما مثالي والآخر واقعي.

أحداث سوريا:

إن الفصل الخاص بأحداث سوريا هو أكبر الفصول في هذا الملحق، ولا أكتم القارىء أن هذا الفصل أجهدني كثيراً، ولعله أكثر الفصول إجهاداً لي في جميع الكتب التي ألفتها.

يبحث هذا الفصل في الفترة التي تولّى فيها فيصل بن الحسين الحكم في سوريا، وهي فترة امتدّت نحو سنتين، فيما بين تشرين الأول 1918 وتموز 1920، وكانت فترة صاخبة مليئة بالعبر، ومن الجدير بكل قارىء عربي أن يطّلع على أحداثها ويعتبر بها.

إن سوريا كانت في خلال تلك الفترة القصيرة أول دولة عربية في العصر الحديث تنال استقلالها وتحكم نفسها على الطريقة الديمقراطية الغربية. ولم يكن فيصل آنذاك قد تعلّم فن السياسة جيداً، وقد حاول أن يكون حاكماً شعبياً، فكان لا يبت في أمر قبل أن يستشير الشعب فيه. ولكن التجارب القاسية التي عاناها في تلك الفترة علّمته دروساً لم يستطع نسيانها طيلة حياته. وحين أصبح ملكاً في العراق بعدئذٍ كانت الدروس التي تعلمها في سوريا نصب عينيه دائماً. ولهذا رأيناه يتبع في العراق سياسة مزدوجة، إذ كان يداري

الشعب تارة ويداري الإنكليز تارة أخرى، وقد قاسى من جرّاء ذلك ما قاسى، وكان ذلك من أسباب موته المبكر.

إن كثيراً من العراقيين قد تولّوا المناصب العالية في سوريا خلال تلك الفترة، ولما عادوا إلى العراق بعدئذٍ كان لهم النصيب الأكبر من المناصب العالية فيه. ولكن الدروس التي تعلّموها في سوريا كانت متفاوتة الأثر فيهم. فمنهم من تعلم كثيراً، ومنهم من تعلم قليلاً، ومنهم من لم يتعلّم شيئاً. وحاول فيصل أن يكون فيهم كقائد الأوركسترا ينظم عزفهم. وقد نجح في ذلك إلى حدّ غير قليل. ولكنه لم يكد يموت في عام 1933 حتى صاروا يتكالبون على الحكم تكالباً عجيباً، ومرّت فترة أمدها ثماني سنوات كانت أبشع فترة في تاريخ العراق المعاصر. يقول الأمير زيد: «بعد فيصل الأول ابتعد حكّام العراق عن الشعب. صاروا لا يعرفون ما يريد الشعب. حذرت ونبهت ولكن لم يسمع مني أحد»[1].

الأشراف والمجتمع:

حاولت في الفصلين الأول والثاني من هذا الملحق دراسة جانب من تاريخ أشراف مكة. ولعل من النافع أن أتطرق في هذه المقدمة إلى دراسة ظاهرة الأشراف بوجه عام لما لها من أهمية اجتماعية وتاريخية ذات صلة وثيقة بالمجتمع العراقي.

إن الأشراف في الواقع يمثلون ظاهرة اجتماعية نلاحظها في جميع البلاد الإسلامية، وهي ظاهرة تقديس الأفراد الذين ينتمون بالنسب إلى النبي واعتبارهم طبقة عالية متميزة عن غيرهم من الناس[2].

تُطلق على الفرد من هذه الطبقة ألقاب مختلفة في البلاد المختلفة. ففي

---

(1) سليمان موسى (مذكرات الأمير زيد) ـ عمان 1976ـ ص 204.

(2) انظر فيما يخصّ مكانة «السادة» في المجتمع العراقي كتاب المؤلف «دراسة في طبيعة المجتمع العراقي» ـ الفصل التاسع.

العراق وإيران واليمن وحضرموت وماليزيا وأندونيسيا يُطلق عليه لقب «السيد»، وفي مصر والمغرب لقب «الشريف»، وفي بعض أنحاء الهند وتركيا لقب «المير»، وفي أفريقيا الشرقية والجنوبية «مولى». أما في الحجاز فيُطلق على الحسني لقب «الشريف»، وعلى الحسيني لقب «السيد».

إن بداية ظهور الطبقة المتميزة في المجتمع الإسلامي كانت في العهد الأموي تحت اسم «قريش»، أما قبل ذلك فكان المسلمون كلهم طبقة واحدة لا تفريق بينهم. وقد ظلّت قريش تتميز على الناس حتى جاء العهد العباسي، وعند ذلك تقلص نطاق تلك الطبقة حيث أصبحت مقصورة على الهاشميين وحدهم، وهم فئتان: العباسيون والطالبيون. وكانت لكل فئة منهما نقابة خاصة بها ترعى أفرادها وتنظر في أمورهم ودعاواهم. ولما دالت دولة العباسيين أصبحت الطبقة مقصورة على الطالبيين وحدهم، وقد تقلّصت هي أيضاً فصارت تشمل العلويين من أولاد فاطمة فقط. وظلت كذلك حتى يومنا هذا.

ومما يلفت النظر أن هذه الطبقة لها أحكام خاصة بها في الفقه الإسلامي. يقول حسن النجار في كتابه «الأشراف» ما نصّه:

«ذكر العلامة الأجهوري في مشارق الأنوار رواية عن مالك أنه يجوز أن يأخذ الأشراف صدقة الفرض وهي الزكاة السنوية.. ويُمنع أن يأخذوا من صدقة التطوّع لأن في الثانية ذلاً دون الأولى. ولكن المشهور عند أكثر الحنفية والشافعية وأحمد جواز أخذهم من صدقة التطوّع دون صدقة الفرض... وقال بعض الباحثين في حكمة التشريع إن سبب تحريم الصدقة عليهم أنها أوساخ الناس فهم أرفع قدراً وأعظم منزلة من أن تكون يدهم سفلى. وقال البعض إن سبب التحريم أنه قد كان لهم قديماً خمس الخمس من الغنيمة والفيء المأخوذين من الأعداء في الجهاد، فلما مُنع عنهم هذا الحق الآن جاز لهم أخذ الصدقة سواء كانت فرضاً أو نفلاً. وهذا السبب الأخير وجيه مقبول وعليه الفتوى الآن. غير أنه ينبغي للمتصدّق عليهم أن يتأدّب معهم حين

يعطيهم فلا ينوي بذلك التصدّق بل ينوي الهدية والتقرّب إلى رسول الله بواسطتهم...»[1].

هذه هي وجهة نظر الفقه السني في الأشراف، أما الفقه الشيعي فهو قد جعل للأشراف مكانة أعلى ونصيباً أكبر من الخمس إذ خصص لهم نصف الخمس بدلاً من خمسه. وهناك فرق آخر بين الفقهين في هذا الشأن هو أن الفقه السني فرض الخمس على الفيء والغنائم فقط، بينما الفقه الشيعي فرض الخمس على جميع المكاسب والأرباح بالإضافة إلى الفيء والغنائم.

ومن الجدير في الذكر في هذا الصدد أن بعض الفقهاء لم يعترفوا بهذا التمييز الطبقي للأشراف، وحجّتهم في ذلك أن الإسلام جاء لمحاربة الطبقات والاعتزاز بالنسب، وليس من المعقول أن تنشأ فيه طبقة جديدة محل الطبقات التي زالت. وهؤلاء الفقهاء يفسرون «آل محمد» بأن المقصود بهم أمة محمد لا عترته، ولهم في ذلك أدلّة كثيرة لا مجال هنا لذكرها[2]. ولكن هذا الرأي لا يقول به إلّا قلّة من المسلمين، أما الجمهور الغالب منهم فهم يرون خلافه، ويروون في ذلك أحاديث نبوية كثيرة وقد جمع هذه الأحاديث ابن حجر الهيتمي في كتابه «الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة».

العمامة الخضراء:

أصبحت العمامة الخضراء في العصور المتأخرة هي العلامة التي تميّز الأشراف عن غيرهم. وتُنسب بدايتها إلى الخليفة العباسي المأمون، فهو عندما عيّن الإمام العلوي علي الرضا ولي عهد له في عام 201هـ خلع السواد الذي كان شعار العباسيين ولبس الخضرة بدلاً عنه. ولكن ذلك لم يدم طويلاً إذ سرعان ما عاد المأمون إلى السواد بعد موت علي الرضا. وقد نُسي اللون

---

(1) حسن النجار (الأشراف) ـ القاهرة 1938ـ ص 30 ـ 31.

(2) انظر في هذا الموضوع كتاب «الإسلام الصحيح» لمحمد إسعاف النشاشيبي. وانظر في الرد عليه كتاب «الإيمان الصحيح» لمحمد الكاظمي القزويني.

الأخضر بعد ذلك إلى أن أعاده في مصر الملك الأشرف شعبان في عام 773 هـ، حيث أمر بأن يضع الأشراف في عمائمهم علامة خضراء تميزهم. يقول المقريزي: إن هذا السلطان ألزم الأشراف بأن يتميزوا بعلامة خضراء في عمائم الرجال وأزر النساء، فعملوا ذلك واستمر..[1].

ظل الأشراف يتميزون بعلامة خضراء في عمائمهم حتى عام 1004هـ عندما أمر حاكم مصر بأن تكون عمامة الأشراف كلها خضراء[2]. ومنذ ذلك الحين انتشرت العمامة الخضراء في كثير من البلاد الإسلامية كعلامة تميز الأشراف عن غيرهم.

الواقع أن الأشراف لم يلتزموا كلهم بالعمامة الخضراء، فمنهم من ظلّ محافظاً على العمامة البيضاء كما هو الحال في أشراف الحجاز واليمن، ومنهم من لم يرغب أن يميّز نفسه بأية علامة مهما كانت. والملاحظ بين شيعة العراق وإيران أن السيد فيهم إذا كان من رجال الدين أو كان موسوياً أي من سلالة موسى الكاظم لبس العمامة السوداء. والمظنون أن هذه العمامة من بقايا العهد العباسي، ولعل الشريف الرضي أول من بدأ بها. فالمعروف عن الرضي أنه عندما تولّى نقابة الطالبيين في عام 403هـ اتّخذ السواد له شعاراً على زي العباسيين[3].

وعلى أي حال فإن بعض الأشراف اتّخذوا العمامة الخضراء وسيلة للاستجداء المقنع، كما أن بعض الذين هم ليسوا بأشراف اتّخذوها وسيلة لرفع مكانتهم الاجتماعية وللاستجداء أيضاً. يحدثنا حسن النجار عن بعض الحيل التي يلجأ إليها المشعوذون في مصر في القرن العشرين فيقول ما نصّه:

«يلبس بعض من لا اتصال لهم بآل البيت عمامة خضراء بحجّة أنه نقيب

---

(1) تقي الدين المقريزي (كتاب السلوك) ـ القاهرة 1970 ـ ج 3، ق 1، ص 199.

(2) Encyclopaedia of Islam, art Sherif.

(3) آدم متز (الحضارة الإسلامية) ترجمة أبو ريدة ـ بيروت 1967 ـ ج 1، ص 290.

أحد الأسياد، أو ليجلس بجوار مقام أحدهم، مدّعياً أنه شريف منكود الحظ فقير الحال وأنه يريد كذا وكذا على قبول جده الحسين والسيدة مع أنه لا يمتّ إليهما بصلة القرابة. وفي نظري أن مثل هذا الدجال الممقوت مع أنه أثم بلبس العمامة الخضراء التي أفتى العلماء باختصاص الأشراف بها، هو فوق ذلك خداع غشاش يبتز أموال الناس بالحيل ويأكلها بالباطل. ومن الدجل بالعمامة الخضراء أيضاً ما فعله رجل من أقصى الصعيد، فلقد خطب بنتاً شريفة بالقاهرة مدّعياً أنه شريف، فلما رأوا على رأسه علامة الشرف صدّقوه. ثم لم يكد يعقد عليها حتى علم أبوها من أحد أقاربه أنهم بالصراحة ليسوا من الأشراف. . . »[1].

دعامة الأحلام:

إن المكانة العالية التي يتمتّع بها الأشراف في المجتمع الإسلامي وجدت لها دعامتان تسندانها، أولاهما كثرة الأحاديث التي تُنسب إلى النبي في الحثّ على رعاية ذرّيته واحترامهم، والثانية رؤية المسلمين للنبي أو ابنته فاطمة في المنام وهما يحثانهم على رعاية ذريتهما.

من العقائد التي راجت بين المسلمين أنهم إذا رأوا النبي في منامهم يحسبون أنهم قد رأوه حقاً، لأن الشيطان حسب اعتقادهم لا يمكن أن يتشبّه بالنبي في المنام. وقد أدّت هذه العقيدة إلى ظهور كثير من الأساطير والتقاليد غير الصالحة في المجتمع الإسلامي ـ كما شرحت ذلك بتفصيل في كتاب «الأحلام بين العلم والعقيدة».

إن كثيراً من الأحلام التي تحثّ على احترام الأشراف قد رويت في الحجاز. وسبب ذلك أن الأشراف حكموا الحجاز مدة طويلة جداً وكانوا كغيرهم من حكّام العصور السالفة يظلمون الناس ويعتدون عليهم، كما أن

---

(1) حسن النجار (المصدر السابق) ـ ص 47 ـ 48.

بعض الأشراف كانوا بدواً يقطعون الطرق على الحجاج. ولذا كان الناس يتذمرون منهم ويلعنونهم طبعاً، وعند هذا يظهر النبي أو ابنته فاطمة لهم في المنام ليوبخاهم على تذمرهم ولعنهم.

روى ابن حجر الهيتمي وغيره كثيراً من هذه الأحلام واستدلوا بها على كرامة الأشراف وعلى وجوب رعايتهم والتجاوز عن سيئاتهم بحكم الشرع. وفيما يلي ننقل مجموعة من هذه الأحلام اخترناها من مختلف المصادر:

(1) كان أحد الأشراف في المدينة، واسمه مطير، يلعب بالحمام - أي (مطيرجي) حسب تعبيرنا في العراق - ولما مات امتنع أحد الفقهاء من الصلاة عليه، ولكن هذا الفقيه رأى النبي في منامه ومعه فاطمة الزهراء وقد أعرضت فاطمة عنه، فأخذ الفقيه يستعطفها حتى أقبلت عليه وعاتبته قائلة: «أما يسع جاهنا مطيراً». وقد أصبح الفقيه منذ ذلك الحين يبالغ في تعظيم الأشراف[1].

(2) كان الشيخ العابد محمد الفارسي يبغض أشراف المدينة من سلالة الحسين لتظاهرهم بالرفض، ثم نام ذات يوم تجاه قبر النبي فرأى النبي في نومه وهو يقول له: يا فلان ما لي أراك تبغض أولادي؟. فقال له الشيخ: «حاشا لله ما أكرههم وإنما كرهت ما رأيت من تعصبهم على أهل السنّة». فسأله النبي: «أليس الولد العاق يلحق بالنسب؟». فأجابه الشيخ: «بلى يا رسول الله». فقال النبي: «هذا ولد عاق». ولما استيقظ الشيخ من نومه صار لا يلقى أحداً من بني الحسين إلّا بالغ في إكرامه[2].

(3) حجّ رجل من أهل اليمن مع عياله عن طريق البحر، ولمّا وصل إلى جدّة فتشه المكاسون كما فتشوا النساء تحت ثيابهن. فتألم الرجل من ذلك وأخذ يدعو الله على شريف مكة الحاكم يومذاك وهو محمد بن بركات. ثم رأى في منامه النبي وهو معرض عنه. فسأله الرجل عن سبب إعراضه فأجابه

---

(1) ابن حجر الهيتمي (الصواعق المحرقة) - القاهرة - ص 240.

(2) المصدر السابق - ص 240.

النبي قائلاً: «أما رأيت في الظلمة من هو أظلم من ابني هذا؟!». فانتبه الرجل من نومه مرعوباً وتاب إلى الله أن يتعرّض بعد هذا لأحد من الأشراف وإن فعل ما فعل[1].

(4) عندما مات شريف مكة أبو نمي الأول امتنع الشيخ عفيف الدين الدلاصي من الصلاة عليه. ولكن الشيخ رأى في منامه في تلك الليلة فاطمة الزهراء وهي واقفة عند الكعبة والناس يسلّمون عليها، فلما جاء الشيخ للسلام عليها أعرضت عنه ثلاث مرات. وقد تحامل الشيخ فسألها عن سبب إعراضها فأجابته: «يموت ولدي ولم تصل عليه!» فاعتذر منها وتاب عن مثل ذلك واعترف بالخطأ[2].

(5) كان الشاعر ابن عنين الدمشقي قد حجّ إلى مكّة فقطع الطريق عليه بعض الأشراف، ونهبوا ما كان معه وجرحوه. فنظم الشاعر قصيدة ذم بها الأشراف ذماً قبيحاً. ولما نام تلك الليلة رأى في أحلامه فاطمة الزهراء وهي تطوف بالبيت، فسلّم عليها فلم تجبه، فتضرّع إليها وتذلل، وسألها عن ذنبه، فأجابته بقصيدة تشبه قصيدته في الوزن والقافية ذكرت فيها أن أولادها حاشا أن يفعلوا الأفعال التي وصفها في قصيدته إنما هي الأيام غدرت بهم وأساءت إليهم، وهو يجب أن يتوب إلى الله. فانتبه الشاعر من نومه مرعوباً فزعاً، وقد شفاه الله من جراحه، فنظم قصيدة جديدة تاب فيها إلى الله من قصيدته الأولى وتعهّد بأنه سيعتبر كل ما يفعله الأشراف به حسناً حتى ولو قطعوه بالسيف أو الرمح[3].

(6) يروي الصوفي المشهور محيي الدين بن عربي أن رجلاً من أهل الحجاز حدّثه قائلاً: «كنت أكره ما تفعله الشرفاء بمكّة في الناس، فرأيت في

---

(1) المصدر السابق ـ 243.
(2) عبد الملك العصامي (سمط النجوم العوالي) ـ القاهرة ـ ج 4 ـ ص227.
(3) أحمد الداودي (عمدة الطالب) ـ بيروت ـ ص 106 ـ 107.

النوم فاطمة بنت رسول الله وهي معرضة عني، فسلمت عليها وسألتها عن إعراضها. فقالت: إنك تقع في الشرفاء. فقلت لها: يا ستّي، ألا ترين ما يفعلون في الناس؟ فقالت: أليس هم بنيّ؟ فقلت لها: من الآن. وتبت فأقبلت عليّ. واستيقظت»[1].

إن هذه القصص التي ذكرناها آنفاً هي قليل من كثير، ومن السهل العثور على أمثالها في مختلف البلاد الإسلامية. ولا حاجة بنا إلى القول إن أشراف مكة استفادوا منها فائدة كبيرة في تدعيم حكمهم حيث استمروا يحكمون الحجاز نحو عشرة قرون ـ كما سنأتي إليه.

(1) محمد إسعاف النشاشيبي (الإسلام الصحيح) ـ القدس 1354هـ ـ ص 164.

الفصل الأول

أشراف مكة

أشراف مكة

إن أشراف الحجاز، لا سيما في عصورهم المتأخرة، كانوا كثيرين جداً. ولعل نسبتهم العددية إلى مجموع السكان تقرب من نسبة السادة إلى مجموع السكان في العراق. وهم كانوا من حيث مكانتهم الاجتماعية متفاوتين على درجات شتّى. فهناك في الدرجة الأولى كان الأشراف الذين ينتمون إلى أسرة الشريف الحاكم، حيث كانت لهم مكانة تقرب من مكانة الأمراء من أقرباء الملك في الدول الملكية، ولكل واحد منهم قصوره وحشمه وعبيده. أما الباقون من الأشراف فكانوا يتفاوتون في المكانة حسب كفاءاتهم الشخصية أو عصبية أسرهم. ومنهم من كان بدوياً وصار يقطع الطرق على الحجاج كغيره من البدو، كما أن منهم من احترف الحرف الوضيعة. يحدثنا ابن جبير الذي زار الحجاز في القرن السادس الهجري عن الحالة المزرية التي كان بعض الأشراف يعيشون فيها فيقول ما نصّه:

«وأكثر سكان البلدة ـ يقصد بلدة جدة ـ مع ما فيها من الصحراء والجبال أشراف وعلويون وحسنيون وحسينيون وجعفريون رضي الله عن سلفهم الكريم. وهم من شظف العيش بحال يتصدع له الجماد إشفاقاً، ويستخدمون أنفسهم في كل مهنة من المهن، من إكراء جمال إن كان لهم، أو مبيع لبن أو ماء، أو غير ذلك من ثمر يلتقطونه أو حطب يحتطبونه، وربما تناولوا ذلك نساءهم الشريفات بأنفسهن. فسبحانه المقدر لما يشاء. ولا شك أنهم أهل بيت ارتضى

الله لهم الآخرة ولم يرتض لهم الدنيا، جعلنا الله ممّن يدين بحب أهل البيت الذين أذهب الرجس عنهم وطهّرهم تطهيراً»[1]

تأسيس شرافة مكة:

ظل أشراف الحجاز حتى منتصف القرن الرابع الهجري ليس لهم شيء من الحكم، ولم يكن لديهم ما يميّزهم عن بقية السكان سوى مكانتهم العالية الناشئة عن انتسابهم إلى النبي. وفي عام 358هـ ـ الموافق لعام 969م ـ استطاع أحد الأشراف الحسينين، وهو جعفر بن الحسن من سلالة موسى الجون، أن يؤسس له نوعاً من الإمارة في مكة أُطلق عليها اسم «شرافة مكة»، وهي الشرافة التي استمرّت لهم حتى عام 1925م عندما قضى عليها ابن سعود ـ كما سنأتي إليه في فصل قادم.

كانت الظروف مساعدة لجعفر بن الحسن في تأسيس الشرافة. فقد كان الحجاز حينذاك تابعاً للدولة الإخشيدية في مصر، وكانت تلك الدولة في أواخر أيامها، ولم تلبث أن سقطت في أيدي الفاطميين. وحين ٱستتب الحكم للمعزّ الفاطمي في مصر كتب إلى جعفر بن الحسن يعيّنه والياً على الحجاز باسم الدولة الفاطمية. وعند هذا قطع جعفر الدعاء للخلفاء العباسيين ـ وهو الدعاء الذي كان جارياً في العهد الإخشيدي ـ وصار يدعو للفاطميين بدلاً من العباسيين، كما أدخل عبارة «حي على خير العمل» في الأذان، وهي العبارة التي يتميّز بها أذان الشيعة عن أذان أهل السُنّة.

كان الأشراف الحسينيون يسكنون المدينة وحواليها، ولهم نفوذ فيها. وقد انتهزوا الفرصة بدورهم، فأعلنوا استقلالهم في المدينة في عام 360هـ ـ أي بعد سنتين من تأسيس أبناء عمهم الحسنيين لشرافة مكة ـ وأخذوا يدعون مثلهم للفاطميين، كما أدخلوا في الأذان عبارة «حي على خير العمل».

---

(1) محمد بن جبير (رحلة ابن جبير) ـ بغداد 1937ـ ص 42.

عندما وصل خبر ذلك إلى العباسيين في بغداد أرسلوا إلى مكّة نقيب الطالبيين الحسين بن موسى الموسوي والد الشريف الرضي، حيث عيّنوه أميراً للحج العراقي. وقد استطاع هذا النقيب أن يقنع جعفر بن الحسن بقطع الدعاء للفاطميين، وبإعادته للعباسيين. والظاهر أن جعفراً لم يستمر على ذلك طويلاً، بل عاد إلى الدعاء للفاطميين، وربما عاد مرة أخرى للعباسيين...[1].

أبو الفتوح:

مات المؤسس جعفر بن الحسن في عام 370هـ فخلفه على شرافة مكّة ابنه عيسى، وحين مات عيسى في عام 384هـ خلفه أخوه الحسن وهو المعروف بلقب «أبي الفتوح»، وكان من أعظم الأشراف شخصية وأقواهم بدناً، قيل إنه كان يمسك الدرهم فيفركه بيده ويمحو رسمه[2]، وكان بالإضافة إلى ذلك شاعراً فصيحاً[3].

أمضى أبو الفتوح سنوات حكمه الأولى بالحروب، حيث قاتل أبناء عمه الحسينيين في المدينة، كما قاتل أبناء عمه الحسنيين في اليمن[4]. ويبدو أنه كان شديد الطموح يريد الخلافة لنفسه، فهو قد رأى في العالم الإسلامي ثلاثة خلفاء يتنازعون عليها هم: الخليفة العباسي في بغداد، والخليفة الفاطمي في مصر، والخليفة الأموي في الأندلس. ولعله وجد نفسه أجدر منهم بها.

كان أبو الفتوح كغيره من الأشراف الحسنيين شيعياً من أتباع المذهب الزيدي. والمعروف عن المذهب الزيدي أنه يتميّز عن المذاهب الشيعية الأخرى بكونه يترضى على الشيخين ويعتبرهما إمامين عادلين، بينما المذاهب الأخرى تطعن فيهما وتتبرأ منهما. وفي عام 401هـ وصل إلى أبي الفتوح من

---

(1) أحمد السباعي (تاريخ مكة) ـ مكة 1372هـ ـ ص 29.

(2) المصدر السابق ـ ص 133.

(3) أحمد الداودي (عمدة الطالب) ـ بيروت ـ 109.

(4) فؤاد حمزة (قلب جزيرة العرب) ـ الرياض 1968ـ ص 314.

الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله كتاب يأمره فيه بالبراءة من الشيخين وبإعلان ذلك في الخطبة في الكعبة. فاستنكر أبو الفتوح هذا الأمر، وأراد أن ينتهزها فرصة للانفصال عن الفاطميين وإعلان الخلافة لنفسه.

أوعز أبو الفتوح بإعلان أمر الحاكم على المنبر في الكعبة، فأدّى ذلك إلى ضجّة وهياج لدى الحجاج وسكان الحجاز، وتجمّع الناس يريدون كسر المنبر على صاحبه. وعند هذا أعلن أبو الفتوح عصيانه على الفاطميين، وأعقب ذلك إعلانه الخلافة لنفسه باسم «الراشد بالله»، وشرع يتلقّى البيعة من أهل مكة والمدينة، ثم بايعته بعدئذٍ قبائل البدو كبني سليم وبني هلال وبني عوف وبني عامر. واستحوذ أبو الفتوح على ما في الكعبة من أموال وتحف، كما استولى على أموال بعض التجار في جدّة، وحمل سيفاً ادّعى أنه سيف ذي الفقار، كما حمل قضيباً ادّعى أنه قضيب رسول الله[1].

وتوجّه أبو الفتوح بعدئذٍ نحو الشام بقوة عظيمة مؤلفة من القبائل البدوية التي تابعته وغيرها، وصار كلما مرّ بموضع جاء إليه سكانه طائعين مبايعين - كما هي عادة الناس تجاه من تقبل الدنيا عليه.

لم يقف الحاكم بأمر الله تجاه ذلك ساكناً، بل أخذ يبذل الأموال لتفريق الناس عن أبي الفتوح، وشجع أحد الأشراف من أقرباء أبي الفتوح على احتلال مكة وإعلان الشرافة لنفسه، كما قطع الميرة عن الحجاز مما أدّى إلى تضايق الحجازيين وتذمرهم. وأدرك أبو الفتوح ضرورة المصالحة مع الحاكم. فأرسل إليه يعلن التوبة إليه، وأعاد الدعاء له في الكعبة، فعفا عنه الحاكم وأبقاه على شرافة مكّة.

ومن الجدير بالذكر أن حادثة غريبة حدثت في عهد أبي الفتوح، وذلك في عام 413 هـ، خلاصتها أن رجلاً من الحجاج المصريين اقترب من الحجر الأسود وفي يده دبوس، وضرب الحجر بالدبوس ثلاث ضربات حتى سقطت

---

(1) عبد الملك العصامي (سمط النجوم العوالي) - القاهرة - ج 4- ص 196.

منه ثلاث قطع صغيرة وقال وهو يرتعد: «إلى متى يُعبد هذا الحجر إلى متى يُقبّل؟! ولا محمد ولا علي فيمنعني من ذلك، فإني أهدم اليوم هذا البيت!». وكان الرجل طويلاً جسيماً وله أعوان قد وقفوا في باب المسجد للدفاع عنه. فتحاماه الناس وابتعدوا عنه، ولكن رجلاً من أهل اليمن اندفع نحوه فوجأه بخنجره. وعند هذا تكاثر الناس عليه فقتلوه وقطعوه إرباً وأحرقوه، ثم تتبعوا أعوانه فقتلوا بعضهم وانثال أهل مكة على الحجاج المصريين فنهبوهم، وانتشر النهب إلى غيرهم. ولما هدأت الحالة جاء سدنة الكعبة من بني شيبة فأخذوا القطع التي سقطت من الحجر الأسود وعجنوها بالمسك واللاذن والعلك، وأعادوها إلى مواضعها. ولا تزال الشقوق حولها ظاهرة[1].

الهواشم:

مات أبو الفتوح في عام 430هـ، فخلفه على الشرافة ابنه شكر، وكان قوياً مثله، وجرت بينه وبين الحسينيين في المدينة حروب انتهت بتغلبه عليهم، وأصبحت المدينة منذ ذلك الحين خاضعة لشرافة مكّة بعدما كانت مستقلّة.

مات شكر في عام 452هـ، ولم يخلف ولداً ذكراً، بل كانت له بنت واحدة. وكان ذلك سبباً للتنازع والحرب بين أسرتين من الأشراف هما: السليمانيون والهواشم. واستمرّت الحروب بينهما مدة طويلة إلى أن تمكن الهواشم من التغلّب على خصومهم، وعند هذا تولّى شرافة مكّة رئيسهم محمد وهو الذي اشتهر بكنيته «أبو هاشم».

ظلت أسرة الهواشم تحكم مكة حتى عام 598هـ، والمعروف عنها أنها كانت تتقلب في ولائها السياسي بين العباسيين والفاطميين، فكانت تدعو لهؤلاء تارة ولأولئك تارة أخرى ـ تبعاً لمن يدفع لها أكثر[2].

بدأ بهذا التقلّب أبو هاشم نفسه، فهو كان في السنوات الأولى من

---

(1) المصدر السابق ـ ج 4، ص 197ـ 198.

(2) Shorter Encyclopaedia of Islam - art. Mecca.

حكمه يدعو للفاطميين في الخطبة ويؤذن بأذانهم. ولكن السلطان السلجوقي ألب أرسلان أرسل إليه من العراق نقيب الطالبيين نور الهدى الزيني، وقد تمكّن النقيب في 458هـ من إقناع أبي هاشم بقطع الخطبة للفاطميين والدعاء للعباسيين بدلاً عنهم. وحين وصل الخبر إلى الفاطميين غضبوا عليه وقطعوا الميرة عن الحجاز نكاية به، فاضطر أبو هاشم إلى ردّ الخطبة إلى الفاطميين. وفي عام 463هـ أرسل ألب أرسلان إليه النقيب مرة أخرى وهو يحمل له خلعاً نفيسة وثلاثين ألف دينار مع تعهد بمرتب سنوي قدره عشرة آلاف دينار. وكان في صحبة النقيب عسكر ضخم. فقطع أبو هاشم الدعاء للفاطميين وأخذ يدعو للعباسيين، وقال في خطبته: «الحمد لله الذي هدانا أهل بيته إلى الرأي المصيب، وعوض بنيه لبسة الشباب بعد لبسة المشيب، وأمال قلوبنا إلى الطاعة، ومتابعة إمام الجماعة»[1].

والغريب أن أبا هاشم ظلّ محافظاً على أذان الشيعة بالرغم من دعائه للعباسيين، فأرسل إليه العباسيون الشريف أبا طالب لإقناعه بترك أذان الشيعة. وقد حاوره أبو طالب في ذلك كثيراً، فقال له أبو هاشم: «هذا أذان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب». فرد عليه أبو طالب قائلاً: «إن ذلك لم يصحّ عنه وإنما فعله ابن عمر في بعض أسفاره، فما أنت وابن عمر؟!». فاقتنع أبو هاشم بهذا وأسقط أذان الشيعة وعاد إلى أذان أهل السُنّة[2].

لم يستمر أبو هاشم على الدعاء للعباسيين طويلاً والواقع أنه كان يتحوّل بين العباسيين والفاطميين تبعاً لضغط الظروف أو إغراء النقود. واضطر العباسيون في عام 484 هـ أن يعاملوه بسياسة العنف، حيث وجّهوا إليه قوة من الأتراك، وجرى بينه وبين الأتراك قتال شديد. وكان ذلك بداية الفتن الطائفية في مكة، إذ أصبحت مواسم الحج في السنوات التالية موضع تنافس وخصام بين أتباع العباسيين والفاطميين، كل فريق منهم يريد الدعاء والأذان له في الكعبة.

---

(1) عبد الملك العصامي (المصدر السابق) ـ ج4، ص200.

(2) أحمد السباعي (المصدر السابق) ـ ص 135.

قتادة:

في عام 598هـ انتهت إمارة الهواشم على يد خصم لهم من الأشراف اسمه قتادة بن إدريس. فقد كان هذا الرجل في بداية أمره يسكن مع قومه بالقرب من ينبع في حالة شبه بدوية. وكان يطمح للحصول على شرافة مكة. وفي 27 رجب 598هـ بينما كان أهل مكّة مشغولين باحتفال لهم فاجأهم قتادة بهجوم صاعق، واستطاع بسهولة أن يستولي على مكّة وأن يطرد الهواشم منها.

أخذ قتادة يدعو للخليفة العباسي الناصر لدين الله. وفي عام 600هـ أرسل إليه الخليفة الناصر يستدعيه إلى بغداد، ووعده ومنّاه، فاستجاب قتادة له، ورحل متوجّهاً إلى العراق. وعندما وصل إلى مقربة من النجف، وكان قد خرج لاستقباله جمع غفير من الناس، شاهد بينهم درويشاً وهو يقود أسداً بسلسلة. فتشاءم قتادة من هذا المنظر وقال: «لا أدخل بلاداً تذلّ فيها الأسود». ثم عاد من فوره إلى الحجاز، وكتب إلى الخليفة الناصر خمسة أبيات ننقل منها البيتين الأول والأخير، وهما:

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة ولو أنني أعرى بها وأجوع
وما أنا إلّا المسك في غير أرضكم أضوع وأما عندكم فأضيع[1]

غضب الناصر من هذه الأبيات غضباً شديداً، وكتب إلى قتادة يهدده قائلاً: «أما بعد، فإذا نزع الشتاء جلبابه، ولبس الربيع أثوابه، قاتلناكم بجنود لا قبل لكم بها، ولنخرجنكم منها أذلّة وأنتم صاغرون». ثم أعد الناصر كتيبة من الجند وأرسلها إلى مكّة لتأديب قتادة.

استعدّ قتادة لقتال الكتيبة الناصرية، وأرسل إلى أبناء عمه الحسينيين في المدينة يستنجد بهم وكتب لهم هذه الأبيات:

بني عمنا من آل موسى وجعفر وآل حسين كيف صبركم عنا

---

(1) أحمد الداودي (المصدر السابق) ـ ص 115 ـ 116.

بني عمّنا إنّا كأفنان دوحة　　فلا تتركونا يتّخذنا الفنا فنا
إذا ما أخ خلّى أخاه لآكل　　بدا بأخيه الأكل ثم به ثنّى

وقد استجاب الحسينيون لاستنجاد قتادة، فجاؤوا بجمعهم إلى مكة، وحين وصلت الكتيبة الناصرية إليها قابلها الحسنيون والحسينيون معاً فهزموها وبددوا شملها[1].

لم يمض على هذه الحادثة سوى سنة واحدة تقريباً حتى نشبت الحرب بين الحسنيين والحسينيين، ووقع قتال شديد بينهما في موضع يقال له «ذو الحليفة»، انتصر فيه قتادة، وقال في ذلك بيتاً من الشعر هو:

مصارع آل المصطفى عدت مثلما　　بدأت ولكن صرت بين الأقارب

وقد اتّجه قتادة بعد انتصاره نحو المدينة فحاصرها وكان الحسينيون في المدينة بقيادة رجل منهم اسمه سالم بن قاسم. وقد تمكّن هذا الرجل من فك الحصار عن المدينة، ثم أخذ يطارد قتادة حتى وصل إلى مكة وحاصرها، وأرسل إلى قتادة يقول له: «حصر بحصر يا ابن عم». ولم يستطع سالم الاستمرار في الحصار لأن بعض أصحابه تفرّقوا عنه بإغراء من قتادة، فعاد إلى المدينة[2].

دام حكم قتادة نحو عشرين سنة، قضى معظمها في الحروب، وفي نهب الحجاج. وقد وصفه صاحب كتاب عمدة الطالب بقوله: «كان قتادة جباراً فاتكاً فيه قسوة وتشدّد وحزم»[3]. ووصفه شاهد عيان بقوله: «رأيته يطوف بالبيت ويدعو بتضرّع وخشوع، والريس على زمزم يدعو له، وهو كالأسد شجاعة، والقطب خشوعاً وتضرّعاً، والبدر كمالاً وبهاءً»[4].

كان قتادة يقول: «أنا أحق من الناصر العباسي بالخلافة». وهو قد أعاد

---

(1) عبد الملك العصامي (المصدر السابق) ـ ج 4، ص 209.
(2) المصدر السابق. ج 4، ص 209 ـ 210.
(3) أحمد الداودي (المصدر السابق) ـ ص 115.
(4) عبد الملك العصامي (المصدر السابق) ـ ج 4 ص 212.

إلى الأذان عبارة «حي على خير العمل». وفي عام 618 قتله ابنه حسن، وقيل قتله خنقاً، ثم تولّى الشرافة بعده. ويقول عبد الملك العصامي ـ وهو من أهل مكة ـ في التعليق على ذلك ما نصّه: «ثم زاد ظلم قتادة في الناس وأذاه للحجاج من العراقيين وغيرهم، وأظهر التعدّي حتى ضجّ الناس، وفسدت نيّته على الخليفة الناصر العباسي. فارتفعت الأيدي بالدعاء عليه، فقتله الله على يد ابنه حسن بن قتادة...»[1].

حميضة بن أبي نمي:

في عام 651هـ تولى شرافة مكة رجل يُعدّ من مشاهير الأشراف وصلحائهم هو أبو نمي الأول. وهو من سلالة قتادة، وطالت مدة شرافته نحو خمسين عاماً. ويقول عنه المقريزي: «كان يقال لولا أنه زيدي لصلح للخلافة لحسن صفاته»[2].

مات أبو نمي في عام 701هـ، وقد كان له ثلاثون ولداً ذكراً واثنتا عشرة بنتاً. فحصل تنافس عنيف بين أولاده على شرافة مكة استمر سنوات عديدة، وجرت من جرّاء ذلك خطوب وأهوال.

كان التنافس على أشدّه بين أربعة من الإخوة هم: حميضة وأبو الغيث ورميثة وعطيفة. وكانوا يستمدون العون في تنافسهم من العراق أو مصر. وفي عام 715هـ أرسل حميضة أحد عبيده إلى أخيه أبي الغيث الذي كان ينافسه على الشرافة. فذبحه على مشهد من الناس، ثم دعا إخوته الآخرين إلى وليمة، وقدم لهم رأس أخيهم القتيل مطبوخاً في جفنة، كما أقام على رأس كل واحد منهم غلامين أسودين شاهرين السيوف، بغية أخذ البيعة له منهم. فأذعنوا له قهراً[3].

(1) المصدر السابق ـ ج 4، ص 213.
(2) تقي الدين المقريزي (كتاب السلوك) ـ القاهرة 1970ـ ج 1، ق 3، ص 927.
(3) عبد الملك العصامي (المصدر السابق) ـ ج 4، ص 227 ـ 228.

هرب رميثة إلى مصر مستغيثاً بالملك الناصر بن قلاوون، وذكر له أن حميضة قطع اسمه من الخطبة في الكعبة وخطب لصاحب اليمن. فجهز الناصر رميثة بقوة كبيرة. وعاد رميثة بتلك القوة إلى مكة، وتغلّب على حميضة وأسره، ولكن حميضة تمكّن من الهرب والتجأ إلى العراق مستنجداً بالسلطان المغولي خدابندة بن أرغون بن أباقا بن هولاكو. فتلقاه خدابندة لقاءً حسناً وأكرمه، وأقام حميضة عنده مدة غير قصيرة.

ومن الجدير بالذكر أن خدابندة كان قد اعتنق مذهب التشيّع الاثني عشري منذ عهد قريب بتأثير العالم الشيعي المعروف بـ «العلامة الحلي». فتمكّن حميضة من التأثير في خدابندة عن طريق تعصّبه المذهبي الجديد، وحرّضه على أن يرسل معه جيشاً من المغول لاحتلال مكّة والخطبة له على منابرها[1]. ويقال إن حميضة زين لخدابندة أيضاً أن يذهب بالجيش إلى المدينة عقب احتلال مكة لنبش قبر الشيخين ونقل رفاتهما إلى خارج الحرم النبوي[2].

استجاب خدابندة لتحريض حميضة وجهزه بجيش كبير من المغول. وسار حميضة بهذا الجيش نحو الحجاز عن طريق الصحراء، وانضمّ إليه في الطريق كثير من القبائل، وخاصة قبيلة خفاجة برئاسة محمد بن عيسى بن مهنا. وحين وصل حميضة بجموعه إلى موضع في الصحراء بين البصرة والقطيف، بالقرب من موقع الكويت الحالية، وصلهم نبأ موت خدابندة بالهيضة. فأدّى هذا النبأ إلى تفرّق الجيش. وانتهزت القبائل الفرصة، ولا سيما قبيلة خفاجة، فانثالت على الجيش نهباً وتقتيلاً، وكان رئيس خفاجة يهتف باسم الملك الناصر سلطان مصر[3]. وقد أبدى حميضة في تلك الواقعة شجاعة نادرة حيث قاتل قتالاً لم يُسمع بمثله. وصفه أحد الذين شاهدوه في القتال فقال: «ما

---

(1) تقي الدين المقريزي (المصدر السابق) ـ القاهرة 1971 ـ ج 2، ق 1 ص 147 ـ 148.

(2) عباس العزاوي (العراق بين احتلالين) ـ بغداد 1935، ج 1 ص 441 ـ 442، 445.

(3) تقي الدين المقريزي (المصدر السابق) ـ ج 2، ق 1، ص 148.

زلت أسمع بحملات علي بن أبي طالب حتى رأيتها من السيد حميضة معاينة»[1].

كانت تلك الواقعة قد وقعت في أواخر ذي الحجّة من عام 716هـ. وقد تكبّد فيها حميضة خسائر فادحة إذ فقد معظم رجاله، كما نُهب كل ما كان لديه من حريم وأموال وخيول. ولما وصل خبر الواقعة إلى الملك الناصر في مصر سُرّ به سروراً عظيماً، وأرسل يستدعي إليه رئيس خفاجة محمد بن عيسى، ومنحه مكافأة جسيمة[2].

يقول النويري في التعليق على تلك الواقعة ما نصّه: «وكان خربندا ـ يقصد خدابندة احتقاراً له ـ قبل موته بسبعة أيام قد أمر بإشهار النداء أن لا يذكر أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وعزم على تجريد ثلاثة آلاف فارس إلى المدينة النبوية لينقل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما من مدفنهما، فعجل الله بهلاكه»[3].

استطاع حميضة أن يصل بمن نجا معه إلى مكة، ويمكن بعد جهود ومحاولات شتّى أن يستعيد الشرافة له وأن يطرد منها أخاه رميثة. وقطع الخطبة للملك الناصر، وصار يدعو للسلطان أبي سعيد بن خدابندة. فذهب رميثة إلى مصر، وجهزه الملك الناصر بقوة عاد بها إلى مكة، ولم يكد حميضة يسمع بمجيء أخيه رميثة حتى فرّ من مكّة، والتجأ إلى اليمن، ثم عاد منها بجيش لاستعادة مكة، ولكن القدر لم يمهله إذ وثب عليه أحد غلمانه فقتله وهو نائم[4]، وكان ذلك في عام 720هـ، فاستراح وأراح!

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن حميضة عندما كان في العراق

---

(1) أحمد الداودي (المصدر السابق) ـ ص 118.

(2) تقي الدين المقريزي (المصدر السابق) ـ ج 2، ق 1، ص 148.

(3) نقلاً عن عباس العزاوي (المصدر السابق) ـ ج 1، ص 445.

(4) عبد الملك العصامي(المصدر السابق) ـ ج 4، ص 230ـ 231.

تزوج من امرأة عراقية فأنجبت له ولداً اسمه «محمد». وقد بقي هذا الولد في العراق لدى أخواله، وصارت له ذرية كبيرة، واشتهر من نسله عطيفة الذي توفي في عام 934هـ الموافق لعام 1528م. فقد نال هذا الرجل حظوة كبيرة لدى الشاه إسماعيل الصفوي عند فتحه بغداد في عام 914هـ، حيث أقطعه الشاه الأراضي المعروفة باسمه على شاطىء دجلة الأيمن بين بغداد والكاظمية، كما عيّنه أميراً للحجّ ونقيباً للروضة الكاظمية وسادتها. وينتمي إلى عطيفة هذا كثير من الأسر المعروفة في العراق الآن، كآل الحبوبي وآل زيني في النجف، وآلبو نيسان في سامراء، وآل الحسني وآل حمندي وآل العطار وآل الراضي وآل الهادي في بغداد، وآل عطيفة وآل سركشيك وآل الحيدري في الكاظمية. وينتمي إلى عطيفة أيضاً كثير من خدّام الروضة الكاظمية.

أبو نمي الثاني:

في عام 931هـ تولّى شرافة مكة رجل يدعى «أبو نمي» ويُلقّب بـ «الثاني» تمييزاً له عن أبي نمي الأول. وقد نال هذا الرجل حظوة كبيرة لدى السلطان العثماني سليمان القانوني إذ أرسل إليه في اسطنبول ابنه أحمد وهو يحمل كثيراً من هدايا جزيرة العرب كالخيول والصقور والأقمشة والأطياب. وكان أحمد جميل الوجه، وحين دخل على السلطان وهو لابس الملابس الخاصة بالأشراف الحسنية قام السلطان له تعظيماً، وهو أمر لم يقع لأحد سواه، وخلع عليه الخلع الكثيرة. وكذلك فعلت زوجة السلطان وأعلنت للناس أنها تعتبر الشريف أحمد في مقام ولدها[1].

قال أبو نمي الثاني على أثر ذلك غاية المجد والنفوذ، ودانت له الدنيا في الحجاز، ومدحه الشعراء بقصائد «عصماء». وقد دامت شرافة أبي نمي مدة تزيد على الستين عاماً، إذ هو مات في عام 992هـ، ولعله كان أطول الأشراف حكماً.

---

(1) المصدر السابق ـ ج 4، ص 326.

يُعتبر أبو نمي الثاني المؤسس الحقيقي للشرافة، وهو جد الأسرة التي ظلّت محتفظة بالشرافة إلى أن قضى عليها ابن سعود في عام 1925. والمعروف عن أبي نمي أنه كان شديد الاعتزاز بالنسب وقد اعتاد في حياته على التمييز بين الناس حسب أنسابهم وبيوتاتهم، مستنداً في ذلك على حديث للنبي هو: «أُمرت أن أنزل الناس منازلهم». وكان رأيه أن العرق دساس فمن كان رفيع النسب كان رفيع الخلق أيضاً، أما الصعاليك من الناس فهم في نظر أبي نمي لئام وإذا نالوا المنازل العالية في المجتمع فربما حصل من ذلك الضرر[1].

يبدو أن الدولة العثمانية كانت تؤيد أبا نمي في هذا الرأي، وهو في الواقع رأي كان شائعاً بين الناس يؤمن به الكثيرون ـ وما زال البعض منهم مؤمناً به حتى يومنا هذا. وقد حدا هذا الرأي بأبي نمي إلى وضع قواعد عرفت باسم «قانون أبي نمي» قصد بها تمييز الأشراف عن غيرهم رسمياً. ومن الجدير بالذكر أن هذه القواعد ظلّت مكتومة عن الناس لا يعرفها سوى عدد محدود من الأشراف، وهم يتداولونها بينهم ولا يسمحون لأحد غيرهم بالاطلاع عليها. ويدّعي صاحب كتاب «تاريخ الحجاز» أنه اطّلع على بعض تلك القواعد وقد ذكرها في كتابه على النحو التالي:

(1) الشرافة وراثية في الأسرة الهاشمية.

(2) لا يجوز لأي شريف أن يشتغل في أية مهنة أو صنعة ما عدا القراشة ـ أي الحطب والفحم ـ والجمال والزرع.

(3) إذا قُتل الشريف أُخذ من أهل القاتل أو قريته أربعة حيث يُقتلون قصاصاً له.

(4) صافع الشريف تُقطع يده.

---

(1) المصدر السابق ـ ج 4 ص 334 ـ 335.

(5) شاتم الشريف يُقطع لسانه.

(6) الشريف لا يُحاكم في مجلس خصمه.

(7) إذا همّ الشريف بقتل شريف أو رفع عليه السلاح يُنفى من البلاد.

(8) لا يُقتل الشريف إذا قتل غير الشريف.

(9) للشريف الحاكم ثلث دية القتيل[1].

يبدو أن هذا القانون لم ينفذ حرفياً لما فيه من شدّة بالغة ومخالفة للشرع، ولكنه على أي حال قد ساعد على صيانة مكانة الأشراف وجعلهم نوعاً من الطبقة المغلقة في الحجاز.

الطائفية في الحجاز:

إن النزاع الصفوي العثماني الذي حدث في العراق منذ القرن العاشر الهجري كان له أثره في الحجاز. ففي موسم الحج من عام 1042هـ ورد إلى مكة أمر من السلطان العثماني في اسطنبول بمنع العجم من الحج والزيارة، وقد نودي بهذا الأمر في أسواق مكة لتبليغ العجم بذلك وهم يبلغونه إخوانهم إذا عادوا إلى بلادهم[2].

كان يتولّى شرافة مكة في ذلك الحين رجل اسمه زيد بن محسن، وقد أعلن هذا الرجل تحوّله من المذهب الزيدي إلى المذهب الحنفي - وهو المذهب الذي كانت الدولة العثمانية تعتنقه. يقول صاحب كتاب «تاريخ مكة» عن هذا الرجل ما نصّه: «كان يعتقد اعتقاد أهل بيته من الزيدية، ثم باينهم ورجع إلى معتقد أهل السُنّة، وتمذهب بمذهب الإمام أبي حنيفة. وكفّ أهل بيته عن كثير مما كانوا ينالون من أهل السُنّة ومنعهم من إظهار معتقداتهم»[3].

---

(1) حسين محمد نصيف (تاريخ الحجاز) - القاهرة 1349هـ - ج 1 ص 17 - 18.

(2) أحمد السباعي (المصدر السابق) - ص 257.

(3) المصدر السابق - ص 258.

وانتشرت بين سكان مكة في ذلك الحين إشاعة مفادها أن الشيعة لا يتمّ حجهم في مذهبهم إلا إذا لوثوا الكعبة بالنجاسة. وقد صدق الكثير من الناس بهذه الإشاعة كما هي عادة الناس عند استفحال التعصّب الطائفي لديهم. وفي 8 شوال 1088هـ ـ وهو يوافق 4 كانون الأول 1677م ـ وقعت فتنة طائفية في مكة من جرّاء تلك الإشاعة. ننقل فيما يلي وصفاً لتلك الحادثة كما رواها رجل من أهل مكة شاهدها بنفسه، حيث قال ما نصّه:

«وفي سنة ثمان وثمانين وألف يوم الخميس ثامن شوال منها وقع حادث غريب، وكارثة عجيبة، هو أنه وقع في ليلته أن لُوّث الحجر الأسود وباب الكعبة ومصلّى الجمعة وأستار البيت الشريف بشيء يشبه العذرة في النتن والخبث، فصار كل من يريد تقبيل الحجر يتلوّث وجهه ويداه، ففزعت الناس من ذلك، وضجّت الأتراك واجتمعت، وغُسل الحجر والباب والأستار بالماء، وبقي الأتراك والحجّاج والمجاورون في أمر عظيم. وكان إذ ذاك رجل من فضلاء الأروام يلقّب درس عام، فكان يرى جماعة من الأرفاض بالمسجد الحرام، وينظر صلاتهم وسجودهم وحركاتهم عند البيت والمقام، فيتحرق لذلك ويتأوّه. فلما وقع هذا الواقع قال: ليس هذا إلّا فعل هؤلاء الأرفاض اللئام، الذين يلازمون المسجد الحرام. وكان حينئذٍ مع قضاء الملك العلام، السيد محمد مؤمن الرضوي قاعداً خلف المقام، يتلو كتاب الله ذي الجلال والإكرام، فأتوا إليه، وأخذت الختمة من يديه، وضُرب على رأسه، وسُحب حتى أُخرج من باب المسجد المعروف بباب الزيادة، فطُرح خارج الباب، وضُرب بالحجارة والكسارات حتى زهق ومات. وفي حال مسكهم إياه من المسجد كلمهم فيه شخص شريف من السادة الرفاعية يُسمّى السيد شمس الدين، فعدّوا عليه وألحقوه به، فضُرب حتى مات وجُرّ. ثم أصابوا آخر فضربوه وأخرجوه وقتلوه، وعلى من قبله طرحوه. ثم فعلوا ذلك برابع، ثم بخامس. ولقد رأيتهم مطروحين، وبقي بعضهم على بعض، الآتي والذاهب بوسعهم السبّ والركل. ولقد رأيت ذلك الشيء وتأمّلته فإذا هو ليس من القاذورات، وإنما هو من أنواع الخضروات، عجين بعدس ممخخ وأدهان

معفنات، فصار ريحه ريح النجاسات. وكان هذا الفعل عند مغيب القمر من تلك الليلة ليلة الخميس ثامن الشهر المذكور، ولم يُعلم الفاعل لذلك. وغلب على بعض الظنون أن ذلك جُعل عمداً وسيلة إلى قتل أولئك. والله أعلم بالسرائر، وهو متولّي الباطن والظاهر»[1]

ومما يلفت النظر أن حادثة أخرى تشبه هذه الحادثة وقعت في عام 1143هـ، خلاصتها أن قافلة من حجّاج الشيعة وصلت إلى مكة متأخرة عن موسم الحج، فأقام الشيعة في مكة بغية أداء الحج في الموسم القادم. وعند هذا انطلقت في مكة إشاعة بين العامة مفادها أن الشيعة وضعوا نجاسة في الكعبة وثار الجمهور، كما ثار العسكر معهم، وذهبوا جميعاً إلى القاضي، ولكن القاضي هرب منهم خوفاً من فتنتهم. فتوجّهوا إلى المفتي وأخرجوه من بيته كما أخرجوا معه عدداً من الفقهاء، وذهبوا بهم إلى وزير الشريف وتمكّنوا أن ينتزعوا من الوزير أمراً بإبعاد الشيعة عن مكة، ثم خرجوا إلى الأسواق ينادون بطرد الشيعة من مكة ونهب بيوتهم.

كان شريف مكة يومذاك اسمه محمد بن عبد الله، ولم يكن راضياً عمّا وقع. فذهب الجمهور في اليوم التالي إلى القاضي يطلبون منه التوسّط لدى الشريف للتصديق على قرار الوزير بطرد الشيعة. فامتنع الشريف عن تصديق القرار أول الأمر، ثم اضطر أخيراً إلى مجاراة الجمهور درءاً للفتنة العامة. فخرج الشيعة من مكة، حيث ذهب بعضهم إلى الطائف، والبعض الآخر إلى جدة. وعندما هدأت الفتنة تمكّن الشريف من القبض على دعاتها، ثم أرسل إلى الشيعة يطلب منهم العودة إلى مكة فعادوا[2].

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن تهمة تلويث الكعبة بالنجاسة أُثيرت مرة أخرى حديثاً في عام 1942 حيث اتهم بها رجل إيراني اسمه «سيد

---

(1) عبد الملك العصامي (المصدر السابق) ـ ج 4، ص 529.

(2) أحمد السباعي (المصدر السابق) ـ ص 296.

أبو طالب اليزدي»، وقد صدر الحكم عليه بالإعدام، ونفذ الحكم فيه على مشهد من الناس بين الصفا والمروة. وأحدث إعدامه ضجة كبرى في إيران، وقيل إن الملك عبد العزيز بن سعود دفع تعويضاً لعائلة الرجل قدره مائة ألف ريال.

من ذيول مؤتمر النجف:

في عام 1156هـ ـ الموافق لعام 1743م ـ عقد نادر شاه مؤتمره المشهور في النجف بغية التوحيد بين الشيعة وأهل السُنّة، وكان قد أحضر إليه عدداً كبيراً من علماء الفريقين، من إيران وأفغانستان وتركستان، كما حضره من بغداد الشيخ عبد الله السويدي الذي كان كبير علماء السُنّة في العراق، وحضره من كربلاء السيد نصر الله الحائري الذي كان كبير علماء الشيعة فيه. وبعد مناقشات طويلة بين الفريقين تمّ الاتفاق بينهما على شروط كان أهمها اثنان: أولهما أن يترك الشيعة سب الصحابة، والثاني أن يعترف السنيون بالتشيّع مذهباً خامساً يسمى بـ «المذهب الجعفري» نسبة إلى الإمام جعفر الصادق. وكان من جملة الشروط أيضاً أن يُسمح للشيعة بالصلاة والخطبة في الركن الشامي من الكعبة عند موسم الحج، وذلك بعد فراغ الإمام المختصّ به من صلاته[1].

وبعد انتهاء المؤتمر أرسل نادر شاه السيد نصر الله الحائري إلى مكة لكي يقوم بالصلاة في الركن الشامي حسب قرار المؤتمر، وأرسل معه نسخة من محضر المؤتمر، كما أرسل كُتباً إلى شريف مكة مسعود بن سعيد، وإلى قاضيها ومفتيها، يخبرهم بأنه مرسل إليهم إمام المذهب الجعفري لتنفيذ قرارات المؤتمر.

حين وصل الحائري إلى مكّة استقبله الشريف مسعود باللطف والترحاب، وسمح له بالصلاة والخطبة في الركن الشامي. ولكن العامة لم

---

(1) انظر تفاصيل المؤتمر وقراراته في الجزء الأول من هذا الكتاب ـ الفصل الخامس.

يهن عليهم ذلك، فهاجوا وماجوا، علماً بأن قصة تلويث الكعبة الثانية لم يكن قد مرّ عليها سوى ثلاثة عشر عاماً. وتدلّ بعض القرائن على أن الشيخ عبد الله السويدي الذي جاء إلى الحج في تلك السنة كانت له يد في إثارة العامة.

أرسل الوزير التركي في جدّة إلى الشريف مسعود يطلب منه تسليم الحائري إليه ليقتله. فامتنع الشريف عن تسليمه وقال: «إن سأحافظ عليه إلى أن أكتب إلى دار الخلافة وأتلقّى جوابها فيما تأمر»[1]. فلم يرض الوزير التركي عن هذا الجواب، واتهم الشريف بالميل إلى المذهب الجعفري.

أسرع الشريف فكتب إلى السلطان في اسطنبول يخبره بالأمر، ويطلب منه الرأي. فوصله الجواب من السلطان خلال مدة قصيرة يأمره بإلقاء القبض على الحائري وتسليمه إلى أمير الحج الشامي أسعد باشا العظم. ففعل الشريف ما أمره السلطان به. وحُمل الحائري مخفوراً مع أسعد باشا إلى الشام، وسُجن هناك في قلعة دمشق. وبعد مدة يسيرة طُلب الحائري إلى اسطنبول فحمل مخفوراً إليها. ويُروى أنه مات مسموماً، غير أن جنازته شيّعت تشييعاً رسمياً ودُفن في قبر لائق به، وما زال قبره قائماً[2].

يبدو أن الشريف مسعود شعر بحراجة مركزه عقب هذه الحادثة، وربما بلغه ما أشيع عنه من الميل إلى المذهب الجعفري، فأمر بلعن الرافضة على المنابر[3] درءاً للتهمة عنه.

الحرب مع الوهابيين:

في أواسط القرن الثامن عشر الميلادي بدأت الدعوة الوهّابية بالظهور في نجد. وبعد سنوات قليلة من ظهورها أرسل الوهّابيون ثلاثين من علمائهم إلى مكة لمناظرة علمائها. يقول دحلان صاحب كتاب «خلاصة الكلام في

---

(1) أحمد السباعي (المصدر السابق) ـ ص 300.
(2) علي الوردي (لمحات اجتماعية) ـ بغداد 1969 ـ ج 1، ص 141.
(3) أحمد السباعي (المصدر السابق) ـ ص 300.

أمراء البلد الحرام»؛ إن الشريف مسعود أمر علماء الحرمين أن يناظروا علماء الوهّابية، فناظروهم، فوجدوا عقائدهم فاسدة، وكتب قاضي الشرع حجّة بكفرهم وحبسهم. فسجن الشريف مسعود بعضهم وفر الباقون[1].

أمر الشريف مسعود بمنع الوهّابيين من الحج، وظلّ المنع سارياً في عهد خلفائه. وفي عام 1788م تولى شرافة مكّة غالب بن مساعد، وكان داهية جباراً. وكانت الدعوة الوهّابية قد تنامت في زمانه وانضمّت إليها قبائل كثيرة. فصمم الشريف غالب على محاربتها والقضاء عليها.

وجه غالب حملات عديدة إلى نجد لم ينجح فيها، واضطر في عام 1798م إلى عقد الصلح مع الوهّابيين وسمح لهم بالحج. وقد انتهز الوهابيون فرصة توقف القتال مع غالب، فصاروا يوجهون غاراتهم على العراق. وفي عام 1802م قاموا بفعلتهم المشهورة في كربلاء حيث اقتحموها بغتة وقتلوا كثيراً من سكانها ونهبوها كما نهبوا خزانة المرقد الحسيني ـ على نحو ما ذكرناه بتفصيل في الجزء الأول من هذا الكتاب.

انتقض الصلح بين الوهابيين والشريف غالب في عام 1802، وقد التحق بالوهابيين عثمان المضائفي وكان وزير الشريف غالب وزوج أخته، فتقوى الوهابيون به. وعاد المضائفي على رأس جيش كبير من القبائل الوهّابية، فحاصر الطائف وفتحها. وقام الوهّابيون في الطائف بمذبحة فظيعة، ونهبوها نهباً، على عادتهم في كل بلدة يفتحونها، إذ هم يعتبرون سكّانها مشركين يجوز سفك دمائهم ونهب أموالهم.

كان الأمير سعود بن عبد العزيز عند فتح الطائف متوجهاً نحو غزو العراق، فلما وصل إليه خبر فتح الطائف على يد قوات عثمان المضائفي سرّ به سروراً عظيماً وترك غزو العراق وتوجّه نحو الحجاز. وقد تمكّن الأمير

---

(1) محسن الأمين (كشف الارتياب) ـ ط 3 ـ ص 7.

سعود من فتح مكة بلا قتال، ذلك لأن الشريف كان قد انسحب منها قبيل ذلك وذهب إلى جدّة فتحصّن فيها.

في 8 محرم عام 1218هـ ـ وهو يوافق 30 نيسان 1803م ـ دخل الأمير سعود مكة محرماً، فطاف وسعى ونحر نحو مائة بعير. وفي اليوم التالي نادى مناديه يأمر الناس بالاجتماع ضحى الغد. وعندما تمّ اجتماع الناس في الوقت المحدد صعد الأمير سعود على درج الصفا، وكان المفتي عن يمينه والقاضي عن يساره، وخطب تقليداً للنبي عند فتحه مكة، حيث قال ما نصّه:

«الله أكبر، الله أكبر، لا إلٰه إلّا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأنجز وعده، وأعزّ جنده، لا إلٰه إلّا الله، ولا نعبد إلّا إياه، مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون، الحمد الذي صدقنا وعده. يا أهل مكة أنتم جيران بيته آمنون بأمنه وسكنى حرمه، وأنتم في خير بقعة. اعلموا أن مكة حرام ما فيها، لا يُختلى خلاها، ولا ينفر صيدها، ولا يعضد شجرها، وإنما أحلّت ساعة من نهار. إنّا كنا أضعف العرب، ولما أراد الله ظهور هذا الدين دعونا إليه وكل يهزأ بنا ويقاتلنا عليه وينهب مواشينا ونشتريها منه. ولم نزل ندعو الناس للإسلام وجميع من تراه عيونكم ومن تسمعون به من القبائل إنما أسلموا بهذا السيف ـ ورفع سيفه تجاه الكعبة ـ وقد كنتُ في هذا العام غازياً نحو العراق فلما سمعت ما وقع من المسلمين بغزوة الطائف، وأقبلوا عليكم يغزونكم، خفت عليكم من العربان والبادية. فاحمدوا الله الذي هداكم للإسلام وأنقذكم من الشرك، وأنا أدعوكم أن تعبدوا الله وحده وتقلعوا عن الشرك الذي كنتم عليه، وأطلب منكم أن تبايعوني على دين الله ورسوله، وتوالون من والاه، وتعادون من عاداه، في السراء والضراء، والسمع والطاعة.

وبعد أن انتهى الأمير سعود من خطبته جلس، وتهافت الناس عليه يبايعونه وكان في مقدمتهم المفتي والقاضي والشريف عبد المعين أخو الشريف غالب. ثم أمر الأمير سعود أهل مكة بهدم جميع القبب والقبور التي فيها حتى لا يكون هناك معبود غير الله.

وفي الصباح التالي بادر الوهّابيون ومعهم الكثيرون من أهل مكة، ومعهم المساحي، فهدموا القبب القائمة في المصلى، ثم هدموا قبة مولد النبي ومولد أبي بكر ومولد علي بن أبي طالب وقبة السيدة خديجة، وظلوا كذلك حتى لم يبق في مكة أثر من قبة. وكانوا في أثناء الهدم يرتجزون ويضربون الطبول ويشتمون القبور ويقولون: «ما هي إلا أسماء سميتموها». ويقال إن أحدهم بال على قبر السيد المحجوب[1].

وأمر الأمير سعود بإحراق النارجيلات وآلات اللهو، ومنع من تدخين التتن والتنباك، كما منع الاستغاثة بالمخلوقين وبناء القبب على القبور وتقبيل الأعتاب. وكذلك منع كل عبارة تضاف إلى الأذان كالصلاة على النبي، أو قول المؤذن «يا أرحم الراحمين»، أو الترضي عن الصحابة، فقد اعتبرها من قبيل الشرك. ثم أمر بتدريس كتاب محمد بن عبد الوهاب المسمى بـ «كشف الشبهات» في المسجد في حلقة عامة يحضرها العلماء والأهالي، ففعلوا ذلك.

وبعد أن مكث الأمير سعود في مكة نحو أربعة وعشرين يوماً توجّه بجيوشه نحو جدّة بغية فتحها. وكان الشريف غالب قد تحصن وراء أسوار جدة مستعداً لقتاله. فدام القتال بين الفريقين ثمانية أيام دون أن يفلح سعود في فتح جدة. وقد اضطر سعود إلى العودة إلى نجد على أثر خبر مقلق وصله منه. وتمكّن الشريف غالب من العودة إلى مكة.

ظلّت الحروب متّصلة بين الشريف غالب والوهّابيين. واستطاع الوهابيون في عام 1804 أن يشددوا الحصار على مكة وقطع المؤن عنها فاستفحلت المجاعة فيها واستمرت حتى السنة التالية، واضطر بعض الناس إلى أكل الجلود والنوى وبزر الخشخاش، والهررة والكلاب[2] وكل حيوان،

---

(1) المصدر السابق ـ ص 21 ـ 23.

(2) أحمد السباعي (المصدر السابق) ـ ص 351.

وشربوا الدم، وأكلوا نباتاً يسمى «الأخريط» كان يسبب فيهم ورماً، وشوهد الأطفال موتى في الأزقّة[1].

اضطر الشريف غالب في شباط 1806 إلى عقد الصلح مع الوهابيين، وتمّ الصلح بينهما على أن يكون الحجاز خاضعاً للوهابيين وأن يبقى الشريف غالب على إمارته تابعاً لهم.

وحين حلّ موسم الحج في السنة التالية قال الأمير سعود لأميري الحجّ الشامي والمصري: «ما هذه العويدات التي تأتون بها وتعظمونها!؟» مشيراً إلى المحامل، فأجاباه بأن هذه المحامل إشارة لاجتماع الناس وهي عادة قديمة. فقال لهم: «لا تفعلوا ذلك بعد هذا العام، وإن أتيتم بها فإني أكسرها». وكذلك اشترط عليهما أن لا يأتيا بطبول وزمور.

وفي موسم الحج التالي حين وصل أمير الحج الشامي إلى مقربة من المدينة أرسل إليه الأمير سعود يقول: «لا تدخل الحجاز إلّا على الشرط الذي شرطناه عليك في العام الماضي». فعاد أمير الحج مع من كان معه من الحجاج إلى بلادهم. ويُروى أن سعود أمر بإحراق المحمل المصري في تلك السنة. كما أمر مناديه بأن ينادي في الناس: «لا يأتي الحرمين بعد هذا العام من يكون حليق الذقن». ومنذ ذلك الحين انقطع المصريون والشاميون عن الحج[2]، كما انقطع العراقيون[3].

وأمر سعود بهدم جميع القبب التي كانت في البقيع وفي المدينة، ما عدا قبة المسجد النبوي، كما استحوذ على جميع التحف والجواهر المخزونة في الحجرة النبوية كان من بينها أربع شمعدانات من الزمرد في كل واحد منها قطعة من الماس تضيء بدلاً من الشمعة[4].

---

(1) محسن الأمين (المصدر السابق) ـ ص 32.

(2) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ـ القاهرة 1967، ص 226.

(3) محسن الأمين(المصدر السابق) ـ ص 35.

(4) المصدر السابق ـ ص 35.

الحملة المصرية:

أوعز السلطان العثماني محمود الثاني إلى محمد علي باشا والي مصر بإرسال الجيوش إلى الحجاز لطرد الوهابيين منه. فجهز محمد علي حملة قوية بقيادة ابنه الأكبر طوسون باشا، وفي عام 1811 عبرت الحملة البحر الأحمر بالسفن إلى ينبع فاحتلّت البلدة بعد قتال شديد، ونهب الجنود البلدة كما سبوا نساءها على رواية الجبرتي[1]. ولكن الحملة حين تقدمت نحو المدينة ووصلت إلى مقربة من بدر باغتها الوهّابيون وهزموها شرّ هزيمة، مما اضطرها إلى الانسحاب إلى ينبع.

جهّز محمد علي باشا حملة أخرى، واستطاعت هذه الحملة أن تستميل إليها القبائل بما أغدقت عليها من الأموال الطائلة. وتمكّنت أخيراً من فتح المدينة وجدة ومكة. وقد أيّدها الشريف غالب وتعاون معها. وتوجّه الشريف على رأس قوة كبيرة نحو الطائف وفتحها. وقد وقع عثمان المضائفي في أسره، فأمر الشريف بوضع سلسلة من الحديد في عنقه وإرساله إلى مصر.

حين وصل إلى محمد علي باشا خبر الانتصارات التي نالتها جيوشه في الحجاز جاء بنفسه إليه وعند وصوله إلى جدّة حضر الشريف غالب لمقابلته فيها، ثم جاء إليه أيضاً وفد من الأمير سعود يطلب الصلح كما يطلب الإفراج عن عثمان المضائفي، وقدم فدية عنه قدرها مائة ألف ريال فرنسي، فقال محمد علي للوفد: «أما المضائفي فأُرسل إلى إسلامبول، وأما الصلح فلا نأباه بشرط دفع كل ما صرفناه على العساكر من ابتداء الحرب إلى اليوم وإرجاع ما أخذه من ذخائر الحجرة النبوية...». فعاد الوفد خائباً، كما أن المضائفي أُرسل إلى اسطنبول فطيف به في أسواقها مع زميل له اسمه ابن مضيان، ثم قُتلا[2].

---

(1) نقلاً عن المصدر السابق ـ ص 37.

(2) المصدر السابق ـ ص 41.

غادر محمد علي باشا جدة متوجهاً إلى مكة، وعند وصوله إليها احتفى به الشريف غالب احتفاءً عظيماً وبالغ في ضيافته. وكان محمد علي من جانبه يبالغ في احترام الشريف ويقبل يده أمام الناس. وقد تعاهد الرجلان في جوف الكعبة على الوفاء وعدم الخيانة.

كان السلطان العثماني غاضباً على الشريف غالب لما سبق له من صلح مع الوهابيين، فكتب إلى محمد علي يأمره باعتقال الشريف وإرساله إلى اسطنبول. وقد شعر محمد علي بالحيرة لتنفيذ هذا الأمر السلطاني بعد ما تعاهد مع الشريف في جوف الكعبة على الوفاء وعدم الخيانة. وقد وجد محمد علي أخيراً حيلة شرعية تمكّنه من تنفيذ الأمر حيث كلّف ابنه طوسون باشا به، ولم يقم هو به بنفسه تخلّصاً من نكث العهد بزعمه. وقد قام طوسون باشا بالأمر، فأمر باعتقال الشريف غالب بعد تقبيل يده.

أرسل الشريف غالب إلى مصر مع ولديه عبد الله وحسين وأربعة من عبيده. ثم صودرت أمواله وأملاكه واستولى على جميع ما في داره، وأخرج حرمه وجواريه من الدار بعد تفتيشهن تفتيشاً فاحشاً. ولكنه عند وصوله مصر استقبل باحتفاء كبير وأطلقت له المدافع، وسُمح لحريمه بالالتحاق به. ثم أُرسل بعد ذلك إلى سالونيك مع حريمه وولديه وعبيده. وأمر السلطان بإعادة كل ما صودر منه، ومنحه المرتبات الكافية له. وقضى الشريف غالب بقية عمره في سالونيك، وقد توفي بمرض الطاعون في عام 1816[1].

ظلت الحروب مستمرة بين الحملة المصرية والوهابيين. وقد اضطر محمد علي باشا إلى العودة إلى مصر في عام 1815 تاركاً قيادة الحملة إلى ابنه طوسون. وفي أواخر 1816 مات طوسون من جرّاء حمى أصابته، فعين محمد علي ابنه الثاني إبراهيم باشا قائداً للحملة. وقد استطاع إبراهيم أن يغلب الوهّابيين وأن يطاردهم حتى وصل في عام 1818 إلى عاصمتهم

---

(1) عبد الله فيلبي (تاريخ نجد) ـ ترجمة عمر الديراوي ـ بيروت ـ ص 139.

الدرعية. وبعد أن حاصر الدرعية طيلة ستة أشهر استسلمت له. فقتل إبراهيم علماءها ثم أرسل عبد الله بن سعود، الذي كان قد خلف أباه في إمارة الوهّابيين، إلى اسطنبول حيث نُفذ فيه حكم الإعدام بأمر من السلطان. وفي حزيران 1819 وصل إلى إبراهيم باشا أمر من أبيه محمد علي بتدمير الدرعية تدميراً تاماً، فقام إبراهيم بما أُمر به، وأصبحت الدرعية مجموعة من الأطلال[1].

بين عون وزيد:

دام الحكم المصري في الحجاز نحو ثلاثين سنة إذ لم ينسحب الجيش المصري من الحجاز إلا في عام 1840م. وكانت تلك الفترة ذات أثر كبير في منصب الشرافة، فقد كان شريف مكة قبل ذلك يحكم الحجاز حكماً مطلقاً وتكاد سيادة الدولة العثمانية عليه تكون اسمية[2]. أما بعد ذلك فقد أصبح الشريف يشاركه في الحكم والي تركي ومعه قوات نظامية تخضع لأمره. وقد بدأ منذ ذلك الحين صراع بين الوالي والشريف يشتدّ تارة ويخفّ تارة أخرى. فالوالي يريد أن يفرض سيادة الدولة في الحجاز، بينما الشريف يريد أن يستعيد مجد أجداده في الحكم المطلق.

ومن الممكن القول إن الصراع بين الأشراف أنفسهم قد دخل فيه من جرّاء ذلك عامل جديد لم يكن موجوداً من قبل، هو نفوذ الدولة وأمر السلطان. فبعد ما كان الصراع بين الأسر المتنافسة محصوراً في داخل الحجاز ويعتمد على القوة وحدها، أصبح الآن يدور بالإضافة إلى ذلك في أروقة أسطنبول حيث تحاول كل أسرة نيل الحظوة لدى السلطان وتشويه سمعة غريمتها لديه.

شهدت فترة الحكم المصري في الحجاز بداية الصراع المشهور بين

---

(1) المصدر السابق ـ ص 161.

(2) سليمان موسى (الحركة العربية) ـ بيروت 1970ـ ص 44.

أسرتين من الأشراف هما: أسرة ذوي زيد وأسرة ذوي عون. وهو الصراع الذي استمرّ حتى عهد ما بعد الحرب العالمية الأولى وكان له أثر في تاريخ الأشراف القريب.

كان عبد المطلب بن غالب هو زعيم ذوي زيد، وقد تولّى الشرافة في عام 1827، ولكن عهده لم يدم طويلاً إذ كان ينافسه على الشرافة محمد بن عبد المعين زعيم ذوي عون. ويدّعي ذوو زيد أن محمد بن عبد المعين لم يكن شريفاً بل هو مجهول النسب كان يعمل خادماً عند الشريفة حزيمة أخت عبد المطلب ولكن محمد علي باشا أراد أن يجعل منه نداً لعبد المطلب نكاية به ولكي يشقّ الأشراف ويضعفهم.

وفي أوائل عام 1828م حدثت معركة شديدة في الطائف بين قوات عبد المطلب وقوات محمد بن عبد المعين، وقد ساعدت القوات المصرية محمداً، فانتصر على خصمه. فطلب عبد المطلب منه الأمان، وغادر الحجاز ذاهباً إلى اسطنبول. وقد احتفى به السلطان محمود عند وصوله وأكرمه وأبقاه عنده في اسطنبول.

استمرّت شرافة محمد حتى عام 1851 عندما صدر أمر السلطان بعزله لسبب غير معروف، وقد عيّنت الدولة عبد المطلب في الشرافة مكانه. وقد ذهب محمد إلى اسطنبول فعاش هو وأولاده في كنف السلطان مكرماً على نحو ما عاش خصمه عبد المطلب من قبل.

لم تدم شرافة عبد المطلب في هذه المرة سوى أربع سنوات تقريباً، ففي عام 1854 حدث حادث أدّى إلى عزله. وخلاصة الحادث أن الوالي التركي كامل باشا قد وصله أمر من السلطان بمنع بيع الرقيق علناً في الأسواق تنفيذاً لمعاهدة عُقدت بين الدولة العثمانية وبريطانيا. وقد استدعى كامل باشا دلالي الرقيق وأبلغهم الأمر، ولم يكد ينتشر الخبر في مكّة حتى هاج الناس وتنادوا بالجهاد، واجتمع طلبة العلم في بيت رئيس العلماء وطلبوا منه أن لا يرضخ لهذا الأمر الذي هو مخالف للشرع في نظرهم، كما طلبوا منه أن يذهب معهم إلى دار القاضي ليمنع من صدور الأمر. فاستجاب رئيس العلماء لطلبهم وسار

معهم متّجهاً إلى دار القاضي، وانضمّ الجمهور إليهم في الطريق وهم ينادون بالثورة، واشتبكوا مع الحامية التركية في قتال عنيف امتدّ إلى المسجد الحرام، وسقط فيه عدّة قتلى من الفريقين.

كان الشريف عبد المطلب يومذاك في الطائف، ولمّا علم بالأمر قرر أن يقف إلى جانب الأهالي ضد الحامية التركية، وجمع أتباعه وتوجّه بهم نحو مكة. وأسرعت الحامية التركية بالانسحاب إلى جدّة، فتحصّنت فيها. وأعلن الوالي أن أمر السلطان قد وصله بعزل عبد المطلب من الشرافة وإعادة محمد بن عبد المعين إليها.

وفي 26 نيسان 1855 وصلت باخرة إلى جدّة وهي تحمل محمد بن عبد المعين، فأقيمت الزينات في جدّة احتفاءً بمقدمه. وسار محمد على رأس قوات كبيرة نحو الطائف التي كان عبد المطّلب متحصناً فيها. ثم هاجم الطائف هجوماً شديداً واقتحمها وأسر عبد المطّلب، وأرسله مخفوراً إلى اسطنبول، فعفا عنه السلطان وأقامه في أحد القصور مكرماً[1].

في 29 آذار 1858 مات محمد بن عبد المعين على أثر مرض لم يمهله إلّا أياماً، فتولّى الشرافة من بعده ابنه عبد الله. وظل عبد الله في منصب الشرافة إلى أن حلّ عهد الدستور الأول في الدولة العثمانية على يد مدحت باشا في عام 1877، فعُزل عبد الله وعُيّن مكانه أخوه الحسين بن محمد الذي كان من المؤيدين لمدحت باشا والدستور.

دامت شرافة الحسين بن محمد سنتين وبضعة أشهر، ففي عام 1880 قُتل الحسين في جدة على يد درويش أفغاني إذ طعنه بخنجر مسموم. وقد اختلفت الأقاويل في سبب قتله، وقيل إن السلطان عبد الحميد هو الذي دبّر أمر اغتياله بعد إلغاء الدستور ونفي مدحت باشا.

أعيد عبد المطّلب إلى منصب الشرافة وقد نقلته من اسطنبول إلى

---

(1) أحمد السباعي(المصدر السابق) ـ ص 375 ـ 376.

الحجاز باخرة سلطانية خاصة. فوصل إلى مكة في 28 أيار 1880م، فاستقبل فيها استقبالاً عظيماً، وكان حينذاك كبير السن، وأخذ يقسو على أتباع ذوي عون وعلى أنصار الدستور. وفي عام 1881م عندما جيء بمدحت باشا وأصحابه إلى مكّة في طريقهم إلى سجن الطائف كان عبد المطلب يطل عليهم من نافذة قصره وهو يقول: «نصحت لك يا مدحت فلم تقبل»[1].

لم تبق أسرة ذوي عون ساكنة تجاه حكم عبد المطلب، فقد ذهب وفد منهم إلى اسطنبول وأبرزوا للسلطان عبد الحميد وثائق تثبت اتصال عبد المطلب بالإنكليز. ويدّعي ذوو زيد أن الوثائق كانت مزورة[2]. والظاهر أنها أثّرت على السلطان فأصدر أمره في عام 1882 بعزل عبد المطّلب من الشرافة، وعيّن مكانه رجلاً من ذوي عون هو عون بن محمد بن عبد المعين ـ وهو المشهور باسم «عون الرفيق». وقد اعتقل عبد المطّلب على أثر ذلك وظلّ رهن الاعتقال حتى مات في أوائل عام 1886م عن عمر يناهز المائة.

عون الرفيق:

تولّى عون الرفيق شرافة مكة ثلاثاً وعشرين سنة من عام 1882 إلى 1905 والواقع أنه يستحق أن يُكتب عنه كتاب قائم بذاته لما اشتهر به من غرابة الأطوار وما دار حوله من أقاويل مختلفة وأساطير.

وصفه أحد المؤرخين بقوله إن شرافة مكّة بلغت في عهده، «منتهى ضعفها وغاية هبوطها»[3]، بينما وصفه مؤرخ آخر بأنه «مأمون عصره ورشيد مصره»[4]. وقد أعطانا مؤلف «تاريخ مكّة» صورة عنه لعلها أقرب إلى الواقع من غيرها، فهو يقول فيه ما نصّه:

---

(1) المصدر السابق ـ ص 384.

(2) أنيس صايغ (الهاشميون والثورة العربية الكبرى)، بيروت 1966ـ ص 35.

(3) فؤاد حمزة(المصدر السابق) ـ ص 323.

(4) نقلاً عن كتاب مخطوط للسيد هبة الدين الشهرستاني عنوانه «ذكرى جلالة الحسين». وإني أشكر السيد جواد الشهرستاني على إعارته إياي هذا الكتاب.

«ويبدو أن الشريف عون كان... غريب الأطوار متناقض الأعمال، يقدس بعض معاصريه فيه غزارته العلمية ومحبته للخير العام وتبسطه في مجالسه الخاصة وتودّده للمسالمين. وينعى عليه غيرهم تبذله بين ندمائه، وقسوته في معاملة الحجاج، وإمعانه في عقوبة مخالفيه، واصطناعه (الخزناوية) الذين كانوا يضطهدون الشعب». ويصف مؤلف «تاريخ مكة» الخزناوية بأنهم رجال اتخذهم الشريف عون كحرس خاص لخدمته فصاروا يتسلّطون على الأهالي ويستغلّون نفوذهم في اضطهاد من يضطهدونه أو يطمعون في أمواله فكان لا يجرؤ أحد على الشكوى منهم. وقيل إن الشريف عون كان يختارهم من طبقات العامة ويخوّلهم من النفوذ ما يستطيعون به إذلال الخاصة نكاية بهم[1].

من الأمور التي اشتهر بها الشريف عون الرفيق تقريبه لرجل من المجاذيب اسمه «علي بو»، فقد كان هذا الرجل قبلئذٍ يذرع الشوارع بجسمه العاري وهو مطرق لا يكلم الناس، فإذا حادثه أحد المارة وألحّ عليه في الحديث أجابه بعبارة واحدة اعتاد عليها ولا يجيب بغيرها، وهي: «مقضية، مقضية، إن شاء الله». ويقال في سبب تقريب الشريف عون له أنه تنبأ له بنبوءة صحت فيما بعد، فآمن عون بقدسيته، وبنى له قصراً فخماً وألبسه الملابس الفاخرة، واتّخذه أنيساً له، وجعل أعيان مكة يقبلون يده ويحترمونه. وقد ظلّ هذا الرجل على هذه المنزلة العالية إلى أن مات عون الرفيق في عام 1905، فعاد إلى الشوارع يذرعها من جديد[2].

ومما اشتهر به الشريف عون أيضاً أنه كان يحب العدل، أو كان يريد الاشتهار به، إلى درجة عجيبة. قيل إنه كان أحياناً يأمر بحبس الحيوانات والجمادات إذا كانت سبباً في وقوع جناية على أحد، فإذا وقعت صخرة على إنسان فجرحته أمر بضرب تلك الصخرة أو إعدامها لكي يفهم الناس أنه لا

---

(1) أحمد السباعي (المصدر السابق) - ص 390.

(2) المصدر السابق - ص 390- 391.

يفوته قصاص مجرم ولو كان جماداً لا تكليف عليه. وحدث مرة أن سقط ديك على أخشاب تعود لامرأة شامية، وسببت الأخشاب له جرحاً، فأمر الشريف بحبس الأخشاب، ولم يطلق سراحها إلّا بعد أن قدّمت له المرأة عريضة بذلك[1].

من التهم التي اتّهم بها الشريف عون أنه كان يميل إلى العقيدة الوهابية، وسبب هذه التهمة أنه أمر بهدم بعض القبور المقدسة كقبر عبد الله بن الزبير في مكة، وقبر حواء في جدة. ويروي أمين الريحاني أن قناصل الدول الأجنبية اعترضوا على الشريف عون عندما أمر بهدم قبر حواء، وقالوا له: «لك ما تشاء في الأولياء، ولكن حواء أم الناس أجمعين، ونحن نحتج على هدم مقامها». فاقتنع الشريف عون بما قالوا وترك هدم ذلك القبر[2].

والغريب أنه في الوقت الذي كان فيه خصومه يتّهمونه بالوهّابية كان الشيعة يظنون أنه منهم. فقد كان الشيخ باقر التستري، وهو من علماء الشيعة، مقرباً إلى الشريف عون يفد عليه ويقضي الأعوام عنده، وكان هذا الشيخ واثقاً من تشيّع الشريف عون.

ويستدلّ الشيعة على تشيّع الشريف عون بعدة أمور منها: أنه أبطل مظاهر الفرح الذي اعتاد عليها أهل الحجاز في يوم عاشوراء اعتقاداً منهم أنه اليوم الذي استوت فيه سفينة نوح على الجودي، فقال الشريف عون لهم: «إننا أمة محمد، وسفينة آل الرسول صادفت هذا اليوم بلاءها المشهور ـ يقصد مقتل الحسين في كربلا ـ فلا بد أن يحزن فيه الرسول وتحزن أمته»[3].

ومنها أنه نظم قصيدة طويلة في رثاء فاطمة الزهراء وذم من آذاها، وألقاها بنفسه على الحجاج في الكعبة عام 1904. والواقع أن هذه القصيدة

---

(1) نقلاً عن الكتاب المخطوط للشهرستاني.
(2) أمين الريحاني (ملوك العرب) ـ بيروت 1951 ـ ج 1، ص 63.
(3) نقلاً عن الكتاب المخطوط للشهرستاني.

اشتهرت لدى الشيعة في العراق، وما زال قرّاء التعزية يتلونها في مجالسهم الحسينية، وهم يرددون منها البيت التالي بوجه خاص:

بـنـت مـن؟ أم مـن؟ حـلـيـلـة مـن؟   ويـل لـمـن سـن ظـلـمـهـا وأذاهـا

يمكن القول على أي حال أن الشريف عون لم يكن وهابياً ولا شيعياً، بل كان مذهباً قائماً بذاته. يصفه أحد الذين خالطوه وعرفوه بقوله: «إنه كان يجاري كل طائفة بأكمل ما عندهم حتى يستطلع ما في خواطرهم، وينفذ فيهم سياسته وإرادته، ويستجمع من كل ذلك قلوب الطوائف الإسلامية قريبها والبعيد... وكان الشريف عون عالماً بارعاً في الفنون متضلعاً في أكثر العلوم لا يدخل عليه عالم إلّا ويخرج معتقداً أن علمه دون علم الشريف... وكانت كل طائفة من المسلمين تحجّ وتعتقد أن أمير الحرمين أحد أفراد طائفتها...»[1].

إن هذه السياسة الغريبة التي سار عليها الشريف عون لا بد أن يرضى عنها قوم ويغضب منها آخرون. والظاهر أن العامة كانوا في الغالب راضين عنها ومعجبين بها، أما الخاصة فكانوا ناقمين عليها. فقد كان في مقدمة الناقمين على الشريف عون الوالي نوري باشا وأعيان مكة وعلماؤها، وكتبوا عليه المضابط إلى السلطان عبد الحميد يشكونه ويذمونه. فأرسل السلطان إلى مكة لجنة للتحقيق برئاسة راتب باشا. وحين وصلت اللجنة إلى جدّة كان في استقبالها رسول من الشريف عون وهو يحمل صرة فيها ستة آلاف ليرة ذهب هدية إلى راتب باشا[2] ولما حققت اللجنة في الشكاوى بعدئذٍ وجدت أنها لا صحة لها وبرأت الشريف عون من التهم التي أُلصقت به «زوراً وبهتاناً». وبعد مدة قصيرة أمر السلطان بعزل نوري باشا من الولاية وتعيين راتب باشا مكانه.

وفي عام 1904 نظم الشاعر المعروف أحمد شوقي قصيدة طويلة ذم

---

(1) نقلاً عن الكتاب المخطوط للشهرستاني.

(2) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص 45.

فيها الشريف عون ذماً مقذعاً وحثّ السلطان على عزله. وقد رفع القصيدة إلى السلطان. وفيما يلي ننقل أبياتاً نموذجية منها:

ضج الحجاز وضج البيت والحرم ... واستصرخت ربها في مكة الأمم
قد مسها في حماك الضر فاقض لها ... خليفة الله أنت السيد الحكم
لك الربوع التي ريع الحجيج بها ... أللشريف عليها أم لك العلم
أُهين فيها ضيوف الله واضطهدوا ... إن أنت لم تنتقم فالله منتقم
أفي الضحى وعيون الجند ناظرة ... تُسبى النساء ويؤذي الأهل والحشم
ويُسفك الدم في أرض مقدسة ... وتُستباح بها الأعراض والحرم
يد الشريف على أيدي الولاة علت ... ونعله دون ركن البيت تُستلم
نيرون إن قيس في باب الطغاة به ... مبالغ فيه والحجّاج متهم
أدبه أدّب أمير المؤمنين فما ... في العفو عن فاسق فضل ولا كرم
لا ترج فيه وقاراً للرسول فما ... بين البغاة وبين المصطفى رحم
ابن الرسول فتى فيه شمائله ... وفيه نخوته والعهد والشمم
ما كان طه لرهط الفاسقين أباً ... آل النبي بأعلام الهدى ختموا
محمد رُوعت في القبر أعظمه ... وبات مستأمناً في قومه الصنم
وخان عون الرفيق العهد في بلد ... منه العهود أتت للناس والذمم[1]

لم تؤثر هذه القصيدة على بلاغتها في السلطان شيئاً. ولعل الصرر التي كان الوالي يتسلمها من الشريف عون كانت أكثر بلاغة من القصيدة.

وعلى أي حال فقد مات عون في السنة التالية، فتولّى الشرافة من بعده ابن أخيه علي بن عبد الله ولكنه عزل في عام 1908، وتولّى الشرافة من بعده الحسين بن علي.

---

(1) أحمد شوقي (الشوقيات) ـ بروت ـ ج 1 ـ ص 211 ـ 213.

الفصل الثاني

الحسين بن علي

الحسين بن علي

إن الحسين بن علي هو أشهر من تولّى شرافة مكة في جميع العصور. فهو قد وصل بالشرافة إلى القمة ولكنها سرعان ما انهارت على يده. وهو فوق ذلك ذو أهمية كبرى في تاريخ العرب المعاصر وتاريخ القومية العربية. وسنحاول في هذا الفصل ذكر شيء من حياته حتى قيامه بالثورة على الأتراك، على أن نعود لدراسة بقية حياته في فصول تالية.

بداية حياته:

هو الحسين بن علي بن محمد بن عبد المعين من ذوي عون. ولد في اسطنبول في عام 1853 من أم شركسية اسمها «وسيلة خانم». وكان جده وأبوه وأعمامه يعيشون يومذاك في اسطنبول عندما كانت الشرافة في يد خصمهم عبد المطلب من ذوي زيد.

وفي عام 1855 عندما تولّى الشرافة محمد بن عبد المعين ـ على أثر عزل عبد المطلب منها ـ غادر اسطنبول إلى مكة مع أولاده وأهل بيته، وكان من بينهم حفيده الصغير الحسين. وفي عام 1858 حين مات محمد تولّى الشرافة من بعده ابنه عبد الله. وقد عاد علي والد الحسين إلى اسطنبول حيث توفي فيها عام 1870. أما ولده الحسين فقد بقي في كنف عمه عبد الله في مكة. وفي عام 1875 تزوج الحسين عابدية خانم، وهي ابنة عمه عبد الله، فولدت له أربعة أولاد هم: الحسن وعلي وعبد الله وفيصل. وقد مات الأول منهم في صباه، ثم ماتت الأم أيضاً في عام 1889.

ظهرت أولى بوادر نشاطه السياسي في عام 1880 حين تولّى الشرافة عبد المطلب من ذوي زيد للمرة الثانية. فقد كان الحسين من جملة أعضاء الوفد العوني الذي ذهب إلى اسطنبول لتحريض السلطان على عزل عبد المطلب. ويدّعي ذوو زيد أن الحسين كان من أنشط أعضاء الوفد، وأنه هو الذي قام بتزوير الوثائق ضد عبد المطلب، كما اتّهموه بأنه اتّصل بالسفير البريطاني في اسطنبول طالباً منه مساعدته ضد ذوي زيد، وحثّه على الاعتماد على ذوي عون دون غيرهم[1].

ولما تمّ عزل عبد المطلب من الشرافة في عام 1882، وتولّى عون الرفيق الشرافة من بعده، كانت العلاقة بين الحسين وعمه عون حسنة جداً فقد كان عون يكثر من زيارة الحسين في بيته ويلاطف أهله ويلاعب أولاده حتى أنه كان يضع اللجام في فم عبد الله بن الحسين ويأمره بالجري كالفرس ليأنس به[2].

ويروي عبد الله في مذكراته حادثة طريفة جرت له في تلك الأيام، خلاصتها أنه وإخوته كان لهم معلم يعلمهم الخط اسمه الشيخ عثمان اليمني، وكان هذا المعلم ذا لثة دامية وفم كريه، وقد اعتاد أن يضع القلم في فمه ثم يغمسه في الدواة فيختلط فيها الحبر بالدم. وأراد عبد الله أن يعمل له مقلباً فجاء بشيء من الفلفل القوي ووضعه في محبرة أخيه فيصل. ولما وضع الشيخ القلم في فمه بعد غمسه في المحبرة، أحسّ بلذع الفلفل، ثم اشتدّ به الألم وتورّم فمه، وقرر معاقبة فيصل ظناً منه أنه الفاعل، ووضع قدمي فيصل في الفلقة، وصار فيصل يصرخ ويقسم أنه بريء. وانتهى الحادث بصرف المعلم بعد الاعتذار إليه ومنحه نقوداً وكسوة. ولما وصل الخبر إلى الشريف عون الرفيق استدعى إليه عبد الله، وصار يضحك ويتعجّب من عمله ويقول: «فطنة عجيبة غريبة». ثم أمر بإحضار المعلم كما أمر بإحضار طبيب الأسنان، وقال للمعلم: «يا عثمان، تريد أن تعلم أبناءنا الخط وهم علموك كيف تكون

---

(1) أنيس صائغ (الهاشميون والثورة العربية الكبرى) - بيروت 1966 - ص 34 - 35.

(2) نقلاً عن الكتاب المخطوط للسيد هبة الدين الشهرستاني.

النظافة»، ثم نادى طبيب الأسنان وأمره بأن يخلع أسنان المعلم، فأخذ المعلم يصيح ويستغيث. فأمر الشريف عون بالكفّ عنه وبإعطائه ألفاً وخمسمائة ريال وأوصاه بأن يتداوى[1].

لم تبق العلاقة الحسنة بين الحسين وعمه الشريف عون طويلاً، بل صارت تسوء شيئاً فشيئاً بمرور الأيام. فقد أخذ الشريف عون يتّهم الحسين بأنه يؤلب الناس عليه ويحرّضهم على التذمّر منه، وطلب من السلطان عبد الحميد استدعاءه إلى اسطنبول ليتخلّص منه. فورد الأمر من السلطان بأن يأتي الحسين إليه. فرحل الحسين إلى اسطنبول في عام 1893 واستقبله السلطان بلطف، وعينه عضواً في مجلس شورى الدولة. وأمر بأن تُعدّ له دار مؤثثة على البوسفور.

عندما استقرّ الحسين في داره في اسطنبول استدعى إليه أولاده وأهل بيته، فوصل هؤلاء إليها في أوائل آذار 1894. وبعد وصولهم بخمسة عشر يوماً صدرت الإرادة السلطانية بتعيين صفوت أفندي العوا ـ وهو ضابط شامي ـ لتعليم أولاد الحسين بعض الدروس كالحساب والتاريخ والجغرافية واللغة التركية. ويروي أمين الريحاني أن عبد الله كان دؤوباً على الدرس بينما كان فيصل كسولاً متأخراً في دروسه دائماً، وقد ذهب صفوت العوا إلى الحسين يشكو إليه من كسل فيصل وتأخّره، فقال له الحسين: «اضربه يا ابني ولا تخف...»[2].

تزوج الحسين في اسطنبول فتاة شركسية ولدت له ابنته صالحة، وقد ماتت الزوجة بعد فترة قصيرة، فتزوج الحسين بعدها عادلة هانم وهي حفيدة رشيد باشا السياسي التركي المشهور، فولدت له ولده زيد وبنتين هما: فاطمة وسارة[3].

---

(1) عبد الله بن الحسين (مذكراتي) ـ القدس 1945 ـ ص 11 ـ 13.
(2) أمين الريحاني (فيصل الأول) ـ بيروت 1958ـ ص 12.
(3) سليمان موسى (مذكرات الأمير زيد) ـ عمان 1976 ـ ص 14، 213.

تروي المس بيل في إحدى رسائلها نقلاً عن نوري السعيد: أن عبد الله كان الولد المفضل لأبيه، بينما كان فيصل غير مقرّب إليه. أما علي فكثيراً ما كان الخصام يحصل بينه وبين زوجة أبيه عادلة هانم على إدارة البيت، ولهذا كان علي يكره ابنها زيد، بينما كان فيصل يحبه[1]..

طال بقاء الحسين في اسطنبول نحو سبعة عشر عاماً. ولم تكن حياته فيها مرفهة بالدرجة المناسبة لمركزه. تروي المسز أرسكين عن فيصل أنه قال في وصف حياتهم في اسطنبول: «أنها كانت ضيقة شاقة، فلم يكن يتوفّر لنا اللحم فيها إلّا مرة واحدة في الأسبوع الواحد»[2]. ويقول عبد الله في مذكراته: «أما إقامتنا في اسطنبول فكانت إقامة جبر وإكراه، وإقامة تعلم وعِبر...»[3].

تعيين الحسين شريفاً:

عند إعلان الدستور العثماني في 24 تموز 1908 كانت شرافة مكة في يد علي بن عبد الله، وهو ابن عم الحسين وأخو زوجته الأولى. وقد تباطأ في تأييد الدستور فصدر الأمر بعزله وبتعيين عمه عبد الإله بن محمد بدلاً عنه. وكان عبد الإله مقيماً في اسطنبول، وكان كبير السن مريضاً. وقد مات فجأة بعد يومين من صدور أمر تعيينه. وقيل إنه مات من شدة الفرح[4]، كما قيل إنه مات مسموماً[5].

قدّم الحسين إلى السلطان عبد الحميد ـ وكان لا يزال في الحكم ـ عريضة طلب فيها تعيينه للشرافة لكونه «أسن العائلة الهاشمية وأحقّها بمقام

---

(1) Burgoyne (Gertrude Bell) London 1961- vol. 2, p.245.

(2) ارسكين (فيصل ملك العراق) ـ ترجمة عمر أبو النصر ـ بيروت ـ 1934 ـ ص 33.

(3) عبد الله بن الحسين (المصدر السابق) ـ ص 17.

(4) أنيس صائغ (المصدر السابق) ـ ص 36 ـ 37.

(5) أحمد السباعي (تاريخ مكة) ـ القاهرة 1372هـ ـ ص 396.

الآباء». وحمل العريضة ابنه عبد الله حيث ذهب بها إلى الصدر الأعظم كامل باشا. وفي 1 تشرين الثاني استدعى السلطان عبد الحميد إليه الحسين وعيّنه شريفاً لمكّة كما منحه رتبة الوزارة.

اختلفت الأقوال في السبب الذي حدا بالحكومة العثمانية إلى تعيين الحسين لشرافة مكة. فمنهم من يقول: إن الاتحاديين هم الذين اختاروا الحسين للشرافة بينما كان السلطان معارضاً لهذا الاختيار[1]. ومنهم من يقول: إن الاتحاديين كانوا يرغبون في تعيين علي حيدر، وهو حفيد عبد المطلب من ذوي زيد، ولكن السفير البريطاني ضغط عليهم من أجل تعيين الحسين[2]. ويقال أيضاً إن السفير البريطاني كان له نفوذ لدى الصدر الأعظم كامل باشا، وقد أصرّ هذا الرجل على تعيين الحسين بخلاف رأي السلطان إذ كان السلطان يعتقد أن الحسين رجل خطر، وأنه سوف لا يكتفي بالشرافة بل سيطمح إلى أكثر منها، وربما هدد عرش السلطنة العثمانية[3].

إن عبد الله يروي في مذكراته رواية تدلّ على النقيض، مما ذكرنا، حيث يقول إن أباه الحسين عندما أراد مغادرة اسطنبول للتوجّه إلى مكّة قابل السلطان عبد الحميد لتوديعه، واختلى به أكثر من ساعة ونصف، فقال له السلطان: «أسأل الله أن يجازي من حال بيني وبين الاستفادة من مواهبك الهاشمية. وإني لست بالأمين على الدولة من هذه الفئة المتغلبة». فقال له الحسين: إذا ضاقت بك الدنيا فألجأ إلينا وسوف نجبي لك الأموال ونخضع لك رقاب العصاة. فاغرورقت عينا السلطان بالدموع وقال: أشكرك، أشكرك، بارك الله فيك، ولكن الوقت لم يحن بعد...[4].

---

(1) جورج أنطونيوس (يقظة العرب) ـ ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس ـ بيروت 1962 ـ ص 178.

(2) أنيس صائغ (المصدر السابق) ـ ص 37.

(3) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) ـ بغداد 1925 ـ ج 1، ص 177.

(4) عبد الله بن الحسين (المصدر السابق) ـ ص 27.

وصوله إلى مكة:

غادر الحسين وأهله اسطنبول في تشرين الثاني 1908 في باخرة من بواخر الشركة الخديوية. وكان في توديعه كثيرون، في مقدمتهم كامل باشا. وفي 3 كانون الأول وصلت الباخرة إلى جدة، وكان استقباله فيها فخماً يحدّثنا عنه رجل من أهلها حيث يقول ما نصّه:

«... كان رصيف الميناء مكتظاً بالمستقبلين وعلى رأسهم عدد كبير من الأشراف، فحيوه أحسن تحية، وأظهروا له عظيم السرور بتوليته إمارة مكة، وتلك عادة الناس جميعاً وبالأخص الحجازيين، أن يظهروا السرور بكل وال وأمير وإن كانت قلوبهم غير راضية. ونزل في جدّة ضيفاً على والدي الشيخ محمد نصيف، وحياه الحاج محمد علي زينل... بخطبة مسهبة حوت من غرر المديح ودرر الثناء شيئاً كثيراً، وأجابه الحسين بالتأثر الذي أسأل عبراته من مآقيه...»[1].

كانت قد حضرت إلى جدّة وفود كثيرة من مختلف مدن الحجاز وقبائله للترحيب بالحسين. وكان من جملة تلك الوفود وفد يمثل حزب الاتحاد والترقّي. وقام رئيس الوفد يخطب مرحباً بالحسين واصفاً إياه بـ «الأمير الدستوري»، وأعرب عن أمله بأنه سوف يعمل بمقتضى روح العصر والتجدد. فرد الحسين على هذا الخطاب بعنف مشيراً إلى أنه لا يعرف هذه الأمور الجديدة، وأن الحجاز هي بلاد الله لا تقوم فيها غير شريعة الله المشتملة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فليذهب كل منكم إلى عمله: المأمور في وظيفته، والتاجر في تجارته، والصانع في حرفته. وإيّاكم من قال وقيل وما يقولون، فهذه بلاد الله ليست بملك أحد، وأن السلطان الذي أمر بالدستور يفتخر هو وأسلافه بأنهم خدام الحرمين. إن دستور بلاد الله شريعة الله وسُنة نبيه! فخرج أعضاء الوفد من عند الحسين وهم يتعثرون، وكتبوا إلى اسطنبول

---

(1) حسين محمد نصيب (تاريخ الحجاز) ـ القاهرة 1349هـ ـ ج 1، ص 7.

يقولون: إن عبد الحميد بعث إلينا رجلاً لا يعبأ بأحد ولا يقرّ بدستور ولا بتجدد[1].

مكث الحسين في جدة ثلاثة أيام، ثم غادرها إلى مكة، فوصلها في 7 كانون الأول. وكان في استقباله أخوه الشريف ناصر، والمشير كاظم باشا، وقاضي مكّة، وسادن الكعبة عبد القادر الشيبي، وكثيرون غيرهم.

وفي اليوم الثالث من وصوله إلى مكة أرسل ابنه عبد الله إلى الطائف لإحضار خاله الشريف المعزول علي بن عبد الله الذي كان فيها. يروي عبد الله في مذكراته أنه عندما وصل إلى الطائف وقابل الشريف المعزول مختلياً به جرت بينهما المحاورة التالية:

علي: «ما الذي ستفعلونه بي؟».

عبد الله: «الخير كله إن شاء الله».

علي: «هل ترضى يا عبد الله بسفري إلى اسطنبول فيفعل بي سفهاء الاتحاد والترقّي ما فعلوه بوزرائهم؟».

عبد الله: «لا يكون ذلك إن شاء الله».

علي: «كيف؟».

عبد الله: «الذي تحب، إن رأيت البقاء فأنت في بلادك بعد أن تتفاهم مع ابن عمك، وإن أردت الخروج فابق بمصر ولا تسافر إلى اسطنبول من هنا إلّا بعد أن تطمئن».

علي: «أتضمن لي هذا؟».

عبد الله: «أسعى إن شاء الله».

علي: «ألست خالك؟».

عبد الله: «بلى والله».

---

(1) عبد الله بن الحسين (المصدر السابق) ـ ص 24 ـ 25.

علي: «أترضى لي الإهانة؟».

عبد الله: «حاشا الله، ولكن عليّ عهد الله لك في أنني إن عجزت عن تنفيذ مرغوبك أن لا أفارقك حيث تسير».

علي: «رضيت الآن». ثم دمعت عيناه وقبّل عبد الله[1].

وعندما وصل علي إلى مكة بصحبة ابن أخته عبد الله توجّه لمقابلة الحسين، فاستقبله الحسين من باب البهو، ثم أجلسه على سريره، واختلى به ساعة من الزمن. وفي اليوم التالي عقد الحسين مجلساً خاصاً لتقرير مصير الشريف المعزول، فاختلفوا في أمره، وأصرّ عبد الله على السماح له بالذهاب إلى مصر قائلاً: «إنني تعهّدت له بأنه إذا سيق إلى اسطنبول فإنني أسافر معه يصيبني ما يصيبه». وتمّ القرار أخيراً على السماح له بالسفر إلى مصر[2]. ويقال إنه عند رحيله إلى مصر حمل معه كثيراً من الأموال، فاشترى بها أملاكاً وعقاراً وقصراً بديعاً في حدائق القبّة التي كانت يومذاك من ضواحي القاهرة، وعاش هناك عيشة رضية مرفّهة[3].

نشاط الحسين:

كان التقليد المتّبع في الحجاز منذ انتهاء الحملة المصرية في عام 1840 م أن يتولّى الشريف شؤون البدو والقبائل بينما يتولّى الوالي التركي شؤون الإدارة في المدن. ولكن الحسين لم يخضع لهذا التقليد بل حاول الخروج عليه، وصار ينازع الوالي سلطاته، ولم يترك أحداً من الأهالي يتقاضى إلّا عنده، سواء في ذلك الأحوال الشخصية أو الحقوق المدنية. وأخذ الحسين يوطد علاقاته مع أعيان الحجاز عن طريق التواضع والتحبب لهم، ويحرضهم على

(1) المصدر السابق - ص 38.
(2) المصدر السابق - ص 39.
(3) حسين محمد نصيف (المصدر السابق) - ص 5.

رفع الشكاوى على الوالي إلى اسطنبول[1]. وتمكّن بهذه الوسيلة من عزل خمسة ولاة خلال ثمانية أعوام.

في خريف 1908 جرت انتخابات المبعوثين، ففاز بالنيابة عن مكة اثنان هما: عبد الله بن الحسين، والشيخ حسن الشيبي وهو ابن سادن الكعبة. وقد سافر الرجلان إلى اسطنبول عن طريق البحر لحضور جلسات مجلس المبعوثين. ولكنهما عند وصولهما أخبرهما رئيس المجلس بورود برقيات من مكّة تعترض على انتخابهما قائلة بأن عبد الله لا يليق بالنيابة لأن عمره دون السن القانونية، وأن الشيخ حسن الشيبي أمي لا يقرأ ولا يكتب. ولمّا عرضت تلك البرقيات على المجلس قام أحد النواب محتجاً عليها حيث قال: «ومن تريدون؟ أتبعث إليكم مكة أفضل من ابن الشريف وابن فاتح بيت الله؟!». فصاح المجلس كله: «لا اعتراض، لا اعتراض». وعند هذا أُدخل عبد الله وصاحبه إلى قاعة الملجس[2].

ولما جرت انتخابات المبعوثين للمرة الثانية، في ربيع 1912م، أعيد انتخاب عبد الله عن مكة، وانتخب أخوه فيصل عن جدة. وقد اعتاد عبد الله وأخوه أن يقضيا فترة انعقاد المجلس في اسطنبول ثم يعودا إلى الحجاز في الصيف.

والمعروف عن عبد الله أنه كان لبق الحديث مرحاً وله جاذبية شخصية ومقدرة على المعاشرة، ولهذا كان هو الممثل الفعلي لأبيه في أوساط اسطنبول السياسية. أما أخوه فيصل فكان على النقيض منه قليل الكلام يميل إلى الجد وذا مزاج عصبي، ولم يعرف عنه أنه قام في اسطنبول بأي نشاط ملحوظ في داخل المجلس أو خارجه.

مع ابن سعود:

في عام 1910م ظهرت أولى بوادر الصراع بين الحسين وابن سعود، وهو الصراع الذي استمرّ نحو خمسة عشر سنة، يخمد تارة ويفور تارة أخرى،

---

(1) المصدر السابق ـ ج 1 ص 8.

(2) عبد الله بن الحسين (المصدر السابق) ـ ص 53.

حتى انتهى أخيراً إلى انتصار ابن سعود وزوال حكم الأشراف في الحجاز ـ كما سنأتي إليه في فصول قادمة.

كان ابن سعود في عام 1910 تحيط به ظروف سيئة، كما حلّ به عسر مالي شديد بسبب انحباس المطر. والظاهر أن الدولة العثمانية أرادت انتهاز الفرصة لفرض سيادتها عليه فأوعزت إلى الحسين بالزحف عليه. وفي شهر تموز تحرك الحسين بقواته نحو نجد. وحين وصل إلى «الشعرا» التي هي أولى قرى نجد من جهة الحجاز وقع في يده سعد أخو ابن سعود أسيراً. وكتب الحسين إلى ابن سعود يقول له: «إذا هجمت علينا تركنا لك المعسكر والخيام وعدنا بأخيك سعد إلى مكة فيبقى عندنا إلى أن تطلب الصلح».

قام بالتوسط في الصلح بين الفريقين خالد بن لؤي أمير الخرمة، وهو من الأشراف غير أنه كان ميالاً إلى ابن سعود والوهابية. وذهب إلى ابن سعود وقال له بلهجته البدوية: «اسمع يا عبد العزيز أنا أعلّمك. لا غاية للشريف سيئة معك لا والله. ولكنه يبي ـ يقصد يبغي ـ يبيّض وجهه مع الترك. فاكتب له ورقة تنفعه عند الترك ولا تضرّك. وأنا أتكفّل برجوع سعد، وأتكفّل أن الشريف لا يتدخّل في أمور نجد، هذا إذا كنت لا تتجاوز الحدود. أما إذا هو اعتدى عليك فأنا خالد بن لؤي أعاهدك عهد الله عليه. فأكون معك والله كما كان آبائي مع آبائك وكما كان أجدادي مع أجدادك». فاقتنع ابن سعود بما قال خالد وكتب له ورقة تعهّد فيها أن يدفع للدولة ستة آلاف مجيدي في كل سنة[1].

أطلق الحسين سراح سعد. وفي 23 أيلول أرسل ابن سعود ابن عم له اسمه عبد العزيز بن عبد الله إلى الحسين ومعه ثلاث أفراس أصيلة هدية له مع رسالة مليئة بالتزلّف والتحبّب هذا نصها:

حضرة جناب الأجل الأفخم بهي الشيم أمير مكّة المكرمة سيدنا الشريف حسين باشا ابن السيد علي دام مجده وعلاه أمين.

---

(1) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) ـ بيروت 1954، ص 192 ـ 193.

بعد إهداء مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام، مع السؤال عن شريف خاطركم العاطر. لا زلتم بكمال الصحة والسرور حائزين الأوصاف الحميدة. أحوالنا من كرم الله جميلة، وتقدم لسعادتكم قبل هذا كتاب نرجو أنه وصل وأنتم مسرورون. ثم نعرض لدولتكم العزيز أنه بموجب شفقتكم وعلوّ همّتكم وأنظاركم العالية قدمنا أخينا عبد العزيز عبد الله السعود لموجب خدمتكم وأحببنا المصاوغة ـ يقصد المهاداة ـ معكم لموجب التبرّك بأقدامكم، وأرسلنا معه الصقلاوية والحمداني وكحيلان، ولا والله ما قصدنا في إرسالها لأنكم بحاجتها، ولا شك في غايتنا نبي ـ يقصد نبغي ـ نقرب أنفسنا منكم. فإننا هنا حاسبين أنفسنا من خدامكم، والفضل لله ثم لكم، وإلا هديتنا لحضرتكم رؤوسنا وما تحت أيدينا، ولكنها هي صوغة ـ يقصد هدية ـ للأولاد الكرام. وحررنا هذا الكتاب لموجب التعرّض لخدمتكم وما يبدو من اللازم، وإلا أمركم علينا تام على كل حال، ومهما تفعلونه معنا وتحطّون أنظاركم علينا تجدونه إن شاء الله مضاعفاً بالخدمات والسمع والطاعة. هذا ما لزم تعريفه. والولد برسم الخدمة مع إبلاغ السلام حضرات الإخوان السادات الكرام علي وفيصل وزيد، ومن عندنا أولادنا محمد وسعود وكافة السعود يسلمون، ودمتم محروسين.

خادم الدولة والملّة والوطن

18 رمضان سنة 1328هـ — أمير نجد ورؤساء عشائرها

عبد العزيز السعود[1]

كتب الحسين بعد هذا إلى ابن سعود يذكر له ما بلغه عنه من أنه يعد العدة للهجوم على الحجاز، وأن بعض القبائل القاطنة على الحدود تشكو من اعتداءاته عليها. فأجاب ابن سعود برسالة فيها من التزلّف والتحبّب أكثر مما في الرسالة الأولى وهي طويلة نقتطف منها ما يلي:

---

(1) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ـ القاهرة 1967، ص 337 ـ 338، وانظر كذلك: أمين سعيد (تاريخ الدولة السعودية)، بيروت، ج 2، ص 51 ـ 52.

. . . فالآن ابنكم وخادمكم ومملوك فضلكم ـ يقصد نفسه ـ سامع ومطيع لله ثم لحضرتكم. . . فكما تأمرون أفعل امتثالاً لأمر الله ثم أمركم. . فإن كنت المجرم فأنا تحت أمركم كما تأمرون أفعل ومصطبر لأدبكم. . . وأنا والله وبالله وتالله إن رضاكم وامتثال خدمتكم عندي أعزّ من رضا عبد الرحمن ـ يقصد والده ـ وخدمته. ثم أنا معطيكم عهد الله وأمان الله أني ولد لك سامع مطيع ما أخالف شورتك في جميع أمر، وأنا تحت أمركم تريدون المقابلة بيني وبين المزوّرين في أي وقت تبغونه أحضر، فإن كان تحبونه من بعيد فالمراجعة بيننا ونحن تحت تدبير الله ثم تدبيركم، وإنما لا يزوّرون على حضرتكم أني مستغزي أهل نجد قصد محاربتكم أو مكابرتكم، لا والله، لا والله، لا والله. إني ما استغزيتهم إلّا لموجب تجافينا وبعض الفساد الذي لا يخفى جنابكم. ولا يقطع عقلكم أن قدومي بها المحل قصدي محاربة أو أمر يغضب خواطركم، إلا إنما هو تقرّب لخدمتكم. . . واجبنا تعجيل الطارش لموجب رد جوابكم العزيز. ونحن بانتظار تدبير الله ثم تدبيركم، وتحت الأمر. هذا ما لزم. والرجا إبلاغ سلامنا الإخوان السادات الكرام. ومن عندنا أولادكم محمد وسعود وكافة السعود يقبلون أياديكم ودمتم محروسين ـ 15 شوال 1328[1]».

لا حاجة بنا إلى القول إن هذا التخضع الذي أبداه ابن سعود نحو الحسين إنما هو من مظاهر الدهاء الذي اشتهر ابن سعود به. فهو كان في تلك الآونة مشغولاً بمشاكله الداخلية، ولم يكن يرى من المصلحة أن يتورّط في مشكلة أخرى مع الحسين، فآثر أن يترضاه ويتحبّب إليه مؤقتاً إلى أن ينتهي من حل مشاكله الداخلية. والظاهر أن الحسين لم يفهم ذلك، ولعله اغترّ بما أبداه ابن سعود له من التزلّف والتخضّع، وظنّ أنه ضعيف وسيبقى ضعيفاً دائماً. وقد ظل الحسين ينظر إلى ابن سعود طيلة السنوات التالية بمثل هذه النظرة ويعامله على أساسها. وتلك غلطة من الحسين كانت من أهم العوامل التي أدّت إلى نهايته المؤسفة أخيراً.

---

(1) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص 338 ـ 339.

حملة عسير:

إن منطقة عسير جزء من اليمن تقع إلى الجنوب من الحجاز، وكانت في تلك الأيام متصرفية تابعة للدولة العثمانية مركزها بلدة «أبها»، وكان متصرفها سليمان شفيق باشا. وفي عام 1910م ثار السيد محمد الإدريسي على الدولة، وكان له نفوذ وقدسية في تلك المنطقة، فنال نجاحاً في ثورته، وكان الإيطاليون يساعدونه فيها. وفي أواخر ذلك العام استطاع الإدريسي أن يحاصر «أبها»، وكانت فيها قوات تركية كبيرة، ودام الحصار نحو عشرة أشهر عانى السكان منه الويلات، وأكلوا القطط والكلاب، ومات منهم أكثر من خمسة آلاف شخص جوعاً[1].

استعانت الدولة العثمانية بالحسين لإخماد ثورة الإدريسي. فأعدّ الحسين حملة لها، واستدعى إليه ابنه عبد الله من اسطنبول ليكون معه في الحملة، كما استصحب معه ابنه الآخر فيصل. وفي 16 نيسان 1911 تحرّكت الحملة من مكة وهي تضم بالإضافة إلى القوات المحلية ثلاثة أفواج تركية يبلغ عدد رجالها ثلاثة آلاف.

حين تغلغلت الحملة في أراضي عسير أخذت القوات الإدريسية تشن الغارات عليها مرة بعد مرة، وكبدتها خسائر فادحة[2]. وفي 16 تموز وصلت الحملة إلى «ابها» وتمكّنت من فك الحصار عنها ودخولها.

حلّ عيد الدستور في 24 تموز ـ أي بعد أيام قليلة من دخول الحسين إلى «أبها» ـ وصادف أن كان ذلك اليوم نفسه يوم ذكرى مبعث النبي حسب التقويم القمري. فأقيم احتفال في «أبها» بهذه المناسبة، وألقى فيه الحسين خطبة مدح فيها الدولة العثمانية، وذمّ الإدريسي ذماً قبيحاً متهماً إياه بأنه يخدم الدول الأجنبية لأغراضه الشخصية وفيما يلي نص الخطبة:

---

(1) سليمان موسى (الحركة العربية) ـ بيروت 1970 ـ ص 54.

(2) عبد الله بن الحسين (المصدر السابق) ـ ص 61.

«أيها الإخوان اعلموا علم اليقين أنه لولا وجود هذه الدولة العثمانية وشدّة اعتناء خلفائها بالأمة الإسلامية خصوصاً مولانا أمير المؤمنين الحالي ـ يقصد السلطان رشاد ـ لاختطفتكم الدول الأجنبية اختطاف الذئب للغنم المنفردة، فإن جميع الدول ساعية من زمن بعيد في اضمحلال الشريعة المحمدية بواسطة هؤلاء المغرورين الذين يخدمونها لأغراضهم الشخصية. إخواني هل يرضيكم أفعال هؤلاء القوم الساعين في تخريب بلادكم باسم الحق. لا أدري كيف اغتررتم لهؤلاء وأمثالهم وأنتم أولو العقول الراجحة والنخوة العربية الأصيلة. آباؤكم الأولون كانوا عزّ العرب وعنهم ورثتم الهمم العالية. ألستم أبناء التبابعة؟! ألستم الذين قال فيكم جدي رسول الله ﷺ: العلم يماني والحكمة يمانية؟! ألستم أنتم أبناء أسلافكم الكرام الذين اشتهروا بالذكاء الفطري والمجد المؤثل؟! فالله يا أمناء الأمة العربية في دينكم لا تضيعوه، بل احفظوه، واستظلوا بظل الراية العثمانية التي هي شعار الإسلام، ولا تغتروا بأقوال المفسدين الساعين في تنفيذ أغراض المحركين لهم أعداء الدين الإسلامي، وأنتم لطيب عنصركم وعدم معرفتكم بالسياسة الأجنبية تظنون أنهم إنما يخدمون الدين مع أنهم والله عن الدين بمعزل لا يخدمون إلّا أغراضهم الشخصية مستترين باسم الدين. فأحذركم أن لا تغتروا بمثل هؤلاء الأوغاد المارقين عن الدين، بل كونوا مطيعين لأمير المؤمنين. ولتعلموا أن من خالفه فقد خالف الله ورسوله، ومن خالفه فقد باء بغضب من الله وخسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين»[1].

بداية الخلاف مع الأتراك:

كانت خطبة الحسين في «أبها» تمثل قمة الانسجام بينه وبين الأتراك، ولكن هذا الانسجام لم يدم طويلاً وسرعان ما أخذ يتلاشى، وحلّ العداء محله تدريجياً.

بدأ الخلاف بين الحسين والأتراك في «أبها» عقب إلقاء الخطبة، فقد

(1) حسين محمد نصيف (المصدر السابق) ـ ج 1 ص 21.

لاحظ متصرّف عسير أن الحسين لم يكن خالص النية في حملته في عسير بل كان يقصد منها تقوية نفوذه. وكان المتصرف مقتنعاً بأن الحسين لا يقل في عدائه الدولة العثمانية عن الإدريسي، وقد وصفه بقوله: «إنه إدريسي مجهّز بالبنادق والمدافع»[1].

ومما زاد في شدة الخلاف بين الحسين والأتراك ـ حسبما رواه عبد الله في مذكراته ـ أن الحسين شاهد بعض مناظر الفظائع التي اقترفها الجنود الأتراك في أتباع الإدريسي، فقد عُرضت عليه أربع مرات جثث شويت على النار شياً وأُدخلت أعمدة الخيام من أدبارها حتى خرجت من أفواهها، كما عُرضت عليه سنة رؤوس مقطوعة وقد وضع قضيب كل رجل منهم في فمه. ولما شاهد الحسين ذلك قال لنظيف بك أحد قواد الترك: «هذا لا يليق!» فأجابه نظيف بك: «أليسوا قد حرقوا قلوبنا؟!»[2].

قرر الحسين العودة إلى الحجاز مع قواته قبل الانتهاء من حرب الإدريسي. فغادر «أبها» في 31 تموز 1911. ويروي عبد الله في مذكراته قصة لها دلالتها في هذا الصدد، هي أن الحسين عندما وصل إلى الطائف كان في استقباله والي الحجاز حازم بك ومعه الشريف ناصر بن محسن من ذوي زيد، وكان الحسين قد علم قبل وصوله بأن الشريف ناصر نشر الإشاعات السيئة عن حملة عسير كما أشاع أن الحسين نفسه قُتل فيها. ولم يكد الحسين يراه بين المستقبلين إلى جانب الوالي حتى أمر بإخراجه إخراجاً عنيفاً، فاحتجّ الوالي على ذلك قائلاً: «عفواً يا سيدي فإنه قد جاء معي». فأجاب الحسين: «وإن كان قد جاء معك؟!». فقال الوالي: «أنا ممثل السلطان، وهذه المعاملة تحقير للسلطان نفسه». فأجابه الحسين: «هل تركتم ناحية من السلطان لم تحقروها؟! أنا ممثل السلطان هنا لا أنتم»[3].

---

(1) علي فؤاد (كيف غزونا مصر) ـ ترجمة نجيب الأرمنازي ـ بيروت 1962 ـ ص 87.
(2) عبد الله بن الحسين (المصدر السابق) ـ ص 66.
(3) المصدر السابق ـ ص 68.

أبرق الوالي إلى اسطنبول بما جرى، فوردت من الصدر الأعظم إبراهيم حقي باشا إلى الحسين البرقية التالية: «لقد بلغت المسامع السنية المعاملة الشديدة التي وقعت من ذاتكم الهاشمية على الشريف ناصر بن محسن الذي هرع لاستقبالكم مع عطوفة حازم بك والي الحجاز، وإن الرغبة السلطانية منصرفة إلى استدعاء الشريف المومي إليه إلى مقامكم السامي وتلطيفه وإرضائه».

فأجاب الحسين بالبرقية التالية: «بما أن الأسباب الموجبة لما نال الشريف ناصر بن محسن من زجر وإخراج لا تتعلق بي شخصياً، فأنا لا أرى إظهار الندم على ما فعلت، وأن ما أشاعه المومي إليه من أخبار اضمحلال القوى التي كانت معي وإبادتنا لم يقصد منه إلّا إيجاد حركة ثورية هنا أيضاً، فهو يستحق ما وقع عليه. وقد بلغني الخبر من مكتوبي الولاية، ثم جاء به الوالي وهو يعرف ذلك وما في هذا من المداهنة والفساد ليس من خلقي».

عاد الجواب فوراً من الصدر الأعظم يقول: «إن الباب العالي لا يستطيع غضّ النظر عن ما في كسر الرغبة السنية التي تبلغتموها بالبرقية السابقة التي نؤيدها بهذه، مردفين انتظار السلطان النتيجة».

فأجاب الحسين بما يلي: «إنني، مع كرامتي لنفسي، الرجل الذي يعتبر قاعدة الثاني بعد ولي العهد في المكانة، ولا أظن أن الرغبة السنية تقصد الحط من هذا المركز القديم. والباب العالي، الذي لا يستطيع غضّ النظر عن نفوذ الذات السنية، كيف يوجّه هذه التهمة الشائنة إلى رجل لم ينفض بعدُ غبار السفر عن رجله في مجد السلطان؟! وأن الباب العالي حر في ما يحب أن يفعله».

لم يرد الصدر الأعظم على هذه البرقية. والظاهر أن الحكومة التركية شُغلت بأمر جديد ألهاها عن مشكلة الحسين، هو قرب اندلاع الحرب بينها وبين إيطاليا، ولعلها رغبت في المصالحة معه من جرّاء ذلك. ففي ليلة عيد الفطر الذي حلّ في 25 أيلول 1911، جاء عثمان بك قائد الجندرمة إلى الحسين وذكر له أن برقية وردت من الباب العالي إلى الوالي تطلب منه أن

يزور الحسين معتذراً وقال: «هل يقبله سيدنا؟». فأبدى الحسين ترحيبه به، وتمّت الزيارة في صباح اليوم التالي عند صلاة العيد![1].

لم يمض على المصالحة سوى أربعة أيام حتى اندلعت الحرب مع إيطاليا. وقد تشجع الإدريسي بهذه الحرب فعاود الهجوم على القوات التركية في عسير، وأمدته إيطاليا بالأسلحة كما قامت المدمرات الإيطالية بقصف الحاميات التركية في ساحل البحر الأحمر.

استعانت الدولة العثمانية بالحسين مرة أخرى. وأرسل الحسين قواته إلى عسير في ربيع 1912 بقيادة ابنه فيصل. ولم يستطع فيصل أن يفعل شيئاً ذا أهمية، فقد أنهك الحر والملاريا قواته، وأصيب فيصل نفسه بالملاريا. وأشيع في مكّة أن فيصل مات من شدّة الحمى. ويقال إن بنتاً لفيصل انتابها الذعر عند سماعها خبر موت أبيها، فسقطت على رأسها، وأصيبت من جرّاء ذلك بشلل أقعدها. وعاد فيصل أخيراً وهو محمولاً على كرسي من شدّة الوهن[2].

بداية الاتصال بالإنكليز:

في الأسبوع الأول من شباط 1914 كان عبد الله بن الحسين في طريقه من مكة إلى اسطنبول وقد نزل في القاهرة ضيفاً على الخديوي عباس حلمي في قصر عابدين. وانتهز عبد الله الفرصة فقابل كتشنر المعتمد البريطاني في مصر بحضور سكرتيره الشرقي رونالد ستورز، وأخذ يحدّثه عن العلاقات المتوترة بين الأتراك ووالده الحسين، وألمح إلى أن الأتراك ربما عزلوا والده عن الشرافة، وسأله بصورة غير مباشرة عن موقف الحكومة البريطانية من ذلك وهل من المحتمل أن تساعد والده إذا أعلن الثورة على الأتراك. فأجابه كتشنر جواباً مطاطاً غامضاً مشيراً إلى الصداقة التقليدية القائمة بين بريطانيا وتركيا وأن ليس من المحتمل أن تتدخل بريطانيا في الشؤون الداخلية للدولة

(1) المصدر السابق - ص 70.
(2) أمين الريحاني (فيصل الأول) - ص 13 - 14.

العثمانية. وقابل عبد الله بعد هذا ستورز منفرداً، وتبسط في الحديث معه في الموضوع نفسه، فكان جواب ستورز لا يختلف عن جواب رئيسه كتشنر[1].

عند عودة عبد الله من اسطنبول في نيسان عام 1914 مرّ بالقاهرة ونزل في قصر عابدين كذلك، فزاره ستورز هنالك، وجرى بينهما حديث طويل، ويقول ستورز في مذكراته عن هذا الحديث ما يلي:

«... إني زرته في قصر عابدين، وجلست طيلة ساعتين تحت تأثير سحر حديثه... حيث أخذ يرتّل لي المعلقات السبع وهي القصائد الرائعة من الشعر الجاهلي ويقصّ لي عن أمجاد ومناحات عنتر بن شداد، ولا بد أننا تناولنا أثناء ذلك مقادير كبيرة من القهوة الخديوية الممتازة... ثم سألني بشكل مطلق: هل بوسع بريطانيا العظمى تجهيز أبيه الشريف باثني عشر رشاشاً، أو حتى بستة رشاشات؟ ولما سألته عن الغرض من هذه الرشاشات، أجابني بجواب كل طالب للسلاح: إنها للدفاع. ثم أضاف إلى ذلك: إنها للدفاع تجاه هجوم الأتراك. وشعرت بأني لست في حاجة إلى تعليمات من رؤسائي لأقول له: إننا لا يخطر لنا ببال أن نقدم سلاحاً يُشهر في وجه دولة صديقة ـ يقصد الدولة العثمانية ـ ولم يكن لعبد الله أن ينتظر مني غير هذا الجواب، غير أننا افترقنا على خير ما يكون من الصداقة والودّ»[2].

شعر عبد الله بالخيبة من اجتماعه بستورز ولكن شيئاً واحداً استفاده من هذا الاجتماع هو نشوء صداقة متينة بينه وبين ستورز. فقد كان كلاهما مولعين بالشطرنج وبالأدب العربي القديم، وصار من عادة عبد الله أنه كلما مرّ بالقاهرة التقى بصديقه ستورز، ويجري التقاؤهما عادة في غرفة خلفية في بناية جريدة المقطم[3]. ويقول ستورز في مذكراته: إن العلاقة بينه وبين عبد الله صارت تنمو بمرور الزمن[4].

---

(1) جورج أنطونيوس (المصدر السابق) ـ ص 206.

(2) Storrs (Orientations) - London 1939 - p. 129 - 130.

(3) زين نور الدين زين (الصراع الدولي في الشرق الأوسط) ـ بيروت 1971 ـ ص 205.

(4) Storrs (Op. cit) p.120.

علي أصغر البزاز:

عندما أُعلنت الحرب العالمية في أوروبا في آب 1914، كان كتشنر في إجازة في بريطانيا فعُين وزيراً للحربية فيها. وكتب إليه ستورز من القاهرة قائلاً: «هل لك أن تفوّضني في التأكّد من عبد الله عن الاتجاه الذي سيسير فيه العرب إذا دخلت تركيا الحرب، إذ إن من الواضح أن انحيازهم إلى جانبنا، فضلاً عن الاعتبارات الأخرى، سيقوي من موقفنا العسكري»[1]. فوصل الرد في 24 أيلول إلى القائم بأعمال دار الاعتماد البريطاني في القاهرة على النحو التالي:

«اطلب من ستورز أن يرسل من قبلي رسولاً سرياً يجري اختياره بحذر إلى الشريف عبد الله للتأكد هل سيقف هو ووالده وعرب الحجاز إلى جانبنا أو سيكون ضدنا فيما إذا تمكّن النفوذ الألماني المسلح في اسطنبول من إرغام السلطان رغم إرادته، وإرغام الباب العالي، للقيام بأعمال عدوانية وحربية معادية لبريطانيا العظمى»[2].

أخذ ستورز بناءً على هذه الأوامر التي تلقاها يبحث عن رسول أمين ليرسله إلى مكة. وقد وقع اختياره أخيراً على رجل بهائي يعمل بزازاً في حي الجمالية في القاهرة اسمه علي أصغر، وكان سبب اختيار هذا الرجل هو أنه والد زوجة حسين روحي أفندي المترجم في دار الاعتماد. ولم يشأ ستورز أن يذكر اسم هذا الرجل في مذكراته بل أطلق عليه حرف «إكس» للتستر عليه.

غادر علي أصغر القاهرة وهو يحمل معه هدية من ستورز إلى عبد الله مع رسالة يذكر فيها أن الحكومة التركية عازمة على إعلان الحرب على بريطانيا ولذا فإن الحكومة البريطانية مستعدة لتقديم المساعدات اللازمة للحسين للدفاع عن حقوق العرب. وقد وصل إلى جدة في 8 تشرين الأول، ومنها استكرى

---

(1) جورج أنطونيوس (المصدر السابق) ـ ص 209ـ 210.

(2) Storrs (Op. cit.) p.157.

حماراً لينقله إلى مكة. وعند وصوله إلى مكة لم يجد فيها الحسين وأولاده إذ هم كانوا يصطافون في الطائف كعادتهم في كل عام. وكان ينوب عن الحسين في مكة أحد أقربائه هو الشريف شرف، ويقول علي أصغر عن الشريف شرف: إنه كان مثل المصريين يعتقد بأن الألمان سينتصرون في الحرب.

أرسل علي أصغر إلى الطائف رسولاً خاصاً لكي يخبر الحسين بأمره. وانتهز الفرصة فقام بالطواف حول الكعبة. وهو يصف الطواف بأنه سخيف جداً ولكنه نوع من الرياضة البدنية الجيدة[1].

وبعد أيام قليلة وصل الحسين وأولاده إلى مكة. وحين قرأ الحسين رسالة ستورز استشار ولديه عبد الله وفيصل فيما يجيب به على ستورز، فاختلف الولدان في الرأي، إذ كان من رأي عبد الله القيام بالثورة على الأتراك وبالتعاون مع بريطانيا، أما فيصل فكان رأيه: أن العرب ليس لهم الاستعداد الكافي للثورة، وهو يخشى أن تنتهي الثورة بالفشل، ويرى من الأفضل أن يقف العرب إلى جانب تركيا في ساعة محنتها فيكسبوا بذلك عرفانها.

كان كل من عبد الله وفيصل مصراً على رأيه لا يتزحزح عنه. وبعد التفكير توصل الحسين إلى قرار وسط هو أن يكتب عبد الله إلى ستورز يخبره بأنه راغب في الوصول إلى تفاهم مع بريطانيا ولكن مركزه الديني يمنعه من تغيير موقف الحياد الذي هو عليه، وأنه مع ذلك قد يعلن الثورة على الأتراك إذا اضطروه إلى ذلك على شرط أن تتعهد له بريطانيا بتقديم مساعدة فعّالة[2].

عاد علي أصغر بالجواب إلى القاهرة، فوصلها في 31 تشرين الأول. وكانت الحرب قد أُعلنت بين بريطانيا وتركيا في ذلك اليوم. وقد أبرقت دار الاعتماد بجواب عبد الله إلى كتشنر فوراً، فجاء الجواب منه في اليوم نفسه، وهذا نصه:

---

(1) Loc. cit.

(2) جورج أنطونيوس (المصدر السابق) ـ ص 211 ـ 212.

«سلامات إلى الشريف عبد الله. لقد تمكّنت ألمانيا الآن من شراء الحكومة التركية بالذهب بالرغم من أن بريطانيا وفرنسا وروسيا قد تكفلت بالحفاظ على سلامة الأمبراطورية العثمانية إذا بقيت تركيا على الحياد في هذه الحرب. إن الحكومة التركية قامت، على غير رغبة السلطان وبسبب الضغط الألماني، بارتكاب أعمال حربية بغزوها حدود مصر بعصابات مسلحة يتبعها جنود أتراك يتجمعون الآن في العقبة لغزو مصر. فإذا ساعدت الأمة العربية بريطانيا في هذه الحرب فإن بريطانيا ستضمن عدم وقوع تدخل في الشؤون الداخلية للجزيرة العربية وستقدم للعرب كل مساعدة ضد أي عدوان أجنبي خارجي. ومن الممكن أن يتولّى الخلافة في مكة أو المدينة شخص من العنصر العربي العريق، ويمكن أن يحدث خير بإذن الله من هذه الشرور الواقعة الآن»[1].

أعد ستورز رسالة إلى عبد الله وفق هذه البرقية التي وصلته من كتشنر، وحمل علي أصغر الرسالة إلى مكة، وعاد منها إلى القاهرة في 10 كانون الأول. فكتبت دار الاعتماد في القاهرة إلى وزارة الخارجية البريطانية في لندن البرقية التالية:

«عاد الرسول من رحلته الثانية يحمل رسالة ثانية من الشريف عبد الله والرسالة مكتوبة بعبارات ودية وتؤكد مرة ثانية مشاعره الودّية تجاه بريطانيا العظمى وتنص بصراحة على أن والده لا ينوي اتباع سياسة معادية لمصالحنا. وأكّد شريف مكّة في حديث شفوي مراراً على أن صداقته أقوى كثيراً مما تعبّر عنه رسالته ولكنه أشار إلى أن مركزه في العالم الإسلامي والوضع السياسي الراهن في الحجاز يجعلان من المستحيل عليه قطع علاقته حالاً مع تركيا ولكنه بانتظار الفرصة المؤاتية. وقد أخبر الرسول بأن الأتراك يستغلون بين العرب قطعنا المزعوم للمؤون عن الأماكن المقدسة»[2].

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو 371 ـ 2139).

(2) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 2139).

بعثة فيصل:

لم يكن الأتراك يعرفون ما يجري من اتصال خفي بين الحسين والإنكليز. ولما أعلنوا دعوة «الجهاد» أرسلوا إلى الحسين يطلبون منه تأييد الدعوة، فأجابهم قائلاً: إنه يؤيد الدعوة من صميم قلبه وهو يضرع إلى الله أن يكللها بالنجاح ولكنه يخشى أن يشارك في الجهاد فينتقم الإنكليز منه بقصف موانيه وقطع المواد الغذائية عن الحجاز فتنشأ المجاعة فيه وتثور القبائل.

أدرك الأتراك أن الشريف يتمحل الأعذار لكي يتقاعس عن نصرتهم، فعزموا على التخلّص منه. وفي أحد الأيام من شهر شباط 1915 بينما كان الوالي التركي وهيب باشا مسافراً من مكة إلى المدينة سقطت حقيبة من أمتعة أحد حاشيته، فعثر عليها أعرابي وسلمها إلى الشريف علي، وأرسلها علي بدوره إلى أبيه. وتبيّن أن الحقيقة تضم وثائق فيها دليل على أن الأتراك يدبرون مؤامرة ضد الحسين.

قرر الحسين إرسال ولده فيصل إلى اسطنبول، وكان السبب الظاهر لذلك هو أن يعرض على السلطان وعلى الصدر الأعظم شكواه من الوالي وهيب باشا، أما السبب الحقيقي فهو الاتصال بالزعماء العرب في دمشق ومعرفة موقفهم من عروض كتشنر ومدى تحمسهم لها واستعدادهم لتنفيذها.

وصل فيصل إلى دمشق في 26 آذار 1915، فاستقبله جمال باشا بمظاهر الترحيب ودعاه للإقامة في مقرّ القيادة العامة، ولكن فيصل اعتذر عن قبول الدعوة بحجّة أنه كان قد وعد آل البكري بالنزول عندهم. وقد قضى فيصل في ضيافة آل البكري أربعة أسابيع اجتمع فيها سراً بالأعضاء البارزين من جمعية «العربية الفتاة»، وانضم إلى جمعيتهم بعد أن حلف اليمين، كما اجتمع بالضباط العرب من أعضاء جمعية «العهد»، وبعض الزعماء الدمشقيين كرضا باشا الركابي رئيس البلدية، والشيخ بدر الدين الحسين كبير علماء الشام. وكانت محادثات فيصل معهم تجري في غاية الحذر والكتمان، فكانوا يأتونه إلى دار آل البكري حوالي منتصف الليل خوفاً من الرقباء والجواسيس.

وقد أخبرهم فيصل بعروض كتشنر على والده، وعن تردّد والده تجاهها، وطلب منهم إبداء رأيهم فيها، وأعطاهم مهلة للتفكير إلى حين عودته من اسطنبول.

غادر فيصل دمشق إلى اسطنبول فوصلها في 23 نيسان، فاستقبل فيها بحفاوة. وقابل السلطان وكبار رجال الدولة وعرض عليهم الوثائق التي تتضمن المؤامرة على والده. فطيّبوا خاطره وأصدروا الأمر بنقل وهيب باشا من الحجاز وعيّنوا مكانه غالب باشا وهو رجل مسالم طيب القلب وأوصوه أن يحسن علاقته مع الحسين[1]. ويُعزى سبب هذا اللين الذي أبداه رجال الدولة تجاه الحسين إلى اشتداد حملة الدردنيل في تلك الآونة. فقد كانت الدولة العثمانية آنذاك في أحرج أوقاتها، وكادت اسطنبول تسقط في أيدي الحلفاء. ولهذا وجد رجال الدولة أن من المصلحة مداراة الحسين إلى أن تنقشع عنهم غمّة الدردنيل.

عاد فيصل إلى دمشق فوصلها في 23 أيار فوجد زعماءها قد استقرّ رأيهم على تأييد الثورة عند قيامها، وكتبوا في ذلك ميثاقاً يتضمّن خارطة للبلاد العربية التي يجب على بريطانيا الاعتراف باستقلالها لقاء قيام العرب بمؤازرتها أثناء الحرب. واختلى فيصل بياسين الهاشمي زمناً غير قصير، وكان هذا الرجل له أهمية في الشام يومذاك إذ كان رئيس أركان حرب الفيلق الثاني عشر الذي كان مقرّه في دمشق ويتألف معظم جنوده من العرب. فسأله فيصل عن نوع المساعدة التي يمكن أن تقدمها الحجاز إلى سوريا من أجل المشاركة في الثورة، فأجابه الهاشمي: «لا نطلب شيئاً ولا نحتاج إلى شيء وما عليك إلا أن تقودنا وتسير في الطليعة»[2].

أقسم ستة من زعماء دمشق يمين الولاء وتعاهدوا على أن يعتبروا الشريف حسين ممثل الشعب العربي، وعلى أن تهب الفرق العربية المرابطة في

---

(1) أمين سعيد (الثورة العربية الكبرى) ـ القاهرة ـ ج 1، ص 106.

(2) المصدر السابق ـ ج 1 ص 109.

الشام هبة رجل واحد في حالة موافقة بريطانيا على الشروط الواردة في الميثاق. وتأكيداً لهذا العهد أعطى الشيخ بدر الدين الحسيني خاتمه إلى فيصل ليسلمه إلى والده رمزاً لثقة أهل الشام به[1].

تبرع فيصل لجمعية «الفتاة» بمبلغ ألف ليرة ذهب لمساعدتها في أعمالها، وأمر بأن تكتب نسخة من الميثاق بخط صغير جداً، وأعطاها لأحد أتباعه فوضعها في حذائه وخاط عليها بطانة الحذاء. بغية إيصالها سراً إلى الحسين في مكة.

وجد فيصل أنه لا يستطيع العودة إلى الحجاز قبل أن يقابل جمال باشا ويستأذنه بالسفر، وكان جمال باشا يومذاك في القدس، فسافر فيصل إليه بالقطار. وعند وصوله انتهز الفرصة لزيارة معسكر الجيش المعد لحملة سيناء الثانية، فأقيمت له حفلة لتكريمه، وخطب هو في الحفلة فقال: «يجب على الأمة العربية أن تشترك في الجهاد، وأنا ذاهب إلى الحجاز لأعود على رأس جيش كبير من المتطوعين فيشترك في الحملة الثانية»[2].

عاد فيصل إلى مكة فوصلها في 20 حزيران 1915 وقدم لوالده تقريراً مفصلاً عن مهمته وشرح له كيف تغير هو في رأيه فبعد ما كان معارضاً للثورة على الأتراك أصبح مؤيداً لها.

مراسلات مكماهون:

استقرّ رأي الحسين أخيراً على مفاوضة الإنكليز تمهيداً لإعلان الثورة، فأرسل في منتصف تموز رجلاً يثق به إلى المعتمد البريطاني في القاهرة السر هنري مكماهون. وبدأت منذ ذلك الحين المراسلات المشهورة بين الرجلين وهي التي عُرفت باسم «مراسلات الحسين ـ مكماهون».

---

(1) جورج أنطونيوس (المصدر السابق) ـ ص 245.

(2) أمين سعيد (المصدر السابق) ـ ج 1، ص 107.

كانت المراسلات تجري باللغة العربية وقد بلغ عددها عشر رسائل، خمس منها مرسلة من الحسين إلى مكماهون، والأخرى أجوبة عليها، والملاحظ أن الحسين كتب رسائله على طريقة النثر الفني الذي اعتاد العرب عليه قديماً، حيث ملأها بالجمل المعترضة والتضمينات والاستطرادات والأمثال والحكم المأثورة والعبارات الرنانة الجوفاء. والظاهر أن مكماهون استغلّ ذلك فكان يرد على تلك الرسائل بعبارات مطاطة يخيل لقارئها أنها تتعهد بكل شيء بينما هي في الواقع لا تتعهد بشيء. ولم يفت مكماهون أن يبدأ رسائله بعبارات التحية التقليدية المليئة بالمدائح المفرطة كقوله يخاطب الشريف: «إلى السيد الحسيب النسيب، سلالة الأشراف، وتاج الفخار، وفرع الشجرة المحمدية، والدوحة القرشية الأحمدية، صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية، السيد ابن السيد، والشريف ابن الشريف، السيد الجليل المبجل، دولتلو الشريف حسين، سيد الجميع، أمير مكة المكرمة، قبلة العالمين، ومحطّ رجال المؤمنين الطائعين، عمت بركاته الناس أجمعين...»[1].

مشكلة الحسين أنه بدلاً من أن يعقد مع الإنكليز معاهدة واضحة العبارة دقيقة الدلالة، اعتمد على مثل هذه المراسلات التي يمكن تفسيرها حسب اختلاف وجهات النظر. ولما نصحه بعض مستشاريه بأن يطلب من الإنكليز وضع اتفاقية يصادق عليها البرلمان البريطاني أجابهم بأن الذين اتفقوا معه هم الحكومة نفسها، ثم أشار إلى جيبه وقال: «وعودهم هنا»[2].

يعتقد بعض الكتاب البريطانيين أن الغموض في مراسلات مكماهون كان متعمداً، وهم يعزونه إلى سكرتيره ستورز الذي كان يعرف اللغة العربية جيداً. فقد كان الإنكليز حينذاك يفاوضون فرنسا حول سوريا، وكان اتجاه المفاوضات يناقض الوعود التي قدموها للحسين. ولكي يتخلّص الإنكليز من

---

(1) انظر صورتها بالزنكغراف في: زين نور الدين زين (المصدر السابق) ـ ص 283.

(2) خيرية قاسمية (الحكومة العربية في دمشق) ـ القاهرة 1971 ـ ص 29.

هذا المأزق تعمدوا جعل مراسلاتهم مع الحسين مليئة بالغموض والعبارات الرنانة[1].

بين الباطن والظاهر:

في أوائل عام 1916 قرر الحسين إرسال ابنه فيصل إلى دمشق مرة أخرى ليدرس الوضع فيها ومبلغ استعداد الشاميين لتأييد الثورة عند قيامها. وقد سافر فيصل إلى دمشق ومعه خمسون فارساً بدعوى أنهم طلائع قوات المجاهدين التي يجري إعدادها في الحجاز للاشتراك في حملة سيناء الثانية.

نزل فيصل كالعادة في ضيافة آل البكري بينما نزل فرسانه في مزرعة لآل البكري تقع في القابون على بعد خمسة أميال من دمشق. وبعد دراسة الحالة وجد فيصل أن دمشق تختلف عمّا كانت عليه في زيارته الأولى، فقد كان جمال باشا قد بدأ منذ الصيف الماضي يشن حملة إرهاب على دعاة العروبة في الشام، فشنق عدداً منهم في 21 آب 1915، بينما كان عدد آخر منهم تجري محاكمتهم بقسوة في عالية، وتمّ نقل الضباط العرب مع جنودهم إلى أماكن نائية وجيء بقوات تركية صميمية لتحل محلهم في الشام، كما تم نفي الكثير من الوجهاء مع عائلاتهم إلى بلاد الأناضول. أضف إلى ذلك أن المجاعة قد بدأت تظهر في بلاد الشام، واستفحلت بشكل خاص في لبنان، فانشغل الناس بها عن الثورة وقضايا القومية.

وفي شهر شباط جاء وزير الحربية التركية أنور باشا إلى دمشق ومنها سافر بالقطار إلى المدينة بصحبة جمال باشا وفيصل. وقد دُعي الحسين إلى المدينة للاجتماع بالوزيرين ولكنه اعتذر عن ذلك وأرسل لكل منهما سيفاً مرصعاً.

جرى في المدينة استعراض للقوة التي كان الحسين يعدها للثورة باطناً

---

(1) Elizabeth Monrce (Britain's Monent In the Middle East) - London 1963 -p.31-32.

ويتظاهر بأنها معدّة للاشتراك في حملة سيناء. وقد وجّه أنور باشا إلى فيصل سؤالاً: هل أن هذه القوة كلها قد أعدّت لحرب أعداء الإسلام؟ فأجاب فيصل: نعم[1].

عاد أنور وجمال إلى دمشق ومعهما فيصل. وفي أوائل شهر آذار عندنا عاد أنور باشا إلى اسطنبول أبرق إلى الحسين يكرر الطلب عليه بإعلان الجهاد المقدس. وكان الحسين حينذاك قد نفد صبره وأراد أن يكشف عن بعض نيته تجاه الأتراك، فأرسل في 16 آذار برقية إلى الصدر الأعظم وأنور باشا قال فيها: إنه لا يعلن الجهاد إلّا بشروط هي: إعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين، ومنح سوريا والعراق ما يطلبانه من نظام لا مركزي، وجعل إمارة مكة وراثية في أولادي، وإذا لم تُقبل هذه المطاليب فأرجوكم أن لا تنتظروا مني الاشتراك في حرب كنت قد نصحت بأن لا تدخلوا فيها، وسأكتفي بالدعاء للدولة بالنصر والظفر.

كانت هذه البرقية ذات وقع شديد على الصدر الأعظم وأنور باشا، فأبرقا إلى الحسين بجواب عنيف أشارا فيه إلى أن فيصل سيبقى في دمشق ضيفاً على الجيش الرابع حتى نهاية الحرب. وإنكم إذا لم ترسلوا المجاهدين الذين وعدتم بإرسالهم إلى دمشق فإن النتيجة بحقكم سوف لا تكون سارة. فأجابهما الحسين قائلاً: إنه عندما بعث فيصل إلى دمشق كان يعتقد أنه سوف لا يراه مرة أخرى، فافعلوا ما شئتم.

يبدو أن الصدر الأعظم وجد أن هذا العنف تجاه الحسين قد يورطهم في مشكلة هم في غنى عنها، فأبرق إليه بعد يومين برقية فيها ما يشبه الاعتذار فأجابه الحسين بالشكر ووعده بأنه سيرسل المجاهدين حال وصول فيصل إلى المدينة[2].

---

(1) أرسكين (المصدر السابق) ـ ص 49 ـ 50.

(2) عبد الله بن الحسين (المصدر السابق) ـ ص 105 ـ 107.

فيصل ممثلاً:

مكث فيصل في دمشق مع فرسانه الخمسين زهاء خمسة أشهر، وقد برزت آنذاك مواهبه السياسية إذ كان بارعاً في مداهنته لجمال باشا وإزالة الريبة من قلبه في الوقت الذي كان أبوه يعد العدة للثورة على الأتراك.

يقول جمال باشا في مذكراته: أنه استدعى إليه فيصل في أوائل نيسان 1916 بحضور رئيس أركان حربه علي فؤاد بك، وأخذ يعاتبه عتاباً شديداً على سلوك أبيه في مكة وسلوك أخيه علي في المدينة، وقال له: «أني أريد أن تدرك أنكم إن أردتم أن تظلوا أصدقاءنا فعليكم مراعاة قوانين الصداقة، أما إذا كنتم ذوي غايات أخرى فالأولى أن تلجأوا إلى السلاح وتجنحوا إلى ثورتكم في الحال وبذلك تنتهي تلك المهزلة ويصبح كل منا عدواً للآخر ظاهر العداوة، وحينئذ يصبح الأمر بيد الله...». فامتقع لون فيصل من تأثير هذا الكلام ـ حسب رواية جمال باشا ـ وعلا وجهه الاصفرار، ثم قام من مقعده والتفت نحو جمال باشا ويده على صدره وقال: «عفواً يا صاحب السعادة! كيف يخطر لك أن تعزو إلينا أمثال هذه التهم؟ وكيف يليق بنا أن نكون خونة ونحن تلك الأسرة التي هي من سلالة الرسول والتي ترى من أكبر الشرف لها أن تكون من الرعايا المخلصين الموالين للخليفة! فأبي وأخي وأنا لسنا خائنين للشعب أو الحكومة، بل نحن الخدم الأوفياء الأمناء لسلطاننا الأمجد الذي طالما غمرنا بانعاماته، فلتكن موقناً بأني سأسوي الخلاف القائم بين أخي والحاكم بصري باشا، وسأكلفه بالحضور لتقبيل يديك!». ويقول جمال باشا: إن فيصل بعد أن خرج من عنده ذهب إلى دار علي فؤاد بك وهو في حالة تهيج وبكى بكاءً مراً. ثم يقول جمال باشا تعليقاً على ذلك: إني وأيم الله لو كنت أعلم بأمر المراسلات التي كانت تجري يومذاك بين مكماهون والشريف حسين لأمرت حالاً بالقبض على فيصل في دمشق وعلى أخيه علي في المدينة، ولأرسلت فرقة تركية على جناح السرعة إلى مكة للقبض على الشريف حسين في مكة، فأقضي بذلك على تلك الثورة المشؤومة في مهدها[1].

---

(1) جمال باشا (مذكرات جمال باشا) ـ ترجمة علي أحمد شكري ـ بغداد 1963 ـ ص 243 ـ 244.

كان فيصل في تلك الفترة يسعى للحصول من جمال باشا على عفو عن المتهمين الذين تجري محاكمتهم في عاليه، فكان يتشفّع لهم عنده ويحرض أعيان دمشق على التشفع لهم أيضاً. وفي يوم جمعة أقام فيصل وليمة لجمال باشا وضباطه في مزرعة آل البكري في القابون، وحاول بعد الفراغ من الطعام أن يدير الحديث إلى قضية المتهمين واستحسان العفو عنهم، فقال له جمال باشا: «لو عرفت التفاصيل لأسفت أشد الأسف على توسطك بالصفح عنهم».

وفي فجر 6 أيار تمّ شنق سبعة من المتّهمين في ساحة المرجة في دمشق، وأربعة عشر في ساحة البرج في بيروت. وكان فيصل يومذاك مقيماً في مزرعة القابون، وبينما كان يتناول طعام الإفطار مع مضيفيه من آل البكري وصلهم رسول من دمشق يحمل إليهم العدد الخاص من جريدة «الشرق» الذي كان يتضمن قصة الشنق وأسماء المشنوقين فخيم الوجوم على الحاضرين، وقرأ بعضهم الفاتحة، غير أن فيصل قفز واقفاً كمن أصابه مس مفاجىء، فانتزع الكوفية من على رأسه، ورمى بها على الأرض، وداسها بعنف، وصاح: «طاب الموت يا عرب»[1].

أسرع فيصل ذاهباً إلى دمشق حيث قابل جمال باشا وقد حدثه جمال باشا عن الأسباب التي حملته على شنق المتهمين وشرح له «خيانتهم» وكيف أنهم اتصلوا بالدول الأجنبية. ويروي جمال باشا في مذكراته: أن فيصل قال له: «قسماً بحرمة الأجداد لو علمت أن جريمة الجناة كانت بهذه الشناعة لما أحجمت فقط عن طلب الشفاعة لهم بل لطلبت أن تُمزق أوصالهم ليطول عذابهم. ألا لعنة الله عليهم»[2].

تمثيلية أخرى:

وصلت إلى فيصل في منتصف أيار رسالة سرية من أبيه يخبره فيها بقرب

(1) جورج أنطونيوس (المصدر السابق) ـ ص 584 ـ 585.
(2) جمال باشا (المصدر السابق) ـ ص 242.

اندلاع الثورة. فأخذ فيصل يبحث عن حيلة يستطيع بها مغادرة دمشق إلى مكة دون أن يثير ريبة جمال باشا.

ذهب فيصل لمقابلة جمال باشا وقال له: إن المجاهدين قد تمّ حشدهم في المدينة وأنهم على استعداد للمجيء إلى دمشق للاشتراك في حملة سيناء. وتساءل فيصل: ألا يرى الباشا أن مما يزيد من مهابة وصولهم أن يبعث والده بأحد أبنائه ليكون في مقدمتهم؟. فانطلت الحيلة على جمال باشا، واقترح على فيصل أن يكون هو في مقدمة المجاهدين. فأظهر فيصل تمنعاً وقال إن له أخوين أكبر منه سناً ويجب أن يكون لهما الحق في التقدم عليه. فأجابه الباشا قائلاً: «ومع ذلك فإني أرجوك أن تذهب، وليأت أحد أخويك أيضاً إذا استطاع، ولكن من الضروري أن تذهب إلى المدينة لتستعجل إتمام الإعدادات، ولتصحبك حاشيتك الخاصة»(1).

يدعي جمال باشا في مذكراته أنه فطن إلى حيلة فيصل وأنه إنما سمح له بمغادرة دمشق لأنه كان قد أعد خطة لضرب ثورة الحسين عند قيامها. وفيما يلي نص ما قال جمال باشا في مذكراته في هذا الموضوع:

«وفي ذات يوم حوالي منتصف مايس جاءني الشريف فيصل وأخبرني أن أخاه قد تلقى الأوامر من أبيه بالانضمام إلى جيش سيناء وأنه هو ـ أي فيصل ـ يرغب بعد استئذاني في الذهاب إلى المدينة ليجيء بأخيه إلى القدس. وأكد لي أن ذهابه سيؤثر في نفوس المجاهدين تأثيراً حسناً. ولما كنتُ قد تعوّدت الخديعة من الشريف حسين وأولاده آثرت أن أكون أنا الغالب ففكرت قليلاً ثم قلت: (حسناً جداً، لقد صرحت لك. فاْغد إلى المتطوعين في المدينة واستقبلهم باسمي ثم ائتني بهم هنا. وسآمر مصلحة السكك الحديدية بنقل الجنود، وأرسل معك بعض العلماء من دمشق ليكونوا في ركابك، وبذلك تستطيع أن تؤلف وفداً خاصاً لاستقبال المجاهدين). وما كدت أفرغ من هذه

(1) جورج أنطونيوس (المصدر السابق) ـ ص 288.

الكلمات حتى أبرقت أسارير وجهه وكاد فؤاده يطير فرحاً. فتجلّت لي الحقيقة وتكشفت، حتى لقد التفتُ إلى علي فؤاد بك رئيس أركان حربي قائلاً: (إنني موقن بأن الثورة سيشب ضرامها في الحجاز في القريب العاجل، فإني قد رأيت الشريف فيصل قد فرح أشدّ الفرح لخديعتي حتى أنه لم يستطع إخفاء شعوره). وكان علي فؤاد بك يرى رأيي وقد وافق على الخطة التي سلكتها نظراً لتقرر اتخاذ خطة أخرى...»[1].

ويقول جمال باشا أنه لم يكد فيصل يغادر دمشق بالقطار حتى أرسل وراءه قائداً معروفاً بوطنيته وثباته هو فخري باشا لكي يتسلم القيادة في الحجاز عند أول قيام الثورة. وكانت هناك قوة تركية مؤلفة من ألفين أو ثلاثة آلاف جندي قد أرسلت من اسطنبول إلى اليمن، فأمر جمال باشا بأن تبقى في المدينة وأن يتمّ تسليحها بالبنادق التي كان في النية إرسالها إلى رجال الشريف. والظاهر أن جمال كان واثقاً من أن هذه الإجراءات كافية للقضاء على الثورة في مهدها[2].

إعلان الثورة:

في صيف 1916 كان غالب باشا يتولى قيادة الجيش في الحجاز بالإضافة إلى منصب الوالي، وهو كما أشرنا إليه من قبل رجل مسالم طيب القلب. وكان يشكو من مرض الكلية، فغادر مكة مع القسم الأكبر من جنوده إلى الطائف لقضاء فصل الصيف فيها غافلاً عما يخبئه القدر له.

لم يكن قد بقي في مكة من الجيش سوى ألف ومائتي جندي. وفي صباح 10 حزيران 1916م ـ الموافق ليوم 9 شعبان 1334هـ ـ بينما كان الجنود يتدربون خارج ثكنتهم بلا سلاح فوجئوا بالرصاص ينهمر عليهم، فأسرع قائدهم درويش بك إلى التلفون وسأل الحسين عن سبب هذا الرصاص؟

---

(1) جمال باشا (المصدر السابق) ـ ص 244 ـ 245.

(2) المصدر السابق ـ ص 246 ـ 247.

فكان جواب الحسين له: «إن العرب لا ترضاكم حكاماً عليهم وأنتم في ديارهم قد أهنتموهم وعاديتموهم». وعند هذا لجأ درويش بك إلى الحيلة فتظاهر بأنه مستعد للاستسلام هو وجنوده ولكنه لم يكد يدخل الثكنة حتى أوعز إلى جنوده بتناول أسلحتهم. وبذا بدأ القتال الشديد بينهم وبين البدو المحاصرين لهم[1].

كان الأتراك يملكون مزية لم يكن العرب يملكونها في بداية الثورة هي المدافع، وكانت لديهم في مكة ثكنتان هي «جياد» التي تقع على بعد ثلاثمائة متر من قصر الحسين، وثكنة «جرول» التي كانت على بعد ألفي متر منه. وقد أخذت مدافع هاتين الثكنتين توجه قنابلها على القصر، وظلت تواصل قصفه يوماً بعد يوم. وقد أبدى الحسين شجاعة فائقة في أثناء ذلك، فكان يثابر على الجلوس في مكتبه يومياً وهو ثابت لم يغير مكان جلوسه. وقد دخلت إحدى القنابل غرفته ومرّت على قيد شبر منه واخترقت أساس الغرفة وهو لا يعبأ بها. وظلّت فرقته الموسيقية تعزف أمام القصر على عادتها في كل يوم. وحدث أن سقطت قنبلة بالقرب من العازفين فانفرط عقدهم خائفين، ولكن الحسين أمرهم أن يواصلوا العزف ولو ماتوا كلهم، فعادوا إلى العزف تحت خطر القنابل[2].

ليس هنا مجال الحديث عن الثورة العربية، وهو حديث طويل متشعّب[3]، يكفي أن نذكر هنا أن أول حامية تركية استسلمت للثورة هي حامية جدة وذلك في 16 حزيران ـ أي بعد ستة أيام من إعلان الثورة ـ وقد ساعد الأسطول البريطاني على إخضاعها. وفي 6 تموز تم الاستيلاء على ثكنتي جياد وجرول. وفي 22 أيلول استسلمت حامية الطائف. ولم يصمد في القتال سوى فخري باشا قائد حامية المدينة، فقد كان هذا الرجل شديد المراس صارماً مؤمناً بعثمانيته وصوفياً من أتباع الطريقة البكتاشية. وصار يرتقي منبر الحرم

---

(1) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) ـ ج 1، ص 243 ـ 244.

(2) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص 76.

(3) راجع الجزء الرابع من هذا الكتاب ـ الفصل الثاني.

النبوي مرة بعد مرة فيسب العرب ويسب الحسين وجميع الأشراف ويصفهم بأنهم قد تآمروا مع الكفار على الخلافة الإسلامية.

لم تتمكّن الثورة من احتلال المدينة، واكتفت أخيراً بتطويقها بقسم من قواتها بينما وجهت القسم الآخر نحو الشمال. وكانت القوات التي توجّهت نحو الشمال بقيادة فيصل بن الحسين يعاونه عدد من الضباط العراقيين والسوريين، ومعهم الضابط البريطاني المعروف لورنس. وقد احتلّت هذه القوات ميناء «الوجه» في 24 كانون الثاني 1917، والعقبة في 6 تموز، ثم وصلت إلى دمشق في 1 تشرين الأول 1918.

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن الحسين بويع بالملك في مكة في 29 تشرين الأول 1916. ويقول عبد الله في مذكراته: إن الحسين لم يكن راغباً في ذلك وأنه أصر على رفض البيعة، ولكن رجال الدولة وقواد الثورة ومن كان في مكة من كبار حجاج العراق والشام ألحّوا عليه في قبول البيعة وقالوا له: «لسنا جميعاً على استعداد لخدمة الثورة إلا على شرط قبول ما عرضناه...»، فرضي الحسين...[1].

---

(1) عبد الله بن الحسين (المصدر السابق) ـ ص 129 ـ 130.

الفصل الثالث

الحكم الشريفي في سوريا

الحكم الشريفي في سوريا

في صيف 1918 كانت قوات الأمير فيصل بن الحسين المعسكرة في شرقي الأردن تمثل الجناح الأيمن للقوات الإنكليزية المحتشدة في فلسطين بقيادة الجنرال اللنبي. وفي 19 أيلول بدأ الجنرال اللنبي بشن هجومه الكبير على القوات التركية، وفي خلال ثلاثة أيام استطاع بخطة بارعة أن ينزل بالقوات التركية ضربات ماحقة مزقتها تمزيقاً. وعند هذا صارت القوات العربية تتسابق مع القوات الإنكليزية في سبيل الوصول إلى دمشق. وفي 30 منه وصلت طلائع الفريقين إلى مقربة منها، وقد اضطر الأتراك إلى الانسحاب من دمشق على عجل، ونسفوا قبيل انسحابهم مخازن العتاد فيها على نحو ما فعلوا في بغداد عند انسحابهم منها.

وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي ـ أي 1 تشرين الأول ـ دخلت إلى دمشق الخيالة الاسترالية من الجهة الغربية، بينما دخلت إليها القوات العربية من الجهة الجنوبية. وقيل إن الجنرال اللنبي كان يرغب في أن يدخل العرب إلى دمشق مع قواته جنباً إلى جنب لكي يجعل لجيشه في أذهان الأهالي صورة الحليف لا صورة الفاتح.

كان الشريف ناصر على رأس القوات العربية الداخلة إلى دمشق ممثلاً للأمير فيصل. وكان معه عودة أبو تايه شيخ عشيرة الحويطات، ونوري الشعلان شيخ عشيرة الرولة، وسلطان الأطرش شيخ الدروز، كما كان معه لورنس ونوري السعيد. وقد قابل سكان دمشق القوات العربية والإنكليزية بحماس منقطع النظير، فكانت الشوارع مزدحمة بالجماهير إلى حدّ يكاد يتعذّر

المرور فيها، والهتافات تشق عنان السماء. وقد وصف صبحي العمري ما شاهده في دمشق عند دخوله إليها، وكان ضابطاً نظامياً في القوات العربية، فقال:

«... وعند مدخل حي الميدان شاهدنا الألوف من الخلق التي جاءت ترحب بنا. وسرنا في طريق الميدان فوجدنا الناس متجمعين على الطريق اعتباراً من بوابة الله حتى المرجة بالألوف، في الشوارع وعلى السطوح، نساءً ورجالاً وشباباً وشيباً. لقد كان الجميع يرحبون بنا بمختلف الوسائل، بالتصفيق والنداءات والأناشيد والزغاريد ونثر الأزهار. وكان في يد بعض الرجال قماقم ماء الورد والزهر يرشونه علينا، وهي عادة دمشقية للترحيب...»[1].

كان ذلك إيذاناً ببدء الحكم الشريفي في سوريا، وهو الحكم الذي دام سنتين وكان مليئاً بالأحداث المثيرة والدروس الاجتماعية. وسنحاول في هذا الفصل دراسة تلك الأحداث والدروس بإيجاز.

أول الأحداث:

أول حادث مثير شهدته دمشق في العهد الشريفي هو حادث الأميرين الجزائريين سعيد وعبد القادر. فهذان الأميران هما حفيدا الثائر الجزائري المشهور عبد القادر الجزائري. وكانا يسكنان دمشق ولهما فيها عدد كبير من الأتباع يعرفون بـ «المغاربة». والواقع أنهما أنقذا دمشق من النهب والفوضى عند انسحاب الأتراك منها في 30 أيلول، فقد وزعا اتباعهما المغاربة في مختلف أحياء المدينة، وصار هؤلاء الأتباع يجولون على خيولهم في أحياء المدينة وخاصة في أحياء اليهود والنصارى، وكان لهم أثر فعّال في نشر الأمن والطمأنينة بين السكان.

كان آخر من انسحب من الأتراك هو وكيل الوالي الميرألاي بهجت

---

(1) صبحي العمري (لورنس كما عرفته) - بيروت 1969 - ص 227.

بك، وقد اجتمع قبيل انسحابه بشكري باشا الأيوبي وسلمه إدارة المدينة.
ولكن الأيوبي وجد أن الأمير سعيد الجزائري قد تولّى الإدارة في المدينة فعلاً
فلم يشأ أن ينازعه عليها. وكان الأمير سعيد قد رفع العلم العربي على بناية
السراي، وأعلن قيام حكومة مؤقتة برئاسته باسم الملك حسين، وأبرق بذلك
إلى مختلف أنحاء سوريا.

وفي صباح اليوم التالي عندما دخلت القوات العربية إلى دمشق، كان
الأميران سعيد وعبد القادر مجتمعين مع شكري الأيوبي والشريف ناصر في
السراي، فدخل عليهم آنذاك لورنس ومعه نوري السعيد. وكان لورنس له
معرفة سابقة بالأمير عبد القادر ويحمل له حقداً ويتّهمه بالميل إلى الأتراك
وخيانة العرب. ولم يكد الأمير سعيد يلمح لورنس داخلاً حتى وقف في وجهه
وأخذ يخاطبه بلهجة تنم عن التحدّي حيث قال له: «لقد ألّفنا بالأمس أنا
وأخي عبد القادر أحفاد عبد القادر الجزائري مع شكري باشا الأيوبي سليل
صلاح الدين حكومة وطنية ونادينا بالحسين ملكاً على العرب على مسمع
ومرأى من الأتراك والألمان المدحورين»[1].

غضب لورنس من هذا الكلام غضباً شديداً وهمّ بالرد عليه، غير أنه
سمع صوت مشاجرة في القاعة المجاورة، فأسرع ليرى ما حدث، وهناك وجد
عودة أبو تايه وسلطان الأطرش قد شهر كل منهما سلاحه في وجه الآخر، كما
شهر أتباعهما أسلحتهم، وكاد الرصاص ينطلق لو لم يلق بعض الحاضرين
أنفسهم بين المتخاصمين، ويمنعونهم من إطلاق الرصاص[2].

حين عاد لورنس إلى القاعة الأولى وجد الأميرين الجزائريين قد غادراها
إلى البيت. فأرسل يستدعيهما إليه. وبعد قليل وصل الأميران إلى السراي
ومعهما حرسهما الخاص والشرر يتطاير من عيونهما. فأعلن لورنس على مشهد

(1) لورنس (أعمدة الحكمة السبعة) ـ بيروت 1963 ـ ص 437.
(2) نقلاً عن سليمان موسى (مذكرات الأمير زيد) ـ عمان 1976 ـ ص 166.

من الحاضرين قائلاً: إنه بصفته مندوباً عن الأمير فيصل يعزل حكومة دمشق المحلية التي شكلها الأمير سعيد الجزائري وأخوه ويعين بدلاً عنها حكومة جديدة برئاسة رضا باشا الركابي على أن ينوب عنه إلى حين حضوره شكري باشا الأيوبي، ويكون نوري السعيد قائداً عاماً للقوات المسلحة.

كان لهذا الكلام وقع شديد جداً على الأميرين، وأخذ سعيد يسب لورنس وينعته بأنه نصراني إنكليزي، واستنجد بالشريف ناصر عليه باعتباره ابن دينه وعنصره. ثم قام عبد القادر وهو شاهر خنجره، وانقضّ على لورنس شاتماً له وفمه يرتجف من شدة الغضب، غير أن عودة أبو تايه سارع لمساعدة لورنس وانقض على عبد القادر حائلاً دون وصوله إلى لورنس، وتدخّل نوري الشعلان معلناً أن قبيلة رولة القوية تقف إلى جانب لورنس[1]. فانسحب الأميران من السراي وهما يهددان ويتوعدان بالانتقام من لورنس لكونه نصرانياً كافراً[2].

صمم لورنس على قتل عبد القادر، وكلف نوري السعيد بذلك، وقد كلّف نوري بدوره صبحي العمري. يقول صبحي العمري في ذلك ما نصّه:

«ففي اليوم الأول أو الثاني من دخول دمشق، وكنت مسؤولاً عن أمن المنطقة الوسطى من المدينة، ومقرّي قرب مقرّ القيادة التي كانت في فندق فيكتوريا، طلبني نوري السعيد إلى المقرّ المذكور وكان لورنس جالساً بقربه وقال لي: «إن الأمير عبد القادر يشتغل ضد الحكم العربي ويعمل لحساب الفرنسيين وهو يسعى إلى الإخلال بالأمن فأريدك أن تصحب عدداً من جنود سريتك وتقتله.. فذُهشت من هذا الأمر، وبعد تفكير قليل قلت له: «أفهم من أمرك يا سيدي أنك تطلب مني إحضاره، فإذا عصى الأمر وقاوم فإننا نجلبه

(1) لورنس (المصدر السابق) - ص 439 - 440.
(2) نايتلي وسمبسون (المخفي من حياة لورنس العرب) - ترجمة لاوند والعابد - بيروت 1971 - ص 96.

حياً أو ميتاً». فغرق نوري في تفكير قصير وراح يتبادل النظرات مع لورنس ثم قال: «طيب، افعل». ثم قال: «اذهب إلى مدير الشرطة واطلب منه بصورة سرية شخصاً يدلك على بيت عبد القادر». وذهبت إلى مدير الشرطة وبلغته الأمر فأرسل إليّ الشخص، وما كدت أصل إلى مقرّي حتى جاءني رسول يبلغني طلب نوري السعيد حضوري. فلما دخلت عليه وجدت لورنس لا يزال عنده. قال لي: «صرفنا النظر عن الأمر. وخرجت...»[1].

ظل عبد القادر مطلق السراح حتى 9 تشرين الثاني 1918، ففي صباح ذلك اليوم جاء أفراد من الشرطة إليه في بيته لاعتقاله هو وأخيه سعيد. وقد تمكّنت الشرطة من اعتقال أخيه، أما هو فقد قاوم الشرطة وصار يشتم رئيس الحكومة رضا الركابي، ثم أسرع إلى فرسه وانطلق بها نحو طريق الصالحية، ولمَّا وصل إلى جسر الصالحية أطلقت عليه الشرطة النار وأردته قتيلاً.

أُودع سعيد في سجن المزة عشرة أيام، ثم نُقل إلى حيفا ووضع فيها تحت الرقابة. وفي منتصف 1919 أُطلق سراحه وسُمح له بالإقامة في بيروت. وهناك انضمّ إلى الفريق الممالىء لفرنسا والمعادي لحكومة دمشق العربية، وأخذ ينفق الأموال في الدعاية لنفسه ولفرنسا، وأقبل عليه الكثيرون من اللبنانيين يؤيدونه، وشرعت الصحف الميّالة إلى فرنسا تكيل له الثناء وتنشر أخباره بشكل يلفت الأنظار إليه ويرفع من شأنه...

النهب في دمشق:

في اليوم التالي لدخول القوات العربية دمشق وقعت فيها بعض حوادث النهب، ويعزوها لورنس إلى الأمير عبد القادر الجزائري حيث يقول: «في صباح اليوم التالي جاء لإيقاظي مواطن يرتجف من الخوف. وأبلغني بأن عبد القادر قد أعلن الثورة على الحكم الذي أقمناه في الأمس. فاستدعيت نوري

(1) صبحي العمري (المصدر السابق) ـ ص 233.

السعيد على جناح السرعة موقناً بأن هذا الجزائري الأحمق إنما يحفر قبره بيده. وكان هذا قد حشد رجاله وخطب فيهم معلناً بأن رجال الحكم ليسوا سوى صنائع بريطانيا ودعا إلى القضاء على حكمهم في المهد خدمة للدين والخلافة. وبما أن أنصاره كانوا معتادين على الطاعة دون مناقشة فقد اعتبروا كلامه منزلاً وهبوا لمحاربتنا. والدروز الذين كنت في الأمس قد رفضت إغداق المكافآت عليهم لخدمات متأخرة أدّوها إلينا، تبع عدد منهم عبد القادر، ليس حباً به، أو غيرة على الدين والخلافة، أو ولاءً للأتراك المقهورين، بل حباً بالسلب والنهب طالما أن الفرصة مؤاتية. ويثبت صحّة ذلك أنهم انقضوا على الحوانيت المفتوحة لسلب ما فيها عوضاً عن التوجّه إلينا لمحاربتنا. . .»[1].

إن صبحي العمري لا يوافق لورنس على قوله هذا، فهو يذكر الحادثة على النحو التالي حيث يقول: «. . .أصبح الأمن مستتباً ولم يعكّر صفوه سوى حادثة واحدة كانت آخر الحوادث الفردية البسيطة التي كان لا بد من وقوعها في مثل هذه الأحوال. وهذه الحادثة هي أن أفراداً من بدو الشعلان والدروز أرادوا الاستفادة من هذه الحالة لينهبوا ما يمكن أن تصل إليه أيديهم، فذهب عدد منهم إلى بعض البيوت شمالي المزة من جهة زقاق الصخر، وعدد آخر إلى قرب الربوة، فنهبوا بعض المساكن وتوجّهوا من هناك نحو دمشق. فأُعلمت بذلك وصدر لي الأمر بضربهم والقبض على من يمكن القبض عليه».

ويصف العمري كيف ضرب الناهبين بالرشاشات فيقول: «نصبنا الرشاشات في المكان الذي شُيّد عليه فندق سميراميس اليوم وانتظرت وصولهم. ولم تمر دقائق قليلة حتى رأيناهم مقبلين من جهات الربوة، وكانوا نحو مائة بين خيال وهجان. لم يكن على الشارع سوى بناية واحدة مقابل الجسر الحالي القائم بجانب التكية. وكانوا يحملون على رواحلهم ما كانوا نهبوه من الدور، كما كانوا يتقدمون وهم يحدون. تركتهم حتى وصلت

---

(1) لورنس (المصدر السابق) ـ ص 441.

مقدمتهم إلى قرب الجسر الذي يقابلنا، وعندها أمرت بفتح النار عليهم اعتباراً من مؤخرتهم حتى مقدمتهم في آن واحد. وبدؤوا يتساقطون عن رواحلهم: فالمتقدمون القريبون منا اندفعوا منهزمين من فوق الجسر باتجاه محطة الحجاز، فحصدهم الجنود برصاص بنادقهم، والآخرون منهم من فرّ على الطريق نحو بوابة الصالحية، ومنهم من فرّ على طريق الربوة. وانتهت القضية خلال عشر دقائق. وامتلأ الشارع من مقابل التكية إلى محطة الحجاز باثنين وعشرين قتيلاً ونحو من ثلاثين جريحاً. بعد ذلك أرسلت الجنود نحوهم، فجمعوا من سلم منهم كما جمعوا السلاح والإبل والخيل في اصطبلات الشرطة تحت الحراسة. أما القتلى والجرحى فتركتهم كُلاً في مكانه للعبرة. وبعد مرور ساعة وردني أمر بإطلاق سراحهم وتسليمهم رواحلهم وجرحاهم وبنادقهم على أن يبارحوا المدينة. وهكذا كان ولم يقع غير هذه الحادثة المهمة...»[1].

بين فيصل واللنبي:

في الساعة الواحدة بعد ظهر 3 تشرين الأول دخل إلى دمشق الجنرال اللنبي وهو راكب سيارة مكشوفة. فنزل في فندق فكتوريا. ويقال إنه كان عند وصوله مضطرب البال قلقاً لأنه تسلّم قبل قليل برقية تأمره بأنه عند استيلائه على دمشق يجب أن يعمل طبقاً لاتفاقية سايكس بيكو[2]، وهي الاتفاقية التي تجعل سوريا تحت نفوذ فرنسا. ويقال أيضاً إن برقيات أخرى كانت قد وصلته من دوائر بريطانية وفرنسية فحواها «اخنقوا حركة فيصل ولورنس في مهدها، أوقفوا السيل العربي. تذكروا اتفاقية سايكس بيكو»[3]. فأسرع اللنبي يستدعي إليه قائد الخيالة الأسترالي الجنرال شوفيل وطلب منه أن يبعث بسيارة ليأتي بفيصل إلى فندق فكتوريا حالاً.

---

(1) صبحي العمري (المصدر السابق) ـ ص 229.

(2) نايتلي وسمبسون (المصدر السابق) ـ ص 91.

(3) زين نور الدين زين (الصراع الدولي في الشرق الأوسط) ـ بيروت 1971 ـ ص 79.

كان فيصل عند وصول أمر اللنبي إليه قد وصل بالقطار إلى مقربة من دمشق، وكانت جماهير المدينة قد تجمّعت على أرصفة الشوارع وشرفات الدور استعداداً لاستقباله. ويبدو أن فيصل وجد نفسه في موقف حرج لا يدري كيف يخرج منه: هل يستجيب لأمر القائد فيخيب ظن الجماهير، أم يستجيب للجماهير فيعصي أمر القائد؟!

قرر فيصل الاستجابة للجماهير على أن يذهب لمقابلة القائد بعدئذٍ. ولهذا ترك السيارة التي جاء بها شوفيل وامتطى جواداً عربياً، وسار في شوارع دمشق في موكب حافل يحيط به ألف وخمسمائة فارس من البدو بأيديهم السيوف والرماح. فاستقبله الأهالي بهتاف يصمّ الأذان، ونثروا عليه الزهور والرياحين. ولم يتمالك فيصل نفسه من البكاء[1].

اتّجه فيصل في مسيرته نحو فندق فكتوريا، وحين دخل قاعة الاستقبال وجد اللنبي واقفاً ينتظره مع حاشيته. وكانت تلك أول مقابلة بينهما. يقول ويفل: إن الرجلين كانا على طرفي نقيض، فقد كان اللنبي الرجل البريطاني الضخم البنية الواثق من نفسه المعتاد على إصدار الأوامر بينما كان فيصل يمثل العربي النحيل البسيط الزاهد ولكن تبدو عليه سيماء الإمارة...[2].

يروي شوفيل في تقرير له نُشر مؤخراً: إن اللنبي بدأ يتكلم موجهاً كلامه إلى فيصل، بينما كان لورنس يترجم بينهما، فقال ما معناه إن فيصل سيتولى حكم سوريا بالنيابة عن والده تحت حماية فرنسا وبإشرافها ودعمها المالي، وإن هذا الحكم سيشمل سوريا الداخلية فقط ولا علاقة له بلبنان وفلسطين. فرد فيصل على هذا الكلام قائلاً: إنه لا يعترف لفرنسا بأي شأن وإنه على استعداد لتلقّي المساعدة البريطانية دون سواها، ولن يقبل ببلد لا منفذ له على البحر. وهنا التفت اللنبي نحو لورنس يسأله: «ألم تخبره بأن سوريا ستكون

---

(1) أرسكين (فيصل ملك العراق) ـ ترجمة عمر أبو النصر ـ بيروت 1934 ـ ص 112.
(2) زين نور الدين زين (المصدر السابق) ـ ص 79 ـ 80.

تحت وصاية فرنسا؟». فأجاب لورنس: «لا يا سيدي، كنت أجهل ذلك». فقال اللنبي له: «ولكنك كنت تعلم علم اليقين بأنه لن يكون لفيصل علاقة بلبنان». فأجاب لورنس: «لا يا سيدي كنت أجهل ذلك أيضاً».

ختم اللنبي المحاورة أخيراً بأن صرّح قائلاً: «أنا السر أدموند اللنبي القائد العام، وأنت فيصل جنرال تحت إمرتي، وعليك أن تطيع أوامري وتقبل بالوضع الحاضر إلى أن تتم تسوية الأمور بعد أن تضع الحرب أوزارها». فانصاع فيصل لهذا القرار وانصرف مع حاشيته خارجاً[1].

وعلى أثر خروج فيصل طلب لورنس من اللنبي أن يعفيه من الخدمة، وذكر له أن وقت إجازته قد حان وأنه يرغب في العودة إلى بريطانيا. فأجابه اللنبي: «نعم من الأفضل أن تسافر». فانصرف لورنس، وفي 4 تشرين الأول غادر دمشق متوجهاً إلى لندن. وفي 30 منه قابل لورنس الملك جورج الخامس لكي يتسلّم منه الوسام الذي مُنح له تقديراً لأعماله الباهرة في الثورة العربية. ويروي أحد الذين حضروا المقابلة أن لورنس رفض قبول الوسام من الملك معتذراً بأنه قد ارتبط بعهد مع فيصل بينما هو يرى الحكومة البريطانية الآن على وشك التخلّي عن العرب حسب اتفاقية سايكس بيكو. وأضاف لورنس إلى ذلك قائلاً: إنه كان أميراً بين العرب وهو الآن ينوي أن يلتزم جانبهم في السراء والضرّاء، وقد يحارب فرنسا إذا اقتضت الضرورة من أجل إنقاذ سوريا. ثم أنهى لورنس حديثه مع الملك طالباً منه المغفرة لرفضه الوسام منه[2].

حادثة في حلب:

كان الفرنسيون يبذلون أقصى جهدهم لتدعيم نفوذهم في لبنان، وجاؤوا بمبلغ ضخم من الجنيهات المصرية يُقدر بخمسة ملايين ونصف بغية توزيعه على الأنصار والدعاة. واتّخذوا منْ بيروت مركزاً لدعايتهم. يروي اسكندر

(1) نايتلي وسمبسون (المصدر السابق) ـ ص 101 ـ 102.

(2) Stewart (T.E. Lawrence) London 1977 p.216.

الرياشي أن الضابط الفرنسي كولوندر استدعى إليه الزعيم اللبناني حبيب السعد وقال له بحضور الرياشي: «الحكاية أصبحت بعد دخول الإنكليز بجيشهم الكبير حكاية تزاحم بيننا وبينهم على هذه البلاد، فهم أخذوا ينكرون علينا معاهدة سايكس بيكو ويتمسّكون بحق الفتح اعتباراً أن جيشهم هو الذي فتحها». ويقول الرياشي إن كولوندر قال له: إذا كان الإنكليز قد ملأوا سوريا ولبنان بجيوشهم فإن فرنسا ما تزال تملك وسائل أخرى لمنافستهم[1].

وفي الوقت الذي كان فيه لبنان يعجّ بالدعاية لفرنسا، كانت سوريا على العكس من ذلك تعجّ بالدعاية ضد فرنسا. واتّخذت الدعاية في كلا البلدين صبغة دينية وصارت تضرب على الأوتار الطائفية مما أدّى إلى حادثة مؤسفة في حلب.

كان سبب الحادثة أن إشاعة انتشرت في حلب في أواخر شباط 1919 مفادها أن الجنود الأرمن المتطوعين في القوات الفرنسية اعتدوا على العرب القاطنين في أطنه وما حولها، فهاج المسلمون في حلب وقرروا القيام بمظاهرة استنكارية في يوم 28 شباط، وكان ذلك اليوم يوم جمعة.

كان شكري الأيوبي يومذاك حاكماً عسكرياً لولاية حلب، بينما كان علي جودت الأيوبي حاكماً عسكرياً لمدينة حلب. ويقول علي جودت في مذكراته: إنه حين بلغه قرار المظاهرة اقترح على شكري باشا منعها لما يمكن أن ينتج عنها من محذور ولكن شكري باشا لم يوافق على اقتراحه. وبينما كان علي جودت في داره في صباح الجمعة يستقبل زائريه كالعادة إذ بجرس التلفون يرن، وإذا بشكري باشا يخبره أن مذبحة وقعت بين المسلمين والأرمن في سوق الجمعة فأسرع علي جودت ممتطياً حصانه وذهب إلى مقرّ جنوده ليوجههم إلى محل الحادثة. وفي خلال ساعة واحدة تقريباً انتهت الحادثة بعد أن سقط عدد من القتلى والجرحى قدره البعض بأكثر من مائة[2].

---

(1) اسكندر الرياشي (رؤساء لبنان كما عرفتهم) ـ بيروت 1961 ـ ص 216.

(2) علي جودت (ذكريات) ـ بيروت 1967 ـ ص 75 ـ 76.

قام الفرنسيون للحادثة وقعدوا، واعتبروها دليلاً على صحّة ما يدعونه من أن العرب لا يصلحون للحكم الذاتي، وأخذوا ينشرون الدعاية السيئة حولها في أوروبا[1]. وأخذت جمعية الصليب الأحمر الأمريكية تبذل المساعدة لمن شاء من الأرمن للهجرة من حلب، فأوصلتهم إلى بيروت وأمّنت سفرهم بحراً إلى البلاد التي اختاروها[2].

أُستدعي شكري الأيوبي إلى دمشق وحلّ محله جعفر العسكري، كما عُيّن ناجي السويدي معاوناً له[3]. ودعا ناجي السويدي وجهاء الأرمن والمسلمين إلى اجتماع عام من أجل تصفية القلوب. وعلى أثر ذلك أقام وجهاء الأرمن حفلة شاي في الميتم الأرمني دعوا إليها وجهاء الحلبيين من جميع الطوائف، فتبادلوا عواطف الودّ والإخاء وأبرق وجهاء الأرمن إلى المفوضية الفرنسية العليا في بيروت يرجون منهم عدم استخدام متطوعي الأرمن ضد سوريا والسوريين[4].

فيصل في فرنسا:

في 8 تشرين الثاني أرسل لورنس إلى الحسين في مكة البرقية التالية:

«أعتقد أن محادثات ستجري بين الحلفاء في باريس خلال خمسة عشر يوماً حول قضية العرب. إن الجنرال اللنبي قد أبرق بأنك ترغب في أن يكون لك مندوب هنالك. فإذا كان الأمر كذلك، فإني آمل أنك سوف ترسل فيصل لأن انتصاراته الباهرة قد جعلت له سمعة شخصية في أوروبا... فإذا وافقت على إرساله أرجو أن تبرق إليه لكي يكون مستعداً أن يغادر سوريا حالاً، ولمدة شهر واحد تقريباً، كما أرجو أن تطلب من الجنرال اللنبي لكي يعدّ

(1) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) ـ بغداد 1925 ـ ج 3، ص 142.
(2) يوسف الحكيم (سوريا والعهد الفيصلي) ـ بيروت 1966 ـ ص 61.
(3) علي جودت (المصدر السابق) ـ ص 78.
(4) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ـ ص 61.

سفينة لنقله إلى فرنسا. إنك يجب أن تبرق إلى حكومات بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة وإيطاليا تخبرهم أن ابنك ذاهب إلى باريس مندوباً عنك»[1].

وعلى أثر تسلم الحسين هذه البرقية أبرق إلى ابنه فيصل برقية كان هذا نصها:

«حليفتنا بريطانيا العظمى ترغب حضورك نائباً عن مصالح العرب، وكل ما يكون أساساً لحياتهم سواء ما يتعلق بالحدود أو الإدارة مما هو معلوم لديك في مجتمع سيعقد في باريس في 24 نوفمبر الجاري، فإنفاذاً لرأي عظمتها توجّه بكل سرعة ممكنة لباريس... وحيث إن رابطتنا الوحيدة هي العظمة البريطانية ولا علاقة لنا ولا مناسبة مع سواها في أساساتنا السياسية، فكل ملاحظاتك وما تراه في الموضوع تبديه لعظمائها ونوابها الأماجد إن كانوا زملاءك في المجتمع أو معتمديها السياسيين، وما يكلفونك به من قول أو عمل إن كان في المجتمع أو سواه تعمل به، وتجنب كل ما سوى ذلك. هذه درجة مأذونيتك عمّا يختصّ بالمجتمع وخير الأهالي بالمصلحة والقصد والله يتولاّك»[2].

وفي 16 منه أبرق لورنس إلى فيصل عن طريق وزارة الخارجية البريطانية يطلب منه أن يأتي إلى أوروبا بملابسه العربية وأن يصحبه ضابط عراقي واحد، هو نوري السعيد إن أمكن، كما يصحبه أيضاً اثنان من أعوانه السوريين الرئيسين[3].

كان فيصل عند وصول برقية أبيه في حلب، فأسرع متوجهاً إلى بيروت عن طريق حمص وطرابلس. ولما وصل إلى بيروت استقبله المسلمون فيها استقبالاً حماسياً عظيماً، وقد أوقف بعض الشبان عربة فيصل وحلوا رباط جيادها وأخذوا يجرونها في شوارع بيروت وهم ينادون: «ما بنرضى غيرك

---

(1) Mousa (T.E. Lawrence) -London 1967 -p.216.

(2) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ـ القاهرة 1967 ـ ص 174.

(3) Mousa (Op. cit.) -p.217.

سلطان» و«لا نرضى إلّا بالعرب»[1]. والظاهر أنهم أرادوا بذلك تحدي الفرنسيين وأعوانهم المارونيين.

انزعج الفرنسيون من هذه الزيارة حتى أنهم كادوا يتجاهلونها، واعتبروها جزءاً من المخطط البريطاني الرامي إلى تشجيع الفئات اللبنانية الموالية لبريطانيا ولفيصل، وكذلك اعتبروها جزءاً من جهود فيصل في سبيل ضم لبنان إلى حكومة دمشق[2].

غادر فيصل بيروت في 20 تشرين الثاني على ظهر طراد بريطاني ومعه حاشية مؤلفة من نوري السعيد ورستم حيدر وفائز الغصين وتحسين قدري وأخيه الطبيب أحمد قدري. فوصل إلى مارسيليا في 25 منه، وهناك وجد لورنس في استقباله وهو بملابسه العسكرية ولكنه كان واضعاً العقال على رأسه بدلاً من القبعة العسكرية.

كان في استقبال فيصل من الجانب الفرنسي الكولونيل بريموند، وهو الضابط الذي عاش في المغرب عدة سنوات وأتقن اللغة العربية. وكان استقباله مزيجاً من الجفاء والمجاملة، وقد أخبر بريموند فيصل بأن الحكومة الفرنسية ترحب به ضيفاً كريماً ولكنها لا تعترف له بأي مركز دبلوماسي، أي إنها لا تعتبره مندوباً للملك حسين في مؤتمر الصلح. ثم التفت بريموند نحو لورنس قائلاً له: إن الحكومة الفرنسية ترحب به كضابط بريطاني يلبس الملابس المناسبة لرتبته العسكرية إنما هي لا ترحب به إذا ظل متنكراً بزي العرب. وقد غضب لورنس من ذلك وقال: «إنكم تطردونني وسأسافر في هذا المساء». وغادر لورنس فرنسا فعلاً بعد أن أعاد للفرنسيين الوسام الذي كانوا قد منحوه إياه خلال الحرب.

كان الفرنسيون يعتقدون أن لورنس يعمل ضد مصالحهم وأنه يحرّض

---

(1) سليمان موسى (الحركة العربية) ـ بيروت 1970 ـ 417.

(2) زين نور الدين زين (المصدر السابق) ـ ص 92.

فيصل على مقاومة مطامحهم في سوريا. وكانوا كذلك يعتقدون أن دعوة الملك حسين لإرسال مندوب عنه في مؤتمر الصلح هي من تدبير لورنس[1].

نظمت الحكومة الفرنسية لفيصل منهجاً طويلاً قصدت به أن يزور مواقع المعارك التي جرت خلال الحرب، وقد أحاطته بكل مظاهر التكريم والتبجيل بغية التأثير عليه نفسياً. وفطن فيصل إلى أنها تريد إبعاده عن باريس وعن الاشتراك في مؤتمر الصلح عند افتتاحه[2].

لم يتحمل فيصل هذه المكايدات الفرنسية، فأمسك بيد بريموند وأخذه إلى جانب وقال له: «نحن حاربنا معاً جنباً إلى جنب، ومعنى ذلك أننا إخوة في السلاح. أخبرني بصراحة ما هي الحقيقة؟ وكذلك أخبرني بلا مواربة هل أن الحكومة الفرنسية ترغب في حضوري إلى باريس أم لا؟ لقد تركت أخي زيد في دمشق نائباً عني، وهو شاب، ولما كانت الأمور غير مستقرة هنالك فإن من الأفضل لي أن أعود إلى دمشق بدلاً من إضاعة الوقت هنا»[3].

أثرت هذه الكلمة في بريموند فاتصل بحكومته يقترح عليها دعوة فيصل لمقابلة رئيس الجمهورية. وأخذت الحكومة بهذا الاقتراح ،وفي 7 كانون الأول قابل فيصل هنري بوانكاريه رئيس الجمهورية الفرنسية، وكان المترجم بينهما قدور بن غبريط التونسي. ولم تدم المقابلة سوى دقائق، ولم يتجاوز الحديث فيها عبارات المجاملات المألوفة[4].

فيصل في بريطانيا:

في 9 كانون الأول غادر فيصل مع حاشيته باريس متوجهاً إلى لندن، فجرى له فيها استقبال حافل، ونزل ضيفاً على الحكومة البريطانية في فندق

---

(1) Mousa (Op. cit) -p.218.

(2) أحمد قدري (مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى) ـ دمشق 1956 ـ ص 94.

(3) Mousa (Op. cit.) p.219.

(4) خيرية قاسمية (عوني عبد الهادي) ـ بيروت 1974 ـ ص 21.

«كارلتون» الذي كان أفخم فنادق لندن في تلك الأيام. وقد مكث فيصل في بريطانيا شهراً واحداً، وكان لورنس يلازمه كظله ساعياً لتلبية طلباته، ويخاطبه بكلمة «سيدي».

وفي 12 منه قابل فيصل الملك جورج الخامس، وكان لورنس معه بصفته مترجماً وقد لبس الملابس العربية كاملة. وقد أثارت هذه الملابس امتعاض أحد رجال حاشية الملك، وأخذ يوبخ لورنس قائلاً: «هل من الصواب، يا كولونيل لورنس، أن يأتي أحد رعايا الملك، وهو ضابط علاوة على ذلك، لابساً ملابس أجنبية؟». فأجابه لورنس بهدوء: «إذا كان الإنسان يخدم سيدين وقد تحتم عليه أن يغيظ أحدهما فمن الأفضل أن يغيظ أقواهما.. إني جئت لأكون مترجماً للأمير فيصل وهذا هو زيه»[1].

قدم الملك جورج قلادة فكتوريا إلى فيصل وقال: إنه يقدمها تذكاراً للدماء المشتركة التي أهرقها العرب والإنكليز في ساحات القتال جنباً إلى جنب، وأنه يؤمل أن يكون الودّ بينهما دائماً إلى ما لا نهاية له. وتكلم فيصل فقال: إنه جاء مندوباً عن والده لتقديم الشكر على ما لقيه من مساعدة من الملك جورج وحكومته وأن والده يتمنى أن تبقى محبتكم نحونا مدى الأيام. فأجاب الملك جورج: إننا لا نتخلى عن مساعدة والدكم والعرب جميعاً وأطمنكم أنكم ستجدون بريطانيا معكم...[2].

كان فيصل طيلة المدة التي قضاها في لندن موضع احترام وتكريم، إذ كان كبار الشخصيات البريطانية يتسابقون للقائه وإقامة المآدب الفخمة له في قصورهم. ويقول عوني عبد الهادي الذي كان أحد أفراد حاشيته: «إن هذه الأيام القليلة التي قضاها الأمير فيصل في لندن كانت كافية لتطور سموه تطوراً كبيراً، نقلته من أمير عربي عريق في البداوة إلى أمير متحضر»[3].

---

(1) Hart (T.E Lawrence) -London 1965 -p.386.

(2) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص 425.

(3) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص 23.

اتفاقية وايزمن فيصل:

انتهز وايزمن ـ الزعيم الصهيوني المعروف ـ فرصة وجود فيصل في لندن فطلب منه موعداً لمقابلته بغية إقناعه بالموافقة على وعد بلفور. وفي 11 كانون الأول 1918 جرت أول مقابلة بينهما في فندق كارلتون، وحضر المقابلة لورنس بصفته مترجماً.

المظنون أن وايزمن استغلّ حالة القلق التي كانت مستحوذة على فيصل تجاه مطامع الفرنسيين في سوريا وميل البريطانيين للمساومة معهم على حساب العرب، فأخذ يشرح لفيصل كيف أن اليهود يمكن أن يكونوا السند الوحيد للعرب في هذه المحنة: فاليهود لديهم المال الكثير والخبرة الاقتصادية، كما أن لهم نفوذهم الكبير في مختلف الدول الكبرى ولا سيما في أمريكا، فإذا اتّفق العرب معهم، وهم أبناء عم، فليس هناك قوة في الأرض تستطيع أن تهضم لهم حقاً. وذكر وايزمن لفيصل أن اليهود ليس لهم أية مطامع سياسية في فلسطين، فهم تجار وأصحاب أموال، وليس لديهم سلاح يقاتلون به أو يستحوذون به على البلاد، كل غرضهم هو تعمير البلاد العربية بأموالهم وعقولهم، فالأراضي العربية كثيرة غير معمورة بينما اليهود على استعداد لتقديم يد العون للعرب كأصدقاء مخلصين...[1].

ظل وايزمن يردّد على فيصل هذه الأقوال وأمثالها. ومن الجدير بالذكر أن هذه الأقوال لم تكن جديدة، فطالما كان الصهاينة يرددونها على زعماء العرب منذ عهد ما قبل الحرب، وقد صدق بها بعضهم، ولا سيما بعض أقطاب حزب اللامركزية في مصر[2]، كما صدق بها الحسين نفسه[3]. أضف إلى ذلك أن لورنس كان يرى مثل هذا الرأي في اليهود وقد بذل جهده في إقناع فيصل بصحته.

---

(1) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص 435 ـ 436.

(2) عبد العزيز محمد عوض (الشخصية الفلسطينية والاستيطان اليهودي) ـ في مجلة (شؤون فلسطينية) ـ في عددها الصادر في آب 1974.

(3) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص 428.

يمكن القول على أي حال أن وايزمن استطاع بمعونة لورنس أن يؤثر على فيصل تأثيراً بليغاً، وأن يقنعه بصحة ما قال له عن إخلاص اليهود للعرب ومدى الفائدة التي سيجنيها العرب منهم. فلما انتهى وايزمن من كلامه مع فيصل، تكلم فيصل قائلاً: «إن العرب سيقبلون مطلوب اليهود إذا لمسوا منهم الإخلاص والنفع، فالعرب بحاجة إلى الأموال لإصلاح ما فسد في بلادهم، ويطلبون منكم المعاونة السياسية عند الأمم وخصوصاً أمريكا». وعند هذا مدّ وايزمن يده وقال لفيصل إنه يعاهده باسم اليهود «بأننا نموت سواء ونحيا سواء». فقال فيصل: «إن وفيت بقولك هذا فإني موفي لك بقولي المملكة العربية لا تتجزأ»[1].

تم الاتفاق بين فيصل ووايزمن أخيراً على توقيع اتفاقية تتضمن تسع مواد تنص على القرابة العرقية والصلات القديمة بين العرب واليهود، وعلى ضرورة التعاون بينهما، وتقديم الضمانات لتنفيذ تصريح بلفور، وتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وحرية ممارسة العقيدة الدينية.

يبدو أن فيصل حين رأى الصيغة النهائية للاتفاقية مكتوبة على الآلة الطابعة ومعدّة للتوقيع عليها أدرك مغبة ما فعل، ولهذا وجدناه يمسك القلم ويكتب في ذيلها التحفظ التالي:

«إذا نالت العرب استقلالها كما طلبناه بتقريرنا المؤرخ 4 كانون الثاني 1919 المقدم لنظارة خارجية بريطانيا العظمى فإنني موافق على ما ذكر بنطاق هذه المواد وإن حصل أدنى تغيير أو تبديل فلا أكون ملزوماً ومربوطاً بأي كلمة كانت بل تُعد هذه المقاولة لا شيء ولا حكم لها ولا اعتبار ولا أطالب بأي صورة كانت»[2].

لا شك أن هذه العبارة التي كتبها فيصل كانت ضربة سياسية بارعة جعلت الاتفاقية لا قيمة لها من الناحية العملية، ولكننا مع ذلك نلاحظ أن

(1) المصدر السابق ـ ص 43.

(2) انظر صورة التحفظ بالزنكغراف كما كتبه فيصل بخطه في مجلة (آفاق عربية) ـ في عددها الصادر في حزيران 1977 ـ ص 117.

لورنس حين ترجم العبارة إلى اللغة الإنكليزية أجرى عليها بعض التحريف بحيث شوّه المقصد منها. فقد كانت ترجمتها على النحو التالي:

«إذا تأسس العرب كما طلبناه في تقريرنا المقدم إلى وزارة الخارجية البريطانية فإنني سأنفذ ما كُتب في هذه الاتفاقية. وإذا حدثت تغييرات فإنني غير مسؤول عن فشل تنفيذ هذه الاتفاقية»[1].

يواجهنا هنا سؤال: هل كان لورنس في تأييده للصهيونية عميلاً لها مأجوراً، أم كان ينفذ تعليمات بلفور وزير الخارجية البريطانية، أم كان غير ذلك؟.

في رأي المؤرخ البريطاني المعروف توينبي أن لورنس إنما كان في محاولته التقريب بين العرب واليهود يعمل بدافع من اجتهاده الشخصي. يقول توينبي في هذا الصدد ما نصه: «. . . إن لورنس كان رجلاً مستقل الرأي. وفيما أعلم فإن لورنس نصح فيصلاً بأنه لا يستطيع أن يحارب على جبهتين في وقت واحد: فرنسا والصهيونية، وإن خطر فرنسا ماثل للعيان وهي تريد القضاء على سوريا بينما مشاريع الصهاينة ما تزال في نطاق النظريات، وأن الحكمة تقضي عليه الآن أن يستعين باليهود لمقاومة فرنسا، وفيما بعد يكون لكل حادث حديث»[2].

إن عوني عبد الهادي الذي كان من حاشية فيصل في لندن له رأي آخر في لورنس، فهو يقول: «لقد كان لورنس يلعب على الحبلين، كان يتظاهر للعرب بأنه عربي صميم وأنه صديق العرب الحميم، فيما كان يعمل لمصلحة العرب مرة ويعمل لمصلحة اليهود مرة أخرى. ولورنس هو إنجليزي وليس عربياً ولا يهودياً. وليس من يجهل الدور الذي لعبه في إقناع سمو الأمير بتوقيع الاتفاقية المعروفة باتفاقية فيصل ـ وايزمان»[3].

ولا بد لنا في هذه المناسبة من أن ننقل رأي وايزمن نفسه في لورنس. فهو يقول عنه في مذكراته ما نصّه «ينبغي في هذه النقطة أن أظهر تقديري للخدمات

---

(1) المصدر السابق ـ ص 119.

(2) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص 434 (حاشية).

(3) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص 25.

التي قدمها لورنس لقضيتنا، وأن أضيف شيئاً في وصف شخصيته الرائعة... إن علاقته بالحركة الصهيونية كانت إيجابية جداً، على الرغم من كونه شديد الميل للعرب وما وصف به خطأ من كونه معادي للصهيونية، لقد كان رأي لورنس، كما كان رأي فيصل، أن اليهود يمكن أن يقدموا مساعدة عظيمة للعرب، وأن العالم العربي سيجني نفعاً كثيراً من إنشاء وطن لليهود في فلسطين...»[1].

عودته إلى باريس:

عاد فيصل مع حاشيته إلى باريس في 9 كانون الثاني 1919، فنزل في قصر الكونتيسة تونير ضيفاً على الحكومة الفرنسية. وكتب فيصل إلى الحكومة الفرنسية يطلب السماح له بحضور مؤتمر الصلح ممثلاً للبلاد العربية. فجاء الجواب منها مفاده أن الحكومة الفرنسية تأسف لعدم تمكّنها من حجز مقعد له في المؤتمر. وكان هذا الجواب صدمة عنيفة لفيصل. وأسرع لورنس لمقابلة لويد جورج واللورد كرزن اللذين كانا نازلين في فندق «استوريا». وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل عاد لورنس إلى فيصل، وكان فيصل ما زال ساهراً وهو يتمشى في غرفته نهب الحيرة والقلق، فبادره لورنس قائلاً: «سيدي، لويد جورج يهديك سلامه ويقول لك لقد خصص لك مقعدان في المؤتمر بدلاً من واحد»[2]. فابتهج فيصل بذلك كثيراً وارتفع اعتبار لورنس في نظره[3].

افتتح مؤتمر الصلح في ضاحية فرساي في 18 منه. وقد مثل العرب فيه فيصل ورستم حيدر، وكان يساعدهما نوري السعيد وعوني عبد الهادي ولورنس. وكان لورنس يضع العقال على رأسه، فكان ذلك يزعج الفرنسيين.

يمكن القول بوجه عام إن وجود فيصل في مؤتمر الصلح قد أكسب العرب شيئاً من السمعة وزاد من عدد أنصارهم. فهو قد بهر الأنظار ـ ولا سيما أنظار النساء ـ بوسامته وعباءته البيضاء الفضفاضة وعقاله المذهب.

---

(1) Weizmann (Trial and Error) -New York 1949 -p.236.

(2) خيرية قاسمية (الحكومة العربية في دمشق) ـ القاهرة 1971 ـ ص 95.

(3) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص 465.

ودأبت الصحف على نشر صوره والحديث عنه. ولم يكن الأوروبيون يومذاك قد اعتادوا على رؤية شيوخ العرب كما اعتادوا عليها في أيامنا هذه.

وقد تذكروا عند رؤيته مباهج ألف ليلة وليلة. يقول عنه أحد الأمريكيين الذين حضروا المؤتمر وهو المحامي روبرت لانسنغ: «إن صوته يبدو كأنه ينفث رائحة البخور ويدل على وجود سجادات باذخة وعمائم خضر تلمع بالذهب والجواهر». ويصف هذا المحامي شخصية فيصل بقوله: «إنه مع حداثة سنه قد أبدى نضوجاً في التفكير قلّما يُشاهد في الشباب، وكان يبدو في مظهره ولباسه كأحد الأنبياء الأقدمين الذين ينوؤون تحت المعرفة الثقيلة»[1].

وكان من بين الذين انجذبوا إلى فيصل الأديب الفرنسي أناتول فرانس. فقد كان هذا الأديب يسكن في شارع الشانزليزيه قريباً من القصر الذي نزل فيه فيصل، وكثيراً ما كان يتردد على فيصل ويتناول الطعام على مائدته[2]، كما كان يدعو فيصل إلى مائدته ومعه رؤساء تحرير الصحف الفرنسية[3].

وكذلك انجذبت إلى فيصل زوجة الرئيس الأمريكي ويلسون، فهي وصفت فيصل بأن وجهه يشبه صورة المسيح. وكتبت إليه فيما بعد عدة رسائل. والمظنون أنها كانت ذات تأثير على زوجها في مصلحة العرب[4].

ومن الجدير بالذكر أن الإنكليز كان لهم ضلع في ترويج الدعاية لفيصل في أروقة المؤتمر وعلى أعمدة الصحف. والمظنون أنهم كانوا يريدون أن يجعلوا من فيصل ورقة رابحة في أيديهم عند مساومتهم مع الفرنسيين في بعض القضايا المتنازع عليها ولا سيما قضية الموصل ـ كما سنأتي إليه.

وقد أدرك الفرنسيون ما وراء هذه اللعبة البريطانية من سر، وصاروا ينظرون إلى فيصل نظرتهم إلى عميل بريطاني، وأخذت الصحف فيما بعد تضرب على هذا الوتر وتحاول الحط من شأن فيصل وترويج الدعاية السيئة ضده.

---

(1) Lansing (The Big Four and Others of The Peace Cnsference) -London 1922.

(2) إبراهيم سليم نجار (الملك فيصل الأول) ـ بيروت ـ ص 67 (حاشية).

(3) خيرية قاسمية (عوني عبد الهادي) ـ ص 27.

(4) Mousa (Op. Cit.) -p.226.

ماذا جرى في المؤتمر:

تقرر أن يكون يوم 6 شباط موعداً لإلقاء فيصل خطابه في مؤتمر الصلح. وقد أمضى فيصل الليلة السابقة في إعداد الخطاب بمساعدة رستم حيدر وعوني عبد الهادي، وأعدّ لورنس ترجمة الخطاب إلى اللغة الإنكليزية بمساعدتهما أيضاً.

وعندما ألقى فيصل خطابه في الموعد المحدد كان أسلوبه هادئاً رصيناً فيه صراحة مزيجة بالتهذيب، وقد استهجن بلطف اتفاقية سايكس بيكو وبسط مطاليب العرب في الوحدة والاستقلال، وذكر كيف أن العرب انضموا إلى الحلفاء في الحرب في أحرج الأوقات وبلغت ضحاياهم عشرين ألف قتيل. وحين قاطعه أحد الحاضرين مشيراً إلى أن العرب من الشعوب غير المتقدمة حضارياً، ردّ عليه فيصل بصوت جهوري حاد قائلاً: «إنني أنتمي إلى شعب تمتّع بالحضارة عندما كانت جميع البلاد الأخرى التي يجلس ممثلوها في هذه القاعة مسكونة بالبرابرة». وقد حاول أورلاندو ممثل إيطاليا الرد عليه مشيراً إلى أقدمية روما في الحضارة، فقاطعه فيصل بشدة قائلاً: «نعم، هكذا كان الأمر قبل تأسيس روما»[1].

وقف رجل واحد في المؤتمر يؤيد فيصل بقوة، كما وقف رجل آخر يعارضه بقوة أيضاً. أما الرجل المؤيد فهو الدكتور هوارد بلس رئيس الكلية البروتستانية السورية التي تسمى اليوم بـ «جامعة بيروت الأمريكية». ويفسر اسكندر الرياشي التأييد الذي أبداه الدكتور بلس نحو العرب بأنه من جرّاء المنافسة الشديدة التي كانت موجودة في بيروت بين الكلية البروتستانية الأمريكية والكلية اليسوعية الفرنسية، فإن الفرنسيين حين دخلوا بيروت في تشرين الأول 1918 شرعوا يملؤون الدوائر الحكومية بالمتخرجين من الكلية اليسوعية والمعاهد الكاثوليكية الأخرى، فغضب الدكتور بلس من ذلك وحمل حقيبته راحلاً إلى باريس لمقابلة الرئيس ويلسون، وكانت بينهما علاقة وثيقة، فأنزله ويلسون منزلة الرفيق وأخذ يصغي إليه[2].

---

(1) Lloyd George (The Truth about the Peace Treaties) -London 1938 -vol 2, p.1039.

(2) اسكندر الرياشي (المصدر السابق) ـ ص 218 ـ 221.

وعلى أي حال فقد ألقى الدكتور بلس في 13 شباط خطاباً في المؤتمر طالب فيه بإرسال لجنة حيادية إلى سوريا للتعرّف على رغبة السكان حسب مبدأ تقرير المصير الذي يدعو إليه الرئيس ويسلون. وقد تأثّر ويسلون بهذا الخطاب إلى حدّ كبير.

أما الرجل الذي وقف يعارض فيصل في المؤتمر فهو شكري غانم وهو لبناني الأصل غير أنه كان يقيم في فرنسا منذ خمس وثلاثين سنة، وله شهرة ككاتب مسرحي، ويتولى تحرير جريدة «المستقبل» العربية التي كانت تصدر في باريس خلال الحرب.

دخل هذا الرجل إلى قاعة المؤتمر على أثر انتهاء الدكتور بلس من إلقاء خطابه، وهو على رأس وفد يسمي نفسه «الوفد السوري»، فقدم كليمنصو الوفد إلى المؤتمر ثم طلب من شكري غانم أن يلقي خطابه. فألقى شكري خطاباً طويلاً منمق العبارة تحدّى به فيصل تحدياً مثيراً حيث قال ما معناه: إن فيصل يمثل الحجاز ولا يحقّ له التكلم باسم جميع العرب ولا سيما السوريين، فإن دمشق تبعد عن مكة بما لا يقل عن ألف وخمسمائة كيلومتر، فأية صلات روحية وتقارب ذهني تربط بين الحجازي والسوري أو بين البدو والحضر؟ فإن ضمّ سوريا إلى الجزيرة العربية هو افتئات صارخ على قدسية الأرض الذي أنبتت الشعب السوري وتاريخه. ثم استطرد شكري إلى موضوع استفتاء الشعب السوري فقال إنه لا يوصي به في الوقت الحاضر وإن من الأفضل منطقياً أن تعيّن الدول الكبرى دولة من بينها لمعونة هذا البلد الصغير لكي ينهض بنفسه، ثم قال شكري راجياً من الدول أن تكون فرنسا هي التي تُوكل إليها هذه المهمة النبيلة، إذ هي الدولة الوحيدة المؤهلة لإنجاز ما يصبو إليه السوريون. ثم أنهى شكري خطابه ببيت من الشعر العربي القديم وهو:

رب يـوم بـكـيـت مـنـه فـلـمـا صـرت فـي غـيـره بـكـيـت عـلـيـه

ثم قال: «أيها السادة هل ستتركوننا نبكي على ماضينا المفجع وأنتم أملنا الوحيد، أنتم الذين نعتبركم ممثلي العدالة والحق والرحمة الإنسانية»[1].

---

(1) زين نور الدين زين (المصدر السابق) ـ ص 104 ـ 105.

لوحظ على أثر شروع شكري غانم بإلقاء خطابه أن أحد أعضاء الوفد الأمريكي دفع إلى الرئيس ويلسون قصاصة ورق ذكر فيها أن شكري قضى معظم حياته في فرنسا. فأدّى ذلك بويلسون إلى عدم المبالاة بخطابه، ثم نهض ويلسون بعد قليل وأخذ يتمشى نحو الجانب الآخر من القاعة حتى وصل إلى النافذة وصار ينظر من خلالها إلى الخارج وهو واضع يديه في جيوب معطفه، فأدّى ذلك إلى إرباك الفرنسيين وإزعاجهم. ومال كليمنصو نحو وزير خارجيته بيشون ليؤنبه على الإتيان بشكري غانم إلى المؤتمر، حيث همس في أذنه بخشونة قائلاً: «لماذا جئت بهذا الرجل إلى هنا؟» فمد بيشون يديه بصورة احتجاج يائس وقال: «لم أكن أعلم أنه سيعالج الأمر على هذا المنوال!»[1].

تعيين لجنة تحقيق:

في صباح 20 آذار جرى اجتماع سري حضره رؤساء الدول الأربع الكبرى في شقة لويد جورج بباريس، وجرى فيه نقاش حاد حول العرب والقضية السورية. وقد فتح النقاش وزير الخارجية الفرنسي بيشون فأشار إلى الاتفاق المبدئي الذي حصل بين كليمنصو ولويد جورج في لندن قبل المؤتمر، فأجابه لويد جورج أنه لا يحيد عن مضمون اتفاقية سايكس بيكو إلّا بالنسبة للموصل وفلسطين، وإذا كانت فرنسا تعتزم احتلال دمشق بجيوش فرنسية فإنه يعتبر ذلك انتهاكاً صارخاً لمعاهدتنا مع العرب، فردّ عليه بيشون: أن ليس هناك أية معاهدة بين فرنسا والعرب. فقال لويد جورج: إن اتفاقية سايكس بيكو ترتكز برمتها على رسالة بعثها مكماهون إلى الملك حسين، وهي الرسالة المؤرّخة في 24 تشرين الأول 1915، وقرأ لويد جورج منها مقتطفات تؤيد وجهة نظره، ثم أخذ يطنب في ذكر المساعدة التي قدمها الملك حسين والعرب للحلفاء في أثناء الحرب، حيث قال إن بريطانيا جنّدت حوالي مليون جندي ضد الأتراك، وأن جنودهم هم الذين احتلوا سوريا بمساعدة العرب

(1) المصدر السابق ـ ص 104 ـ 106.

الذين كانت مساعدتهم «جوهرية»، وأن الملك حسين وضع جميع موارده في ميدان القتال وقدم بذلك مساعدة مادية قصوى لكسب الحرب. وأيّده الجنرال اللنبي على قوله هذا حيث قال: «إن مساعدة العرب لا تُقدر بثمن».

وعند هذا تدخل الرئيس ويلسون في الجدال وقال: إن الولايات المتحدة لا تهمها مدعيات بريطانيا وفرنسا بالنسبة لأي شعب إلّا إذا كان الأهلون يريدونهما، ولذلك فإن السبيل الوحيد لمعالجة القضية هو اكتشاف رغبة أهالي تلك المناطق. فوافق الحاضرون على اقتراح ويلسون، ولكن كليمنصو قال إن التحقيق يجب أن يشمل فلسطين والعراق وأرمينيا، فأجاب لويد جورج أنه لا يعترض على ذلك.

وعلى أي حال فقد انتهى الاجتماع والقلوب متنافرة، حتى أن ويلسون خرج من قاعة الاجتماع وهو يلعن كل واحد وكل شيء قائلاً إنه لم يفعل طيلة ثماني وأربعين ساعة سوى الكلام وأنه مشمئز من الموضوع كله[1].

وفي اجتماع آخر عقده الأربعة الكبار في 25 آذار تمّت الموافقة رسمياً على تعيين لجنة من أعضاء فرنسيين وبريطانيين وإيطاليين وأمريكيين وإرسالها إلى سوريا وإلى المناطق المجاورة لها إنْ دعت الحاجة إلى ذلك، لكي تستطلع الحقائق وتكتب عنها تقريراً إلى مؤتمر الصلح.

كان هذا القرار مبعث سرور عظيم لفيصل. يحكى أنه حين سمع به أخذ يشرب الشمبانيا ـ لأول مرة ـ عباً كأنه يشرب الماء، ثم ركب عربته ومرّ بها على مقرّ الوفدين الأمريكي والبريطاني، فأخذ يقذف مبنى الكريون وفندق الماجستيك ووزارة الخارجية الفرنسية بالحشايا والوسائد، قائلاً إنه لا يستطيع أن يعبّر عن مشاعره إلّا بتلك الطريقة ما دام لا يملك القنابل[2].

---

(1) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص 472 ـ 473.

(2) جورج أنطونيوس (يقظة العرب) ـ ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس ـ بيروت 1962 ـ ص 400.

بين فيصل وفرانكفورتر:

في 1 آذار 1919 نشرت جريدة «الماتان» الفرنسية تصريحاً لفيصل قال فيه: «يسرّنا بحكم الإنسانية والمروءة أن نرى اليهود التاعسين يهاجرون إلى فلسطين فيقيمون على الرحب عاملين بمقتضى الواجبات الوطنية على شرط أن يكونوا تحت سلطة إسلامية أو تحت سلطة نصرانية تتلقى وكالتها من قبل عصبة الأمم».

يقول وايزمن في مذكراته: إن هذا التصريح الذي نشرته جريدة «الماتان» للأمير فيصل كان صريح العداء لنا، وقد أسرع سكرتير الأمير إلى تكذيبه[1]. أما عوني عبد الهادي الذي كان حينذاك سكرتير فيصل فقد أنكر تكذيبه للتصريح[2].

ومهما كان الحال فقد اهتم الصهاينة لهذا التصريح، واتصلوا بصديقهم لورنس لكي يعمل بما يخفف من تأثيره أو يلغيه، فدبر لورنس اجتماعاً بين فيصل والمستر فليكس فرانكفورتر عضو الوفد الصهيوني الأمريكي في مؤتمر الصلح. وتمّ الاتفاق بين الرجلين على أن يتبادلا رسالتين تتضمنان فحوى ما دار بينهما من حديث. ويقال إن لورنس وفرانكفورتر اجتمعا بعدئذٍ فكتب فرانكفورتر الرسالة التي سيوجهها باسمه إلى فيصل، وكتب لورنس الرسالة التي سيجيب فيصل بها عليه[3]. ثم ذهب لورنس إلى فيصل، وعاد وهو يحمل الرسالة وعليها توقيع فيصل. وفيما يلي نص الرسالة مترجمة عن مذكرات وايزمن:

وفد الحجاز ـ باريس

3 آذار 1919

عزيزي المستر فرانكفورتر

أود انتهاز هذه الفرصة لأول اتصال لي بالصهيونيين الأمريكيين لأخبرك

---

(1) Weizmann (Op. cit.) -p.245.

(2) خيرية قاسمية (عوني عبد الهادي) ـ ص 25.

(3) سليمان موسى (الحركة العربية) ـ ص 444.

بما كنت أقوله للدكتور وايزمن في الجزيرة العربية وأوروبا. فنحن نشعر بأن العرب واليهود أبناء عم، وأنهم يعانون نفس الاضطهاد من دول أقوى منهم. ومن حسن الصدف أنهم تمكّنوا من أن يخطو الخطوة الأولى للتعاون في سبيل تحقيق أهدافهم القومية معاً. نحن العرب، وخاصة المثقفين منا، ننظر إلى الحركة الصهيونية بعطف عميق جداً. إن وفدنا في باريس مطلع كل الاطلاع على المقترحات التي قدمتها المنظمة الصهيونية إلى مؤتمر الصلح، ونحن نعتبر هذه المقترحات معتدلة ومناسبة. وسوف نبذل أقصى جهدنا، في القدر المتعلق بنا، للعمل على تحقيقها، كما نرحب باليهود القادمين إلى الوطن ترحيباً قلبياً صميمياً. لقد كانت لدينا أوثق الصلات مع زعماء حركتكم، لا سيما الدكتور وايزمن، وهي ما زالت مستمرة. إنه كان أكبر مساعد لقضيتنا، وأنا آمل أن العرب قد يصبحون في وقت قريب قادرين على مكافأة اليهود على جميلهم. إننا نعمل معاً في سبيل إصلاح الشرق الأوسط وإنعاشه، وإن حركتنا وحركتكم تكمل إحداهما الأخرى. إن الحركة اليهودية قومية وليست استعمارية، وكذلك حركتنا قومية ليست استعمارية، وهناك مجال في سوريا لكلتيهما. أنا أعتقد في الواقع أن أية حركة منهما لا يمكن أن تنال نجاحاً حقيقياً بدون الأخرى. إن الذين هم أقلّ اطّلاعاً ومسؤولية من زعمائنا يتناسون ضرورة التعاون بين العرب واليهود، وأخذوا يستغلّون الخلافات المحلية التي لا بد أن تنشأ في فلسطين في المراحل الأولى من الحركة. وأخشى أن بعض هؤلاء قد شوّه أهدافكم لدى الفلاحين العرب، كما شوّه أهدافنا لدى الفلاحين اليهود، وكانت النتيجة أن استفاد أولو المصالح من هذه الخلافات المصطنعة. إني أودّ أن أعبّر لك عن اعتقادي الجازم بأن هذه الخلافات ليست خلافات مبدئية، إنما هي مسائل تتعلق بالتفاصيل، كشأن الخلافات التي لا بد أن تنشأ بين الأقوام المتجاورة، والتي يسهل حلّها عن طريق حسن النية المتبادل. والواقع أن كل هذه الخلافات تقريباً سوف تزول حين تتضح الحقائق وضوحاً أكمل. إنني وشعبي نتطلع إلى

اليوم الذي سوف نعاونكم وتعاونوننا فيه، حتى تستعيد البلاد التي يهمنا ويهمكم أمرها مكانها اللائق بين شعوب العالم المتمدن.

المخلص لكم

فيصل[1]

اهتم الصهاينة بهذه الرسالة واستندوا عليها أكثر مما فعلوا مع اتفاقية وايزمن فيصل. فالتذييل الذي كتبه فيصل في اتفاقيته مع وايزمن أفقدها قيمتها، أم هذه الرسالة فقد اعتبروها وثيقة مهمة في أيديهم يستندون عليها في نزاعهم مع العرب. يقول وايزمن في مذكراته: «إن هذه الرسالة الرائعة ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار من قبل النقّاد الذين يتهموننا بأننا بدأنا عملنا الصهيوني في فلسطين من غير اهتمام برغبات العالم العربي أو رفاهه. يجب أن لا يغرب عن البال أن الآراء التي تضمّنتها هذه الرسالة هي من قائد العرب المعترف به، وحامل آمالهم، وأنها كانت نتيجة مداولات عديدة...»[2].

في عام 1929 عندما جاءت لجنة شو البريطانية إلى فلسطين أبرز الصهاينة هذه الرسالة للجنة مستندين عليها. وقد اضطر عوني عبد الهادي الذي كان يومذاك في فلسطين أن يبرق إلى فيصل في بغداد يسأله مستوضحاً عنها. فأجابه رئيس الديوان الملكي رستم حيدر قائلاً: «إن جلالته لا يذكر أنه كتب شيئاً مثل هذا بعمل منه»[3]. ويعلق عوني عبد الهادي على ذلك قائلاً: «أستطيع أن أؤكد أن فيصل لم يكتب مطلقاً تلك الرسالة. فإذا كانت تلك الرسالة حقيقية فلماذا عجز الصهاينة عن إبراز نسختها الأصلية التي تحمل توقيع فيصل؟ إن كل ما أبرزوه منها نسخة ثانية مطبوعة بالآلة الطابعة مع كلمة «فيصل» في زاوية منها. ولما نظرت إليها تبيّنت حالاً أنها مزورة.. ومن المحتمل أن لورنس هو الذي أرسل الرسالة بدون علم من فيصل»[4].

(1) Weizmann (op. cit.) -p.245-246.

(2) Ibid., p.246.

(3) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص 445.

(4) Mousa (op. cit.) -p.230.

عودة فيصل:

عندما قرر الأربعة الكبار في 25 آذار 1919 إرسال لجنة للتحقيق إلى سوريا قرر فيصل العودة إلى سوريا لكي يعمل على تهيئة الرأي العام فيها لاستقبال اللجنة. فأناب عنه في مؤتمر الصلح عوني عبد الهادي ورستم حيدر، وغادر باريس متوجهاً إلى سوريا.

وصل فيصل إلى بيروت في 30 نيسان، فجرى له فيها استقبال عظيم اشتركت فيه وفود من مختلف المناطق السورية وقد غادر فيصل بيروت ترافقه تلك الوفود متّجهاً نحو دمشق، فوصلها في 3 أيار، وكان استقباله فيها منقطع النظير حيث نصبت له أقواس النصر وركب هو عربة تجرّها ثمانية جياد على طريقة ملوك بريطانيا.

كان فيصل عند وصوله منتشياً متفائلاً يظن أن الدنيا أصبحت في قبضة يده، وكان قد وضع كل أمله في لجنة التحقيق القادمة، وكان واثقاً أن اللجنة ستتعرف إلى رغبة السكان في الاستقلال ولا بد أن تستجيب الدول لتلك الرغبة وينتهي الأمر حسب المرام!.

وبعد يومين من وصوله إلى دمشق استدعى الوفود التي جاءت معه من بيروت إلى اجتماع عام يعقد مساءً في بهو دار الحكومة. وحين التأم جمعهم ألقى فيصل خطاباً طويلاً استعرض فيه الثورة التي قام بها أبوه في الحجاز، ومساعيه هو في أوروبا ومؤتمر الصلح، والصعوبات التي واجهها هناك ومبلغ نجاحه في تذليلها. والملاحظ أن فيصل أخذ في خطابه يضرب على وتر جديد لم يكن معروفاً من قبل، حيث تحوّل عن المطالبة بالوحدة العربية التي تشمل الأقطار العربية كلها إلى المطالبة باستقلال كل قطر عربي على حدة، وعلل ذلك بأن الأقطار العربية يختلف بعضها عن بعض من حيث مستوى التعليم والثقافة، ولهذا فإن الظروف الحالية ليست كافية لتجعل العرب أمة واحدة. ثم ختم فيصل خطابه بقوله: «فالموقف اليوم هو بيدكم. إن التسويات الخارجية قد تمت بفضل الباري سبحانه وتعالى وبحسن نية من حالفنا من الدول العظام

التي لا يمكنني أن أفرّق بين الواحدة والأخرى في حسن النية وهم قد قبلوا ما نثرت بين أيديهم من أقوال».

كان فيصل يقصد من كلامه هذا إعلان استقلال سوريا عن الحجاز فلا تبقى تابعة له. والتفت نحو الحاضرين يسألهم: هل هم يوافقونه في هذا الاتجاه؟ وهل هم يعتمدون عليه؟ وهل يستطيع أن يواصل السير على ذلك برضاهم؟ فكان جوابهم: نعم، نعم، نعم، كل الرضا وفوق الرضا. ثم صاروا يهتفون له ويصفقون مرة بعد مرة.

وفي الختام طلب فيصل من الحاضرين أن يبدي كل واحد منهم رأيه بكل حرية وصراحة. فقاموا واحداً بعد الآخر يتكلمون على النحو التالي:

سعد الدين الخليل: «إن حوران تقدم لسموه ما يطلب».

أحد أعضاء الوفد الفلسطيني: «إن دماء الفلسطينيين وأموالهم للأمير!»..

أحد أعضاء الوفد العامري: «إننا قد لبسنا للحرب عدّتها، نحن وجميع العرب. من لم يقتل فليمت!».

نوري الشعلان: «حنا كلنا عرب الرولة أطوع لك من يمينك، ومن لا يكون مثلنا ليس من دين الإسلام!».

نسيب الأطرش: «نحن جميع عشائر سوريا العربان والدروز نضحي حياتنا تجاه خدمتك وخدمة الأمة العربية، والحائد عن ذلك يكون خائن الناموس والشرف والعرب!».

عبد الحسين صادق: «إنني باسم جبل عامل أبايعك على الموت!».

محمد فوزي العظم ومحمد عابدين وأسعد الصاحب: «نحن رهينو أمرك نفديك ونعتمدك!».

بطريرك الروم الكاثوليك: «كما تأمرون سموكم فأمروا بما تشاؤون!».

بطريرك الروم الأرثوذكس: «بيننا وبين سموّكم اتفاق في هذه القاعة على شرائط معدودة لا تبرح من ذاكرتكم الشفافة، فنحن عليه راسخون!».

مطران السريان الكاثوليك: «إني أعتمد نفس الاعتماد الذي اعتمده بطريرك الروم الأرثوذكس!».

مطران السريان القديم: «أقول بلسان أمة السريان في سوريا إنهم طوع أمرك، نبايعك بقلوبنا ونعتمد عليك!».

رئيس حاخامي اليهود: «إن أموالنا ونفوسنا بين يديك يا سمو الأمير!».

سعيد سليمان: «عموم أهل قضاء بعلبك تحت أمرك، مئات وألوف رهن إشارتك!».

عمر الأتاسي: «قدمت من حمص وما ودّعت الحمصيين إلا بعد أن اعتمدوني وهم يسلمونك دماءهم وأرواحهم!»..

إبراهيم الخطيب: «فوضناك أن تكون سلطاناً، جبل لبنان جزء متمم لسوريا لا ينفكّ عنها!».

مطران الأرمن (باللغة التركية): «أشكر ما لقيه مهاجرو الأرمن من عطف العرب وإنسانيتهم خلال سني الحرب الأربع. إن تاريخنا سيكتب اسم العرب بمداد من ذهب، فأنا أبارك لكم وأشكركم!».

وبعد ما انتهوا من كلماتهم استأنف فيصل الخطاب، فأقسم بشرف آبائه وأجداده أن ينظر إلى السوريين نظرة واحدة بلا تفريق حسب أديانهم أو انتسابهم العائلي والطبقي، فالكفاءة الشخصية هي الأساس، والرجل قد يكون من عائلة رفيعة الشأن ولكنه غير قادر على إدارة وظيفة، فليعلم كل إنسان أني لا أتحزّب لشخص لأنه من أسرة ذات شأن وقوة بل أنظر إلى اقتداره الشخصي...[1].

---

(1) أمين سعيد (المصدر السابق) ـ ص 25 ـ 34.

المؤتمر السوري:

أهم ما كان يشغل بال فيصل آنذاك هو كيف يمكن تعبئة الرأي العام السوري لمواجهة لجنة التحقيق بالرأي المطلوب. وبعد المداولة مع مستشاريه استقرّ رأيه على انتخاب مجلس نيابي لكي يضع اللجنة أمام الأمر الواقع باعتبار أن هذا المجلس يمثّل الشعب السوري حسب الطريقة الديمقراطية المتعارف عليها في البلاد المتمدنة.

كان الظن السائد أن اللجنة سوف تصل قريباً، ولهذا أوعز فيصل بإجراء الانتخابات على عجل. وقد جرت الانتخابات في سوريا وفقاً لقانون الانتخاب العثماني، أما في لبنان وفلسطين فقد جرى الانتخاب على طريقة المضابط.

وبينما كان فيصل مشغولاً بالانتخابات وصلته من رستم حيدر من باريس برقية مفادها: إن فرنسا عارضت الاشتراك في اللجنة وإن بريطانيا تابعتها على ذلك ولكن الرئيس ويلسون أصرّ على إرسال اللجنة على أن تكون أمريكية بحتة، وسوف تصل اللجنة إلى سوريا قريباً.

أصيب فيصل بخيبة أمل من هذا الخبر ولكنه مع ذلك ظلّ يعمل مع أعوانه لتحضير الرأي العام لمواجهة اللجنة الأميركية عند وصولها، وأخذ الدعاة ينتشرون في مختلف أنحاء البلاد يوصون الناس بأن يكونوا على رأي موحّد أمام اللجنة حيث يطالبون بوحدة سوريا الطبيعية التي تشمل لبنان وفلسطين، وباستقلالها، على أن تكون تحت انتداب أمريكا، أو انتداب بريطانيا في حالة امتناع أمريكا عن قبول الانتداب، أما فرنسا فلا يمكن قبول انتدابها أبداً.

وبعد أن تمّت الانتخابات جرى افتتاح المجلس في 3 حزيران باسم «المؤتمر السوري»، وحضره مائة وأربعة أعضاء، بينما تغيّب ستة عشر عضواً وهم من نواب لبنان إذ منعتهم السلطة الفرنسية من الحضور. وقد انتخب هاشم الأتاسي بالإجماع رئيساً للمؤتمر.

ومما يلفت النظر أن جدالاً عنيفاً وقع في الجلسة الثانية من المؤتمر،

وذلك عندما تُليت العريضة التي قدمت لشكر الأمير فيصل على جهوده في خدمة سوريا، فقد لاحظ رجال الدين المسلمون أن العريضة خالية من البسملة، واعترضوا على ذلك. فردّ عليهم بعض النواب من الشبان، إذ كان رأيهم أن الأمة تتّطلع إلى فجر جديد وحكومة تتفق مع روح العصر، ولهذا يجب أن تبقى الأديان على حرمتها وقداستها بعيدة عن السياسة كما هو الحال في أوروبا وأمريكا. فثار رجال الدين على هذا الرأي، واحتدم الجدال بين الفريقين حتى كاد يصل إلى درجة الانقسام والتشاحن. وعند هذا قام النائب المسيحي يوسف الحكيم فاقترح حلاً وسطاً للتوفيق بين الفريقين هو أن تُكتب في أعلى العريضة كلمتان فقط هما: «باسم الله» فصفق النواب جميعاً لهذا الرأي ووافقوا عليه[1].

حرب دعائية:

في 10 حزيران وصلت لجنة التحقيق الأمريكية إلى يافا وهي برئاسة المستر تشارلس كراين ومعه الدكتور هنري كنغ. وأخذت تتنقل في أنحاء البلاد حيث قضت اثنين وأربعين يوماً زارت خلالها 36 مدينة واستقبلت 1520 وفداً وتلقت 1863 عريضة.

وجدت اللجنة في جميع المناطق ـ باستثناء لبنان ـ إن أكثر الناس متفقون على الرأي الذي يريده فيصل، أي المطالبة باستقلال البلاد السورية كلها مع انتداب أمريكا أو بريطانيا عليها. أما في لبنان، ولا سيما في الأوساط المارونية، فكان الأمر على النقيض من ذلك حيث كان الناس يطالبون بالانتداب الفرنسي.

كان في لبنان عاملان لهما أثرهما في توجيه الناس نحو المطالبة بالانتداب الفرنسي، هما جهود القساوسة المارونيين من جهة والأموال الفرنسية من الجهة الأخرى.

---

(1) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ـ ص 95 ـ 96.

كان القساوسة المارونيون ينظرون إلى القضية كأنها قضية دينية مذهبية، فقد اعتبروا اللجنة الأمريكية ذات ميول بروتستانية وطلبوا من أتباعهم أن يقاوموها ويتضافروا عليها[1]. أما الأموال الفرنسية فهي بطبيعتها أقوى أثراً من الدعاية الدينية وقد أثارت في الناس موجة من التظاهرات المؤيدة لفرنسا بشكل أذهل اللجنة الأمريكية.

كان الصحافي اللبناني اسكندر الرياشي من جملة الذين كلفهم الفرنسيون بتوزيع الأموال في تلك الأيام، وهو يصف ذلك في كتابين من كتبه وصفاً طريفاً. فهو يقول: إن الفرنسيين استخدموا في دعايتهم جميع الوسائل التي وقعت في أيديهم وجميع الرجال الذين استطاعوا استخدامهم، وقد داخ المستر كراين رئيس اللجنة منذ الساعة الأولى إذ احتشد حول مكتبه الألوف وهم يهزجون بالأغنية الجديدة التي ملأت قرى لبنان يومذاك وهي: «فرنسا أم الدنيا عموم ـ اعتزوا يا لبنانية». وكان القبضايات ـ أي أشقياء بيروت ـ من بين الذين استخدمهم الفرنسيون لهذا الغرض، فقد أخذوا يطوفون على الناس بعرائض يطالبون بها بالانتداب الفرنسي، وجعلوهم يوقعونها قسراً. وقد تسلّم أحد الأشقياء عرائض بهذا المعنى، ثم أعادها بعد ثلاثة أيام وهي تحمل عشرة آلاف توقيع، وكان جزاؤه ليرة ذهب عن كل توقيع[2]. وكان بعضهم يصنع آلاف الأختام ليملأ بها العرائض[3].

كان المستر كراين قد علم سابقاً بأن المسلمين والدروز لا يريدون فرنسا، ولكنه فوجىء بأكداس العرائض تطالب بانتداب فرنسا وهي مملوءة بأسماء محمد ومحمود وعلي وحسين. وشهدت بيروت بالإضافة إلى ذلك فرسان الدروز يرتدون البرانس البيضاء والحمراء والقفاطين المزركشة، ويحملون السيوف المعكوفة وقد كحلوا أعينهم بدائرة وسيعة من كحل

(1) أمين الريحاني (فيصل الأول) ـ بيروت 1958 ـ ص 48.
(2) اسكندر الرياشي (قبل وبعد) ـ بيروت 1953 ـ ص 30.
(3) اسكندر الرياشي (رؤساء لبنان كما عرفتهم) ـ ص 226.

الصحراء، وهم يأتون يومياً بمواكب وهّاجة هازجة مهللة. وقد بلغت مصاريف هذه المواكب ما يزيد على المليون ونصف المليون ليرة ذهب، إذ إن كل فارس درزي لا بد أن يحصل على تعويض عن ثمن مجيئه إلى بيروت من الشوف أو من جبل الدروز، ورب فارس يأتي عدة مرات بعد أن يبدّل ملابسه واسمه، وفي كل مرة يحصل على حق تعبه[1].

أصبحت البلاد السورية كأنها في معمعة حرب دعائية وصراع شديد بين دمشق وبيروت، إحداهما تدعو إلى الانتداب الفرنسي والأخرى تدعو إلى الانتداب الأمريكي أو البريطاني. وصار كل من يدعو إلى الانتداب الفرنسي في سوريا يُعد خائناً للوطن. أما في لبنان فكانت وصمة الخيانة من نصيب من يدعو إلى الانتداب الأمريكي أو البريطاني.

يقول يوسف الحكيم في مذكراته: إن سوريا كانت تضم فئة صغيرة من الناس تدعو إلى الانتداب الفرنسي غير أنها لم تكن تجرؤ على الإعلان عن صوتها مخافة احتقار الجماهير لها، فكانت ساكتة على مضض ولا تتكلم إلّا همساً مع من تثق به. ويروي الحكيم قصة زعيم دمشقي عرض عليه صديق له أن يأخذ من الفرنسيين ألف ليرة ذهب لكي يدعو إلى الانتداب الفرنسي، فرض الزعيم ذلك رفضاً باتاً، فوجّه الصديق إليه سؤالاً: «هل ترى الانتداب البريطاني أفضل من الانتداب الفرنسي؟!». فكان جواب الزعيم: إنه لا يفضل أحدهما على الآخر ولكنه لا يرى من الحكمة أن تقوم الأقلية الصغيرة بمقاومة الأكثرية في فكرتها[2].

عادت اللجنة الأمريكية إلى باريس بعد إنجاز عملها، وقدمت تقريرها إلى الوفد الأمريكي في مؤتمر الصلح. وقد تضمّن التقرير تحييد نظام الانتداب لمدة محدودة على سوريا والعراق، على أن تكون الولايات المتحدة الأمريكية منتدبة على سوريا، وتكون بريطانيا منتدبة على العراق، وإذا رفضت الولايات

(1) اسكندر الرياشي (قبل وبعد) ـ ص 35.

(2) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ـ ص 88.

المتحدة قبول الانتداب على سوريا فإنه يُمنح لبريطانيا. أما إذا أصرّت فرنسا على التشبث بمصالحها في سوريا فيمكن منحها الوصاية على لبنان الصغير فقط. وقد تضمن التقرير كذلك تحديد الهجرة اليهودية ونبذ فكرة جعل فلسطين دولة يهودية[1].

لم يجد التقرير من يهتم به في مؤتمر الصلح، فقد تكاتفت فرنسا وبريطانيا على قتله في مهده. وشاء القدر أن يبتلى الرئيس ويلسون بمرض خطر في تلك الآونة. ولهذا أُلقي التقرير في زوايا الإهمال. ولم يُنشر إلّا في الشهر الأخير من 1922، وذلك بعد فوات الأوان!.

يمكن القول على أي حال إن الاستفتاء الذي أجرته اللجنة في سوريا قد أغضب فرنسا دون أن ينتفع منه العرب، فقد أخذت الصحف الفرنسية تهاجم بريطانيا مهاجمة شديدة وتتهمها بأنها هي التي حرضت السوريين على معاداة فرنسا بغية التملّص من الالتزامات التي تفرضها اتفاقية سايكس بيكو، أو المساومة على تعديلها. ولم تسكت الصحف البريطانية عن هذا الاتهام فأخذت تكيل للصحف الفرنسية بصاعها[2].

اتفاق فرنسا وبريطانيا:

كان المقرر حسب اتفاقية سايكس بيكو أن تكون سوريا كلها تحت إشراف فرنسا علاوة على منطقة الموصل الغنية بالنفط. والظاهر أن بريطانيا ندمت على تنازلها لفرنسا عن منطقة الموصل، فأخذت تسعى لاستعادتها من فرنسا وضمّها إلى العراق.

يقول لويد جورج في مذكراته: «عندما جاء كليمنصو إلى لندن بعد الحرب رافقته إلى السفارة الفرنسية. ولما وصلنا السفارة سألني ماذا أريد الحصول عليه بوجه خاص من فرنسا؟ فأجبته حالاً أنني أريد ضم الموصل إلى

---

(1) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص 493 ـ 494.

(2) جورج أنطونيوس (المصدر السابق) ـ ص 411.

العراق وأن تكون فلسطين من دان حتى بئر سبع تحت السيطرة البريطانية. فوافق كليمنصو على ذلك بلا تردد»[1].

من الطبيعي أن تكون موافقة كليمنصو على التنازل عن منطقة الموصل لقاء عوض، وكان هذا العوض أن تكون سوريا كلها تحت الانتداب الفرنسي[2]. وقد تمّ الاتفاق النهائي بين بريطانيا وفرنسا على ذلك في 15 أيلول 1919 حيث تقرر سحب الحاميات الإنكليزية من سوريا وكليكيا، وأن تكون سوريا مع لبنان تحت الانتداب الفرنسي، وذلك لقاء أن تكون فلسطين والعراق تحت الانتداب البريطاني. ويقال إن الاتفاق تضمّن كذلك أن تتخلّى بريطانيا عن فيصل وأن تطلق يد فرنسا في معالجته كما تشاء[3].

كان لويد جورج قد أرسل قبل توقيعه الاتفاق برقية إلى فيصل يطلب منه المجيء سريعاً. فبادر فيصل إلى مغادرة دمشق بعد ستّ ساعات من وصول البرقية إليه، حيث سافر بالقطار إلى حيفا ومنها ركب مدمرة بريطانية أوصلته إلى مرسيليا في 17 أيلول، وهناك قرأ في الصحف تفاصيل الاتفاق الذي تمّ بين لويد جورج وكليمنصو، فسيطر عليه الغم[4].

وصل فيصل إلى لندن في مساء 18 أيلول، فذهب لمقابلة لويد جورج بصحبة اللنبي، وقد جامله لويد جورج وعمل على تطييب خاطره ولكنه أفهمه بصراحة أن عليه أن يتّفق مع فرنسا[5]، وقال له: «لا يمكننا أن نتخلى عن حليفتنا بعد أن وعدت بالمحافظة على استقلال سوريا، فعليكم أن تتفاهموا مع مسيو كليمنصو»[6]. ووعده لويد جورج أن يسعى لتأييد وجهة نظره لدى كليمنصو.

---

(1) Lloyd George (op. cit.) -vol. 2, 1038.

(2) Mousa (op. cit.) p. 220.

(3) أمين سعيد (الوطن العربي) ـ القاهرة ـ ص 30.

(4) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص 506.

(5) أحمد قدري (المصدر السابق) ـ ص 138.

(6) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ـ ص 113.

شعر فيصل كأن الإنكليز الذين كانوا حلفاءه بالأمس قد باعوه إلى خصومه الفرنسيين، فاعترض واحتجّ بلا جدوى. وكان قبل هذا قد وضع أمله في أمريكا فخاب أمله فيها كذلك. وقد أدرك أنه أمام طريقين لا ثالث لهما: إما التفاهم مع فرنسا أو إعلان القطيعة مع بريطانيا وفرنسا معاً. وقرر أخيراً أن يذهب إلى فرنسا ويحاول الوصول إلى اتفاق معها بالتي هي أحسن وأمره إلى الله.

مشروع معاهدة:

وصل فيصل إلى باريس في 20 تشرين الأول 1919. ومكث فيها مدة تزيد على الشهرين قضاها في المفاوضات مع المسؤولين في وزارة الخارجية الفرنسية تحت إشراف كليمنصو. وكان يساعد فيصل في المفاوضات رستم حيدر وعوني عبد الهادي. وكانت المفاوضات صعبة اعتورتها العراقيل بين الحين والآخر.

تم الاتفاق أخيراً بين الفريقين على مسوّدة معاهدة قال عنها عوني عبد الهادي أنها كانت أحسن ما يمكن الوصول إليه في تلك الظروف باعتبار أن السياسي الماهر يجب أن يفرّق بين الممكن وغير الممكن[1]. ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن كليمنصو كان يختلف عن الساسة التقليديين في معالجته للقضايا الاستعمارية إذ كان مرناً متساهلاً، وكان هؤلاء الساسة يتّهمونه بالتقدمية ويخشون منه. يقول الباحث السويدي لونروث: إن الأوساط المالية والعسكرية في فرنسا كانت تتهم كليمنصو بأنه متساهل أكثر مما ينبغي تجاه قضية سوريا[2]. ويروي إبراهيم نجار الذي كان من حاشية فيصل حينذاك: أن كليمنصو قال لفيصل وهو يشير إلى شعر رأسه: «إن هذا الشعر الذي تراه في رأسي قد ابيّض من معاناة السياسة في هذه البلاد. أنا غير استعماري ولا أعتقد بالاستعمار. وأنا أعرض عليك معاهدة لا تجد سياسياً

(1) خيرية قاسمية (الحكومة العربية في دمشق) ـ ص 160.

(2) Lonnroth (Lawrence of Arabia)- Trans, by Lewis -p.77.

فرنسياً غيري يجرأ على عرضها عليك وتوقيعها. ففكر ملياً وأعطني جوابك[1].

نصت المعاهدة على أن تحترم فرنسا من جانبها استقلال الدولة العربية في دمشق، وأن على هذه الدولة أن تحترم احتلال فرنسا للبنان والساحل حتى الإسكندرونة، وأن تستمد كل معونة تحتاجها من فرنسا. وقد أشارت المعاهدة إلى أن هذه تدابير مؤقتة ريثما تتم التسوية النهائية في مؤتمر الصلح.

كان فيصل في قرارة نفسه يميل إلى تصديق المعاهدة، كما أن مستشاريه وافقوا عليها ما عدا الدكتور أحمد قدري. وقد كتب فيصل إلى أبيه الحسين رسالة أشار فيها إلى موقفه الحرج واضطراره إلى الاتفاق مع فرنسا، حيث قال في رسالته: قد توافرت القناعة عندي بأن بريطانيا استخدمتنا لمصالحها وتركتنا، وأن أمريكا تخلّت عنّا بعد أن أضرّت بنا وكانت السبب في وقوعنا في هذا المأزق الحرج، وأن من الصعب على السوريين أن ينتصروا على الفرنسيين لعدم وجود الوسائط والآلات الحربية وعدم وجود التربية الملية التي تدفع الأمة، ولهذا فقد رأيت لدى وصولي إلى باريس أن أتوصل إلى نوع من التفاهم مع الفرنسيين أخرج به عن المجرى القديم القائم على التزام جانب الإنكليز التزاماً تاماً[2].

كان الحسين في تلك الآونة غاضباً على ابنه فيصل لإعلانه استقلال سوريا عن الحجاز، ولما وصلته رسالة فيصل لم يوافق على ما ورد فيها، وأرسل طبيبه الخاص الدكتور ثابت نعمان إلى باريس وهو يحمل رسالة إلى فيصل يأمره فيها بعدم التوقيع على أية معاهدة مخالفة للوعود البريطانية السابقة له. وقد وصل الدكتور ثابت إلى باريس قبل توقيع المعاهدة. ولهذا اضطر فيصل إلى الاعتذار عن توقيع المعاهدة ووعد كليمنصو بأنه سيعرض مشروع المعاهدة على السوريين ويحثّهم على قبولها[3].

---

(3) إبرهيم سليم نجار (المصدر السابق) ـ ص 68.

(1) إبرهيم سليم نجار (المصدر السابق) ـ ص 68.

(2) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص 520 ـ 521.

غادر فيصل فرنسا إلى سوريا، وتشير القرائن إلى أنه كان ينوي أن يقنع السوريين بقبول المعاهدة وبذلك يضع أباه أمام الأمر الواقع بحجّة أن أهل البلاد هم الذين وافقوا على المعاهدة وأنه لا شأن له في الأمر.

الحماس في سوريا:

إن الفترة التي غاب فيها فيصل عن سوريا ـ وهي التي دامت زهاء أربعة أشهر ـ تميّزت بظهور الحماس الشعبي واستفحاله. فقد كان الأمير زيد ينوب عن أخيه فيصل في الحكم، وكان شاباً قليل الخبرة، فاندفع مع الحماس الشعبي وصار يؤيده علناً أحياناً، وسراً أحياناً أخرى.

بدأ الحماس الشعبي منذ غادر فيصل دمشق إلى أوروبا في 12 أيلول. ويقال إنه هو الذي بذر بذرته الأولى لأنه اجتمع قبيل سفره ببعض الزعماء وقال لهم: إنه ينتظر منهم أن يقوموا بحركة شعبية لتحويل الأمة إلى أمة مسلحة وتحويل الوطن إلى ثكنة عسكرية[1]. ولعل فيصل أراد بذلك تدعيم موقفه في المفاوضات المقبلة مع ساسة بريطانيا وفرنسا، ولم يدر أن الحماس الشعبي إذا انطلق هادراً فلن يستطيع أحد إيقافه عند حدّ معين.

حين وصلت الأخبار إلى دمشق عن الاتفاق الذي حصل بين فيصل وكليمنصو هاج الناس وأخذوا يعلنون تذمرهم من بريطانيا ويقولون عنها إنها باعت سوريا للفرنسيين لقاء نفط الموصل. ولما بدأت القوات البريطانية تنسحب من سوريا وفقاً للاتفاق ازداد هياج الناس وقرروا تأسيس جيش سوري لسد الفراغ الذي تركه انسحاب القوات البريطانية. فاتصل سكان محلات دمشق بعضهم ببعض واتفقوا على انتداب أربعة رجال من كل محلة ليجتمعوا ويقرروا ما يرونه لازماً للدفاع عن الوطن. وأخذ المندوبون يجتمعون كل مساء في محلة من المحلات، حيث أصبح اجتماعهم كأنه برلمان شعبي محلي تُلقى فيه الخطب والقصائد الحماسية[2].

---

(1) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص 144.

(2) أمين سعيد (الثورة العربية الكبرى) ـ القاهرة ـ ج 2 ص 102.

وفي 10 تشرين الثاني خرجت في دمشق مظاهرة كبرى وتوجّهت إلى دار الحكومة وقدمت إلى الأمير زيد برقية احتجاج على فكرة تجزئة البلاد لإرسالها إلى فيصل بباريس. وفي اليوم التالي تلقّى زيد من فيصل برقية يقول فيها: «لا تزال المخابرات جارية مع الحلفاء، أوصوا الشعب بالتروي والتعقّل مع المحافظة على الأمن والسكينة بانتظار جوابي»[1]. فلم تؤثر هذه البرقية في الشعب شيئاً، ولعله ازداد بها حماساً وهياجاً.

ظهرت في تلك الآونة مواهب زعيم شعبي قادر على إثارة الجماهير بخطبه الحماسية هو الشيخ كامل القصاب، وكان معمماً من رجال الدين. وفي 27 تشرين الثاني انعقد اجتماع كبير في دار آل البارودي في حي القنوات حضره مشايخ الدروز، وقام الشيخ كامل فخطب بأسلوبه المثير مشيداً بالغيرة الوطنية التي تجلّت في الأمة العربية والضحايا التي قدمتها في سبيل حريتها واستقلالها، وندّد بما شاع عن رغبة الأمير فيصل في التفاهم مع الفرنسيين، أعداء الأمس واليوم والغد». وفي نهاية خطابه طلب تشكيل لجنة باسم «اللجنة الوطنية العليا» لإعداد المقاومة ضد الفرنسيين وتنظيم المتطوعين للتجنيد وجمع التبرعات للمجهود الحربي. فصفق الحاضرون له طويلاً وأجابوه على طلبه لتشكيل اللجنة وانتخبوه رئيساً لها بالإجماع[2].

قررت اللجنة الوطنية العليا تأليف لجان فرعية لجمع المال اللازم للحركة الوطنية بنسبة اثنين في المائة من ثروة كل فرد من أفراد الأمة، ومن شاء أن يزيد فله الفضل. كما قررت اللجنة تأليف كتيبة من المتطوعين يبلغ تعدادها ألف رجل وتتولى هي تجهيزها وإرسالها إلى ميدان القتال. وفي 10 كانون الأول أعلن الشيخ كامل القصاب في اجتماع للّجنة: إنه قابل رجال الحكومة ووجدهم على وفاق مع الشعب فما يريده يريدونه، ثم قال: إن الأمة قررت الدفاع وإن رجالاً من محلة الميدان قد تطوعوا فعلاً وسينصبون خيامهم غداً في المزّة[3].

---

(1) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ـ ص 116.

(2) المصدر النسابق ـ ص 122.

(3) أمين سعيد (المصدر السابق) ـ ج 2، ص 102 ـ 103.

وفي 21 منه أقرّ الأمير زيد مشروع قانون للتجنيد الإجباري يقضي بتجنيد من أكمل العشرين إلى الأربعين، وجعل مدة الخدمة ستة أشهر والبدل النقدي ثلاثين جنيهاً مع استثناء وحيد والديه.

وفي تلك الآونة ظهرت عصابات لمحاربة الفرنسيين في جبال العلويين، وفي تل كلخ قرب حماة، وفي البقاع وجبل عامل ومرتفعات الجولان، وكانت حكومة دمشق تشجع تلك العصابات سراً وتمدّها بالمال والسلاح.

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن القوات الفرنسية كانت حينذاك مشغولة بمحاربة القوات التركية في منطقة كليكيا. وكان السوريون يشعرون بالتعاطف مع الأتراك نكاية بالفرنسيين، وأخذت مناشير الدعاية التركية تنتشر في حلب بتشجيع من بعض الضباط السوريين والعراقيين، وكانت تلك المناشير مذيلة بتوقيع مصطفى كمال باشا. ننقل فيما يلي فقرة من إحداها وهي موجّهة إلى الشعب السوري:

«بصفتي مسلماً أتوسل إليكم ألا تكترثوا بما بيننا من خلاف أدّى بنا إلى القطيعة. ينبغي لنا أن نزيل كل سوء تفاهم وقع بيننا ولنوجّه جميعنا سلاحنا ضد الأحزاب الخائنة التي ترغب في تجزئة بلادنا... إن المجاهدين الذين يؤمنون بالحق سيقومون قريباً بزيارة إخوانهم العرب، وسوف يمزقون شمل الأعداء، فلنعش أخوة في الدين، والموت لأعدائنا»[1].

الجنرال غورو:

عينت فرنسا الجنرال غورو مفوضاً سامياً لها في بيروت، وكان هذا الجنرال من قواد حملة الدردنيل وكانت له شهرة فيها وقد فقد فيها أحد ذراعيه. والظاهر أن فرنسا قصدت من تعيين هذا الرجل أن تحسم قضية سوريا التي أقلقتها طويلاً عن طريق الحل العسكري.

وصل غورو إلى بيروت في 21 تشرين الثاني 1919، فجرى له فيها

(1) زين نور الدين زين (المصدر السابق) ـ ص 140 ـ 246.

استقبال فخم إلى أبعد الحدود. والمعروف عنه أنه كان رجلاً فخوراً بحب الزهو، ولهذا أحاط نفسه منذ قدومه بمظاهر الفخفخة. يقول عنه بشارة الخوري في مذكراته: «أراد هذا الجنرال أن يحيط نفسه بأبهة منذ تسلمه مهام منصبه، ومن مظاهر ذلك تأليفه حرساً وطنياً لمواكبته على الخيول العربية في تنقله في أسواق المدينة، وقد فرض أن يكون جميع أفراد الحرس من جبل الدروز. وقد ظنهم كذلك، ولكن بعض الفرسان جيء بهم من قرى لبنان وكحلت عيونهم ليوهموا السلطة أنهم من جبل الدروز، وأخذ أحد السياسيين جعالة على تطوعهم لا بأس بقيمتها. وهكذا كلّف ذلك الحرس مالاً وفيراً»[1].

أهم مشكلة واجهها غورو عقب وصوله إلى بيروت هي امتداد الحرب بين القوات التركية والفرنسية في منطقة كليكيا، فعندما انسحبت القوات البريطانية من تلك المنطقة انفردت القوات الفرنسية وحدها بمواجهة القوات التركية، وكان مصطفى كمال باشا قد أعدّ هناك جيشاً نظامياً كبيراً كما سلّح عصابات من الفلاحين أخذت تقتحم القرى، وقد نال الأرمن القاطنين في تلك القرى من البلاء شيئاً كثيراً.

وجه غورو إلى كليكيا فرقتين كبيرتين، ولكنه وجد صعوبة كبيرة في تموين الفرقتين وإمدادها، ذلك لأن حكومة دمشق منعته من استعمال القطار السوري لنقل المؤن، فاضطر من جرّاء ذلك إلى نقلها عن طريق البحر إلى الإسكندرونة، وهذا يتطلب مدة خمسة عشر يوماً بينما كان طريق القطار يتطلب أربعة أيام فقط[2]. ولا حاجة إلى القول إن هذا العمل من حكومة دمشق جعل غورو يضمر الحقد الشديد عليها ويصمم على القضاء عليها.

خبر مثير:

كان فيصل قبل عودته إلى سوريا قد اتّفق مع كليمنصو على أن تبقى المعاهدة طي الكتمان لكي يتمكّن عند وصوله إلى دمشق من إقناع السوريين

---

(1) بشارة خليل الخوري (حقائق لبنانية) ـ بيروت ـ.

(2) اندرياو (تاريخ الدروز وتمرّد دمشق) ـ ترجمة حافظ أبو مصلح ـ بيروت 1971 ـ ص 29.

بها في جو هادىء خالي من الانفعالات. والغريب أنه لم يكد يغادر مرسيليا في 7 كانون الثاني 1920 حتى نشرت جريدة «الطان» الفرنسية خبراً عن المعاهدة قالت فيه: «وافق الأمير فيصل منسجماً مع فرنسا على انتدابها على سوريا كافة، ولقاء ذلك فإن فرنسا رضيت بقيام منطقة عربية تشمل المدن الأربع، دمشق وحمص وحماة وحلب، على أن تكون تحت حكمه بمساعدة المستشارين الفرنسيين والمفتشين... وكذلك فإن الأمير وافق على التعاون مع فرنسا دون غيرها في الشؤون الاقتصادية والمالية». وقد بادرت وزارة الخارجية الفرنسية إلى نفي الخبر غير أن الجريدة أكّدت على صحّته مع إضافة تفصيلات أخرى إليه في مقالات تالية[1].

هنا يحق لنا أن نتساءل: هل كان نشر الخبر من قبيل السبق الصحفي الذي استطاع أحد محرري الجريدة أن يحصل عليه بجهوده أم أن نشره كان مدبراً من قبل بعض الساسة الفرنسيين لغرض معين قصدوا إليه؟!

أرجح الظن أن نشر الخبر كان مدبراً ومتعمداً، فإن الأوساط المحافظة والساسة التقليديين، من خصوم كليمنصو في فرنسا، لم يهن عليهم عقد مثل تلك المعاهدة التي هي في نظرهم مضرّة بمصالح فرنسا. إنهم كانوا - كما رأينا آنفاً - يتّهمون كليمنصو بأنه متساهل أكثر مما ينبغي تجاه قضية سوريا. وليس من المستبعد أنهم هم الذين تعمّدوا نشر الخبر بتلك الصورة لكي يحرضوا السوريين على رفض المعاهدة. وهذا أمر كثيراً ما يقع في عالم السياسة، وقد جرى مثل ذلك في العراق في عام 1948- كما سنأتي إليه في جزء قادم من هذا الكتاب إن شاء الله!

وعلى أي حال فقد كان لنشر خبر المعاهدة في جريدة «الطان» أثر بالغ في الرأي العام السوري. إنه كان كالشرارة التي تلهب النار، فانطلق الجمهور يلعن المعاهدة ويلعن كل من يؤيدها كائناً من كان.

---

(1) محمد جميل بيهم (المصدر السابق) - ص 160 - 161.

عودة فيصل:

وصل فيصل إلى بيروت في 14 كانون الثاني 1920، وكان قبل وصوله قد تلقّى برقية من كليمنصو يخبره بأن حكومته قد صادقت على المعاهدة بشرط أن يتّخذ الأمير الوسائل الفعّالة لإحلال السكينة في الشعب السوري ويكسب رضاهم بسياسته. وقد عرض فيصل هذه البرقية على الجنرال غورو عند اجتماعه به في بيروت. وقيل إن غورو سأله: هل في مقدورك وقف القلاقل في سوريا؟ فأجابه فيصل: إن من السهل عليه وقف القلاقل لأنه هو نفسه كان يثيرها لخلق المشاكل أمام فرنسا[1].

غادر فيصل بيروت بعد يومين من وصوله إليها. وحين وصل دمشق كان استقبال الجماهير له فاتراً نسبياً[2]. وشعر فيصل أن الجو ملغوم ضده وضد المعاهدة، وأخذ يتحدّث إلى زواره شارحاً لهم الموقف وأوصاهم بكتمانه عن العامة. وفي اليوم التالي من وصوله إلى دمشق خرجت فيها مظاهرة كبرى، وجاءت إلى قصره وهي تهتف، فأطلّ عليها من الشرفة يحييها. ووقف الشيخ كامل القصاب خطيباً في المتظاهرين وقال موجّهاً كلامه إلى فيصل: «إني واثق أنك لن ترضى، وحاشاك أن ترضى، أن تكون أميراً على بلاد يظللك فيها علم أجنبي»[3]. فتكلم فيصل يشكر المتظاهرين على إخلاصهم وغيرتهم الوطنية وطمأنهم بأن قضية البلاد لم يبتّ في أمرها بعد، ودعاهم إلى الهدوء والاعتماد على حق الأمة الصريح بعد الاتكال عليه سبحانه وتعالى[4].

وفي مساء 22 كانون الثاني أقام النادي العربي حفلة كبيرة لتكريم الأمير فيصل بمناسبة عودته من أوروبا وحضر الحفلة كثير من الأعيان والمسؤولين

---

(1) المصدر السابق ـ ص 162.

(2) جورج أنطونيوس (المصدر السابق) ـ ص 417.

(3) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص 159.

(4) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ـ ص 127.

وقادة الجماهير. وتوالى على منصّة الخطابة عدد من الخطباء وكانوا كلهم يحاولون شجب المعاهدة عن طريق التلميح والكناية، ويطالبون بالاستقلال التام الذي لا تشوبه حماية أو وصاية وبوجوب الدفاع عن هذا الاستقلال بكل غالي ورخيص.

كان الطبيب عبد الرحمن الشهبندر من جملة الخطباء ومن أشدهم حماساً، فقد انتقد الحكومة القائمة ووصف نفسه بأنه من الشعب وأنه بحكم مهنته يدخل بيوت الناس ويعرف أفكارهم[1]. ثم أخرج سماعته الطبية وقال إنها توصل إلى سمعه يومياً دقات قلوب الشعب القلقة على مصيره شاكية ضعف النشاط السياسي[2].

وعند انتهاء الخطباء من خطبهم وقف فيصل وأخذ يتكلم كلاماً طويلاً يدل على ما كان يشعر به من ألم عميق. فقد بدأ خطابه بشكر الشبيبة التي أقامت الحفلة، وأشار إلى أنه في العام الماضي كان يلاحظ في النادي قطعة مكتوب عليها، «ممنوع التكلم في السياسة» ولكنه الآن لا يراها، وعلل ذلك بالأحوال السياسية الحاضرة التي قضت على النشىء الجديد أن يهملوا دروسهم وكتبهم ويهتموا بالسياسة حيث اعتقدوا أن الدفاع عن الوطن فوق كل شيء وأن العلم يأتي في الدرجة الثانية. ثم قال: «ربما لاحظتم أني أتلعثم في القول، فأنا لست بخطيب ولم أعتد أن أقول كثيراً لأنني ألفت الصمت، ومن عرفني قديماً يعرف ذلك عني، ولذلك أرغب أن تكون الأمة صامتة مثلي تعمل كثيراً وتقول قليلاً... لنا سنة ونصف ونحن نقول. كفانا خطباً، كفانا أقوالاً، نحن في أيام العمل لا في أيام القول. إن الأقوال لا تأتي بفائدة ولكن الأفعال تفيد كثيراً. إني غبت عن البلاد أربعة أشهر ولا أشكّ بأن التاريخ يحفظ ما فعلته بالغرب سواء أكان جيداً أو رديئاً، قليلاً أو كثيراً، ولا أنزّه نفسي عن الخطيئات لأني كنت أقول ما يلهمني ضميري. ولما عدت إلى هنا

---

(1) أحمد قدري (المصدر السابق) ـ ص 167.

(2) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ـ ص 83.

رأيت الأمّة بأشد الحماس، ولكنه حماس لا يتعدّى القول، وحبّذا لو قرن هذا الحماس بالعمل، أنا أدعو الأمة إلى ذلك إذ لا حياة لها إلّا إذا فعلت كما أقول». ثم تطرق فيصل إلى خطاب عبد الرحمن الشهبندر فدافع عن الحكومة وقال: إنها قائمة برأي من اعتمدته الأمة وهو أنا، فالحكومة هي شخصي، ولا أسمح لشخص أو جماعة أن يقول إن الحكومة هي كذا وكذا، أو يطلب إبدال حاكم بحاكم، لأنني أنا المسؤول إلى أن ينعقد مجلس الأمة وعندئذٍ أتنصل عن المسؤولية. ثم أشار فيصل إلى سماعة الشهبندر وكيف أنه يعرف بها دقات قلوب الشعب، وقال: إن أول عمل يجب أن يعمل له الدكتور الشهبندر هو ترقية الفن المختص به، فإذا عمل كل فرد منا بما يجب عليه في مجال اختصاصه تنتظم حركة الأمة بأجمعها، فالجندي يحارب، والزعيم يقود الجنود، والسياسي يدير الأمور بما تستدعيه الظروف، والطبيب يداوي المرضى، فلا يتجاوز أحد حدود اختصاصه إلى مهمة غيره ولا يتداخل فيما يخرج عن نطاق اختباراته وعمّا وقف نفسه عليه». ثم عاد فيصل إلى موضوعه الأساسي فقال: «أعود فأؤكد لكم يا إخواني بأنني عامل على ما أنتم تطالبون به وهو الاستقلال التام... ولكنني في الوقت نفسه أقول إن بينكم وبين الأمم الغربية صلات تصلكم ولا تقدرون أن تستغنوا عنها، لأن وسائط النقل الحديثة جعلت أوروبا في بطن سوريا، وإذا قلتم إنكم تستغنون عنها عرفت أنكم لا تريدون الحياة... نحن اليوم في موقف حرج يجب أن لا نحتقر فيه الأمم لأننا باحتقارنا لإحداها نكون قد احتقرنا أنفسنا. أمامنا دول كبار وأمم عظام. يجب علينا أن نحترم كل أمة وكل حكومة متى احترمت بلادنا واستقلالنا ومنافعنا»[1].

عند انتهاء فيصل من كلامه كان يظن أن الحاضرين اقتنعوا بصحّة ما قال. وهذا وهم كثيراً ما يسيطر على الساسة الذين لا يعرفون طبيعة البشر. إن الأدلة التي أوردها فيصل في خطابه كانت قوية مقنعة في نظره، وكان يحسب

(1) انظر: المصدر السابق ـ ص 87. وكذلك: أحمد قدري (المصدر السابق) ـ ص 167 ـ 168.

أنها ما دامت كذلك فلا بد أن تكون قوية ومقنعة في نظر الآخرين أيضاً. لم يدر أن الحماس المسيطر على الرأي العام جعل الناس في عالم آخر غير العالم الذي هو فيه. إنه كان ينظر إلى الأمور في ضوء المبدأ القائل «السياسة هي فن الممكن»، بينما هم كانوا ينظرون إليها في ضوء «إرادة الشعب» و«الموت في سبيل الوطن». وشتان ما بين النظرتين!.

محاولة أخرى:

أراد فيصل أن يقوم بمحاولة أخرى لإقناع الشعب بقبول المعاهدة، فطلب عقد اجتماع سري مع الهيئة الإدارية لجمعية «العربية الفتاة»، وهي الجمعية التي كان لها تأثير كبير في الرأي العام السوري حينذاك. وتمّ عقد الاجتماع في بيت الدكتور أحمد قدري في 6 شباط، وعرض فيصل على الحاضرين مشروع المعاهدة التي اتّفق عليها مع كليمنصو، ودافع عنها وقال إنها أقصى ما يمكن الحصول عليه، ورجا منهم أن يكونوا واقعيين في معالجتهم لأمور السياسة. غير أنهم لم يستجيبوا لرجائه، ورفضوا المعاهدة وأصرّوا على الرفض. فقال لهم فيصل: إن رفض المعاهدة معناه إعلان الحرب على فرنسا. فكان جوابهم: «إننا مستعدون لإعلان الحرب على فرنسا وإنكلترا معاً»[1].

وفي اليوم التالي استدعى فيصل إليه أعضاء الهيئة الإدارية واحداً بعد الآخر على انفراد بغية إقناعهم فلم ينجح فأشار عليه رضا الركابي بإقالة الهيئة وإبدالها بهيئة أخرى، فوافق فيصل على هذا الرأي. واجتمع خمسون من أعضاء الجمعية في بيت الركابي برئاسة الأمير زيد. وافتتح الشيخ كامل القصاب الجلسة بخطبة من خطبه النارية حمل فيها على الهيئة الإدارية واتهمها بالتفريط في مصلحة البلاد وطالب بإقالتها. ثم تعاقب الخطباء على مثل هذا

---

(1) أمين سعيد (المصدر السابق) ـ ج 2 ص 125.

القول. وقام أحد أعضاء الهيئة يقول: «إننا فعلنا ما استطعنا فعله فجربوا أنتم أنفسكم». ثم جرى الانتخاب ففاز بها أعضاء جدد كان من بينهم الركابي[1].

ولم يكتف فيصل بهذا بل أخذ يشجع الناس على تأسيس حزب جديد للوقوف تجاه جمعية «العربية الفتاة» والحدّ من قوتها. وقد تأسس الحزب فعلاً باسم «الحزب الوطني السوري»، وانضم إليه الأعيان من أصحاب الوجاهات التقليدية، وكتب بيان الحزب محمد كرد علي فنمقه تنميقاً[2].

لا حاجة بنا إلى القول إن هذه المحاولة لا بد أن تبوء بالفشل عاجلاً أم آجلاً. فإن أي حزب سياسي إنما يكسب قوته من التفاف الجماهير حوله، والجماهير بطبيعتها لا تحب الاعتدال لأن الشيء في نظرها إمّا أسود أو أبيض ولا يمكن أن يكون هناك وسط بينهما. ومن يريد أن ينال المكانة لدى الجماهير يجب عليه أن يسير معهم ويتحمس بحماسهم، وإلّا فهم يحتقرونه ويعدّونه خائناً للوطن.

أصبحت الجماهير في دمشق ترتاب في وطنية كل رجل يُشاع عنه أنه يؤيد المعاهدة، ولهذا صار الناس يتهمون نوري السعيد بالخيانة ويهتفون ضده في الشوارع، كما انتشر بين الناس منشور سري موجّه ضد الركابي[3].

أدرك فيصل أخيراً أن إقناع الجماهير بالموافقة على المعاهدة أمر في منتهى الصعوبة أو هو يكاد يكون مستحيلاً. وهو لذلك أصبح في حيرة من أمره لا يدري أينسجم مع الجماهير فيخسر السياسة، أم ينسجم مع السياسة فيخسر الجماهير. إن الجماهير لا يمكن أن تكون عاملاً إيجابياً في السياسة إلا إذا كانت لها قيادة حكيمة تعرف كيف توجهها. يقول أحد المفكرين السياسيين: «إن قادة الجماهير يجب أن يسيروا أمامها لا وراءها»، ويقصد

---

(1) المصدر السابق ـ ج 2، ص 126.

(2) أحمد قدري (المصدر السابق) ـ ص 172 ـ 174.

(3) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص 161.

بذلك أن القادة يجب أن يكونوا هم الموجّهين للجماهير لا أن تكون هي الموجهة لهم.

يبدو أن جماهير دمشق في ذلك الحين لم تتوفر لديها مثل هذه القيادة الحكيمة، إذ كان قادتها من طراز كامل القصاب يسيرون وراء الجماهير ويهتفون بهتافها دون أن يكون لهم رأيهم المستقل الذي يستطيعون به توجيه الجماهير. ولهذا أصبح فيصل في وضع نفسي لا يحسد عليه وكأنه بين حجري الرحى.

زار دمشق في تلك الفترة برسيفال فيلبس مراسل جريدة «الديلي اكسبريس» البريطانية، وقابل فيصل ثم كتب إلى جريدته يصف الحالة النفسية التي كان فيها فيصل حيث قال: «ترك الأمير فيصل في نفسي عند مقابلتي الأخيرة له أنه رجل على حافة الانهيار التام من جرّاء اليأس الذي يشعر به، وذلك لأن كل شخص هنا يشكّ فيه. والفرنسيون لا يثقون به.. وملك الحجاز أبوه لا يثق به ظناً منه أن فيصل قد أسلم أمره وبلاده للتبعية عن طريق المعاهدة التي لا تعرف مكة عن أمرها شيئاً»[1].

تتويج فيصل:

في 20 كانون الثاني 1920 سقطت وزارة كليمنصو، وحلت محلها وزارة جديدة برئاسة ميليران. والمعروف عن الرئيس الجديد أنه كان على النقيض من كليمنصو لا يميل إلى التساهل في القضية السورية ويبغي حلها عن طريق القوة العسكرية.

أعلن ميليران أمام البرلمان الفرنسي على أثر تسلمه الحكم أن احتلال سوريا يحتاج إلى قوة عسكرية كبيرة، وطالب البرلمان بالموافقة على تخصيص المبالغ اللازمة لذلك وقال: «لكي تجلب فرنسا لأهل سوريا تحت رايتها نعمة الحكم الجيد كما فعلت ذلك في المغرب»[2].

---

(1) Daily Express -24 Feb. 1920.

(2) مجلة (آفاق عربية) ـ في عددها الصادر في أيار 1977 ـ ص 119.

إن هذا التبدل في السياسة الفرنسية جعل فيصل يشعر بضرورة مجاراة الحماس الشعبي. ولعله خشي أن يخسر المشيتين، أي خشي أن يخسر الجماهير والسياسة معاً. ففي أوائل آذار 1920 تم الاتفاق بينه وبين زعماء الأحزاب السورية على أن يضعوا فرنسا أمام الأمر الواقع وذلك بإعلان استقلال سوريا ومبايعة فيصل ملكاً عليها، وتقرر أن يكون ذلك في 8 منه.

ويقال إن مشكلة عائلية واجهت فيصل آنذاك إذ هو لا يجوز له حسب تقاليد العائلة الهاشمية أن يتقدم على أخيه عبد الله الذي هو أكبر منه سناً. وبعد المداولة مع زعماء الأحزاب تم الوصول إلى حل هو أن يعلن العراقيون الموجودون في سوريا استقلال العراق ومبايعة عبد الله ملكاً عليه في نفس اليوم الذي تتم فيه بيعة فيصل[1].

أستُدعي المؤتمر السوري على عجل، كما استدعي العراقيون الموجودون في سوريا لانتخاب مؤتمر خاص بهم. وفي عصر 6 آذار اجتمع المؤتمر السوري فقرر استقلال سوريا استقلالاً تاماً بحدودها الطبيعية التي تشمل لبنان وفلسطين وأن يكون فيصل ملكاً عليها كلها. وفي الوقت نفسه اجتمع العراقيون في بيت نوري السعيد في حي الشهداء وانتخبوا من بينهم الأشخاص التالية أسماؤهم من أجل إعلان استقلال العراق، وهم: جعفر العسكري، سعيد الشيخلي، علي جودت الأيوبي، عبد الله الدليمي، جميل المدفعي، تحسين علي، إسماعيل نامق، سامي الأورفلي، فرج عمارة، رشيد الهاشمي، رضا الشبيبي، صبيح نجيب، محمود أديب، ناجي السويدي، توفيق السويدي، إبراهيم كمال، يونس وهبي، حمدي صدر الدين، أحمد رفيق، نوري القاضي، مكي الشربتي، ثابت عبد النور، إبراهيم توحلة، عزت الكرخي، عبد اللطيف الفلاحي، توفيق الهاشمي، محمد البسام، أسعد صاحب، محمد خيرو.

---

(1) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) ـ ج 3، ص 189.

وفي اليوم المعين ـ أي 8 آذار ـ أُعدّ احتفال فخم في دار البلدية في المرجة حضره رؤساء الطوائف الدينية والأعيان وممثلو الدول. ولوحظ تغيب البريطانيين عن حضور الاحتفال، بينما حضره الفرنسيون وعلائم الابتهاج بادية على وجوههم الأمر الذي لفت إليه الأنظار. ومن طريف ما وقع في بداية الاحتفال أن نوري الشعلان رئيس عشيرة الرولة جاء ومعه عشرة من أتباعه المسلحين فأشغلوا صدر القاعة، فتقدم نحوه أحد القائمين بالتشريفات راجياً منه بلطف أن يأمر أتباعه بالوقوف مع الأعيان المدعوين، ولكن الشيخ رفض ذلك إذا شهر سيفه وصاح بالرجل: «ارجع مكانك». فعاد الرجل خائباً.

وصل فيصل إلى محل الاحتفال وهو راكب جواداً فهتفت له الجماهير المحتشدة في ساحة المرجة، وبعد قليل خرج إلى الشرفة المطلة على الجماهير محمد عزة دروزة سكرتير المؤتمر السوري فتلا قرار المؤتمر بإعلان استقلال سوريا واختيار فيصل ملكاً عليها. وتلاه توفيق السويدي فتلا قرار المؤتمر العراقي بإعلان استقلال العراق واختيار عبد الله ملكاً عليه. ثم تقدم رئيس بلدية دمشق غالب الزالق يحمل علم سوريا الجديد، وهو نفس العلم الحجازي مع إضافة نجمة واحدة إليه، فتسلّمه المرافق فخري البارودي ورفعه فوق السارية، فضجّت الجماهير بالهتاف. ورُفعت لوحة مكتوب عليها: «ليحيى جلالة الملك فيصل». وكانت المدافع تطلق آنئذٍ مائة طلقة وطلقة.

ضجة في بيروت:

قوبل إعلان الملكية بالسخط من قبل فرنسا وبريطانيا. ففي 9 آذار أرسل وزير الخارجية البريطانية اللورد كرزن برقية إلى فيصل تتضمّن احتجاجاً عنيفاً، وقال له: إن المؤتمر السوري ليس له صفة شرعية وأن بريطانيا لا تعترف بحق أية فئة في دمشق تتكلم نيابة عن فلسطين والعراق[1]. وفي 1 نيسان أبرق اللورد كرزن إلى الحسين وابنه عبد الله يقول لهما: إن بريطانيا لا تعتبر

(1) زين نور الدين زين (المصدر السابق) ـ ص 151.

العراقيين التسعة والعشرين الذين اجتمعوا في دمشق ممثلين للعراق وأن مؤتمر الصلح هو وحده الذي سيقرر مستقبل العراق بعد التحقق من رغبات الأهلين. فردّ عليه الحسين قائلاً: إنه لا علاقة له بمؤتمر الصلح وإن علاقته منحصرة ببريطانيا وحدها وهو إنما قام بالثورة وجازف بكل شيء وواجه الأخطار والكوارث اعتماداً على تلك العلاقة وثقة منه بشرف بريطانيا العظمى التي اشتهرت بالمحافظة على عهودها[1].

وفي بيروت بدأت عرائض الاحتجاج تصل إلى مقرّ البطريركية المارونية من كل مكان في لبنان معبّرة عن رفض موقعيها لضم لبنان إلى دولة فيصل الجديدة دون استشارة أهله. وفي 12 آذار أعدّ مجلس إدارة لبنان قراراً رفعه إلى مؤتمر الصلح بواسطة الجنرال غورو احتجّ فيه على قرار المؤتمر السوري وقال إن المؤتمر ليس له حق في التدخل في شؤون لبنان وإدارته. وفي 22 آذار عقد اجتماع حاشد في بعبدا حضره أعضاء مجلس الإدارة وجمهور من أعيان لبنان وممثلي طوائفه المسيحية وتمّ فيه إعلان استقلال لبنان، ثم رُفع العلم اللبناني على سراي بعبدا فمرّت به كتائب من الجيش اللبناني تؤدي له التحية[2].

وحصل من جراء ذلك شيء من التوتر الطائفي بين المسلمين والمسيحيين في بيروت، فقد أخذ خطباء المساجد يخطبون باسم الملك فيصل، فصدرت إليهم الأوامر من السلطة الفرنسية بأن يخطبوا باسم الخليفة العثماني محمد وحيد الدين فرفض الخطباء ذلك وأنكروا تدخل السلطة في الشؤون الدينية، وكان أشدهم في ذلك الشيخ محيي الدين المكاوي خطيب جامع المجيدية، فاعتقلته السلطة في 5 نيسان وأبعدته إلى جزيرة أرواد، فثارت ثائرة المسلمين، وخرجت مظاهرة في دمشق احتجاجاً على إبعاده. وأرسل الملك فيصل إلى الجنرال غورو والجنرال اللنبي والحكومة الفرنسية يحتجّ فيها

(1) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص 544.

(2) زين نور الدين زين (المصدر السابق) ـ ص 153 ـ 154.

على ما أصاب الديانة الإسلامية من إهانة لتدخل السلطة العسكرية في الأمور الدينية ومنع الخطب في الجوامع من الدعاء حسب رغبة السكان[1].

اضطرت السلطة الفرنسية إلى إطلاق سراح الشيخ محيي الدين، وأصدرت بياناً أنكرت فيه أنها تتدخل في الأمور الدينية، وذكرت أن فرنسا تحترم جميع الأديان على السواء إنما هي لا ترضى أن يتّخذ الدعاء باسم جلالة الملك فيصل حجة لإثارة الخلافات السياسية[2].

الوزارة الركابية:

في 9 آذار ـ أي في اليوم التالي لتتويج فيصل ـ صدرت الإرادة الملكية بتشكيل الوزارة السورية الأولى، فكانت مؤلفة من رضا الركابي رئيساً، وعلاء الدين الدروبي لرئاسة مجلس الشورى، ورضا الصلح للداخلية، وعبد الحميد القلطقجي للحربية، وجلال الدين زهدي للحقانية، وسعيد الحسيني للخارجية، وفارس الخوري للمالية، وساطع الحصري للمعارف، ويوسف الحكيم للنافعة.

كان معظم هؤلاء الوزراء من الكهول الميالين للاعتدال في السياسة، ولهذا صار الوطنيون المتحمسون يتهمونها بالضعف وبقلّة الاهتمام بالدفاع عن الوطن. وقد اشتدّ الانتقاد لها على أثر إعلان مقررات سان ريمو في 25 نيسان، وهي المقررات التي جعلت سوريا تحت انتداب فرنسا، والعراق وفلسطين تحت انتداب بريطانيا. فقد ثارت ثائرة الأحزاب والجماهير على تلك المقررات، وأخذوا يتهجمون على الوزارة، ووصفوها بأنها لا تشاركهم العزم على محاربة فرنسا حتى النهاية[3].

كان يتزعم هذه المعارضة ضابط شاب في السادسة والثلاثين من عمره اسمه يوسف العظمة، وكان يومذاك يتولى منصب مساعد وزير الحربية، وهو

---

(1) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص 190.
(2) أمين سعيد (المصدر السابق) ـ ج 2، ص 142.
(3) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص 178.

برتبة مقدم ولكن فيصل قد منحه رتبة عقيد فخرية تقديراً له. وكان يؤيد هذا الضابط في المعارضة إحسان الجابري رئيس الديوان الملكي، وساطع الحصري وزير المعارف.

كانت القوات التركية في تلك الأيام تكيل الضربات القوية للفرنسيين في كليكيا حتى وصلت في زحفها إلى مقربة من الحدود السورية وأخذت تهددها. وكان رأي الركابي أن يتعاون مع الفرنسيين للدفاع عن حدود سوريا الشمالية[1]. ولكن يوسف العظمة كان يخالفه في هذا الرأي إذ كان يميل إلى الاتفاق مع الأتراك ضد الفرنسيين. وقد حدثت في أحد الأيام مشادة بين الركابي ويوسف العظمة بحضور الملك، فقد قال يوسف للملك: «لو سمحت جلالتك لأمكننا أن نرمي الفرنسيين إلى البحر بقدمي هذه». فسأله الركابي عن مقدار القوة العسكرية التي يملكها لمحاربة فرنسا، فأجابه يوسف العظمة: 4000 جندي و12 مدفعاً و36 قنبلة. فردّ عليه الركابي قائلاً: «أخشى أن تثقب قدمك قبل أن تلقي الفرنسيين في البحر»[2].

عقد خصوم الوزارة الركابية أخيراً اجتماعات سرية في بيت إحسان الجابري قرروا فيها إسقاط الوزارة. وقد انحاز الملك إلى جانبهم. وفي 2 أيار 1920 ضجر الركابي من المؤامرة التي تُحاك ضده فغادر مكتبه وذهب إلى بيته عازماً على الاستقالة، فأرسل الملك إليه إحسان الجابري يطيب خاطره ويوصيه بالتريث، فأجابه الركابي: «لا يسعني الصبر على ما أشاهده في العاصمة، وفي المؤتمر السوري خاصة، من تهور وإفراط في المطاليب مما قد يؤدي إلى فقد النظام وإلى الاضطراب على الحدود وينذر بسوء المصير»[3]. ثم كتب الركابي استقالته حيث قال فيها إنه يستقيل بناءً على أسباب صحية، وناولها إلى الجابري.

---

(1) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص 553.
(2) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص 178 ـ 179.
(3) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ـ ص 157.

الوزارة الأتاسية:

في اليوم التالي لاستقالة الركابي كلّف الملك فيصل هاشم الأتاسي بتشكيل وزارة جديدة. فشكلها الأتاسي على النحو التالي: رضا الصلح لرئاسة مجلس الشورى، وعلاء الدين الدروبي للداخلية، وعبد الرحمن الشهبندر للخارجية، ويوسف العظمة للحربية، وفارس الخوري للمالية، وجلال الدين زهدي للحقانية، وساطع الحصري للمعارف، ويوسف الحكيم للنافعة.

الملاحظ أن خمسة من أعضاء الوزارة الجديدة كانوا في الوزارة المستقيلة، ولم تضم الوزارة الجديدة سوى وزيرين جديدين هما: يوسف العظمة وعبد الرحمن الشهبندر، وكانا يتشابهان بكونهما شابين ومن أشد الناس حماساً واندفاعاً. ومما يجدر ذكره أن الملك كان قبل هذا يكره الشهبندر ويعتبره عدواً له وقال عنه ذات مرة: «إنني لما عرفت الشهبندر احتقرت جميع أهل الشام...»[1]. والظاهر أن الملك إنما أدخله في الوزارة لكي يجتذبه إليه ويخفف من حماسه.

عندما مثلت الوزارة الأتاسية أمام المؤتمر السوري وألقت بيانها اعترض المؤتمر عليها لخلوّ البيان من التصريح عن الدفاع ووسائله. فاختلّت الوزارة في غرفة جانبية، ثم خرج الشهبندر بعدئذٍ إلى المؤتمر وقال: «تسألوننا أيها السادة عن الدفاع، ونحن نقول لكم إننا ما خُلقنا إلّا من الدفاع وإلى الدفاع». فصفق أعضاء المؤتمر لهذا التصريح ومنحوا الوزارة ثقتهم[2].

أخذت الوزارة الأتاسية تعمل بكل جهدها في إعداد وسائل الدفاع عن البلاد، وكان أول ما قامت به في هذا الشأن أنها أعادت النظر في قانون التجنيد الإجباري الذي أهملته الوزارة السابقة، وجعلت مدة الخدمة سنة واحدة بدلاً من ستة أشهر، وكذلك أصدرت سندات قرض وطني بمبلغ نصف

---

(1) يوسف أيبش (رحلات الإمام محمد رشيد رضا) ـ بيروت 1971 ـ ص 300.

(2) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) ـ ج 3، ص 215.

مليون دينار بفائدة ستة بالمائة مقابل رهن مليون دونم من أراضي الدولة. وبدأت مناشير الدعاية لهذا القرض توزّع على الناس وهي تتضمن العبارات التالية: «هل أنت شرقي...؟ هل أنت عربي...؟ هل تريد الحياة الحرة...؟ هل تريد الاستقلال التام...؟ اشترك بالقرض السوري.. لا حياة إلا بالاستقلال ولا استقلال إلّا بالمال»[1].

وقد بذل يوسف العظمة جهداً كبيراً في إعداد الجيش السوري وتسليحه. ثم ذهب إلى حلب بحجة النظر في تعزيز وسائل الدفاع عن الحدود الشمالية، غير أنه كان في الحقيقة يقصد التفاهم مع مصطفى كمال باشا، وقد اتصل هناك بمندوبين عنه وباحثهم في إنشاء تعاون عسكري بين العرب والأتراك. ويبدو أن الإنكليز علموا بهذا الاتصال، فقد صرّح شرشل في مجلس العموم البريطاني قائلاً: إن العرب يحاولون الآن لأول مرة التفاهم مع الأتراك لإيجاد قضية مشتركة بينهما، وذلك بعدما كانت سياستنا قد نجحت في التفريق بينهما[2].

أدرك الفرنسيون أنهم في هذه الظروف غير قادرين على الاحتفاظ بسوريا وكليكيا معاً، ولا بد لهم من أن يتخلوا عن إحداهما ليحافظوا على الأخرى. وقد صرّح أحد مفكّريهم السياسيين قائلاً: «لو كان يتحتم على فرنسا أن تتخذ قرارها مستندة على المنافع والحسابات وحدها لوجب عليها أن ترجّح كليكيا على سوريا، ولكن لفرنسا تقاليد وروابط معنوية كثيرة تربطها بسوريا منذ قرون عديدة، فعليها إذن أن تتمسك بتلك الروابط والتقاليد، وأن تتنازل عن كليكيا في سبيل الاحتفاظ بسوريا إذا اقتضى الحال»[3].

ولهذا عقد الجنرال غورو هدنة مع مصطفى كمال باشا في 30 أيار 1920، ثم أخذ يسحب قواته من كليكيا ويحشدها تجاه حكومة دمشق[4].

---

(1) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص 179.
(2) المصدر السابق ـ ص 186.
(3) ساطع الحصري (ميسلون) ـ بيروت ـ ص 8.
(4) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص 555.

مذبحة في جبل عامل:

يقع جبل عامل في جنوب لبنان يحدّه البحر الأبيض غرباً ومرتفعات الجولان شرقاً، ومعظم سكانه من الشيعة الاثني عشرية ويطلق عليهم اسم «المتاولة» ومعناه الذين يتولون علياً. وكان الجبل يضم بالإضافة إلى الشيعة أقلية مسيحية أكثرها من الموارنة. وقد نشأت بين الفريقين في تلك الفترة احتكاكات طائفية تهدأ تارة وتثور تارة أخرى. يقول محمد عزة دروزة: «لقد كانت الدعايات والتحريضات قد أدّت في منطقتي الجولان وجبل عامل المتجاورتين... إلى بعض الاحتكاكات العدائية بين المسلمين والنصارى فيهما، فلم تلبث بعد إعلان الاستقلال والملكية أن أخذت تتّسع ويبدو على مسرحها بعض صور حرب العصابات من الجانبين: نصرانية مسلحة بالسلاح الإفرنسي ومدبرة باليد الإفرنسية تحت ستار الدفاع عن النفس ورد العدوان، وإسلامية مسلحة بالسلاح العربي ومدبرة باليد العربية بقصد إحباط دسائس الفرنسيين وتحريضاتهم وعرقلة أهدافهم...»(1).

وفي 24 نيسان 1920 عقد الشيعة مؤتمراً لهم في وادي الحجير الواقع على بعد خمسة عشر ميلاً من جنوب النبطية، حضره علماء الشيعة وأعيانها وعلى رأسهم كامل بك الأسعد والمجتهد المعروف السيد عبد الحسين شرف الدين، وقرروا بالإجماع الانضمام إلى حكومة فيصل العربية ورفض الخضوع للحكم الفرنسي(2).

أدّى هذا المؤتمر إلى تفاقم التوتر الطائفي في المنطقة، وبدأت الإشاعات تنتشر بين السكان تثير كل طائفة منهم على الأخرى. حدثني أحد المسنين من العامليين قائلاً: إن إشاعة انتشرت بين الشيعة مفادها أن النصارى أحرقوا القرآن كما افتضوا بكارة سبع فتيات شيعيات. وهو يعزو هذه الإشاعة إلى دسائس

(1) محمد عزة دروزة (الحركة العربية الحديثة) ـ صيدا 1950 ـ ج 1، ص 124.
(2) محمد جابر آل صفا (تاريخ جبل عامل) ـ بيروت ـ ص 226.

الفرنسيين، وكانت نتيجتها أن ثارت ثائرة الشيعة فهاجموا قرية مسيحية قريبة من الحدود الفلسطينية تدعى «عين إبل»، وقتلوا عدداً كبيراً من سكانها.

يتهم النصارى أحد علماء الشيعة الذين حضروا مؤتمر الحجير بأنه كان السبب في وقوع المذبحة إذ هو ـ على حد قولهم ـ استخار الله بالمسبحة على ذبح النصارى[1]. ولكن الشيعة يعزون السبب إلى الفرنسيين، يقول أحد مؤلفيهم في ذلك: إن الفرنسيين سلحوا النصارى بالبنادق وأغروهم بالتحرش بجيرانهم، وأذكوا فيهم نار التعصب، وأخذ هؤلاء النصارى يعتدون على أبناء السبيل والفقراء من الشيعة مما جعل الشيعة يردون عليهم بالمثل، فوقعت الفاجعة التي عكّرت صفو الولاء بين الطائفتين وأسف له العقلاء[2].

حين بلغ الجنرال غورو خبر المذبحة صمم على الانتقام من الشيعة. وفي 5 أيار 1920 تحرّكت من بيروت حملة فرنسية مؤلفة من أربعة آلاف جندي بقيادة الكولونيل نياجر. وسارت الحملة في طريق الساحل حتى وصلت إلى صور، وهناك أحرقت بيت المجتهد عبد الحسين شرف الدين، وكانت فيه مكتبة نفيسة، ثم تحوّلت بعدئذٍ نحو الداخل، وشرعت تحرق الكثير من القرى والضياع، وأعدمت نحو ثلاثين رجلاً بتهمة مساهمتهم في مذبحة النصارى.

ولمّا تمّت السيطرة على جبل عامل كله دعت السلطة الفرنسية عدداً كبيراً من أعيان الشيعة والدروز والمسيحيين إلى اجتماع في صيدا. وانعقد الاجتماع في 5 حزيران، ووقف الكولونيل نياجر فألقى خطاباً شديد اللهجة موجهاً إلى الشيعة وقرأ الأحكام القاسية التي صدرت عليهم حيث حُكم بالإعدام على بعضهم وبالنفي المؤبد على آخرين منهم، وكان من بين المنفيين عبد الحسين شرف الدين وكامل الأسعد وراشد عسيران ومحمد سعيد البزّي. وقال نياجر في ختام خطابه إن الحكومة الفرنسية يسوءها الحكم على أعيان الشيعة بهذه الأحكام الصارمة ولكنهم هم الجناة على أنفسهم.

---

(1) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص 53.

(2) محمد جابر آل صفا (المصدر السابق) ـ ص 227.

ثم ذكر نياجر شروطاً قال إن الحملة لن تترك المنطقة إلّا بعد تنفيذها، وهي: دفع غرامة قدرها مائة ألف جنيه مصري، وإعادة المنهوبات إلى أهلها، وإعطاء تعهّد خطي بالمحافظة على المسيحيين، وتسليم الأسلحة، وتسليم المجرمين، وتحمل المسؤولية عن كل حادثة جديدة. فوافق الشيعة على هذه الشروط ما عدا الأخير منها حيث قالوا بأنهم لا يستطيعون أن يتحملوا المسؤولية عن كل حادثة جديدة لأنهم غير قادرين أن يكونوا في كل مكان في وقت واحد، غير أنهم تعهدوا أن يبذلوا جهدهم بكل قواهم لمنع الحوادث.

وقد تألفت لجنة لجمع الغرامة المفروضة. واستغلّ أعضاء اللجنة الفرصة فأخذوا يجمعون لأنفسهم أكثر مما جمعوه للمتضررين. يقول أمين الريحاني نقلاً عن بعض المطلعين: إن أعضاء اللجنة جبوا بمهارتهم 485 ألف ليرة، فدفعوا للمتضررين 50 ألف ليرة، ووضعوا الباقي في جيوبهم[1].

وعلى أي حال لقد حلّ البؤس والخراب بجبل عامل على أثر تلك الواقعة. واضطر الكثير من العامليين إلى بيع ما يملكون من أجل دفع الغرامة. وقد حاول الملك فيصل التخفيف عنهم فأرسل احتجاجاً إلى الجنرال غورو، كما أرسل إلى لويد جورج يطلب منه التوسّط باسم الإنسانية، وأشار إلى أن تسليح الفرنسيين للمسيحيين يؤدي إلى تعصّب ديني ويقضي على جهوده الرامية إلى إيجاد قومية إسلامية مسيحية موحدة[2].

إنذار غورو:

في 10 تموز 1920 حدثت في بيروت حادثة أدّت إلى غضب غورو وازدياد حنقه على حكومة دمشق، خلاصتها أن أشخاصاً جاؤوا من دمشق واتصلوا سراً ببعض أعضاء مجلس إدارة لبنان، وقدموا لهم رشوة كبيرة قدرتها المصادر الفرنسية باثنين وأربعين ألف جنيه، وتمكّنوا بهذه الرشوة أن يقنعوا

---

(1) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص 28.

(2) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص 193.

سبعة أعضاء منهم بحيث جعلوهم يوقعون على عريضة يطالبون فيها باستقلال لبنان وبإقامة تعاون اقتصادي بينه وبين حكومة دمشق. وقد قرر هؤلاء الأعضاء السبعة أن يسافروا إلى باريس لتقديم العريضة إلى مؤتمر الصلح، ولكن السلطة الفرنسية كانت على علم مسبق بما قرروه عن طريق جاسوس كان مدسوساً بينهم، فألقت القبض عليهم عندما كانوا يغادرون بيروت، ثم حكمت عليهم بالنفي وبغرامة جسيمة.

كان فيصل في ذلك الحين ينوي السفر إلى فرنسا لإعادة النظر في المعاهدة، وقد أرسل نوري السعيد إلى بيروت لمفاتحة غورو في أمر هذا السفر. وصادف وصول نوري السعيد إلى بيروت في نفس الوقت الذي تمّ فيه إلقاء القبض على الأعضاء السبعة. ولما بدأ نوري الكلام مع غورو قال له غورو: إن لديه بعض المطاليب لتقديمها إلى فيصل، وإنه لن يوافق على سفر فيصل إلّا إذا قبل بتلك المطاليب. ثم قدم غورو خلاصة لتلك المطاليب وهي: (1) وضع سكة حديد رياق حلب تحت تصرف الجيش الفرنسي، (2) إلغاء التجنيد الإجباري وتسريح المجندين، (3) قبول الانتداب الفرنسي بلا قيد أو شرط، (4) معاقبة المتهمين بمعاداة فرنسا، (5) قبول أوراق النقد التي أصدرها الفرنسيون.

عاد نوري السعيد إلى الملك فيصل يخبره بالأمر، وفي 14 تموز وصل إلى دمشق الكولونيل نياجر وهو يحمل إنذاراً رسمياً يتضمن تلك المطاليب الخمسة ومعها مهلة أمدها أربعة أيام تنتهي في ليلة 18 ـ 19 تموز، فإذا لم تُقبل المطاليب خلال تلك المهلة فإن الحكومة الفرنسية ستكون مطلقة التصرف في عملها تجاه حكومة فيصل.

كان لإنذار غورو وقع شديد على فيصل ووزرائه، واجتمعوا يتدارسون الموقف للنظر في حلّ له وكيف الخروج منه، وكان الوجوم سائداً عليهم جميعاً ما عدا يوسف العظمة إذ كان متفائلاً. يقول ساطع الحصري: «كان يوسف العظمة يعمل بنشاط، ويظهر تفاؤلاً كبيراً في جميع الأعمال، حتى أنه أراد أن يشرع بإصدار بلاغات رسمية عن الحركات العسكرية، غير أننا

اعترضنا عليه وأوصيناه بالتريّث لكيلا يظهر للعالم بأننا نحن البادئون بالعدوان. . .»[1].

استدعي ياسين الهاشمي للاستفادة من خبرته العسكرية وعُين قائداً لجبهة مجدل عنجر التي كانت أهم الجبهات لوقوعها في طريق دمشق بيروت. يقول الحصري إنه زار الهاشمي في بيته فقال الهاشمي له بصراحة تامة وبلهجة الحازم المتأكد: «إن الجيش الموجود لا يستطيع أن يدافع عن البلاد. . . إنه لا يستطيع أن يصمد أمام العدو أكثر من ساعتين على أعظم تقدير». وأضاف الهاشمي إلى ذلك يقول: «إن المدافع التي مرّت أمامكم في الاستعراضات ليس لها إلّا عدد قليل جداً من القذائف، وهي لا تكفي لحرب تستمر أكثر من ساعة واحدة. وأستطيع أن أقول إن الجيش إذا اشتبك في حرب نظامية يبقى بعد ساعتين بلا عتاد»[2].

خرج الحصري من بيت الهاشمي وهو في اضطراب وحيرة شديدة، وذهب إلى الوزراء وأخبرهم بما سمع من الهاشمي. وكان الملك قد بلغه رأي الهاشمي فاستدعى إليه الوزراء، وتم عقد جلسة منهم بحضوره، وبدؤوا يتدارسون الوضع العسكري في ضوء ما أبداه الهاشمي. وحين سأل الوزراء يوسف العظمة عن مقدار الأسلحة والأعتدة المتوافرة لدى الجيش أجابهم: «لدى الجيش من العتاد ما يكفي لمقاومة الفرنسيين مدة من الزمن وربما لدحرهم على أعقابهم إذا أداروا ظهورهم في أول ملحمة». ولما طلب الوزراء منه تقديم بيان خطي بذلك أجابهم غاضباً: «ألا تثقون بكلامي وأنا زميلكم المسؤول عن أمور الجيش»[3].

استدعى الملك فيصل كبار القادة العسكريين لإبداء رأيهم في الأمر. وفي الساعة الثالثة من عصر 16 تموز حضر القادة كما حضر الهاشمي،

---

(1) ساطع الحصري (المصدر السابق) ـ ص 121.

(2) المصدر السابق ـ ص 122.

(3) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ـ ص 181.

وأخذوا يدلون بآرائهم كل بأسلوبه وحسب اجتهاده. فألحّ الملك عليهم أن يقدموا رأياً موحداً حاسماً. فانسحب القادة إلى غرفة جانبية واختلوا فيها، ثم خرجوا بعد قليل وهم يحملون رأياً موحداً خلاصته: أنه إذا كانت الحرب غير جدية فإن في مقدور الجيش أن يقاوم بضع ساعات، أما إذا حمي وطيس القتال فإن مقاومة الجيش لا تدوم أكثر من خمس دقائق[1].

وعند هذا التفت الملك نحو الهاشمي يسأله عن رأيه، فتكلم الهاشمي موجهاً انتقاده إلى يوسف العظمة وأبدى رأيه بأن الحرب لا ضرورة لها، ثم قال: لو كان في الإمكان صد الفرنسيين على خط دمشق فما العمل لو انقضت على الجيش العربي الفرقة الفرنسية من حلب. فاعترض عليه بعض القادة بقولهم: «المسألة مسألة شرف يا باشا». فردّ عليهم: «الشرف يعود للوزراء لا للجنود»[2].

انتهى الاجتماع بلا نتيجة حاسمة، وأراد الملك أن يقف على رأي الإنكليز قبل أن يبتّ في الأمر، فأرسل نوري السعيد وعادل أرسلان إلى حيفا لاستشارة الجنرال اللنبي. فعاد الرجلان من حيفا يقولان بأن اللنبي أشار عليهما بقبول الإنذار سريعاً بلا تردد، وقد كتب اللنبي إلى فيصل كتاباً أصرّ فيه على ضرورة قبول الإنذار وذلك تفويتاً للغرض الذي كان غورو يسعى إليه وهو دخول دمشق دخول الغزاة الفاتحين[3].

استقرّ رأي الملك ووزرائه على قبول الإنذار، ولكن مشكلة أخرى كانت تواجههم هي أن الجنرال غورو ألمح في كتابه المرفق بالإنذار إلى ضرورة تبديل الوزارة إذ وصفها بأنها كانت قد بذلت جهدها في جر البلاد إلى الحرب وأن بقاءها في الحكم ينطوي على معنى العداء لفرنسا.

وقد اتّجه فكر الملك وبعض وزرائه إلى تكليف رضا الركابي بتأليف

---

(1) أمين سعيد (المصدر السابق) ـ ج 2، ص 180.

(2) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في 19 نيسان 1930.

(3) إحسان الهندي (معركة ميسلون) ـ دمشق 1967 ـ ص 55.

وزارة جديدة، ولكن الركابي حين حضر أبدى اعتذاره وقال موجهاً كلامه للملك: «طالما قلت لك يا سيدي إن هؤلاء الأولاد سيهوروننا وعليهم أن يتحملوا تبعة ما بدأوه». وكان الركابي يشير بنظراته إلى يوسف العظمة[1].

وبعد أن يئس الملك من الركابي بتأليف الوزارة اتجه نحو ياسين الهاشمي، ولكن الهاشمي اعتذر أيضاً. وحدثت آنذاك مشادة عنيفة بين يوسف العظمة والهاشمي. فقد كان يوسف العظمة يفسر موقف الهاشمي بالغيرة منه[2]. وأخذ يوجه إلى الهاشمي كلاماً قاسياً حيث قال له: «أنت يا باشا بلبلت الأفكار وفضحت أسرار الجيش بما نقلته إلى بعض الوزراء عن عتاده، مع أنك أنت المسؤول عن تموينه فلا يليق بك التهرب من الحكم بعد أن أوصلتنا ببياناتك إلى الأزمة الحاضرة». فرد عليه الهاشمي قائلاً: «إني أوقفت الوزارة على حقيقة ميرة الجيش لكي لا تنخدع بأقوالك وتسوق البلاد إلى حرب لا أمل لها في كسبها. أما مسؤولية التقصير فتقع على عاتق الذين خلفوني في رئاسة الميرة وتولوا شؤون الدفاع». وهنا تدخل الملك وقال موجهاً كلامه إلى الهاشمي: «ولكنك يا ياسين كنت رئيساً للميرة مدة عشرة أشهر، فلماذا لم تعمل على تدارك الأسلحة اللازمة؟!»[3].

وهنا تقدم يوسف العظمة بحماسته المعروفة وأدى التحية العسكرية للملك وقال: «إني مستعد يا صاحب الجلالة للدفاع عن الوطن بكل قواي حتى النفس الأخير إذا أوليتموني ثقتكم». فشكره الملك ودعا له بالتوفيق وعيّنه نائباً للقائد العام للقوات المسلحة أي نائباً للملك الذي هو القائد العام[4].

وعاد يوسف العظمة إلى الكلام فخاطب الهاشمي قائلاً: «يا باشا تريد

---

(1) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص 201.
(2) أحمد قدري (المصدر السابق) ـ ص 240.
(3) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ـ ص 192.
(4) المصدر السابق ـ ص 193.

أن تجعلنا سلماً حتى تصعد علينا ثم تكون رئيس الوزراء». فرد عليه الهاشمي بشدة قائلاً: «إذا احتجتُ إلى سلّم فإني أبحث عن سلم متين»[1].

عاد الملك ووزراؤه بعد ذلك إلى المداولة في أمر الإنذار فقر قرارهم بالإجماع على قبوله، ووقع الملك برقية بهذا المعنى وسلّمها إلى الكولونيل تولا معاون ضابط الارتباط الفرنسي، فأبرق تولا بها إلى الجنرال غورو.

انتفاضة الجماهير:

في الوقت الذي كان فيه المسؤولون يتدارسون الموقف على النحو الذي ذكرناه آنفاً، كانت الجماهير ومعها المؤتمر السوري في هياج شديد، وخرجت المظاهرات إلى الشارع وهي تنادي: «إلى الحرب إلى الحرب!» وأصبح الملك فيصل بين هؤلاء وأولئك في مأزق عجيب!.

في 15 تموز ـ أي في اليوم التالي لورود الإنذار ـ عقد المؤتمر السوري جلسة للنظر في الأمر، وكانت جلسة حماسية تعاقب فيها الخطباء واحداً بعد الآخر وكلهم ينادون بالحرب ويوجهون التقريع إلى الوزراة الأتاسية متهمين إياها بالضعف والميل إلى الاستسلام. وكانت الجماهير في أثناء ذلك قد أحاطوا بمقرّ المؤتمر وهم يهتفون له، واندفع أفراد منهم فاقتحموا الأبواب ودخلوا إلى القاعة صارخين يطالبون بالحرب. وعند هذا تقدم خمسة وأربعون من أعضاء المؤتمر باقتراح مفاده أن المؤتمر السوري الذي هو ممثل للأمة السورية لا يعترف بأية معاهدة أو اتفاقية تتعلّق بمصير البلاد ما لم يصادق عليها المؤتمر. وقد وافق المؤتمر على هذا الاقتراح وقرروا نشره على الجمهور.

استدعى الملك فيصل أعضاء المؤتمر إلى اجتماع في حديقة قصره في الساعة الرابعة والنصف من عصر 17 تموز، وقد نصب سرادق في الحديقة لهذا الغرض، وحين وصل الأعضاء قابلهم الملك ببشاشة وأخذ يحاول

---

(1) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في 19 نيسان 1930.

إقناعهم حيث شرح لهم كيف أن الجيش السوري لا يكفي للدفاع تجاه القوات الفرنسية المجهزة بأحدث الآلات الحربية، وذكر أن الواجب يقضي عليهم بمعالجة الأمور بالتؤدة والحكمة عن طريق المفاوضات السلمية مع الجنرال غورو. وقد كان بين الحاضرين فريق كبير يميلون إلى مثل رأي الملك في المسالمة ولكنهم لم يجرؤوا على الجهر برأيهم وظلّوا ساكتين، فأخذ المتحمسون زمام الكلام وصاروا يجادلون الملك بقوة، وخاطبه أحدهم بلهجة شديدة غير أن الملك كتم غيظه ولم يرد عليه.

وفي ختام الاجتماع عندما يئس الملك من إقناعهم قدم لهم اقتراحاً ظنه نافعاً هو أن يكتب كل واحد منهم عند عودته إلى بيته مكتوباً خاصاً يبدي فيه رأيه كما هو معتقد به أمام الله، ثم يرسله إلى الملك. ووعدهم الملك أنه سيعمل حسبما تؤدي إليه أكثرية الآراء التي تصله[1]. لقد كان الملك يظن أن الآراء التي تُعطى بهذه الصورة سوف تكون واقعية لا يؤثر فيها إيحاء أو إرهاب[2]. ولكن أعضاء المؤتمر أدركوا ما ينطوي عليه اقتراح الملك من خطورة، فتفاهموا فيما بينهم على رفضه.

وفي صباح اليوم التالي ـ أي 18 تموز ـ عقد المؤتمر السوري جلسة فوق العادة، وجاءت المظاهرات إليه، وكان المتظاهرون يحملون الخناجر والسيوف وينشدون الأناشيد الحماسية، ثم صاروا يهتفون بسقوط الجبناء ذوي النفوس الضعيفة. وفي عصر ذلك اليوم عقد المؤتمر جلسة أخرى قرّر فيها استدعاء الوزارة الأتاسية للاستفسار منها عن الخطة التي قررت السير عليها في مواجهة الإنذار الذي كان أمده ينتهي في منتصف تلك الليلة[3].

وفي صباح 19 تموز انتشر بين الناس خبر قبول الوزارة للإنذار، فانتفضت دمشق لهذا الخبر، واحتشد الألوف منهم في ساحة المرجة يهتفون،

---

(1) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) ـ ج 3، ص 246.
(2) أمين سعيد (المصدر السابق) ـ ج 2، ص 185.
(3) رفيق التميمي (الأيام السود) ـ بغداد 1933 ـ ص 13.

وقام الشيخ كامل القصّاب خطيباً فحرّضهم على امتشاق الحسام للذود عن الوطن المهدد وندد برجال الحكومة وهددهم. وأخذ الخطباء يتعاقبون واحداً بعد الآخر يحثّون الناس على المقاومة مهما كلفهم الأمر[1].

وفي الوقت نفسه عقد المؤتمر السوري جلسة لمواجهة الوزارة والاستفسار منها عن خطتها. ولكن رئيس المؤتمر الشيخ رشيد رضا أعلن أن رئيس الوزارة أبلغه بعدم قدرتها على الحضور أمام المؤتمر لأنها في انتظار عودة الرسول الذي ذهب إلى بيروت للمفاوضة. وهنا قام أحد الأعضاء وتقدم باقتراح مفاده: أن الحكومة تصبح غير شرعية في حالة تصديقها على صكّ يخالف قرار المؤتمر، وأن الوزراء يتحملون تبعة ذلك تجاه الوطن. وقد وافق أعضاء المؤتمر بالإجماع على هذا الاقتراح وأوعزوا بطبعه ونشره في جريدة «العاصمة»، كما اختاروا من بينهم وفداً برئاسة رشيد رضا لمقابلة الملك وتقديم الاقتراح إليه.

تصاعد الانتفاضة:

بينما كانت الجماهير والمؤتمر السوري في أوج الحماس وصلت برقية من غورو يقول فيها إنه لا يكتفي بقبول الإنذار بل يريد تنفيذ شروطه حالاً، وهو يمدد مهلة الإنذار يومين آخرين حيث تنتهي في منتصف ليلة 20 ـ 21 تموز.

كانت تلك صدمة جديدة للملك ووزرائه. وفي مساء ذلك اليوم بينما كان الملك غارقاً في حيرته لا يدري ماذا يصنع جاءه طلب من وفد المؤتمر يريدون مقابلته. ولما أُذن لهم ودخلوا عليه جرت بينه وبينهم مناقشة حادة، ولم يملك الملك أعصابه فقال لهم غاضباً: «من أنتم..؟ أنا خلقت سوريا...!». فرد عليه رشيد رضا قائلاً: «أننت خلقت سوريا؟! لقد خُلقت سوريا قبل أن تُخلق أنت!»[2].

قرر الملك تعطيل جلسات المؤتمر السوري لمدة شهرين. وفي صباح

---

(1) المصدر السابق ـ ص 14.

(2) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص 202.

اليوم التالي ذهب وزير الحربية يوسف العظمة إلى المؤتمر وقرأ عليه قرار التعطيل، فحاول بعض الأعضاء الصعود على منصة الخطابة للاحتجاج على ذلك، ولكن وزير الحربية صرخ بهم مهدداً وأشار إليهم بالانصراف، فانصرفوا[1].

وفي عصر 20 تموز اجتمع الوزراء بحضور الملك وقرروا الاستجابة لإنذار غورو الأخير أي تنفيذ شروطه حالاً بما فيها تسريح الجيش. وتسلّم الكولونيل تولا القرار ثم أبرق به إلى الجنرال غورو في الساعة السابعة والنصف مساءً.

لم يكد الخبر ينتشر بين الناس في صباح اليوم التالي حتى انطلقت المظاهرات في الشوارع وهي تنادي بالويل والثبور، وكان على رأسها الشيخ كامل القصاب. وأخذ فريق من المتظاهرين يهتفون بسقوط الوزارة وبإحالتها إلى المحكمة العليا بتهمة الخيانة الوطنية[2]، كما أخذ فريق آخر يهتف ضد الملك مطالباً بسقوطه مع الوزارة[3]. وانتشرت في بعض الأوساط فكرة تنحية الملك فيصل ومبايعة الأمير زيد مكانه[4].

ووقعت آنذاك مذبحة قرب قلعة دمشق كان سببها أن بعض الجنود الذين سرحوا من الجيش انطلقوا بتحريض من بعض زعماء الأحزاب يريدون الهجوم على القلعة والاستيلاء على السلاح المخزون فيها من أجل الدفاع عن الوطن، وكان في مقدمتهم عثمان قاسم من أعضاء «العربية الفتاة» إذ كان يطلق الرصاص من مسدسه في الهواء تشجيعاً لهم[5]. وقد انضم إليهم الكثير من الرعاع فكسروا أبواب السجن في القلعة، وبدأ النهب ينتشر في الأسواق

(1) إحسان الهندي (المصدر السابق) ـ ص 58 ـ 59.
(2) المصدر السابق ـ ص 59.
(3) ساطع الحصري (المصدر السابق) ـ ص 127.
(4) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ـ ص 193.
(5) أحمد قدري (المصدر السابق) ـ ص 248.

القريبة. وأسرع الأمير زيد ومعه مدير الأمن طه الهاشمي على رأس قوة مسلحة بالرشاشات، فأطلقوا النار على المتظاهرين، فسقط منهم عدد كبير من القتلى والجرحى[1].

ويحدثنا طه الهاشمي في مذكراته عن تلك الواقعة فيقول ما نصّه: «. . .خرج عدة جنود من ثكنة البرامكة شاهرين السلاح بدعوى أن الحكومة استسلمت للفرنسيين. مرّوا بشارع النصر ومروا بحرس الموقع فبدلاً من أن يصدوهم عن عملهم التحقوا بهم. شوّقهم المشاغبون فزاد التجمهر. هجموا على القلعة. دافع الدرك. هجموا على مستودع السلاح. صادروه وأخرجوا المساجين. بدأ إطلاق الرصاص في البلدة واستمرّ إلى منتصف الليل. نهبت بعض الدكاكين. قُتل 25 وجُرح 35 شخصاً»[2].

وبينما كانت هذه المظاهرة الدامية تجري قرب القلعة كانت هناك مظاهرة أخرى تقترب من قصر الملك هاتفة هائجة، وتقدم وفد منها يمثل الأحزاب الوطنية طالباً مقابلة الملك. وكان الملك في تلك الساعة لا يزال مجتمعاً مع وزرائه عقب الانتهاء من قبول إنذار غورو الأخير. فأذن الملك للوفد بمقابلته وانسحب الوزراء إلى غرفة مجاورة. وكانت مقابلة الوفد للملك لا تخلو من غلظة وجرأة مما أثار غضب الملك بحيث لم يستطع السيطرة على أعصابه.

اختلفت الروايات في وصف تلك المقابلة وما جرى فيها. يقول يوسف الحكيم ـ وهو كان من جملة الوزراء الذين انسحبوا إلى الغرفة المجاورة ـ إن أحد أعضاء الوفد دفعته الحماقة إلى مخاطبة الملك بقوله: «يا صاحب الجلالة، إن الأمة لن ترضى عن التفاهم مع الفرنسيين وستحاسب المسؤولين عنه حساباً قاسياً»، فغضب الملك من هذا القول وقال بصوت عالي سمعه الوزراء في الغرفة المجاورة: «أنا لا أُهدَّد! أنا أقدر منكم على خدمة بلادي

---

(1) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص 563.

(2) خلدون ساطع الحصري (مذكرات طه الهاشمي) ـ بيروت 1967 ـ ج 1، ص 61 ـ 62.

التي هي بلادكم! أتريدون الحرب مع دولة قوية وليس لديكم قوة تقف في وجهها»[1].

وهناك رواية أخرى يرويها خير الدين الزركلي هي أن الوفد ألح للملك بوجوب مغادرة البلاد، فصرخ الملك في وجوههم قائلاً: «لقد دخلت البلاد فاتحاً ولن أخرج منها إلّا بالقوة. فإذا كانت لديكم القوة الكافية لإخراجي افعلوا ذلك، ودمي ودماؤكم في الشارع»[2].

وعلى أثر مغادرة الوفد للقصر بلغ الملك أن المتظاهرين قادمون نحو القصر وهم يهتفون بسقوطه. فأبدى إشارة خفية إلى كبير حجابه، وهو رجل حجازي أسود اللون، فأسرعت ثلة من فرسان البدو يبلغ عددهم المائتين بالخروج إلى الشارع، وأخذوا يصولون ويجولون على طول الشارع الكبير الممتد بين القصر وساحة المرجة وهم يهزجون[3].

يقول ساطع الحصري: «بقينا في القصر إلى ما بعد منتصف الليل نسعى لتهدئة أعصاب الملك من جهة، واتخاذ التدابير اللازمة لتسكين هياج الجماهير من جهة أخرى. ولم أعد إلى الدار إلّا قبيل الفجر. واستلقيت على الفراش وأنا في غاية التعب»[4].

التحول إلى الحرب:

أصبحت دمشق في 21 تموز هادئة بعد تلك الليلة الليلاء التي قضتها، ولكن سرعان ما ورد خبر مفاجىء إلى الملك هو أن القوات الفرنسية تزحف باتجاه دمشق. فذهل الملك من ذلك واستدعى إليه ضابط الارتباط الفرنسي الكولونيل كوس ليستفسر منه عن جلية الخبر. وأظهر كوس حيرة شديدة ووعد

---

(1) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ـ ص 193.

(2) نقلاً عن: أنيس صائغ (الهاشميون والثورة العربية الكبرى) ـ بيروت 1966 ـ ص 153.

(3) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ـ ص 193 ـ 194.

(4) ساطع الحصري (المصدر السابق) ـ ص 127.

بالسفر حالاً للتحقيق في الأمر. ثم انطلق خارجاً. وفي عصر ذلك اليوم عاد كوس ليقول إن سبب زحف القوات الفرنسية هو أن برقية قبول الإنذار التي أرسلها الملك بالأمس لم تصل إلى الجنرال غورو في الوقت المحدد بل تأخّرت نصف ساعة من جرّاء قطع العصابات خطوط التلغراف. واقترح كوس إيفاد أحد الوزراء إلى غورو للتفاهم معه.

وقع الاختيار على ساطع الحصري للسفر إلى عاليه للتفاهم مع غورو. وركب الحصري سيارة مكشوفة يصحبه مرافق الملك جميل الألشي والكولونيل تولا. وكان الطريق مزدحماً بالسيارات وقوافل البغال والأباعر وبقطعات الجنود. ولم يصل الحصري إلى عاليه إلّا في صباح اليوم التالي - أي في 22 تموز - وقد جرت بينه وبين غورو محاورة طويلة، وتبيّن للحصري أن غورو مصمم على احتلال سوريا بأية حجة وعلى أي حال. فقد قال غورو للحصري: «إننا لم نعد نثق بكم... ومن واجبنا أن نطلب منكم ضمانات جديدة»، ثم أخرج من أدراج مكتبه مذكرة تتضمن ضمانات ثمانية وبدأ يقرأها على الحصري. ولم يجد الحصري أمامه سوى أن يطلب من غورو تأجيل الزحف قليلاً لكي يتمكّن من العودة إلى دمشق ومباحثة الملك بشأن الضمانات الجديدة. ولم يوافق غورو على التأجيل إلّا بعد تمنع وتردد.

وجد الحصري صعوبة في العودة إلى دمشق بالسرعة المطلوبة، ولعل الفرنسيين عرقلوا عودته لغاية في أنفسهم. ولم يصل الحصري إلى دمشق إلّا في ساعة متأخرة من الليل. وفي الصباح التالي عقد الوزراء اجتماعاً بحضور الملك للنظر فيما جاء به الحصري من أخبار. وبينما كان الوزراء مجتمعين وصل الكولونيل كوس ومعه برقية مستعجلة من غورو مؤرخة في الساعة العاشرة من صباح 22 تموز يقول فيها إن القوات الفرنسية مضطرة لاعتبارات عسكرية أن تستمر في زحفها حتى تصل إلى خان ميسلون. وهنا أدرك الملك ووزراؤه أن ليس أمامهم سوى طريق الحرب.

وانطلقت صيحة الحرب في شوارع دمشق وساحاتها. واستدعى الملك

الشيخ كامل القصاب وقال له: لقد قررنا الدفاع كما أردتم فأرنا همّتك ونشاطك وجئنا بالقوى الوطنية التي تقول إنها مستعدة للقتال. فأجابه القصاب قائلاً: ما دمت قد قررت الدفاع فأنا أعدك بتجنيد عشرة آلاف رجل يحمل البندقية حتى المساء. ثم خرج القصاب يجوب محلات دمشق وينادي بالبدار إلى الحرب. وبعد فترة قصيرة عاد القصاب وهو يحمل في ذيل جبته كمية من خراطيش البنادق والمسدسات من أنواع مختلفة، وقدمها إلى الملك يقول: «اشتريت هذه الرصاصات من أحد الدكاكين في المدينة. من قال لكم إنه ليس في البلاد ذخيرة؟». فضحك ياسين الهاشمي الذي كان حاضراً وقال بمرارة: «أبمثل هذا العتاد وهؤلاء المتطوعين الذين يظنون الحرب كالمظاهرات والنزهات يمكننا أن نصدّ الجيش الفرنسي سيما وحرب العصابات تختلف عن الحرب النظامية»[1].

وذهب الملك إلى الجامع الأموي فارتقى المنبر وخطب في الناس قائلاً: «أردت أن أرد عنكم زحف جيش الأعداء بإجابة مطالبهم فلم يرتدوا. فإن كنتم في حاجة إلى بلدكم فاخرجوا للدفاع عنه»[2].

وأعدت إدارة السكك قطارات يتحرك واحد منها في كل ساعة لحمل المتطوعين إلى الجبهة في خان ميسلون. وتهافت المتطوعون إلى القطار وهم يحملون ما لديهم من بنادق أو سيوف أو مسدسات أو عصي، كما تطوّع عدد من النساء لخدمة الجرحى ولبس بعضهن الملابس العسكرية وكانت في طليعتهن الآنسة نازك العابد التي كانت برتبة رئيس فخري في الجيش العربي.

يقول جميل بيهم: إن المتطوعين انضموا إلى الجيش بدافع الحماس والواجب الوطني غير أن أكثرهم كانوا لا يحسبون حساب الحرب وأهوالها، فكان يكفي أحدهم أن يتجهز بالبندقية ليشعر اعتماداً على شجاعته بأنه سيكون

---

(1) أحمد قدري (المصدر السابق) ـ ص 252.

(2) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص 203 ـ 204.

من الأبطال. فهم كانوا يتصورون كأنهم في نزهة عسكرية مما حمل بعضهم من المولعين بالنارجيلة أن يصحبوها معهم إلى تلك النزهة[1].

قرر يوسف العظمة الخروج بنفسه إلى الجبهة. وذهب لتوديع الوزراء، وانتحى بساطع الحصري في زاوية من القاعة وكلمه بالتركية قائلاً: «أنا ذاهب! إني أترك ليلى ـ يقصد ابنته ـ أمانة لديكم أرجوكم لا تنسوها». وتبين من كلامه أنه كان مصمماً على أن لا يعود من الجبهة حياً.

وذهب يوسف العظمة لتوديع الملك، وجرى بينهما حوار له مغزاه البعيد ننقله هنا بنصه عن أحمد قدري الذي كان حاضراً الحوار:

يوسف: أتيت لتلقي أوامر جلالتكم.

فيصل: بارك الله فيك، إذن أنت مسافر لميسلون؟

يوسف: نعم يا مولاي إذا كنتم لا تودون قبول الإنذار الأخير.

فيصل: ولماذا كنت تصرّ على الدفاع بشدّة؟

يوسف: لأنني لم أكن أعتقد بأن الفرنسيين يتمكنون من دوس جميع الحقوق الدولية والإنسانية ويقدمون على احتلال دمشق، وكنت أتظاهر بالمناورة للمقابلة بالمثل.

فيصل: وهل يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم.

يوسف: إذن فهل يأذن لي جلالة الملك بأن أموت؟

فيصل: بعد أن انتهت الأمور إلى هذا الحد يجب أن نموت جميعاً شرفاء، وننقذ البلاد من حرب أهلية أيضاً.

يوسف: إذن فأنا أترك ابنتي الوحيدة ليلى لدى جلالتكم[2].

---

(1) محمد جميل بيهم (المصدر السابق) ـ ص 167.

(2) أحمد قدري (المصدر السابق) ـ ص 253.

معركة ميسلون:

بدأت المعركة في ميسلون حوالي الساعة الخامسة من صباح 24 تموز واستمرت حتى الظهر، ويُقدر عدد الذين اشتركوا فيها من العرب بنحو ثلاثة آلاف، بعضهم من الجنود النظاميين والباقي من المتطوعين. وهي في الواقع لم تكن معركة، بل كانت بالمذبحة أشبه. فقد كان لدى القوات الفرنسية عشر طائرات والكثير من الدبابات والمدفاع[1] بينما لم يكن لدى العرب إلّا القليل من المدافع ولم يكن العتاد الذي وزّع عليهم من عيار الأسلحة التي في أيديهم[2].

أبدى العرب صموداً في القتال لا يُستهان به. وقُتل منهم أربعمائة رجل عدا الجرحى وتلك نسبة عالية في جيش مقاتل. وكان من بين القتلى عدد غير قليل من رجال الدين الذين اعتبروا القتال في ميسلون جهاداً في سبيل الله.

كان المفروض في يوسف العظمة بصفته وزيراً للحربية أن يكون بعيداً عن ساحة القتال، ولكنه آثر المشاركة الفعلية فيه لأنه كان يريد أن يموت. وفي الساعة العاشرة والنصف أصابته صلية رشاش من دبابة فرنسية فسقط على الأرض يتخبّط بدمائه.

أثبت هذا الرجل بموته أنه يختلف عن بعض الناس الذين يتحمسون عند الأمان غير أنهم في ساعة الخطر يهربون أو يستسلمون. ومن الجدير بالذكر هنا أن فيصل خصص فيما بعد راتباً شهرياً لابنة يوسف العظمة، وظلّت البنت تتسلم الراتب باستمرار حتى وفاة فيصل في 1933[3].

عندما انتشر خبر مقتل يوسف العظمة بين الجنود انتشرت فيهم روح

---

(1) إحسان الهندي (المصدر السابق) ـ ص 200.

(2) زين نور الدين زين (المصدر السابق) ـ ص 266.

(3) ساطع الحصري (المصدر السابق) ـ ص 159 (حاشية).

الهزيمة، فبدؤوا ينسحبون سريعاً نحو دمشق. ومما يحزّ في النفس أن أهل القرى الواقعة بين ميسلون والمزّة انثالوا على الجنود المنسحبين ينهبونهم.

دخل الجيش الفرنسي دمشق في الساعة الخامسة من عصر 25 تموز، وكان في مقدمته قائد الجبهة الجنرال غوابيه وهو راكب جواده. وكانت أسواق دمشق حينذاك مقفلة، وقد وقف الناس على أرصفة الشوارع يرقبون مسيرة الجيش بصمت ووجوم. وفي 1 آب وصل غورو إلى دمشق حيث دخلها في موكب عظيم. ويقال إنه توجه حالاً إلى قبر صلاح الدين الأيوبي. فوقف على القبر يقول: «يا صلاح الدين أنت قلت لنا في أبان حروبك الصليببة أنكم خرجتم من الشرق ولن تعودوا إليه وها أننا قد عدنا، فانهض لترانا هنا في سوريا»[1].

أبدى بعض مشايخ البدو شيئاً من الخسّة عقب المعركة. فأحدهم كان قد تسلم من خزينة الجيش العربي قبيل معركة ميسلون خمسمائة جنيه لكي يستعين بها على قتال الفرنسيين، ولكنه لم يكد يلمح الجيش العربي مهزوماً حتى انثال هو وأتباعه على الجنود المنسحبين يسلبونهم سلاحهم ومتاعهم[2] وقد فعل مثل هذا نوري الشعلان شيخ مشايخ الرولة، فهو قد تسلم من فيصل في شهر آب 1918 ثلاثين ألف ليرة ذهب[3]، ولكنه عند دخول غورو إلى دمشق خرج لاستقباله وانضم إلى موكبه مع رجاله، وشوهد في الموكب وهو شاهر سيفه[4].

طرد الملك:

كان الملك فيصل أثناء معركة ميسلون في مقرّ القيادة العسكرية في الهامة، وحين علم بنتيجة المعركة انسحب هو وحاشيته إلى الكسوة وهي

(1) إحسان الهندي (المصدر السابق) ـ ص 201.
(2) المصدر السابق ـ ص 209.
(3) سليمان موسى (مذكرات الأمير زيد) ـ ص 201.
(4) سليمان موسى (الحركة العربية) ـ ص 658.

محطة للسكة الحديدية تقع على بعد اثني عشر ميلاً إلى الجنوب الشرقي من دمشق.

أرسل فيصل يستدعي الوزراء إليه في الكسوة، فوصلوا كلهم ما عدا اثنين هما علاء الدين الدروبي وفارس الخوري، كما وصل إليها نحو خمسين شخصاً من زعماء المظاهرات كالشيخ كامل القصاب وعثمان قاسم وشكري القوتلي. واتّخذ الجميع عربات القطار مسكناً لهم، ولكن بعضهم لم يتحملوا البقاء في الكسوة فركبوا قطاراً كان على أهبّة السفر إلى درعا فحيفا، وكان من بينهم عبد الرحمن الشهبندر وكامل القصاب.

كان المتوقع من فيصل في تلك الظروف أن يخرج من سوريا نهائياً ليعلن للعالم ما حلّ به من ظلم على يد فرنسا التي تدعي أنها أم الحرية وحقوق الإنسان، ولكن فيصل لم يفعل ذلك بل آثر أن يعود إلى دمشق ليتفق مع الفرنسيين ويرضخ لإرادتهم. يقول ساطع في وصف حالة الملك النفسية في الكسوة ما نصه:

«وصل الملك فيصل مع حاشيته بالسيارات مساءً قبل غروب الشمس، وقد كان في حالة شاذة تختلف عن حالاته المعتادة اختلافاً كبيراً، فجميع حركاته وسكناته كانت تدلّ على أنه في حالة تردد شديد وقلق عظيم. ولاح لي من تتبع هذه الحركات أنه كان مشغول اللب بشيء يميل إلى إخفائه عنا. فقلت لنفسي: ربما كان لا يزال يأمل في التفاهم مع الفرنسيين وينتظر ورود بعض الأخبار التي تساعد على تحقيق هذا التفاهم. وقد تبيّن لي بعد قليل أن ظنّي كان مطابقاً للحقيقة والواقع. إنه كان قد أوفد نوري السعيد لمقابلة الفرنسيين وأرجأ جميع قراراته إلى حين وصول أخبار هذه المقابلة. ولهذا كان ينتظر هذه الأخبار بفارغ الصبر، ويتجنّب التكلم وإبداء الرأي في أي موضوع كان[1]».

في مساء 25 تموز وصلت إلى الملك برقية من نوري السعيد تبشّره

---

(1) ساطع الحصري (المصدر السابق) ـ ص 164 ـ 165.

بحصول اتفاق مؤقت مع الفرنسيين، فتفاءل الملك بها واسترسل في تفاؤله استرسالاً غريباً[1]. وفي اليوم التالي وردت إليه أخبار شفهية تؤيّد مضمون البرقية، فزاد ذلك من تفاؤله وقرر إقالة الوزارة الأتاسية وتشكيل وزارة جديدة من وزراء معروفين بتأييدهم للانتداب الفرنسي. وقد أوعز تشكيل هذه الوزارة فعلاً، فتألفت من علاء الدين الدروبي رئيساً، وعبد الرحمن اليوسف رئيساً لمجلس الشورى، وعطاء الأيوبي وزيراً للداخلية، وبديع المؤيد للمعارف، وجميل الألشي للحربية، وجلال الدين زهدي للعدلية، وفارس الخوري للمالية، ويوسف الحكيم للنافعة.

عاد الملك إلى دمشق فوصلها قبيل منتصف الليل. وكان لا يزال متفائلاً يظن أن الفرنسيين سيرحبون به ويرضون بالتعاون معه. ولكنه فوجىء في الصباح بأنهم لا يريدونه وأنهم يعتبرونه المسؤول الأول عمّا جرى من اضطرابات دموية. وقد طلبوا منه بكل صلافة أن يغادر دمشق في خلال يومين، ووضعوا تحت تصرفه قطاراً خاصاً لنقله إلى درعا. فاحتجّ الملك على ذلك احتجاجاً شديداً دون أن يجد لاحتجاجه أي صدى. فاضطر إلى ركوب القطار، وقد تحرك القطار به في الساعة الخامسة من صباح 28 تموز.

لم يكن في وداع الملك في محطة دمشق سوى عدد قليل من الناس، وقد صحبه في القطار ساطع الحصري وعوني عبد الهادي وإحسان الجابري وتحسين قدري وأحمد قدري. وحين وصلوا إلى درعا اتخذوا عربات القطار مسكناً لهم على نحو ما فعلوا في الكسوة.

وجاء رؤساء العشائر الحورانية للترحيب بالملك، وأخذ هو يحرضهم على حرب الفرنسيين فكان جوابهم له: إنهم مستعدون لحرب الفرنسيين على شرط الحصول على تأييد من الإنكليز[2].

---

(1) المصدر السابق ـ ص 165.

(2) أحمد قدري (المصدر السابق) ـ ص 274 ـ 275.

وفي اليوم التالي ـ أي في 29 تموز ـ وصلت إلى الملك برقية من علاء الدين الدروبي يسترحم منه أن يغادر درعا حفظاً لبلاد حوران من المصائب والخراب. وفي الوقت نفسه ألقت طائرة فرنسية منشوراً موجهاً إلى عشائر حوران يتضمن إنذاراً لهم أمده عشر ساعات بأن يكلفوا فيصل بمغادرة درعا، وإذا امتنع عن ذلك يجب إرجاع القطار به إلى دمشق، وإلا فإن بلادهم ستصبح هدفاً للقنابل. فاضطر الملك إلى مغادرة البلاد متوجهاً مع حاشيته إلى حيفا.

بعد الطرد:

كان فيصل عند مغادرته سوريا في حالة نفسية وصحية سيئة للغاية. يقول إبراهيم نجار: «كان فيصل ضعيف البنية من صغره حتى أنهم كانوا يقولون عنه بأنه كان مصدوراً، وكثيراً ما خشوا عليه هذا الداء. فلما صدم هذه الصدمة العنيفة الهائلة في دمشق أثرت في نفسه ورئتيه تأثيراً عظيماً جداً، حتى أن الذي كان يرى فيصلاً بعد مبارحته العاصمة السورية كان يعتقد أنه ينظر إلى تمثال من شمع. فلو أن طبيباً قصده في كل عروقه لما نزلت منه نقطة دم...»[1].

وصل فيصل إلى حيفا في 1 آب 1920. يقول المندوب السامي في فلسطين السر هربرت صموئيل في مذكراته: «قررت أن أستقبل فيصل على الأراضي الفلسطينية لا كلاجىء مغلوب على أمره بل كصديق محترم. ولذا أمرت فصيلة من الجند لأخذ التحية له في المحطة عند وصوله ثم تقدمت مع السر رونالد ستورز لاستقباله. وقد قيل لي بعد ذلك إن الملك فيصل بعد تلك الأيام العصيبة التي مرّت به لم يدر هل كان أولئك الجنود قد جاؤوا لإلقاء القبض عليه أم لتكريمه. وحين علم بأنهم جاؤوا لاستقباله استقبالاً عسكرياً زال القلق عنه»[2].

نزل فيصل في منزل المس نيوتن وهي سيدة بريطانية معروفة بعطفها على

---

(1) إبراهيم سليم نجار (المصدر السابق) ـ ص 79.

(2) Samuel (Memoirs) London 1945- p.158-159.

العرب. وأبرق إلى أبيه في مكة يطلب منه مالاً ليتمكن من السفر إلى أوروبا، فأرسل إليه الحسين حوالة على المصرف العثماني بخمسة وعشرين ألف جنيه.

وفي 9 آب كتب فيصل من حيفا إلى أبيه رسالة بخط يده يشرح له فيها أسباب الكارثة التي حلّت به ويبرر عمله في فصل سوريا عن الحجاز، حيث قال: إني كنت أعتقد أن الواجب يقضي علينا بالتساهل مع الدول بالنظر إلى أطماعها وضعفنا ولكن الذي حال دون ذلك مبدأه ـ يقصد مبدأ والده الحسين ـ القائم على استقلال البلاد العربية من غير قيد أو شرط، ومعارضة شبان العرب لكل تساهل، وقد كان بالإمكان الضرب على أيدي الأحزاب المعارضة ولكنني لم أقدم على ذلك خشية «اللوم التاريخي»، وزاد الوضع سوءاً أن الأحزاب لم تكن تدرك حقيقة ضعف البلاد وقوة الأعداء، ثم تأزم الوضع وحشد العدو قواته بينما الأمة واقفة تنظر إليه بعينيها وهي جامدة كأنها لا علاقة لها بما يجري. والذي يوجب الأسف أن الأمة قوالة غير فعالة، فأهل البلاد لم يقفوا موقفاً إيجابياً من التجنيد الإجباري فكان الفارون من التجنيد أكثر من المتطوعين، ولم يقبل الأهالي على دفع المال لصندوق الحكومة لكي تتمكن من العمل، فكان الإقبال على دفع المال وعلى التجنيد بحكم العدم. ولهذا قبلنا بشروط غورو ولكن بعض الأحزاب المتهوسة قامت وحرّضت الناس على الثورة في حين كان العدو يتربّص بنا الدوائر..[1].

زار صموئيل فيصل في منزل المس نيوتن وأبلغه برقية وصلته من وزير الخارجية البريطانية اللورد كرزن يقول فيها: «إن بريطانيا تأمل أن تلوح الفرصة في المستقبل كي تظهر له أن موقعه الودّي تجاهها لن يُقابل بالنسيان».

كان صموئيل قد اقترح على فيصل العودة إلى الحجاز، ولكن فيصل أصرّ على السفر إلى سويسرا لمراجعة عصبة الأمم. وفي صباح 18 آب غادر حيفا بالقطار متجهاً إلى مصر. وحين وصل إلى محطة القنطرة الواقعة على ضفة قناة السويس لم يجد أحداً في استقباله من قبل الجنرال اللنبي أو

---

(1) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص 567 ـ 568.

الحكومة المصرية، فاضطر أن يجلس على أمتعته في انتظار تحويل القطار على نحو ما يفعل أي مسافر عادي[1]. وهناك جاء إليه عبد الملك الخطيب معتمد أبيه الحسين في مصر، فأبلغه تعليمات أبيه ووصاياه، كما أبلغه لوم أبيه على ما فعل في سوريا من فصلها عن الحجاز. فرد عليه فيصل قائلاً: إنه ما زال يرجو أن يتوصل إلى ترتيب مع الفرنسيين[2].

غادر فيصل بور سعيد في 20 آب على باخرة تجارية قاصداً إيطاليا، وكان معه نوري السعيد وساطع الحصري وإحسان الجابري وتحسين قدري والأمير زيد. فوصل إلى نابولي في 25 منه. ومن هناك سافر إلى الشمال بغية الذهاب إلى سويسرا. وحين وصل إلى حدود سويسرا جاء إليه حداد باشا معتمد أبيه في لندن فأبلغه رسالة شفهية من لويد جورج يقول فيها: إني الآن في سويسرا مشغول باجتماعات مهمة، وحضورك يربكني، فأرجوك أن تبقى في إيطاليا. فاضطر فيصل إلى البقاء في شمال إيطاليا حيث نزل في فندق قريب من بحيرة كومو.

مكث فيصل في إيطاليا زهاء ثلاثة أشهر، وقد التحق به هناك عادل أرسلان ورياض الصلح، وأخذ هو وحاشيته يبذل الجهود والأموال في سبيل عرض القضية السورية على الرأي العام الأوروبي. ويقال إنهم دفعوا مائة ليرة ذهب إلى موسوليني لكي يساند القضية السورية، وكان موسوليني يومذاك صحافياً يصدر جريدة اسمها «شعب إيطاليا»[3].

وأخذ فيصل يسعى للاتصال بالأتراك بغية التعاون معهم، فأوفد ساطع الحصري إلى اسطنبول سراً لهذا الغرض. وقد بذل الحصري جهوداً كثيرة للتفاهم مع الكماليين دون جدوى[4].

---

(1) Storrs (Orientations) -London 1939 -p.448.

(2) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص 571.

(3) اندرياو (المصدر السابق) ـ ص 20.

(4) ساطع الحصري (المصدر السابق) ـ ص 178 ـ 194.

وبينما كان فيصل وحاشيته يبذلون جهودهم في كل ناحية لعلهم يجدون مخرجاً لوضعهم اليائس، وصلت إليه في 11 تشرين الثاني برقية من اللورد كرزن تدعوه إلى زيارة لندن، فكانت تلك الدعوة له بمثابة الفرج بعد الشدة. وقد تمّ الاتفاق معه في لندن على تنصيبه ملكاً على العراق ـ كما ذكرناه في الجزء السادس من هذا الكتاب. ويدَّعي فيلبي استناداً على بعض الوثائق أن عرش العراق إنما قُدم لفيصل كجزء من المكافأة على موافقته على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين[1]. ولا ندري مبلغ هذا الادعاء من الصحة!.

رأي غريب:

للصحافي اللبناني اسكندر الرياشي رأي غريب في أحداث سوريا التي سبقت معركة ميسلون، وهو رأي يصعب علينا تصديقه إنما هو على أي حال جدير بأن يطّلع القارىء عليه.

كان الرياشي حينذاك يعمل في الاستخبارات الفرنسية ـ كما اعترف هو بذلك. وهو يقول عن تلك الأحداث إنها كانت مؤامرة فرنسية وقد دُبرت بأموال فرنسية من أجل الإطاحة بفيصل. ويذكر الرياشي أن الفرنسيين كانوا في بداية الأمر قد عرضوا على فيصل رشوة كبيرة مقدارها نصف مليون ليرة ذهب، كما عرضوا على صاحبه نوري السعيد مائة ألف ليرة، ولكنهما رفضا الرشوة. واضطر الفرنسيون أن يبحثوا في دمشق عن أشخاص مستعدين لقبض الرشوة من بين الرجال الذين كانوا يملكون زعامة الشارع ويحمسون الجماهير، وأسرع هؤلاء ينادون بالحرب ويثيرون في رجل الشارع لوطنيته وكرامته، فهبّت على سوريا تحت تأثيرهم روح الاستشهاد والفداء، وأخذت الحماسة تطغى على كل حساب، حتى صار أكثر الناس تعقلاً ينادون بالحرب متجاهلين ما كانوا يعرفونه من أن هذه الحرب ستنتهي بكارثة وأن القائلين بها يحققون ما يتمناه الفرنسيون. ويقول الرياشي أيضاً إن فيصل وأعوانه كانوا يسعون حتى

---

(1) جريدة (الأهرام) المصرية ـ في عددها الصادر في 18 حزيران 1968.

آخر ساعة لتجنّب المعركة مع الفرنسيين وهم يعرفون حق المعرفة أنها إذا وقعت فسوف يخسرونها لتفاوت القوى بين الجانبين تفاوتاً لا يمكن تجاهله، ولكن المؤامرة الفرنسية غلبتهم.

يقول الرياشي: «كنا في المكتب الثاني للقائد الفرنسي نراقب نجاح هذه المؤامرة على الشريف وعرشه وعلى استقلال سوريا، ونعرف أنه سيضطر إلى حشد جيوشه ومتطوعيه، فيكون هو البادىء المعتدي ويكون الفرنسيون في حالة الدفاع عن النفس، يساعدهم على ذلك أولئك الساسة الذين ملأوا جيوبهم من ذلك الذهب الذي كان الجنرال لاموت قد أعدّه».

ويصنف الرياشي الزعماء الذين أثاروا الجماهير في دمشق إلى فريقين: فريق مخلص كان يدعو إلى الحرب عن استشهاد وطني وفدائية مدهشة، من أمثال يوسف العظمة، ولكنهم كانوا قليلين بالنسبة إلى الفريق الثاني الذي يعمل بالتواطؤ مع الفرنسيين[1].

فجوة الشعب والحكومة:

كانت الفجوة بين الشعب والحكومة في سوريا في العهد العثماني كبيرة جداً على نحو ما كانت في جميع البلاد الشرقية. ولكن هذه الفجوة اختفت فجأة في بداية العهد الشريفي، وهو العهد الذي اشتدّ فيه الحماس الشعبي وأخذ الحكّام ـ وفي مقدمتهم فيصل ـ يحاولون التقرّب من الشعب والاختلاط به والاستماع إلى صوته.

يجب أن لا ننسى أن تلك فترة لا يمكن أن تدوم طويلاً، ولا بد أن تعود الفجوة إلى الظهور عاجلاً أو آجلاً. إن المرحلة الاجتماعية التي كان يعيش فيها الشعب السوري لا تسمح ببقاء تلك الفترة طويلاً. فهناك عوامل كثيرة من شأنها بعث التذمر في أوساط الشعب تجاه الحكومة. وفيما يلي نذكر أهم تلك العوامل:

---

(1) اسكندر الرياشي (رؤساء لبنان كما عرفتهم) ـ ص 272 ـ 276.

أولاً: إن التجنيد الإجباري الذي فرضته الحكومة على المواطنين كان من أهم عوامل التذمر طبعاً. فقد كان الناس في العهد العثماني ينفرون من التجنيد نفرة لا حدّ لها ويحاولون الفرار منه بكل وسيلة تتيسر لهم، وكان أكبر أسباب فرحهم بزوال الحكم العثماني أنهم تخلصوا من بلاء التجنيد، ولكنهم وجدوا بعد فترة قصيرة أن ذلك البلاء قد عاد إليهم من جديد. ليس من السهل على الناس أن يتحوّلوا من بغض التجنيد إلى حبه بمجرد سماعهم للأناشيد والخطابات الحماسية.

يُروى أن مظاهرة جاءت إلى قصر الملك فيصل وهي تنادي: «إلى الحرب، إلى الحرب». فأمر الملك مرافقه بأن يأخذ المتظاهرين إلى الثكنة لتجنيدهم وتدريبهم على القتال، غير أنهم لم يكادوا يسيرون في طريقهم نحو الثكنة حتى صاروا يتسللون إلى بيوتهم. ولما وصل المرافق إلى الثكنة لم يجد معه منهم سوى نفر محدود.

ثانياً: لم تكد تمر مدة قصيرة على بداية الحكم الشريفي حتى بدأت المحسوبية والشفاعة والوساطة تلعب دورها في اختيار الموظفين على نحو ما اعتاد الناس عليه في العهد العثماني. وهذا أمر طبيعي في مجتمع تسوده قيم القبلية والقرابة والجيرة والشهامة وما أشبه، يقول الشيخ رشيد رضا رئيس المؤتمر السوري: «...وما أبرىء الحكومة من عيب محاباة الكبراء وقبول شفاعتهم في طلاب وظائفها بدءاً وترقية، وكان أكبر الضعف في الوزراء والرؤساء بإزاء الملك فيصل وعشيرته والمقرّبين منه، فإن هؤلاء قد اعتادوا في عهد سلطتهم العسكرية المطلقة أن يتصرّفوا في الأعمال والأموال بما شاؤوا وكيف شاؤوا، فصعب عليهم بعد إعلان الاستقلال أن يتقيّدوا بقانون ونظام، ولم يكن للوزراء من الشجاعة الأدبية والتكافل ما يؤهلهم لتقييدهم وتعويدهم الوقوف عند حدود سلطتهم الرسمية، إذ كانوا هم قد اعتادوا في عهد الترك أن يميلوا مع أهواء الرؤساء والكبراء، ومع هذا أمكن لحكومة الاستقلال أن تقيد الملك براتب محدود لم يكن راضياً به على كثرته، وكان يستهلك راتب كل شهر في أوله وقبل بدء هلاله، ويطلب من وزارة المالية سلفة بعد سلفة فلا

ينال كل ما يطلب ولا أكثره بسهولة. وقد كان نفوذه في بعض الوزارات أقوى منه في غيرها...»[1].

ثالثاً: كان الأعيان والوجهاء قبل تتويج فيصل قد اعتادوا أن يقابلوه ويتحدثوا إليه متى وكيف يشاؤون، وكان هو يزورهم في بيوتهم ويحادثهم كما يحادث الرجل أصحابه. فلما تمّ تتويجه عيّن إحسان الجابري رئيساً للديوان الملكي باسم «رئيس أمناء الملك»، وكان هذا الرجل موظفاً في البلاط العثماني سابقاً فشرع يعمل على تطبيق قواعد التشريفات السلطانية على بلاط الملك فيصل، ووضع القيود على مقابلاته تنفيذاً للقاعدة الدستورية التي تجعل السلطة التنفيذية في يد الحكومة، فأحدث ذلك كثيراً من القيل والقال[2]. فإن من طبيعة البشر أن كل فرد منهم يحسب نفسه أولى بالتشريف من أقرانه، ورأيه أفضل الآراء، ولو سمح للناس جميعاً بمقابلة الملك بلا قيود لأصيب الملك بالانهيار العصبي لكثرة الزحام عليه والصراخ من حوله. ولكنهم حين يُمنعون من مقابلة الملك يتذمرون. وهذا أمر يصدق على صغار المسؤولين كما يصدق على الملك.

رابعاً: كان تعيين ساطع الحصري وزيراً للمعارف من أسباب التذمر في أوساط العامة ورجال الدين، فهؤلاء كانوا يكثرون من الطعن على الحصري ويزعمون أنه يريد إضعاف الدين في المدارس وتعويد البنات على التهتك. يقول الشيخ رشيد رضا: إن رجال الدين طالما راجعوه قبل إعلان الاستقلال وبعده متوسلين به إلى السعي معهم لدى فيصل بعزله، وكان هو ينصح لهم بالتأنّي لأنه لا يحب أن يتعوّد الأهالي على الافتيات على الحكومة ولا سيما الطامعون في مناصبها[3].

خامساً: كان فيصل يعطف على العراقيين عطفاً خاصاً لأن كثيرين منهم

---

(1) يوسف ايبش (المصدر السابق) ـ ص 298.
(2) أحمد قدري (المصدر السابق) ـ ص 188.
(3) يوسف ايبش (المصدر السابق) ـ ص 301.

قاتلوا تحت رايته في الثورة العربية، ولهذا عيّنهم في مختلف وظائف الدولة ومناصبها العالية. قيل إن مجموع العراقيين الذين كانوا في خدمة الحكومة آنذاك بلغ نحو أربعمائة موظف وضابط. وهذا لا بد أن يؤدي إلى انتشار التذمر بين السوريين، ولا سيما الذين لم يحصلوا على الوظائف التي يطمحون إليها، وصاروا ينادون بمبدأ «سوريا للسوريين». يقول محمد كرد علي في كتابه «خطط الشام»: إن الناس في الشام تأففوا من السياسة التي سار عليها فيصل في الاعتماد على الغرباء ـ يقصد العراقيين ـ ونزع ثقته من أعيان البلاد ومفكّريها، وأخذوا ينصحون له سراً بالعدول عن هذه السياسة[1].

ويذهب إلى مثل هذا القول أحد العراقيين الذين كانوا في سوريا حينذاك حيث يقول ما نصّه: «ومما هو جدير بالذكر أن البعض من السوريين كانوا قد بثّوا في سوريا روح الامتعاض من العراقيين لإشغال بعض رجال العراق مناصب كبيرة في الحكومة السورية، وكانت قد بلغت الوقاحة بهؤلاء المفسدين إلى درجة جعلتهم يصرّحون بوجوب تنحّي العراقيين عن الوظائف في سوريا الأمر الذي أوجب شيئاً من التباغض والنفاق بين السوريين والعراقيين»[2].

تقييم فيصل:

إن السياسة التي سار عليها فيصل أثناء حكمه في سوريا لقيت انتقادات شديدة من بعض الرجال الذين خالطوه وعرفوه. وفيما يلي نستعرض أقوال أربعة منهم هم: محمد كرد علي وجميل بيهم وعبد الرحمن الشهبندر وإبراهيم سليم نجار:

(1) يقول محمد كرد علي عن فيصل: «إنه لو أظهر حزماً في معاملة المشاغبين لما وقعت ميسلون»[3].

---

(1) محمد كرد علي (خطط الشام) ـ دمشق 1925 ـ ج 3 ـ ص 170.

(2) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) ـ ج 3، ص 274 ـ 275.

(3) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص 264.

(2) يقول جميل بيهم: إنه كان قليل الخبرة بالسياسة متردداً يتأثر بحاشيته، ويداري الأحزاب ولو تطرّفت، ويتحاشى الرأي العام، ولذلك فقد مشى مع التيار بدلاً من أن يوجهه على ما يريد شأن الحاكم القوي. ثم يقارن جميل بيهم بين سياسة فيصل في سوريا وسياسته في العراق فيقول: «أما في العراق حيث كان الزمان قد علمه ما لم يعلم فإنه كان على خلاف ذلك: كان ملكاً حازماً موجهاً، وإذا اضطر لمماشاة الرأي العام فقد كان يلتزم السكينة عند اشتداد العاصفة ثم يمضي قدماً بعد سكونها غير مبال ولا متردد. وكان هناك يتمتع بهيبة قوية وبكلمة نافذة على الرغم من صلابة عود العراقيين وقوة شكيمتهم، وعلى الرغم من أنهم قريبي الانفعال لا يرضون بالموجود، وإذا غضبوا انتفضوا، وجنحوا إلى الثورة إذا استطاعوا إليها سبيلاً»[1].

(3) يقول عبد الرحمن الشهبندر: «ولكن دعاية شنيعة بُثت على فيصل عند عودته من باريس، فتراجع من غير نظام لأنه كان حديث العهد بالشؤون السياسية والحملات المدبرة. ولو أنه وقف موقفاً ثابتاً ودافع عن آرائه بمثل الطريقة المدبرة الحاذقة التي سلكها في العراق فيما بعد لوجد من المعتدلين أنصاراً يؤيدونه ويقفون في وجه مناوئيه»[2].

(4) يقول إبراهيم سليم النجار: «فلقد ملأ المغرضون البلاد إشاعات قبل وصوله بأن فيصلاً طمعاً بالعرش باع سوريا إلى الفرنسويين (هكذا). وكان المتطرفون من السوريين، وخصوصاً من أهل الشام، هم الذين أشاعوها، فلم تسهل مهمة الرجل الذي كان رطب العود في السياسة. والظاهر أنه خشي أن تؤثر هذه الإشاعات في سمعته، فبدلاً من أن يضرب بها عرض الحائط أو ينفيها بحزم وقوة، وأن يقنع السوريين بأن ما حصل عليه هو أعظم ما كان في الإمكان بلوغه وأنه ليس في وسع أحد أن ينال أعظم منه، أخذ في خطبه يجهر بوطنيته ويغالي بالاستقلال الذي (يُؤخذ ولا يُعطى)، ويجاري المتطرفين ظناً

---

(1) محمد جميل بيهم (المصدر السابق) ـ ص 181.

(2) مجلة (المقتطف) ـ في عددها الصادر في تشرين الأول 1933.

منه أنه يقدر أن يرضيهم بهذه المجاراة فأدخل بعضاً منهم في الحكومة إسكاتاً لهم مرغماً على هذا الإدخال. ثم فكر هؤلاء أنهم يقدرون أن يضعوا فرنسا والدول أمام الأمر الواقع فقرروا إعلان ملكيته في 9 آذار من تلك السنة دون أن يكون في الحوادث ما يوجب أو يدعو إلى إعلان هذه الملكية، أو تستشار بها دولة من الدولتين الإنكليزية أو الفرنسوية».

ويقول إبراهيم سليم النجار أيضاً: «لقد كان يجب على الأمير فيصل في بدء سنة 1920 أن يعرف جيداً ما يريده. فإما أنه كان يريد حرب الاستقلال فيستعد لها استعداداً حقيقياً ينيله مراده منه، وإما أنه يريد العمل السلمي بالاتفاق مع الحكومة المنتدبة فيلجأ إلى الحزم مع المتطرفين، ويظهر بمظهر الحاكم الذي يعرف ما يريده ويعرف السبيل الذي يسلكه للوصول إليه».

ويقارن النجار بين ما فعله المتطرفون في سوريا وما أرادوا أن يفعلوه في شرقي الأردن عندما لجؤوا إليه عقب معركة ميسلون، فيقول إنهم حاولوا دفع الأمير عبد الله إلى مثل ما دفعوا إليه أخاه فيصل من قبل، ولكنه وقف تجاههم موقفاً حازماً، وكان ذلك أكبر سبب في بقائه في عمان[1].

* * *

إننا حين نفحص هذه الأقوال في ضوء ما نعرفه من طبيعة الإنسان والمجتمع البشري نجد أنهم نظروا إلى جانب من الحقيقة وأهملوا الجانب الآخر. إن فيصل لو كان في سوريا صارماً عنيفاً تجاه الجماهير يضربهم بالرصاص ويسلّط عليهم سيف الإرهاب، على نحو ما يفعل العتاة من رجال السياسة، لصار لعنة في الأفواه، ولا تهمه الناس بالعمالة للاستعمار وخيانة الوطن، ولرأينا هؤلاء الذين انتقدوه على لينه ينتقدونه على شدّته ويلعنونه. وقد فطن فيصل إلى ذلك حين قال في رسالته إلى أبيه: «قد كان بالإمكان الضرب

(1) إبراهيم سليم نجار (المصدر السابق) ـ ص 73 ـ 75.

على أيدي الأحزاب المعارضة ولكنني لم أقدم على ذلك خشية اللوم التاريخي».

لقد فشل فيصل في سياسته ولكنه نجح من ناحية أخرى، حيث صارت فترة السنتين التي حكم فيها سوريا فترة مضيئة في تاريخ سوريا الحديثة يلهج السوريون بمناقبها ويتغنون بها. يقول سعيد الأفغاني في ذكر تلك الفترة وهو قد أدركها في صباه.

«أما في حساب الزمن فقد كانت كالحلم الخاطف، لم يعمر سوى سنتين، نعمت البلاد فيه بالسيادة والسعادة، وعاشته ساعة ساعة، بل لحظة لحظة. إنه عهد إحياء ونشور، كان فيه الأفراد والجماعات تتظافر في بناء حياة وبعث لغة وتأسيس كيان، وأما في حساب النتائج والثمرات، فما أُسس حينئذ بقي يعمل بقوة الدفع والاستمرار إلى أيامنا هذه، وما نزال في خير تلك الدفعة من النهضة، نتقدم على رغم ما عرا السير من توقف حيناً ونكسة حيناً. ولقد كان من قوة هذه الانطلاقة أن تأبّت على الحديد والنار وكل ما تمخّض عنه الخبث الاستعماري الفرنسي من خطط ماكرة حلوة المظهر فتّاكة المخبر مدة خمسة وعشرين سنة من الاحتلال العسكري...»[1].

لا ننكر أن فيصل أخطأ خطأً فظيعاً حين حاول الرضوخ للفرنسيين عقب معركة ميسلون، فقد كانت تلك نقطة سوداء في تاريخه، وكان الأحرى به أن يتجنّب الوقوع في ذلك الخطأ لكي يخرج من سوريا مرفوع الجبين كما يفعل الأبطال الأباة. إن يوسف العظمة كان أفضل منه إذ هو آثر أن يموت شهيداً بدلاً من تحمل الإهانة، وضرب بذلك مثلاً عالياً تذكره له الأجيال القادمة.

إن التاريخ لا يحركه العتاة السفاكون وحدهم، بل يحركه الشهداء أيضاً. كل منهما له دوره في مسيرة التاريخ!.

---

(1) سعيد الأفغاني (حاضر اللغة العربية في الشام) ـ القاهرة 1961 ـ ص 57.

الفصل الرابع

الحسين ملكاً

الحسين ملكاً

تحدثنا في الفصل الثاني عن سيرة الحسين بن علي منذ بداية حياته حتى إعلانه الثورة على الأتراك في 1916. وسنتحدث في هذا الفصل عن سيرة الحسين في الفترة الأخيرة من حكمه، وهي الفترة التي كان فيها ملكاً يحكم الحجاز بأمره لا ينازعه السلطة أحد.

شخصية الحسين:

لا بد لنا في البداية من إعطاء صورة موجزة عن شخصية الحسين، إذ هي تلقي ضوءاً على طبيعة الأعمال التي قام بها والأحداث التي ساهم فيها.

المعروف عن الحسين أنه كان متديناً ورعاً بعيداً عن مواطن الشبهات، يحترم نفسه ويترفّع عن الدنايا، ولم يُعرف عنه انغماسه في الملذات على نحو ما عُرف عن الملوك غالباً. فكان إذا انتابه الغمّ لجأ إلى ضبّ فوضعه تحت جبته ثم استدعى إليه رجلاً من وزرائه معروفاً بشدّة الخوف من الضب، فإذا جاء الرجل وجلس غافله الحسين وألقى الضب في حجره، فيصرخ الرجل ويقفز مذعوراً جارياً إلى الباب، وعند هذا يقهقه الحسين حتى يكاد يستلقي على قفاه[1].

كان الحسين يريد من رعاياه أن يقتدوا به في تجنب الملاهي والملذات المحرمة. يُروى أن جدة كانت في العهد العثماني كغيرها من الموانىء تضم

---

(1) أمين الريحاني (ملوك العرب) ـ بيروت 1951 ـ ج 1 ص 35 ـ 37.

كثيراً من محلات البغاء وشرب الخمر. ولما انفرد الحسين بالحكم عقب زوال ذلك العهد عمد إلى تطهير البلدة، فأمر بإلقاء القبض على كل من يتعاطى الدعارة فيها، كما رمى بالخمر وأوعيته في البحر[1]. يقول أمين الريحاني الذي زار جدة في 1922: إنه وجد بعض سكانها يتعاطون الخمر سراً، كما يتعاطون الغناء والطرب ولعب القمار، غير أنهم كانوا يتركون ذلك عندما يزور الحسين جدة، ثم يعودون إلى عادتهم عندما يغادرها. وينقل الريحاني في هذا الصدد كلمة قالها له أحد سكان جدة، وهي:

«عجيب يا أستاذ أمر الناس في هذا البلد. لا تستغرب قولي إن في جدة خوفاً يستحوذ عليهم من مجرد ذكر صاحب الجلالة المنقذ الأكبر ـ يقصد الحسين ـ عندما يشرّف البلدة كأنهم في مأتم، وعندما يعود إلى مكة يعيّدون، فيخرجون من الصناديق الكأس والإبريق، وترى حتى الجليل مسترسلاً في التهليل. . .».

وينقل الريحاني أيضاً كلمة أخرى قيلت له في جدة هي: إن الحسين في ساعات الغضب مخيف هائل فإذا استدعى أحداً منهم إلى مكة، بريئاً كان أو مذنباً، كتب الرجل وصيته قبل أن يخرج من بيته[2].

من الجدير بالذكر أن لشخصية الحسين جانباً آخر اشتهر به، هو أنه كان شديد الاعتداد برأيه لا يتنازل عنه بسهولة، وقد لا يتنازل عنه في بعض الأحيان أبداً. أنه كان يتصور الدنيا كما يرغب أن تكون لا كما هي في الواقع. يقول فؤاد الخطيب الذي كان وزيراً للخارجية لدى الحسين: إنه لم تكن لديه أية سلطة في منصبه كوزير للخارجية، ولم يباشر أي عمل من الأعمال التي تدخل في دائرة اختصاصه، بل كان تجاه الحسين كالملائكة تجاه الله يسبح بحمده ويقدس له، وكثيراً ما تصدر المذكرات بتوقيعه دون أن يطلع عليها أو يعرف عنها شيئاً، وإذا اطّلع على مذكرة منها صدفة وأجرى عليها

---

(1) حسين محمد نصيف (تاريخ الحجاز) ـ القاهرة 1349هـ ـ ج 1، ص 115 ـ 117.

(2) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ج 1 ص 55، 57.

بعض التصليحات النحوية واللغوية أمر الحسين بإعادة كتابتها لكي ترجع كما كانت سابقاً[1].

يقول أمين الريحاني في وصف الحسين من هذه الناحية ما نصّه:

«كان الشريف حسين الكل في الكل حتى في تحرير جريدة «القبلة»، فقد كان يظن أن مقالاته الافتتاحية تترجم إلى اللغات الأوروبية فيطالعها ويهتم بها الوزراء، وأن آراءه في سياسة العالم وسياسة الحياة، من أصغر الجزئيات إلى أكبر النظريات، هي وحي منزل، وأن تفسيره لبعض آيات القرآن هو أصح من تفسير الأئمة الكبار، وأنه في الفصاحة والبيان مثله في العلم أمير أقرانه وفريد زمانه، وأنه إذا استصرخ العرب يجيئونه من أقصى الجزيرة سامعين لامعين، وأنه يستطيع وهو في «المخلوان» ـ يقصد ديوانه الخاص ـ أن ينقذ البلاد ويؤسس الدولة العربية، بل كان يظن أن العالم الإسلامي بأجمعه يبتسم لابتسامته ويغضب لغضبه وأن الذين يخدمونه يخدمون العرب والإسلام ولا يبغون أجراً غير رضاه»[2].

كان الحسين معتقداً بأن العرب كلهم يحبونه ويفدونه بأرواحهم، والمظنون أن هذا الاعتقاد نما لديه من جراء ما يقوله له المتزلفون من الحجاج في كل عام، وما ينشده الشعراء بين يديه من القصائد الرنانة. فكان يحسب أن العرب سيثورون جميعاً ثورة واحدة حالما يعلمون أنه تنازل عن الملك. ولهذا كان يهدد الإنكليز دائماً بأنه عازم على التنازل. وقد حدث ذات مرة أن تشرشل حينما كان وزيراً للمستعمرات نفد صبره من تهديد الحسين فأراد أن يكتب إليه رسالة يقول فيها إن الحكومة البريطانية تطلب منه أن يذكر اسم الشخص الذي سيخلفه على العرش في حالة تنازله. وكان رأي تشرشل أن مثل هذه الرسالة قد تجعل الحسين يكفّ عن التهديد بالتنازل عن الملك[3].

---

(1) أمين سعيد (تاريخ الدولة السعودية) ـ بيروت ـ ج 2 ـ ص 151.

(2) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) ـ بيروت 1954ـ ص 344.

(3) سليمان موسى (صفحات مطوية) ـ عمان 1977 ـ ص 93.

من تراث الأسرة:

كان الحسين يحمل في عقله الباطن بقية من تراث أسرته القديم، وهي التي يسميها الصحافي المصري المعروف محمد حسنين هيكل بـ «عقدة الاضطهاد». فقد كان الحسين يذكر دائماً ما حلّ بأجداده العلويين من مآسي وآلام، وكان يردد هذه العبارة: «كذلك نحن آل البيت، هذا قدرنا المكتوب». وكان أبناؤه يرددونها أيضاً، ولا سيما ابنه عبد الله(1).

وكان لهذه العقدة أثرها الفعّال في سلوك الحسين وتفكيره، فكان ينظر في أحوال الحاضر بنفس المنظار الذي ينظر به في أحوال الماضي. إنه كان مثلاً ينظر إلى أهل العراق في عصره على نحو ما ينظر إليهم في العصر الذي وقعت فيه فاجعة كربلا.

يروي علي البازركان أنه كان في ضيافة الحسين في مكة في عام 1921 عندما وصلته برقية من بعض رؤساء العراق يطلبون منه ابنه فيصل ليكون ملكاً عليهم، فقال الحسين: «ولكني أخشى يا شيخ أن يعامل أهل العراق فيصلاً كما عاملوا جده الحسين من قبل». فرد عليه البازركان قائلاً: «سيدي لقد تغير الزمن وإن أهل العراق اليوم ليسوا كأسلافهم في زمن الحسين بن علي بن أبي طالبعليه السلام، فهم الآن يقومون بإكرام الضيف وبخدمة ملكهم». وعند هذا ضرب الحسين كفاً بكف وصاح بلهجته الحجازية: «يا عيال نادوا فيصل»(2).

وحدثني أحمد الراوي بقصة تشبه هذه القصة خلاصتها: أنه كان في عام 1923 مدير شرطة المنتفق فأرسله الملك فيصل إلى مكة لكي يأتي بعائلته وابنه غازي منها، ولكنه عند وصوله إلى مكة لم يسمح له الحسين بأخذ العائلة. يقول الراوي: إنه كان يكرر الطلب على الحسين مرة بعد أخرى، وكان

---

(1) محمد حسنين هيكل (العقد النفسية التي تحكم الشرق الأوسط) ـ القاهرة 1958 ـ ص 101 ـ 105.

(2) علي البازركان (الوقائع الحقيقية) ـ بغداد 1954 ـ ص 230.

الحسين يعده بتلبية الطلب في كل مرة ثم يغير رأيه بعدئذٍ. وقد نفد صبر الراوي أخيراً واضطر إلى مجابهة الحسين بشيء من الصراحة حيث قال ما معناه: إن منع الزوجة من الالتحاق بزوجها يخالف أمر الله ورسوله. فرد الحسين قائلاً: «أخاف منكم يا أهل العراگ أن تفعلوا بعائلة الحسين مثلما فعلتم بعائلة الحسين من قبل». وقد ظل الحسين مصراً على موقفه هذا مما اضطر الراوي إلى العودة إلى العراق خائباً.

ولما زار الحسين عمان في كانون الثاني 1924 قام الملك فيصل بمحاولة أخرى لاستدعاء عائلته من مكة، فأرسل وفداً إلى عمان برئاسة نوري السعيد. وغادر الوفد بغداد في 7 شباط، وقابل الحسين راجياً منه الإذن للعائلة المالكة بالقدوم إلى العراق. وقد أبدى الحسين موافقته المبدئية على تلبية الرجاء، وقال إنه سيرسل العائلة عند عودته إلى مكة. ولكنه عند عودته غير رأيه على نحو ما فعل قبل هذا مع أحمد الراوي.

وفي 20 آب وصلت برقية إلى الملك فيصل تخبره بأن أباه قد سمح للأمير غازي بمغادرة مكة إلى عمان. تقول المس بيل في رسالة لها مؤرخة في 20 آب: «إن الملك متهيّج كثيراً لأن الملك حسين قد أطلق سراح ابنه الوحيد غازي الذي كان حتى الآن محفوظاً في مكة. إن الصبي ـ تقصد الأمير غازي ـ في الثانية عشرة من عمره، وهو الآن في عمان، وسيرسل الملك محسن بك للإتيان به»[1]. وقد وصل الأمير أخيراً إلى بغداد في 5 تشرين الأول 1924[2].

إن الحسين حين أطلق سراح الأمير غازي لم يطلق معه سراح أمه وأخواته. والظاهر أنه كان يخشى عليهن من السبي كما جرى على نساء آل البيت في كربلا. وقد ظلت الأم والأخوات في مكة حتى تشرين الأول 1924، حيث غادرن الحجاز إلى العقبة مع الحسين على أثر تنازله عن

---

(1) Burgoyne (Gertrude Bell)- London 1961 -vol. 2, p.351.

(2) جرية (العراق) ـ في عددها الصادر في 6 تشرين الأول 1924.

العرش ـ كما سنأتي إليه في الفصل القادم. وقد انتقلن من بعد ذلك إلى عمان ومنها إلى بغداد، وكان وصولهن إلى بغداد في 16 كانون الأول 1924[1].

تمرد البدو:

مرت على الحسين في السنوات الأخيرة من حكمه أوقات عسيرة جداً من الناحية المالية، ذلك لأن بريطانيا أخذت تخفض معونتها المالية الشهرية له ابتداءً من انتهاء الحرب، ثم قطعتها نهائياً في نيسان 1920. فاضطر الحسين إلى الحصول على المال بطرق شتى منها فرض القروض الإجبارية التي لا تُسدد على التجار[2]، ومنها المشاركة في تجارة الغنم وأجور المطوفين والخبازين والجمالة وغيرهم[3]، وكذلك اضطر الحسين إلى قطع المعونات التي اعتادت القبائل البدوية أن تأخذها منه. وقد أدّى ذلك إلى انتشار التذمّر العام في الحجاز وفي أوساط الحجاج، كما أدّى إلى تمرّد القبائل البدوية فصارت تقطع الطرق على الحجاج، ولا سيما الطريق الرئيسي الذي يربط المدينة بمكة.

اعتاد البدو منذ قديم الزمان على قطع الطرق وفرض الأتاوة على المسافرين، وهم يعتبرون ذلك حقاً مشروعاً لهم يرتزقون منه، ولا يتركونه إلّا إذا أخذوا عوضاً عنه مبالغ سنوية من الحكومة، فإذا امتنعت الحكومة عن الدفع عادوا إلى قطع الطريق. وهذا ما وقع في الحجاز على أثر قطع الحسين دفع المعونات إلى القبائل البدوية.

يحدثنا السيد محسن أبو طبيخ في مذكراته المخطوطة أنه عندما لجأ إلى الحجاز هو وزملاؤه من رجال ثورة العشرين، عقب انهيار الثورة، خرجت عليهم قبيلة حرب على مقربة من المدينة، فحصرتهم في وادي ضيق وقطعت عليهم الطريق. ولما أخبروها بأنهم ضيوف الملك حسين كان جوابها: أننا

---

(1) Burgoyne (op. cit.) -vol. 2, p.359.

(2) طالب محمد وهيم (مملكة الحجاز) ـ أطروحة ماجستير غير منشورة ـ ص 201.

(3) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) ـ ص 347.

نريد قتلكم لأنكم ضيوف الملك حسين. ولم يتخلصوا منها إلا بعد أن دفعوا لها أتاوة قدرها خمسمائة ليرة ذهب[1].

وفي صيف 1921 ذهب الشيخ علي الشرقي إلى الحج في معية الشيخ خيون العبيد، وهو يحدثنا في كتابه «الأحلام» حديثاً مستفيضاً عمّا كابدته قافلته في مسيرتها بين مكة والمدينة من خسائر في الأرواح والأموال. ننقل فيما يلي موجزاً له:

كان الحسين قد أرسل مع القافلة حرساً مؤلفاً من خمسمائة رجل مع قائد لهم، ولكن ذلك لم ينفع القافلة بل أضرّ بها. ففي الليلة الأولى من مسيرتها فقدت شخصين قُتلا وهما في محملهما. وفي الليلة الثانية فقدت القافلة ستة عشر رجلاً أصبحوا قتلى في محاملهم. وعند هذا قررت القافلة العودة إلى مكة وترك زيارة المدينة. ولكن القائد طلب من الشيخ علي الشرقي الاجتماع به منفرداً وقال له: إني أودعك سراً في إفشائه إراقة دمي، إن هذه القبائل لا حساب لها معكم، إن حسابها مع الملك الذي بخسهم حقهم وليس له قوة على ردعهم، وما هذه الفواجع التي نزلت بكم إلا من بيرقنا الذي يرافقكم، فإذا انطوى هذا البيرق أمكنكم التفاهم معهم بسهولة فتسيرون بسلامة واطمئنان. وطلب القائد من الشرقي أن يكتب إلى الملك كتاباً يشكره فيه لكي يحمله القائد ويعود إلى مكة مع بيرقه.

يقول الشرقي: إنهم فعلوا ما أوصاهم به القائد، وجمعوا مبلغاً من المال دفعوه إلى قبيلة حرب. ثم ساروا مطمئنين نحو المدينة. غير أنهم لم يكادوا يقتربون منها ويشاهدون أضوية الحرم النبوي حتى فاجأهم بنو سليم، وهم فخذ من حرب يسكنون بالقرب من المدينة، فأمطروهم بنيران بنادقهم وقتلوا منهم أربعين شخصاً كان من بينهم أربع نساء عراقيات، وذلك ما عدا الجرحى، ثم نهبوا القافلة.

وعند وصول القافلة إلى المدينة قدم رجالها شكواهم إلى الحكومة.

---

(1) نقلاً عن مذكرات السيد محسن أبو طبيخ المخطوطة.

وذهب الشرقي باعتباره الناطق بلسان القافلة إلى السراي لمقابلة الحاكم السياسي الشريف شحاذ، وحين قابله حضر عنده رؤساء بني سليم وكان كل رجل منهم يستند على بندقيته والخراطيش مصفوفة على صدره. فأخذ الحاكم يخاطب الرؤساء معاتباً موبخاً لما فعلوه بوفد الله ووفد رسوله ـ يقصد القافلة ـ ثم سألهم أن يدلوه على الفاعل، فانبرى له شاب وسيم اسمه محمد بن نهار وقال «أنا الفاعل». وتبيّن أنه رئيس بني سليم. فجرت بينه وبين الحاكم محاورة على النمط التالي:

الحاكم: لماذا؟

الرئيس: حتى أعرّف الشريف حسين أن عند بني سليم بارود، وليس البارود عند غيرهم فقط.

الحاكم: ذلك أمر بينكم وبين الملك، وما شأن هؤلاء الضيوف، حسبكم ما وقع ودعوني أخرجهم بسلام يا ابن نهار.

الرئيس: لا تخرجهم ولا هم يخرجون حتى يصفّي الشريف حسابنا.

الحاكم (غاضباً): يا ابن نهار أخرجهم بهذا (وأشار بإبهامه إلى خرطوشة من الخراطيش المصفوفة على صدره).

الرئيس: تخسأ يا حمَار يا خمَار، وعيش عاش فيه رسول الله لأن أخرجتهم لأذبحنّك وأذبحهم معك، هيا يامعشر حرب. (وخرجوا جميعاً).

قرر رجال القافلة أخيراً أن يجمعوا الأتاوة المعتادة لبني سليم، ومقدارها ستة آلاف ليرة، لكي يتمكّنوا من العودة إلى مكة سالمين. وقد بلغ الحسين ذلك وقرر أن يشتري سمعة حكمه بأن يدفع المبلغ من ماله، فأوعز إلى وكيله في المدينة السيد عمران الحبوبي بأن يدفع المبلغ إلى بني سليم ويسجله على الحساب. وقد فعل السيد عمران ذلك، وعادت القافلة إلى مكة بسلام[1].

اعتاد الحسين أن يذيع بياناً على الحجاج فحواه أن الحكومة مُلزمة بدفع

---

(1) علي الشرقي (الأحلام) ـ بغداد 1963ـ ص 129 ـ 131.

التعويض عن جميع ما تنهبه القبائل منهم، فعلى من يُنهب منه شيء أن يقدم للحكومة عريضة يذكر فيها مقدار ما نُهب منه ويحلف بالكعبة على ذلك. يروي الشرقي نقلاً عن قائمقام جدة الحاج محمد علي نمازي: أن بعض الحجاج يصدقون بهذا البيان فيقدمون عرائضهم إلى الحكومة ويبقون في الحجاز منتظرين دفع التعويض إلى أن تتحرك آخر باخرة من بواخر الحجاج فينقطع بهم الطريق ويموتون جوعاً[1].

واقعة تربة:

إن تربة والخرمة واحتان حجازيتان تقعان إلى الشرق من الطائف وكان يحكمها الشريف خالد بن لؤي وهو من أقرباء الحسين. وفي عام 1918 حنق خالد من الحسين ومن ابنه عبد الله، وقيل إن مشاجرة عنيفة جرت بينه وبين عبد الله فضربه عبد الله على فمه بالنعال، فذهب خالد غاضباً إلى ابن سعود في الرياض، وهناك أعلن «تدينه» ـ أي اعتنق المذهب الوهّابي ـ ونال وعداً من ابن سعود بمساعدته، ثم عاد إلى منطقته معلناً عصيانه على الحسين ومتحدياً له.

أرسل الحسين قوة لقتال خالد وإعادته إلى الطاعة، فردها خالد مدحورة، وأرسل الحسين قوة ثانية وثالثة، فكان مصيرهما كالأولى. وصمم الحسين أخيراً أن يرسل إلى خالد قوة كبرى تنتصر عليه ثم تتوجه بعدئذٍ إلى الرياض لتأديب ابن سعود نفسه.

وجد الحسين فرصته في كانون الثاني 1919 حين استسلم له فخري باشا مع قواته في المدينة، فقد استولى الحسين على ما كان لدى فخري باشا من مدافع ورشاشات وأعتدة كثيرة، وظنّ أنه قادر بهذه المعدّات وبما لديه من جيش نظامي أن يضرب خالد بن لؤي ضربة ماحقة.

أوعز الحسين إلى ابنه عبد الله أن يتحرك بقواته نحو خالد. يقول عبد

---

(1) المصدر السابق ـ ص 132.

الله في مذكراته أنه اعترض على أبيه في هذا الأمر وشرح له حالة جنوده الذين سئموا من القتال بعد تلك المدة الطويلة التي قضوها في حصار المدينة، وذكر له أنهم يرغبون في العودة إلى أوطانهم بعدما أثروا وامتلأت جيوبهم بالأموال. ولكن الحسين أصرّ على تنفيذ أمره، واضطر عبد الله إلى الطاعة[1].

كانت حملة عبد الله مؤلفة من 850 جندياً نظامياً، ونحو 1500 محارب غير نظامي، وكان معها عشرة مدافع ونحو عشرين رشاشاً ثقيلاً وعشرين رشاشاً خفيفاً. ومن الجدير بالذكر أن معظم ضباط الحملة كانوا من العراقيين كمحمد حلمي الحاج ذياب وصبري العزاوي وإبراهيم الراوي وحامد الوادي وعباس العاني وسامي صبري ورشيد خماس وجمال علي وخضير مخلص.

عندما وصلت الحملة إلى موضع يدعى «عشيرة» يقع على بعد ثلاثين كيلومتراً من شرق الطائف، جاء إليها الحسين بنفسه لاستعراضها. وحين جرى استعراضها ابتهج بها الحسين وخيّل له أنها قادرة على فتح جزيرة العرب كلها. وقد حاول عبد الله إقناعه بوجوب التريّث، ولكن الحسين كان مصراً على مواصلة الزحف وقال له: «يجب عليك أن تتوجّه إلى الخرمة للقضاء على هذه الحركة الفسادية، وأن معك من القوة ما لو قاتلت بها كل العرب لتغلّبت عليهم»[2].

وصل إلى «عشيرة» لمقابلة الحسين حسين روحي أفندي الذي كان يومذاك يعمل سكرتيراً للقنصل البريطاني في جدة. وكان هذا الرجل يحمل للحسين كتاباً من القنصل ينصحه بالاعتدال وبحل النزاع بينه وبين ابن سعود سلماً. فلما قرأ الحسين الكتاب قال بصوت عالي يخاطب حسين روحي على مسمع من الحاضرين: «اذهب وقل لهم إنهم لا حق لهم بالتدخل في شؤوننا الداخلية، فنحن أحرار نفعل ما نريد»[3].

---

(1) عبد الله بن الحسين (مذكراتي) ـ القدس 1945 ـ ص 154.

(2) المصدر السابق ـ ص 156.

(3) أمين سعيد (المصدر السابق) ـ ج 2، ص 84.

عاد الحسين إلى مكة، وواصلت الحملة سيرها نحو تربة التي كانت تبعد عن الطائف شرقاً بسبعين كيلومتراً، فاحتلتها بسهولة. وكان ابن سعود قد أرسل إلى عبد الله يحذره من مهاجمة تربة والخرمة، فردّ عليه عبد الله ينذره ويتوعّده. وقد أمر ابن سعود بالتعبئة العامة في نجد وسار على رأس جيش قُدر عدده باثني عشر ألف رجل متوجهاً نحو الحجاز، وأرسل أمامه طلائع من رجاله الفدائيين ـ وهم الذين عُرفوا باسم «الإخوان» ـ يقدر عددهم بألف وخمسمائة رجل بقيادة خالد بن لؤي وسلطان بن بجاد.

وصل الإخوان إلى الخرمة واجتازوها متوجهين نحو تربة. وفي عصر 24 أيار 1919 وصل إلى تربة رجل بدوي وقال للأمير عبد الله: «تحذر يا شريف. المتدينة ـ يقصد الإخوان ـ في الخرمة هاجمون عليكم». فغضب الأمير منه وأمر بقطع رقبته. وقيل في رواية أخرى أن الأمير أمر كبير عبيده بضرب الرجل، فضربه العبد حتى مات[1]. وقال الأمير أمام الحاضرين لتبرير عمله: «إنهم أرادوا من إرساله إلينا أن يوهنوا في أعصابنا»[2].

تحرك الإخوان نحو تربة في مساء 24 أيار، وهم يهتفون: «هبّت هبوب الجنة وين أنت يا باغيها!». واقتربوا من تربة في فجر اليوم التالي، ثم هاجموها هجوماً مفاجئاً صاعقاً. واستمرّت المعركة بين الفريقين نحو ساعتين انتصر فيها الإخوان انتصاراً ساحقاً.

كان إبراهيم الراوي من المشاركين في المعركة وقد أعطانا وصفاً لها في مذكراته حيث قال: «. . . هجموا علينا مع أذان الفجر، ومع أننا كنا على علم بأننا في هذه الليلة سنُهاجم، وكنا اتخذنا للأمر عدّته، ولكن شدّة الهجوم النابع من رغبة صادقة وعزيمة لا تقهر. . . وكانت تحت إمرتي بطرية جبلية سريعة عيار 5 ـ 7 سم جرمنية، وبطرية أخرى سريعة (قدرتلي) شيكوسلوفاكية، ومدفعان هاون. فعند سماعي خبر الهجوم تهيأت للذهاب للبطرية التي كان آمرها السيد

---

(1) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص 254.

(2) أمين سعيد (المصدر السابق) ـ ج 2، ص 90.

عباس، وكان بيني وبين موضع البطرية حوالي مائة متر، وكنت نائماً ببزّتي العسكرية، وفيما كنت متوجّهاً بدأت المدافع والرشاشات توجّه نيرانها، والمشاة ترمي ببنادقها وقنابرها اليدوية تسمع في كل الجهات، ومع كل هذا كان البعض من الإخوان قد تسرّب إلى داخل المعسكر وتمّ التلاحم حتى بالمسدسات والخناجر. . . وقد منّ الله عليّ بلطفه فوصلت المدافع سالماً ورأيت آمرها السيد عباس يوجّه مدافعه نحو الإخوان ويصليهم ناراً حامية. وبعد مرور بضع دقائق وإذا بالملازم خضر. . وهو يبكي ويقول: إن الإخوان استولوا على رشاشاتنا. وبعد بضع دقائق وصل الإخوان إلى المدافع التي كنا عندها، وأخذوا يستولون عليها، ويقتلون كل مرتباتها، فابتعدت عنهم لأركب حصاني وأذهب إلى البطرية الأخرى التي كانت في موضع آخر، فأتيت إلى من كان ممسكاً بحصاني وهممت بالركوب، ولما أدخلت رجلي بالركاب. . . استهدفنا أربعة من الإخوان. . لم أتمكّن من ركب الحصان فقد قتل الإخوان الجندي وأخذوا الحصان، فذهبت إلى اسطبل بطرية جبلية قريبة مني فأخذت منها بغلاً ثم بعدت، وإذا بحصان آخر هو لي، فأتيت فامتطيته. وقبل أن أضع الأعنة في يدي وجدت الإخوان بالقرب مني، فحدجا فيّ، ورماني أحدهم بطلقة نارية والمسافة بيني وبينه متراً واحداً، فابتعدت بعدما قضوا على جميع الذين كانوا معي عدا اثنين من الفرسان. . وعند ذاك كانت الشمس توشك أن تشرق وكانت المعركة في نهايتها، فابتعدت عن القرية والدماء تنزف من ذراعي. . .»[1].

خسرت الحملة كل ما كان لديها من مدافع وسلاح ومتاع، كما فقدت معظم ضباطها وجنودها، ولم ينج من قواتها النظامية سوى سبعة ضباط ومائة وخمسين جندياً. يقول إبراهيم الراوي: إنه كان في حوزته ألف ليرة ذهب، وسيف مذهب ثمين، وحصانان وذلول وبعض الأثاث، وقد فقدها كلها في المعركة، وهو يحمد الله على نجاته على أي حال![2].

---

(1) إبراهيم الراوي (ذكريات) ـ بيروت 1969 ـ ص 134 ـ 138.

(2) المصدر السابق ـ ص 140 ـ 143.

كانت نجاة عبد الله من المعركة بأعجوبة، إذ استطاع ابن عمه الشريف شاكر بن زيد أن يردفه على فرسه ويفرّ به على عجل. وقد تحدّث عبد الله فيما بعد عن هذه الواقعة حيث قال: «ما زال يرن في سمعي صوت المغيرين ليلة تربة: الجنة، الجنة، الجنة...»[1].

وصل ابن سعود إلى ساحة المعركة بعد انتهائها. وهناك ورد إليه إنذار من الحكومة البريطانية يقول: «ترجوكم حكومة صاحب جلالة الملك أن تعودوا إلى نجد عند وصول هذا الكتاب إلى يدكم، وتتركوا تربة والخرمة منطقة حرة وغير مملوكة لأحد حتى عقد الصلح وتحديد الحدود. وإذا لم تعودوا فإن حكومة بريطانيا تعدّ كل اتفاق بينكم وبينها ملغياً وتتّخذ ما يلزم من التدابير ضد حركاتكم العدائية. وهي تأسف كل الأسف لما حصل بين أصدقائها وكانت ترجو ألّا يقع»[2].

وفي الوقت الذي وصل هذا الإنذار إلى ابن سعود كان الإخوان يطالبونه بالزحف على الطائف، وصاروا يصيحون: «إلى الطائف، رخّص لنا بالطائف!». فمنعهم ابن سعود من ذلك وقال: «كفى الباغي جزاء بغيه»[3].

أزمة في لندن:

إن واقعة تربة أدّت إلى حصول أزمة حادة في وزارة الخارجية البريطانية. فقد كانت بريطانيا حينذاك تقف إلى جانب الحسين وتؤيده من كل ناحية، كما كانت واثقة كل الثقة من قوّته ومن أنه قادر على دحر ابن سعود. وكان رأي الخبراء البريطانيين أن «تلك الحثالات من الوهابيين المتعصبين» لا تستطيع أن تصمد صموداً جدياً تجاه قوات الحجاز النظامية التي تدربها بريطانيا وتجهزها بالأسلحة والمعدّات.

---

(1) خير الدين الزركلي (شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز) - بيروت 1977 - ج 1 ص 322.
(2) أمين سعيد (المصدر السابق) - ج 2، ص 93.
(3) أمين الريحاني (المصدر السابق) - ص 257.

كان فيلبي يومذاك في لندن، فاستُدعي لحضور المؤتمر الذي عقده وزير الخارجية البريطانية اللورد كرزن لدراسة هذا الموضوع. وكان رأي فيلبي على النقيض من رأي الخبراء الذين حضروا المؤتمر، ولكن الخبراء استهجنوا رأيه واستهزؤوا به. ويقول فيلبي في مذكراته: إنه عندما وقعت واقعة تربة، وانتصر فيها ابن سعود، عقد اللورد كرزن مؤتمراً ثانياً، وحين حضر الخبراء رآهم فيلبي مطأطيء الرؤوس وقال أحدهم: «يبدو إننا راهنا على الجواد الخاسر»[1].

كان اللورد كرزن قد تلقّى برقية من القنصل البريطاني في جدة يقول فيها إن جدة اكتظّت باللاجئين الذين فروا من الطائف ومكّة خوفاً من الوهّابيين، وفيهم نحو أحد عشر ألف هندي من رعايا بريطانيا، وأصبح من المتوقّع انتشار الأوبئة بينهم. وطلب القنصل في برقيته عدداً من البواخر لنقل اللاجئين.

عندما تداول المؤتمر في أمر هذه البرقية تبيّن أن البحرية البريطانية غير قادرة على توفير أية باخرة لنقل اللاجئين. فالتفت كرزن نحو القادة العسكريين الحاضرين في المؤتمر وقال: «ماذا في وسع وزارة الحرب أن تفعل؟ فليس في وسعنا أن نترك هؤلاء الناس يُذبحون ذبح النعاج على أيدي الوهّابيين» فرد أحد القادة عليه قائلاً: «أخشى يا سيدي أننا لا نستطيع أن نعمل شيئاً. إن وزارة الحرب مصممة على عدم إقحام نفسها في أية مغامرة حربية في الصحراء العربية فقد كفانا ما مررنا به حتى الآن».

أبدى فيلبي رأيه حيث قال: إن بريطانيا لو وافقت على احتفاظ ابن سعود بواحتي تربة والخرمة، فإنه سيرضى بذلك ويتوقّف عن الزحف. وتعهّد فيلبي أن يذهب بنفسه إلى ابن سعود لإقناعه بذلك. فوافق المؤتمر على رأيه، وأُعدت له طائرة خاصة لنقله إلى الحجاز على عجل. وغادر فيلبي لندن

---

(1) خيري حماد (عبد الله فيلبي) ـ بيروت 1911 ـ ص 74 ـ 81.

بالطائرة، ولكنه عند وصوله إلى القاهرة علم بأن ابن سعود قد أوقف الزحف وعاد إلى الرياض، ولم يبق هناك من خطر على اللاجئين في جدة.

كانت بريطانيا قد أرسلت إلى جدة ست طائرات مشحونة في صناديق بغية الدفاع عن الحجاز تجاه هجوم الوهّابيين. وكان المندوب السامي في القاهرة الجنرال اللنبي عازماً على استخدام تلك الطائرات فعلاً، غير أن فيلبي نصحه بأن لا يفعل إذ قال له: «إن الطائرات التي أرسلت إلى جدة إذا استخدمت وهبطت إحداها في أرض وهّابية فسيقطع الوهّابيون رقاب طياريها». فأصدر الجنرال أوامره بأن تظل الطائرات في صناديقها[1].

عقدة الحسين:

كانت واقعة تربة ذات أثر كبير على الحسين نفسياً وصحياً. يقول عبد الله في مذكراته: «فلقد وجدته بعد رجوعي إلى المركز، أي بعد واقعة تربة وفتح المدينة، على غير علمي بجلالته، وكان مرضه الذي توفّاه الله به ـ يقصد مرض تصلّب الشرايين ـ ابتدأه منذ ذلك الحين، فكان كثير الصلف، كثير النسيان، كثير التردد، قليل الاعتماد على من كان يعتمد عليه.. وللمسألة خطورتها»[2].

أصبحت واقعة تربة بمثابة العقدة النفسية للحسين فلم يكن يهن عليه أن ينتصر عليه رجل كان يعتبره من أمراء الدرجة الخامسة. وكان يلقي اللوم في هزيمة تربة على ابنه عبد الله إذ اعتبره المسؤول الأول عنها. ومعنى ذلك أنه جعل عبد الله كبش الفداء. وظلّ الحسين دائم التفكير في الانتقام من ابن سعود وفي استعادة تربة والخرمة منه.

أصبح الحسين كغيره من ذوي العقد النفسية يرتاح لمن يدغدغ عقدته ويداريها. ولهذا حف به بعض المتزلفين وصاروا يصورون له الدنيا كما

---

(1) المصدر السابق ـ ص 81.

(2) عبد الله بن الحسين (المصدر السابق) ـ ص 163.

يشتهي. يروي أمين الريحاني قصة رجل من هؤلاء المتزلفين هي أنه كان متفنناً في اختلاق أخبار السوء عن نجد وابن سعود، وكان الحسين يقرب إليه هذا الرجل ويرتاح لحديثه. جاءه الرجل ذات يوم وجرت بينهما محاورة على النحو التالي:

الرجل: «السنة سنة جدب في نجد. وقد جفّت الآبار، وهلك الألوف من البل».

الحسين: «صحيح! سبحان الله. أنت يا بني أعلم الناس بأحوال نجد».

الرجل: «ابن سعود مصخن سيدي، مضروب بالرئة، يقولون: السل. وهذا الداء لا يعيش صاحبه».

الحسين: «صحيح؟ صحيح؟ ـ سبحان الله! لا يصدقني الخبر غيرك».

الرجل: «وقد خرجت عليه قبائل الحسا، وهم يقولون إنهم لا يبغون غير الملك حسين».

الحسين: «هذا الذي أقوله دائماً يا ابني. ستخرج عليه القبائل كلها. وكلها تجيئنا إن شاء الله»[1].

مفاوضات لورنس:

في صيف 1921 قررت الحكومة البريطانية عقد معاهدة مع الحسين فهي كانت تظن أن الحسين يحمد لها ما فعلت له حيث عيّنت أحد أولاده ملكاً على العراق، والثاني أميراً على شرقي الأردن، وذلك بالإضافة إلى كونه هو قد صار ملكاً في الحجاز. فأرسلت إليه صديقه لورنس ليكون ممثلها في التفاوض معه لعقد المعاهدة.

وصل لورنس جدة في 29 تموز وكان معه جبرائيل حداد باشا. وفي

(1) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص 346.

اليوم التالي عقد أول اجتماع له مع الحسين، وكان مع الحسين ابناه علي وزيد ووزير خارجيته فؤاد الخطيب. فافتتح لورنس الحديث قائلاً: «إن هناك ديناً يُراد توفيته ولا يتيسر دفعه الآن برمته، ولكن يُدفع منه قسط قليل على أن ينظر في تسديد الباقي في المستقبل. ثم قدم لورنس مسودة لمعاهدة كانت قد أعدّت في لندن سابقاً، فقال الحسين يخاطب لورنس: «أنت شرفت، ولا بد من البحث والمناقشة وأهلاً وسهلاً»[1].

دامت المفاوضات خمسة أسابيع، وقد اتّبع الحسين فيها طريق المماطلة والمراوغة، فكان يجامل لورنس في أثناء المفاوضة ويمدح بريطانيا العظمى ولكنه في النهاية لا يوافق على شيء. وقد أبرق لورنس في 2 آب إلى وزير الخارجية البريطانية اللورد كرزن يقول له: «اجتمعت بالملك عدة مرات، وقد أعلن لي عن تخليه عن موقفه المبني على أساس رسائل مكماهون، ولكنه يثير أفكاراً عميقة جديدة كل يوم. إنه عجوز أحمق لا حدود لغروره وأطماعه، ولكنه يبدي الكثير من الودّ ويؤكد أنه صديق مخلص لنا»[2].

توتر الوضع بين لورنس والحسين على أثر ذلك. فقد طلب لورنس من الحسين أن يتكلم بصراحة ماذا يريد، فقدم الحسين أربعة مطاليب هي:

(1) الاعتراف بأن يكون العراق وفلسطين تابعين له، (2) أن تُضم عسير والحديدة إلى الحجاز، (3) أن يكون هو مقدماً على جميع أمراء العرب، (4) أن يعود أمراء العرب إلى حدودهم القديمة، والمقصود من ذلك انسحاب ابن سعود من تربة والخرمة.

أثارت هذه المطاليب امتعاض لورنس، فرد على الحسين بشدّة واتهمه بالطمع، وأوضح له مدى إمكانياته وأوقفه على واقع الأمور قاصداً من ذلك

---

(1) أمين سعيد (الثورة العربية الكبرى) ـ القاهرة ـ ج 3 ـ ص 158.

(2) نايتلي وسمبسون (المخفي من حياة لورنس العرب) ـ ترجمة لاوند والعابد ـ بيروت 1971 ـ ص 153.

الإشارة إلى ضعفه وأن في مقدور ابن سعود الوصول إلى مكّة في مدى ثلاثة أيام. فظهر التأثّر الشديد على الحسين من هذا الكلام وغادر الاجتماع غاضباً دون أن يتلفّظ بكلمة وداع. وأرسل لورنس إلى اللورد كرزن برقية وصف فيها ما جرى وختمها بقوله: «إن الملك أضعف مما كنت أظن، وأرى أنه يمكن الضغط عليه حتى يستسلم استسلاماً نهائياً، وإذا تمكّنا من التغلّب عليه الآن، فإن التفاوض معه سيكون أكثر سهولة في المرة القادمة»[1].

حلّ موسم الحج في منتصف شهر آب، فاضطر الحسين إلى العودة إلى مكة للمشاركة في الموسم والإشراف عليه، وذهب لورنس بدوره إلى عدن حيث قضى فيها أسبوعين، ثم عاد إلى جدة في 29 آب، كما عاد إليها الحسين في 2 أيلول. فاستؤنفت المفاوضات من جديد.

حاول الحسين في هذه المرة التخفيف من مطاليبه السابقة، حيث طلب: أن تعود جميع الإمارات العربية إلى الحدود التي كانت لها قبل انتهاء الحرب، وأن يكون له حق تعيين جميع رجال القضاء والإفتاء في الجزيرة العربية والعراق وفلسطين، وأن يُعترف له بالسيادة فوق جميع الحكّام والأمراء العرب في جميع الأقطار. فردّ لورنس على هذه المطاليب رداً أشد مما فعل في المرة الأولى. ويقول لورنس في برقية إلى اللورد كرزن: إن الحسين عند سماعه لهذا الرد طلب خنجراً وحلف يميناً أنه يتخلّى عن العرش أو يقتل نفسه. فقال له لورنس «إن الحكومة البريطانية سوف تستأنف المفاوضات مع الرجل الذي سيخلفه»[2].

لم ييأس لورنس من النجاح في عقد المعاهدة، وظل يعيد الكرّة في مفاوضاته كلما أخفق فيها. وفي 22 أيلول أبرق إلى حكومته يقول إن الحسين صادق على جميع مواد المعاهدة وأعلن على رؤوس الأشهاد أنه سيوقعها عمّا

---

(1) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص 69 ـ 70.

(2) المصدر السابق ـ ص 73.

قريب، ولكنه عندما قدم الأمير علي إليه نصّ المعاهدة لكي يصادق عليها صرخ في وجهه ورماها عليه. ويقول لورنس في برقيته: إن الأمير عليّ وصف أباه بالجنون، وأنه اتفق مع أخيه الأمير زيد على العمل على إقالته. ويبدي لورنس تفاؤله من تعاون عليّ وزيد معه في المفاوضة، ويقول عنهما: إنهما يتصرفان بطريقة مدهشة وقد يغيران الأمور في الأسابيع القليلة القادمة[1].

وافق لورنس على إضافة مادة على المعاهدة يُنص فيها أن المعاهدة لا تنقض أي عهد أو وعد قُطع للعرب في أثناء الحرب. وكان لورنس يتوقع أن هذه المادة سوف ترضي الحسين، ولكن الحسين لم يرضه شيء. وأخذ أفراد عائلته وحاشيته يلحّون عليه لكي يوافق على المعاهدة بلا جدوى. ويقال إن زوجته أم زيد اشتركت في الإلحاح عليه. ولما ضايقوه بإلحاحهم صعد إلى سطح الدار واتجه نحو الكعبة وأقسم بربها على أنه لا يوقع أية معاهدة لا تحقق الوعود التي وُعد بها سابقاً، ثم نزل عن السطح وانزوى وحده لا يكلم أحداً. ولما رأى أفراد عائلته ذلك منه كفوا عن التكلم حول المعاهدة معه، ثم اتفقوا مع لورنس على أن يزور الأمير عبد الله في عمان لكي يوقع الأمير المعاهدة باسم والده، ثم يرسلها إليه لإقرارها[2].

غادر لورنس جدة في 22 أيلول متوجهاً إلى عمان، وحين وصل إليها أكبّ هو والأمير عبد الله على تمحيص المعاهدة للتوصل إلى صيغة تنال موافقة الفريقين. وفي 29 تشرين الثاني أبرق لورنس إلى اللورد كرزن يقول إنه توصّل إلى نصّ معدل للمعاهدة حظي بموافقة الأمير عبد الله، وأن الأمير على ثقة من أن أباه سوف يصادق على النص الجديد. وقد تمّ التوقيع على المعاهدة في عمان في 18 كانون الأول من قبل لورنس والأمير عبد الله.

وفي 27 منه وصلت صيغة المعاهدة الجديدة إلى الحسين، ولكنه بدلاً

(1) طالب محمد وهيم (المصدر السابق) ـ ص 221.
(2) أمين سعيد (المصدر السابق) ـ ج 3، ص 158.

من المصادقة عليها أبرق إلى لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية يقترح إرسال ابنه عبد الله إلى لندن من أجل إعادة النظر في صيغة المعاهدة وتنقيحها. فعاد الجواب من لويد جورج عن طريق القنصل البريطاني في جدة بالصورة التالية، حيث يقول القنصل ما نصّه: «كلّفتني حكومة جلالة الملك البريطانية بمناسبة برقية جلالتكم بتاريخ 28 كانون الأول 1921 للمستر لويد جورج، أن أذكر جلالتكم بأن مسألة تنقيح المعاهدة شيء خارج عن الموضوع، وأنه يقتضي إما قبولها أو رفضها كما هي. وتضيف على ذلك أن زيارة سمو الأمير عبد الله لإنجلترا يجب اعتبارها أنها تأجّلت في الوقت الحاضر. وإذا أردتم جلالتكم بعد التصديق على المعاهدة فتح باب موضوعات أخرى لتبادل الحديث فيها وتفويض الأمير عبد الله لهذا الغرض فإن زيارة سموّه لإنجلترا تكون عندئذٍ فرصة لتقديم تلك المعروضات لحكومة جلالة الملك البريطانية».

تألم الحسين من هذا الجواب كثيراً، وكتب إلى القنصل البريطاني في جدة يشرح له الأسباب التي دعته إلى اقتراح إيفاد عبد الله إلى لندن، ثم قال إنه لا يفهم أسباب التحدي والتحامل اللذين ظهرا في الجواب، وأنه لا يريد جواباً على مطالعاته إلّا قول «لا» أو «نعم»، وأنه سيجد نفسه مضطراً لاتخاذ موقف ما إذا لم يحصل من بريطانيا على إحدى الكلمتين «لا» أو «نعم».

وفي اليوم التالي كتب الحسين إلى القنصل رسالة أخرى بالمعنى ذاته وقال فيها: إن رفض الحكومة البريطانية لزيارة عبد الله إلى لندن يؤيد الإشاعة القائلة بأن بريطانيا تريد التبرؤ مني، وأن هذا كله يدفعني إلى القول بأنني إذا لم يأتني الجواب بـ «نعم» أو «لا» حتى نهاية الشهر الجاري ـ أي في 27 شباط ـ فإنني مضطر إلى إعلان تنازلي.

وبعد يومين كتب الحسين إلى القنصل رسالة ثالثة ذكر فيها أن مواد المعاهدة التي يُراد منه المصادقة عليها تقوم على «ما ليس له أصل ولا وجود»، يشير بذلك إلى ما ورد في المعاهدة في شأن احترام الصلات والحدود المتّفق عليها بين أقطار الجزيرة العربية. فهو يعتبر تلك الحدود ولا

سيما تلك التي هي بين الحجاز ونجد لم يتمّ حولها أي اتفاق، وهو يريد إعادة الحدود إلى ما كانت عليه قبل نهاية الحرب.

بلغ التوتر في علاقة الحسين مع بريطانيا أقصاه في 14 شباط 1922، فقد كتب القنصل البريطاني في جدة رسالة إلى الحسين لا تخلو من إهانة حيث ذكر له أن الحكومة البريطانية أخذت علماً بعزمه على التنازل عن العرش في 27 شباط، وأنها وهي تذكر تعاونه المخلص وعلاقاته الودّية معها سابقاً تتأسّف لاضطراره إلى التنازل، ولكنها تدرك أنها لا شأن لها في هذه القضية، إذ هي قضية تخصّ أبناء شعبه وهو يجب أن يسويها معهم. فرد الحسين على القنصل برسالة أعرب فيها عن خيبة أمله وقال إنه تحمل المخاطر اعتماداً على عهود بريطانيا دون الرجوع إلى الشعب، ولهذا فإن الشعب لا شأن له في قضية تنازله عن العرش[1].

الدكتور ناجي الأصيل:

ناجي الأصيل شاب بغدادي درس الطب في جامعة بيروت الأمريكية، وعند تخرّجه منها التحق بالجيش العربي طبيباً برتبة نقيب، ولما انتهت الحرب حصل على وظيفة في شركة تُدعى «الشركة الإنكليزية الفرنسية للإعمار في الشرق الأوسط»، وقد أرسلته هذه الشركة إلى الحجاز في حزيران 1922 لإنشاء بعض المشاريع فيه. وهناك وجد فرصة للاجتماع بالحسين والتحدث إليه.

تشير بعض القرائن إلى أن ناجي الأصيل استطاع أن يؤثر في الحسين نفسياً وينال ثقته، فقد ذكر له الأصيل أنه يعرف بعض الشخصيات المتنفذة في السياسة البريطانية وأنه لذلك قادر على عقد معاهدة ترضي الحسين. وقد بلغ تأثير الأصيل في الحسين إلى درجة أن الحسين عيّنه مندوباً عنه في لندن وخوّله التفاوض باسمه مع الحكومة البريطانية.

---

(1) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص 96.

غادر الأصيل إلى لندن وهو يحمل صيغة معدلة للمعاهدة، كما حمل معه رسالة من الحسين إلى لويد جورج يقول فيها إن عدم موافقته على المعاهدة سابقاً ناشىء من عدم وجود من نحسن التفاهم معه. وفي أواخر أيلول 1922 وصل الأصيل إلى لندن وعرض الصيغة المعدلة على وزارة الخارجية، وحين درسها خبراء الوزارة وجدوا أن التعديلات التي أدخلها الحسين في المعاهدة مقبولة ما عدا إسقاطه مادة واحدة وهي المادة السابعة عشرة التي تنصّ على الاعتراف بالمركز الخاص لبريطانيا في فلسطين.

عادت المفاوضات من جديد بين وزارة الخارجية وناجي الأصيل. وفي 16 نيسان 1923 تم وضع صيغة جديدة للمعاهدة حيث وضع اللورد كرزن والدكتور الأصيل عليها الحروف الأولى من اسميهما. وفي اليوم التالي غادر الأصيل لندن متوجهاً إلى جدّة وهو واثق بأن الحسين سوف يوافق على الصيغة الجديدة.

وصل الأصيل إلى جدة في 30 نيسان، وحين درس الحسين الصيغة الجديدة للمعاهدة أجرى عليها بعض التعديلات، وأرسل القنصل البريطاني تلك التعديلات إلى لندن للموافقة عليها. وفي 10 أيار وصل الجواب من وزارة الخارجية البريطانية وفيه بعض التحفظات والاقتراحات. فاتّصل القنصل البريطاني بالأصيل يبلغه بالجواب، فظنّ الأصيل أن الحكومة البريطانية وافقت على التعديلات الجديدة وذهب إلى الحسين يبلغه الخبر. وقد ابتهج الحسين بذلك ابتهاجاً لا حد له، ولم يكن يدري أن الخبر لا أساس له من الصحة وأنه من توهّمات ناجي الأصيل.

وعندما حلّ عيد الفطر في 17 أيار أعلن الحسين لوفود المهنئين أن بريطانيا وافقت على مطاليب العرب وعلى الاعتراف باستقلالهم، وقال: «لا ريب في أنه يوم اجتمع فيه عيدان: عيد الفطر السعيد وعيد الاعتراف باستقلال العرب ووحدتهم. وإني أعلن ذلك للأمة العربية حاضرها وباديها». ثم ألقى رئيس الديوان الهاشمي بياناً قال فيه: إن الحكومة البريطانية تعترف باستقلال

العرب وتتعهد بالمعاضدة الفعلية لتأسيس الوحدة العامة الشاملة لكل البلاد العربية ما عدا عدن، ثم ختم البيان قائلاً: «فنأمر أن يُعتبر هذا اليوم عيد الاعتراف باستقلال الأمة العربية، والله ولي التوفيق». وبعد هذا ألقى الأصيل خطبة أشار فيها إلى بداية الانقلاب الكبير في حياة الأمة العربية الذي قام به الحسين فحطم به سلاسل الأغلال القديمة وجاء اليوم بالاستقلال والاتحاد، فالأمة العربية مدينة لكم يا مولاي. ثم أشار الأصيل إلى نفسه وكيف أنه قام بواجب الوطن يوم لبّى النداء فترك الجيش التركي والتحق بالجيش العربي للاشتراك في الدفاع عن استقلال بلادي العربية في تلك المعركة الكبرى...

لم تمض على ذلك سوى أيام معدودة حتى تبين للناس أن الفرح كان قائماً على وهم. وفي 5 حزيران نشرت حكومة فلسطين في صحف القدس ملخصاً للمعاهدة، واتّضح مما نُشر أن بريطانيا لم تتخل عن سياسة إنشاء الوطن القومي لليهود في فلسطين. فثارت ثائرة العرب فيها، وأبرق موسى كاظم الحسيني إلى الحسين يلفت نظره إلى ذلك. فأجابه الحسين قائلاً: «مولانا أؤكد لكم بهذا أيضاً أن عزمنا الأساسي المؤملين تأييده بقدرة الله لا يمكن أن نتأخر عن واجباته مقدار شعرة. واعلموا أنها حركة عليها نحيا وعليها نموت. والحقائق كما ذكرت تصلكم عقبه. فكونوا واثقين بأنه لا يعترينا فتور أو كسل في سبيل تلك الغاية الشريفة التي لا نريد بها إلا خدمة بلادنا وأبنائها إخواننا»[1].

وفي 27 أيلول نشرت جريدة «القبلة» تقول: إن جلالة الملك الحسين رفض التصديق على المعاهدة بالرغم من كل تهديد، وبالرغم من كل ما أقيم في سبيله من العقبات والعراقيل، كل ذلك حرصاً من جلالته على حقوق العرب ومحافظة على بلادهم.

عاد ناجي الأصيل إلى لندن، وظل يسعى آملاً أن يعقد معاهدة ترضي

---

(1) أمين سعيد (المصدر السابق) ـ ج 3، ص 170.

الحسين وبريطانيا في آن واحد، وكان في ذلك كمن يطلب المستحيل. كتب القنصل البريطاني في جدة تقريراً سرياً إلى حكومته قال فيه: «إني لا أعتقد أن الدكتور ناجي يمكن تبرئته من كونه خادماً سيئاً جداً لحكومة الحجاز. ويبدو أنه بذل جهداً كبيراً لتنمية عقدة العظمة لدى الحسين في بادىء الأمر... فقد كان ناجي يحثّ الحسين على أن لا يوقع المعاهدة، وأن يصمد في موقفه حتى ينال ما يريد ويكون حاكماً على جميع البلاد العربية وكل شيء. إن هذه التأكيدات من ناجي ربما كانت ناشئة عن غروره، ولكن المكر وحده هو الذي جعله يخبر الحسين بأن وزارة الخارجية البريطانية قد أكّدت له أن وعد بلفور لا يعني شيئاً وأنه سيلغى قريباً، وهذا هو الذي أدّى إلى الإعلان المشهور في مكة في ربيع 1923. ومنذ ذلك الحين أخذ ناجي يحاول الاحتفاظ بمنصبه عن طريق تمسكه بالآمال بين حين وآخر حول التوقيع على المعاهدة»[1].

في تلك الآونة وصل من العراق إلى لندن جعفر العسكري في مهمة رسمية ومعه توفيق السويدي. فالتقيا بالأصيل، وجرى بين السويدي والأصيل جدال ومشاجرة شخصية. يقول السويدي في مذكراته: إن الأصيل كان يتمتع في لندن بمركز يؤمن له كل ما ينفقه عن سعة إذ كان يتقاضى مبلغاً لا يقل عن ستمائة باون في الشهر، وكان يبدي نحونا استعلاءً وتكلفاً في معاملاته وحركاته، وقد أبدى غطرسة حتى في معاملته مع جعفر العسكري الذي كان آمره في جيش الثورة العربية، فقد كان يريد أن يُقدم في التشريفات بمنزلة أرفع من جعفر العسكري باعتبار أنه يمثل الملك حسين بينما العسكري يمثل ابنه الملك فيصل. ويذكر السويدي أن الأصيل كان مدفوعاً بشعور يجعله يعتقد أن في إمكانه تحقيق أهداف القضية العربية، فكان يمثل تماماً حماسة الملك حسين فيما يبذله من جهود زائدة لحمل الحكومة البريطانية على تنفيذ وعودها المعهودة. ويروي السويدي أنه كان يتحدث ذات مرة على المائدة بحضور الأصيل وجعفر العسكري، فتطرّق في حديثه إلى الملك حسين وذكره باسم

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (اف. او. 371 ـ 10808).

«الشريف حسين»، فغضب الأصيل من هذه التسمية وصار يؤنب السويدي على ذلك. فرد عليه السويدي بما فحواه أن لقب «الشريف» أعظم قدراً وأدعى للفخار من لقب «الملك». ثم انتهز السويدي الفرصة لينتقد الأصيل على غطرسته حيث قال: «إنني أخشى على الدكتور الأصيل من الزلل ولست أطمئن على مستقبله لأنني أعلم أن الملك حسين طالما بقي متحمساً في مطالبه فإنه ينتدبه كممثل له لتسهيل غاياته، إلا أن هذه الغاية ويا للأسف من الصعب أن تتحقق وسيملّ الملك حسين من المطالبة كما يملّ من دفع النفقات المستمرة الباهظة إلى الدكتور على المنوال الحاضر، ويقطعها. وسيبقى الدكتور يبذل ما لديه إلى أن يصيبه العوز فيضطر إلى قطع العلاقة مع الملك حسين والرجوع إلى العراق، وعندما يصل إليه سيطلب وظيفة في الحكومة لا يزيد راتبها على 25 ديناراً. وهكذا تنتهي مهمة الدكتور ولا يبقى أثر لهذه العنجهية»[1].

الحسين وأبناؤه:

كان أبناء الحسين يخالفون أباهم في رأيه ومسلكه السياسي، ويضيقون به ذرعاً، ولكنهم كانوا مضطرين إلى إظهار الطاعة له مهابة له. وكان هو من جانبه يتذمّر منهم ويشكو من مخالفتهم له المرة بعد المرة.

كان فيصل أكثر إخوته اختلافاً مع أبيه. إنه كان يؤمن بأن السياسة هي فن الممكن ولهذا اتّبع تجاه الإنكليز في العراق مبدأ «خذ وطالب»، بينما كان أبوه على العكس من ذلك يتبع مبدأ «الكل وإما لا شيء»، ولهذا كان يطالب الإنكليز بتحقيق جميع وعودهم التي قطعوها له، وأعلن أنه لن يتنازل عنها قيد شعرة.

غضب الحسين على فيصل عندما بويع هذا بالملك في سوريا عام 1920، فقد اعتبر الحسين ذلك خيانة من فيصل وعقوقاً، لأن سوريا جزء لا

---

(1) توفيق السويدي (مذكراتي) ـ بيروت 1969 ـ ص 87 ـ 89.

يتجزأ من المملكة العربية الكبرى التي يجب أن يكون ملكها الحسين لا غيره. ولما طُرد فيصل من سوريا قال الحسين: هذا جزاء من لا يسمع كلامي، ولو كانت سوريا قد بقيت تابعة للحجاز لما تجرأ الفرنسيون على احتلالها. ومن الجدير بالذكر أن الحسين فعل مثل ذلك مع ابنه الآخر عبد الله عندما أصبحت إمارة شرقي الأردن خاضعة للانتداب البريطاني وانفصلت إدارياً عن الحجاز.

يروي محمد نصيف كبير أعيان جدة: أنه كان في توديع فيصل عند ركوبه الباخرة متوجهاً إلى العراق في عام 1921 وقال له: «إننا نرجو أن نراك قريباً بيننا في موسم الحج القادم»، فأجابه فيصل: «كلا لن أعود إلى الحجاز ما دام والدي فيه»، ثم استطرد فيصل قائلاً: «لقد أساء إلينا، وأحرج مركزنا وعادى أصدقاءنا ولم يبق لنا صديق. حتى أنت نفسك ـ يقصد محمد نصيف ـ وقد كنت أعزّ صديق لنا وساندتنا ووقفت إلى جانبنا في جميع المواقف، فقد عاداك وحاربك. لا. لا. لن أعود إلى الحجاز ما دام على قيد الحياة».

ويروي محمد نصيف أيضاً: إن الأمير زيد اتفق مع أخويه فيصل وعبد الله على خلع والدهم وإجلاس ابنه الأكبر الأمير علي مكانه، ولكن الأمير علي لم يوافقهم على ذلك وقال لهم: «الناس لا يعرفون الحقائق، فإذا ثرنا عليه وأنزلناه عن العرش، قالوا إننا تآمرنا عليه وأنزلناه عن العرش، لنجلس مكانه قبل الأوان. يجب علينا أن نحترم شيخوخته ومقامه ولا نسيء إليه في أواخر أيامه، ويجب علينا أن نصبر عليه وأن نتحمل النتائج التي تنتج عن أعماله مهما كانت فإن ذلك أليق بنا أمام الناس»[1].

ويروي سليمان موسى: أنه قابل الأمير زيد في لندن عام 1968 فجرت بينهما أحاديث شتى كان من بينها حديث أبيه الحسين، فقال زيد يصف أباه: «كان الحسين شديد التصلب في آرائه. أنه لم يكن إنساناً هيناً ليناً. ولكنه كان دون شك صاحب مبدأ وعقيدة. وغير صحيح أني كنت أحثّ الحسين على

---

(1) أمين سعيد (تاريخ الدولة السعودية) ـ ج 2 ص 149 ـ 150.

القبول بالمعاهدة التي عرضتها بريطانيا على يد لورنس لأن الحسين كان لا يصغي لأحد، ولا يسمع من أحد، ولم يكن يؤثر أحد عليه»[1].

الحسين في شرقي الأردن:

في أوائل كانون الأول 1923 أعلن الحسين عن عزمه على زيارة شرقي الأردن دون أن يذكر السبب في ذلك. وقد انتشرت الشائعات في شرقي الأردن أن الحسين يعتزم خلع عبد الله عن الإمارة وتعيين ولده الأكبر علي خلفاً له فيها[2].

في 9 كانون الثاني 1924 وصل الحسين إلى العقبة ولم يكن فيها مدافع لإطلاق التحية له، فأوعز هو إلى الباخرة التي حملته بإطلاق مدافعها تحية له. ويعلق المؤلف البريطاني جارفز على ذلك قائلاً: إن الحسين اتبع المبدأ الياباني الذي يجعل الإنسان يصافح نفسه بنفسه[3].

كان في استقبال الحسين في العقبة جمهور غفير من أعيان البلاد. وقد أعدّت له ولحاشيته سيارات عديدة لنقلهم إلى محطة سكة الحديد في معان، ولكن الحسين رفض ركوب السيارات، بل ركب بغلاً كان قد جاء به معه في الباخرة[4]. فاضطر المستقبلون والحاشية جميعاً إلى الاقتداء به، فأحضرت لهم الدواب من كل صنف مما يمكن العثور عليه في العقبة من الجمال والخيل والبغال. ولوحظ أن بعضهم لم يكن معتاداً على ركوب الدواب وصاروا من جراء ذلك في حالة تستدعي الشفقة، أما الحسين فكان على الرغم من عمره الذي تجاوز السبعين متماسكاً قوياً فوق ظهر البغل، وقد قطع المسافة بين

---

(1) سليمان موسى (مذكرات الأمير زيد) ـ عمان 1976 ـ ص 201.
(2) خيري حماد (المصدر السابق) ـ ص 139.
(3) Jarvis (Arab Command) London 1942 -p.110.
(4) خيري حماد (المصدر السابق) ـ ص 140.

العقبة والقويرة ـ وهي مسافة تزيد على الخمسة والثلاثين ميلاً ـ دون أن يلتفت يمنة ويسرة، أو تظهر عليه أية إمارة للتعب[1].

كان فيلبي حينذاك معتمد بريطانيا في شرقي الأردن، وكان من جملة المستقبلين للحسين. وهو يقول في مذكراته: أنه عندما وصل مع المستقبلين إلى القويرة استدعاه الحسين إلى خيمته وصار يحدثه حديثاً كله عذوبة ورقة، ثم قال له: «اسمع، ليس هناك من خلاف بيني وبين ابن سعود. ألسنا جميعاً من العرب؟ إنني أعتبره واحداً من أولادي، وأنت صديقه وصديقي، في وسعك أن تكون رسولي إليه. وإنني لأقبل أية تسوية ترضاها أنت». ويعلق فيلبي على هذا الكلام مبدياً استغرابه من الاتجاه الجديد الذي لاحظه في الحسين بالمقارنة إلى ما كان عليه قبلئذٍ. ويعلل فيلبي هذا التغير بأن الحسين ربما اتّجه حقده من ابن سعود إلى أولاده الذين خانوه وتنكروا لقضيته ولا سيما فيصل[2]. وفي رأيي أن فيلبي قد أخطأ التعليل، والمظنون أن الحسين لم يتّجه حقده نحو أولاده بمقدار ما اتجه نحو الإنكليز الذين نكثوا بوعودهم له في اعتقاده.

كان استقبال الحسين في عمان فخماً رائعاً شارك فيه وفود من سوريا وفلسطين ومن مختلف القبائل البدوية، كما حضره صحافيون من مصر والقدس وبيروت ودمشق. ولما أطلّ الحسين عليهم من نافذة القطار ارتفعت الهتافات مدوية: «ليحيى ملك العرب، ليحيى المنقذ الأعظم!». وأخذ فرسان البدو يجولون على خيولهم ويهزجون، ورفع تلاميذ المدارس أصواتهم بالهتاف والأناشيد. وكانت الطائرات الإنكليزية آنذاك تغمغم في الفضاء مشاركة في الترحيب.

أعدت للحسين دار تجاه الملعب الروماني، فأطلّ الحسين على جموع

---

(1) Jarvis (op. cit.) -p.110.

(2) خيري حماد (المصدر السابق) ـ ص 140.

المستقبلين من شرفة الدار. وأخذ الخطباء والشعراء يلقون ما جادت به «قرائحهم الفياضة»، فحيوا المنقذ الأعظم والنهضة العربية، ولعنوا الاستعمار والمستعمرين، وهددوا بريطانيا وفرنسا. وجاءت الوفود بعد ذلك لمصافحة الحسين فتكلم فيهم قائلاً: «إنه لا يتنازل عن مبدأ واحد من المبادىء التي هي أركان النهضة، لا أتنازل عن حق واحد من حقوق البلاد. لا أقبل إلا أن تكون فلسطين لأهلها العرب، أقول لأهلها العرب. لا أقبل بالتجزئة، ولا أقبل بالانتدابات ولا أسكت وفي عروقي دم عربي عن مطالبة الحكومة البريطانية بالوفاء بالعهود التي قطعتها للعرب. إذا رفضت الحكومة البريطانية التعديل الذي أطلبه فإني أرفض المعاهدة كلها. لا أوقع المعاهدة قبل أن آخذ رأي الأمة. إني عامل دائماً في سبيل الاتفاق مع أمراء العرب. إني عامل دائماً في سبيل الوحدة العربية والاستقلال التام، أقول الاستقلال التام للأقطار العربية كلها. ولا فرق عندي إذا كان مركز الحكومة العربية في الحجاز، أو في سورية، أو في العراق، أو في نجد»[1].

مكث الحسين في شرقي الأردن نحو شهرين ونصف. ولوحظ أنه كان طيلة تلك المدة يتصرف كأنه ملك البلاد. يقول جارفز: إن الحسين كان طيلة مكوثه في شرقي الأردن يتصرف كأنه الآمر الناهي في البلاد بينما كان الأمير عبد الله يتّخذ له مقعداً خلفياً، وقد سبب ذلك حرجاً للمسؤولين البريطانيين، إذ هم كانوا يفترضون في الأمير عبد الله أن يكون الحاكم الفعلي للبلاد لا أن يكون نائباً عن أبيه في حكمها، كما كانوا يفترضون أن يكون الحسين ضيفاً مكرماً في البلاد لا آمراً ناهياً فيها. ولم يستطع هؤلاء المسؤولون أن ينبهوا الحسين إلى ذلك بل تحملوه على مضض...[2].

جاء لزيارة الحسين في عمان السكرتير العام لحكومة فلسطين السر جلبرت كلايتون، وبعد عودته إلى القدس كتب إلى حكومته في لندن تقريراً قال

(1) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص 324 ـ 325.

(2) Jarvis (op. cit.) -p.111.

فيه: إن الحسين كرر بياناته المعتادة حول الوضع الصعب الذي يجد نفسه فيه أمام المسلمين عموماً بسبب تحالفه مع بريطانيا أولاً، ولعدم وفاء بريطانيا بالعهود التي قطعتها له ثانياً. ثم يقول كلايتون: إنه فهم من محادثاته مع الحسين أن الصعوبة التي يشكو منها تتعلق بفلسطين، وقد أكّد الحسين له أنه على أتمّ الاستعداد لمساعدة الحكومة البريطانية في أية وسيلة ممكنة غير أنه لا يستطيع أن يضع نفسه في وضع يعرضه لنقد المسلمين. واختتم كلايتون تقريره مقترحاً إسقاط مادة واحدة من المعاهدة وهي المادة التي تتعلق بسياسة بريطانيا في فلسطين، لأن موافقة الحسين على هذه السياسة ستعرضه إلى نقد شديد وستدمر نفوذه عند عرب فلسطين الذين سيتخلون عنه في الحال ويعلنون أنه تخلّى عن قضيتهم[1].

الحسين خليفة:

في 1 آذار 1924 أعلن مصطفى كمال باشا إلغاء الخلافة في تركيا، وكان الحسين لا يزال مقيماً في عمان، فأخذ ابنه عبد الله يحثه على انتهاز الفرصة وإعلان الخلافة لنفسه. يقول المؤرخ الألماني فون ميكوش: «ولما أُعلن قرار أنقرة بالتخلّي عن الخلافة استبدّت بالأمير عبد الله فكرة استغلال ذلك الحدث لمجد الأسرة الهاشمية وإعلاء شأنها، وهو الذي يذهب بطموحه أبعد كثيراً من حدود إمارة شرقي الأردن الصغيرة التي لا يملك فيها أمر، ويهدف إلى تسنّم قمة المجد درجة بعد أخرى. فمضى يقنع والده باهتبال الفرصة، ويستعمل لذلك وسائل الترغيب التي استعملها في إقناعه بإعلان الثورة ضد العثمانيين، مهيباً بالحسين أن يعلن نفسه خليفة للمسلمين...

ويقول فون ميكوش: إن الحسين تردد في الأخذ برأي ابنه عبد الله، ذلك لأن الخيبات المتكررة التي مُني بها على أيدي الإنكليز جعلته مضطرباً ضعيف الثقة بنفسه، وربما انتابه شعور مبهم بأن خطوة من هذا النوع قد تفضي

(1) سليمان موسى (صفحات مطوية) ـ ص 171 ـ 172.

به إلى كارثة. ولكن عبد الله ظل يواصل الإلحاح عليه، وأخذ يذكّره بأن الإنكليز خلال مفاوضاته الأولى معهم قبيل إعلان الثورة صدر منهم ما يدل على أنهم يرحبون بخلافته على المسلمين[1].

وافق الحسين أخيراً على رأي عبد الله، وتقرر أن تكون البيعة بالخلافة في 5 آذار في قرية «الشونة» التي تقع على مقربة من عمان وهي مشتى للأمير عبد الله. وقد جاءت إلى تلك القرية وفود للبيعة من سوريا ولبنان وفلسطين بالإضافة إلى وفود شرقي الأردن، كما جاء إليها بعض المصريين. فقام الأمير عبد الله يبايع أباه، ثم بايعه من بعده أمين الحسيني باسم فلسطين، ثم بقية الوفود. وبعد إتمام البيعة ألقى الحسين خطبة طويلة ذكر فيها أنه قبل البيعة بالخلافة حرصاً على إقامة شعائر الدين وصيانة الشرع المبين، وبناءً على إلحاح أهل الرأي والحل والعقد من علماء الدين في الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى وما جاورهما من البلدان والأمصار[2].

أخذت البرقيات تتوالى على الحسين من مختلف الأقطار الإسلامية لتهنئته ومبايعته بالخلافة. ولا حاجة بنا إلى القول إن العراق كان من أكثر الأقطار، إن لم يكن أكثرها، اهتماماً بخلافة الحسين وتقديم البيعة له. فقد أخذت الجرائد العراقية تنشر البرقيات التي تردها من مختلف مدن العراق وعشائره وهي تعلن بيعتها للحسين بالإجماع. واجتمع أعضاء المجلس التأسيسي في القصر الملكي وعرضوا بيعتهم للحسين بن علي أمام الملك فيصل، ونهض أحمد الشيخ داود فألقى خطبة ضمنها الدعاء «لمولانا الخليفة الأعظم». وفي يوم الجمعة 14 آذار 1924 أدّى الملك فيصل صلاة الجمعة في جامع السراي وتليت الخطبة فيه باسم الخليفة الحسين بن علي. ونشرت جريدة «العراق» خبراً بعنوان «خلافة الملك حسين ومبايعة الجعفرية لجلالته» قالت فيه: إن علماء الجعفرية خفوا لمبايعة الحسين مع العلم إنهم امتنعوا من

---

(1) صلاح الدين المختار (تاريخ العربية السعودية) ـ بيروت ـ ج 2 ص 268 ـ 269.

(2) أمين سعيد (أسرار الثورة العربية الكبرى) ـ بيروت ـ ص 358 ـ 359.

قبل عن مبايعة سلاطين آل عثمان، وذلك لأنهم وجدوا الشروط المطلوبة للخلافة متوفرة فيه، فهو عربي قريشي علوي إمامي. كما نشرت الجريدة برقية وردتها من عبد الرزاق الوهّاب في كربلاء يقول فيها: «إن ثلاثمائة ألف زائر في صحن الحسين، وهم الذين جاؤوا للزيارة بمناسبة منتصف شعبان، يبايعون الحسين بالخلافة. وكذلك نشرت الجريدة برقية كان قد أرسلها إلى الحسين السيد هبة الدين الشهرستاني رئيس مجلس التميز الجعفري، وهذا نصها:

«لأعتاب صاحب الجلالة الهاشمية الملك حسين المنقذ الأعظم أرواحنا فداه. أتشرف بلثم تلك اليد الطاهرة معترفاً بالخلافة الإسلامية الكبرى لذلك الإمام الهاشمي الفاطمي معتقداً في عزماته الحسنى على جمع شمل الموحدين وتعظيم شعائر الدين وحماية حوزة المسلمين نصرهم الله تعالى تحت لوائه آمين»[1].

عاد الحسين إلى مكة فوصلها في 30 آذار، وكانت الزينات قد أقيمت له في كل مكان، وأخذت جريدة (القبلة) تنشر البرقيات التي وردتها من أنحاء العالم لتهنئة الحسين بالخلافة. ويعلق المؤلف البريطاني هوارث على ذلك قائلاً: لا ندري كم هو الصحيح من تلك البرقيات لأن الحسين نفسه كان يحرر الجريدة[2].

---

(1) انظر جريدة العراق ـ في أعدادها الصادرة في 10، 12، 15، 18، 20. من شهر آذار 1924.

(2) David Howarth (The Desert King)- London 1964 -p.141.

الفصل الخامس

عبد العزيز بن سعود

عبد العزيز بن سعود

من سوء حظ الحسين وأسرته أن يظهر من بين خصومه رجل يُعد من دهاة التاريخ وجبابرته، هو عبد العزيز بن سعود. فلولا ظهور هذا الرجل لكان التاريخ المعاصر للجزيرة العربية غير ما عهدناه، ولربما بقي الحسين وأسرته يحكمون الحجاز حتى يومنا هذا.

سنحاول في هذا الفصل دراسة سيرة هذا الرجل منذ بداية حياته حتى فتحه مكة، وسوف نتم دراسة سيرته في فصل آخر.

بداية حياته:

هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركي من أسرة آل سعود المشهورة. ولد في الرياض في أوائل عام 1877[1]، وحين كان صبياً لجأ مع أبيه وأخيه الأصغر محمد وابن عمه جلوي إلى قبيلة بني مرة وهي قبيلة بدوية موغلة في البداوة تعيش على حافة الربع الخالي، فنشأ ابن مسعود في تلك البيئة البدوية الخشنة وتعلم منها قيمها وثقافتها الاجتماعية[2].

كان عبد الرحمن والد ابن سعود شديد التدين، ولم تعجبه الحياة في بني مرة لأنه وجدهم متساهلين في دينهم غير طاهرين. فتركهم ولجأ إلى الكويت مع عائلته، وكان ذلك في أواخر عام 1892، وسكن في بيت صغير بجوار الميناء مؤلف من طابق واحد يضم ثلاث غرف.

---

(1) خير الدين الزركلي (شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز) ـ بيروت 1977 ـ ص 58.

(2) Armstrong (Lord of Arabia) - London 1938 - p. 32 - 33.

كانت الحكومة العثمانية قد خصصت لعبد الرحمن راتباً شهرياً قدره ستون ليرة، إذ كانت تأمل أن تستفيد منه في يوم من الأيام. وكان هذا الراتب ذا قوّة شرائية لا بأس بها يومذاك، ولكن مشكلته أنه لم يكن يُدفع بانتظام كما جرت عليه العادة في الدولة العثمانية. وقد عانى عبد الرحمن من جراء ذلك كثيراً من الضيق، واضطر في بعض الأحيان إلى الاستدانة من الأصدقاء وأصحاب الدكاكين.

كان الصبي عبد العزيز بن عبد الرحمن في بداية حياته في الكويت يلعب مع أقرانه في الأزقّة، كما هو ديدن الصبيان في الأحياء الفقيرة. وقد لوحظ عليه في تلك الفترة أنه كان يتميّز عن أقرانه بقوة الشخصية والميل إلى الزعامة. يروي حافظ وهبة عن بعض المسنين من أهل الكويت الذين رافقوا عبد العزيز في صباه: أنه كان يفوق الصبيان من أقرانه نشاطاً وذكاءً، وكان يتزعمهم في اللعب. ولوحظ عليه أيضاً أنه كان يحب الاستماع إلى ما يتحدث به المسنون عن مجد جده فيصل بن تركي وعن مغامراته في سبيل إعادة مجد أسرته[1].

ويروي أرمسترونج: أن ابن سعود حين بلغ طور الشباب كان يتفاخر أمام أقرانه بأنه الوارث لدولة الرياض ونجد، وأنه لا بد في يوم من الأيام أن يطرد ابن رشيد منها ويعيد مجد الأجداد. فكان أقرانه يضحكون عليه ويسخرون منه، وكان هو يغضب منهم، غير أنه بالرغم من ذلك لم يكن يفقد ثقته بنفسه[2].

في أواخر 1901 قرر ابن سعود أن يقوم بمغامرة خطرة آملاً أن يعيد بها مجد أسرته أو يموت دونه. فقد خرج من الكويت ومعه أربعون فارساً من أقربائه وأعوانه، ونحو عشرين من أتباعهم، فتوجّه بهم نحو الرياض بغية استخلاصها من حكم ابن رشيد أمير حائل. وفي 15 كانون الثاني 1902 استطاع بضربة بارعة أن يحتلّ الرياض. فكان ذلك بداية صعود نجم هذا الشاب الطموح.

---

(1) حافظ وهبة (خمسون عاماً في جزيرة العرب) ـ القاهرة 1960 ـ ص 27.

(2) Armstrong (op. cit.) p.40.

يقول الباحث البريطاني ترويلر: «إن قصة احتلال ابن سعود للرياض صارت أسطورة في التراث الشعبي البدوي، فقد أثبت ابن سعود بها أنه يملك الصفات التي تؤهله للمشيخة وهي الشجاعة والزعامة والحظ، ويجب أن نذكر أن الجرأة التي أبداها ابن سعود في تلك المغامرة استهوت خيال سكان المنطقة الوسطى من الجزيرة العربية...»[1].

توالت انتصارات ابن سعود بعد تلك المغامرة، كما توالت هزائمه أيضاً. ولكن الهزائم لم تكن لتثنيه عن عزمه، ولعله كان يزداد مضاءً وعزيمة عندما تحل به الهزيمة ـ وتلك صفة لا يملكها إلا القليل من البشر!.

عوامل النجاح:

هناك عدة عوامل ساعدت ابن سعود على النجاح نذكر فيما يلي أهمها:

أولاً: أنه كان ذا دهاء فطري يدرك أن السياسة هي فن الممكن. ويقال إنه تلقّى دروساً عملية في السياسة من مبارك الصباح شيخ الكويت المشهور. والمعروف عن مبارك أنه كان يحب ابن سعود ويشركه في مجالسه ومؤتمراته. يقول أرمسترونج: إن مبارك علم ابن سعود كثيراً من فن الحكم، وقد تعلم ابن سعود منه بسرعة واستعداد، فعندما كان يحضر مجالس مبارك ومؤتمراته كان يجلس في الزاوية متربعاً وبيده مسبحة من الكهرب ويصغي إلى ما يقال ويتعلم[2].

ثانياً: اجتذب ابن سعود إليه بعض المستشارين من البلاد العربية المختلفة، لكي يطلع عن طريقهم على أحابيل السياسة العالمية. ولكنه لم يكن يقبل كل ما يقوله له المستشارون، بل كان يستمع إلى كل واحد منهم، ويوازن بين أقوالهم، ثم يصدر حكمه النهائي بعد التروي. ولوحظ أنه لم يكن يحب من مستشاريه أن يؤيدوه في كل ما يقول، بل كان يريد منهم أن يصارحوه

(1) Troeller (The Birth of Saudi Arabia) -London 1976 -p.21.

(2) Armstrong (op. cit.) -p.40 - 41.

الرأي[1]. إن ابن سعود يختلف في هذا عن بعض رجال الحكم الذين اعتادوا على تقريب المداحين والمتزلفين فضاعت بذلك عليهم حقائق الحياة.

ثالثاً: كان ابن مسعود كثير السخاء ينفق الأموال التي تتوافر لديه على الأعوان وعلى من يريد اجتذاب قلوبهم. أنه كان يسير في ذلك على المبدأ البدوي القائل: «اصرف ما في اليد يأتيك ما في الغد». وكان في ذلك على النقيض من خصمه الحسين الذي كان يتبع المبدأ الحضري القائل: «القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود». كان شعار الحسين «إن المال يفسد الرجال»[2]، بينما كان شعار ابن سعود: «إن المال يجذب الرجال». والواقع أن الشعار الثاني أدعى للنجاح في هذه الحياة من الشعار الأول.

رابعاً: كان ابن سعود يملك موهبة نفسية تجعله قادراً على التأثير في من يقابله وعلى اجتذابه، وهي الموهبة التي تسمى في علم الاجتماع بـ «الكارسما». يقول ترويلر في وصف ابن سعود: إن معظم المؤرخين اتفقوا على أنه يملك «الكارسما»، فهو طويل عريض المنكبين وسيم يمثل الرجولة العربية، وله جاذبية لاحظها كثير من الذين قابلوه...[3].

خامساً: من الممكن القول إن ابن سعود كان يملك موهبة التمثيل وهي الموهبة التي يحتاج إليها رجل السياسة في كثير من الأحيان. فابن سعود قد يقابل عدواً له تقضي السياسة أن يبدي له الحب، وتراه عند ذلك يقوم بدور المحب الذي لا شك في إخلاصه. وهو قد يتظاهر بالبكاء وتنهمر دموعه فعلاً إذا وجد من المصلحة أن يفعل ذلك. ويقال إن الملك فيصل الأول كان يشبه ابن سعود في موهبة التمثيل هذه إلى حدّ غير قليل.

سادساً: المظنون أن سعود كان يملك ما يسميه العوام بـ «الحظ». ومن الجدير بالذكر أن موضوع «الحظ» موضوع شائك معقد لا مجال للحديث عنه

---

(1) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص 48.

(2) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) ـ بيروت 1954 ـ ص 347.

(3) Troeller (op. cit.) -p.21.

هنا، يكفي أن نقول إن البحوث «البارالوجية» الحديثة بدأت تكتشف وجود قوى خفية في بعض الأفراد يستطيعون بها السيطرة على الصدف وتوجيهها نحو مصلحتهم قليلاً أو كثيراً. إن العلم لا يعرف كنه تلك القوى، ولكنه اكتشف بعض مظاهرها وتأثيراتها. ومن يدري فلعل العلم يكتشف كنهها في المستقبل[1].

ومهما يكن الحال فإننا نستطيع أن نضع أبن سعود في قائمة أولئك الذين يملكون قسطاً غير قليل من ذلك القوى. وقد خصص خير الدين الزركلي في كتابه عن ابن سعود فصلاً ذكر فيه الحوادث التي تدل على وجود موهبة «الحظ» لديه، وهو يسميه بـ «التوفيق»[2].

نشأة الإخوان:

كان جيش ابن سعود في أول أمره مؤلفاً من البدو في الغالب، وكان يعلم أن البدو ليس لهم قيمة حربية كبيرة لأنهم يحبون الغزو والنهب، وهم لذلك ينضمون إلى أية حركة جديدة حين يتوقعون الغنيمة فيها، وسرعان ما يتركونها عندما يلمحون فيها بوادر الانكسار. يقول حافظ وهبة: «ليس للبدوي قيمة حربية تذكر... وكثيراً ما كان البدو شراً على الأمير المصاحبين له، فإن ذلك الأمير إذا بدت منه الهزيمة كانوا هم البادئين بالنهب والسلب، ويحتجون بأنهم أولى من الأعداء المحاربين... ولكن البادية لا تعرف غير النهب والسلب وعندها الغنيمة مقدمة على كل شيء... والبدوي إذا لم يجد سلطة تردعه أو تضرب على يده يرى من حقه نهب الغادي والرائح، فالحق عنده هو القوة يخضع لها ويُخضع غيره بها...»[3].

فكر ابن سعود وأطال التفكير، لإيجاد حلّ لهذه المشكلة. أنه يريد جنوداً يطيعونه في السراء والضراء لكي يبني بهم دولته العتيدة ويعيد مجد

(1) انظر في موضوع علم «البارالوجيا» كتاب (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) للمؤلف - ج 5 ق 2 م 4.

(2) خير الدين الزركلي (المصدر السابق) - ج2 ص581 - 585.

(3) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) - القاهرة 1967 - ص 10.

الآباء. وقد تفتق ذهنه أخيراً عن حلّ مستمد من تاريخ الإسلام، وهو ما كان يسمى بـ «الهجرة». فقد كان المسلمون في عهد الرسول فريقين: إعراب ومهاجرين. وكان المقصود بالأعراب البدو، وقد ذمهم القرآن ووصفهم بأنهم ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾[1]. ولهذا كان المفروض فيمن يريد أن يكون مسلماً حقيقياً أن يترك البداوة وينظم إلى زمرة المهاجرين في المدينة. وقد اعتاد المسلمون أن ينظروا إلى المسلم الذي يعود إلى البادية بعد إسلامه نظرة استنكار شديد، ويقولون عنه إنه «تعرب»، أي صار أعرابياً وارتدّ إلى عقبيه[2]. والواقع أن «الهجرة» كان لها أثرها في تغيير شخصية البدوي قليلاً أو كثيراً، فإن البدوي حين ينضم إلى البيئة الجديدة التي خلقها الإسلام في المدينة يجد نفسه مضطراً إلى ترك قيمه القديمة وإلى اتخاذ القيم الجديدة التي جاء بها الإسلام.

شجع ابن سعود قيام قرى ثابتة في نجد لكي يهاجر إليها البدو ويستقرّوا فيها. وقد أطلق على تلك القرى اسم «الهجر»، وكانت أول هجرة ظهرت للوجود في عام 1911 في موضع يدعى «الأرطاوية» يقع في منتصف الطريق بين الكويت والقصيم. وتلا ذلك ظهور هجر أخرى تدريجياً حتى بلغ عددها بعد ثمانية عشر عاماً 122 هجرة، وبلغ عدد رجالها 76,500 رجلاً.

أرسل ابن سعود إلى الهجر «المطوعين» ـ أي الوعاظ ـ كما جهزها بما تحتاج إليه من مواد وأموال لتكون قرى زراعية ناجحة. وقد سادت الهجر حياة جديدة لم يعهدها البدو من قبل، فهم قد باعوا إبلهم واحترفوا الزراعة والتجارة كما تركوا سكنى الخيام وسكنوا بيوتاً مبنية من اللبن، ولبسوا العمامة البيضاء بدلاً من العقال، وأطلقوا على أنفسهم اسم «الإخوان» باعتبار أن المؤمنين أخوة، وانصرفوا إلى الصلاة والعبادة وتدارس السيرة النبوية. وكانت

---

(1) سورة التوبة، الآية: 98.

(2) علي الوردي (منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته) ـ القاهرة 1962 ـ ص 101 ـ 102.

كل هجرة تضم مسجداً في وسطها، وكان المسجد يغص بالمصلين والدارسين في معظم الأوقات.

أراد الإخوان أن يتشبهوا بالمسلمين الأولين في كل شيء، وهذا أمر لا بد أن يؤدي بهم إلى التطرف لعدم وجود قائد حكيم بينهم من طراز محمد يردهم إلى جادة الاعتدال. وقد أعطانا حافظ وهبة صورة لبعض مظاهر التطرف الذي انتشر بينهم فيقول: «لقد تشرب هؤلاء كثيراً من المبادىء والتعاليم الناقصة حتى اعتقدوا أنها هي الدين وما سواها ضلالة... وكان كثير منهم يعتقد أن لا إسلام لمن لم يسكن الهجرة، مهما كان عليه من الإسلام، وترك شرور البادية وعوائدها، فلا يبدؤون غيرهم من هؤلاء بسلام، ولا يردون عليهم السلام، ولا يأكلون ذبائحهم. وذنب هؤلاء عندهم هو عدم سكنى الهجرة. وكان من عوائد الإخوان إذا قدموا زائرين قاموا في المسجد وقالوا: السلام عليكم يا الإخوان إخواننا يسلمون عليكم. وكانوا يعتقدون أن الحضر ضالون وغزو المجاورين واجب وأنه أُلقي عليهم هذا الواجب من قبل الله، فلا يسمعون كلام أحد في منع الغزو... إلى غير ذلك من ضروب الجهالة، وأصبحوا يحرمون كل ما لا يتّفق وهواهم. وإن سريان هذه الروح المتمرّدة يرجع إلى هؤلاء الجهلة أنصاف المتعلمين الذين انتشروا في قرى الإخوان باسم العلم ولقنوهم هذه التعاليم وحببوا إليهم التعصب الذميم»[1].

صار الإخوان يعتبرون حياة البادية هي حياة الجاهلية بعينها، واعتقدوا أن الإسلام الحقيقي هو في التخلص من كل ما يُشم منه رائحة الجاهلية، والتمسّك بسنة النبي وأصحابه. فالعقال مثلاً أصبح في نظرهم من البدع المنكرة، وغالى بعضهم فجعله من لباس الكفار وأوجب مقاطعة لأبيه. واعتبروا أن السنة في لبس العمامة البيضاء بدلاً من العقال. وكانوا يخاطبون الرجل الذي ظلّ على بداوته: «أنت يا بدوي مشرك... أنت يا أبو العقال من الكفار، أنا أخو من طاع الله،

---

(1) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص 290.

وأنت أخو من طاع الشيطان»[1]. واعتبروا الشارب الطويل والثوب الطويل مخالفين للسنة، وكان بعضهم يحملون المقصّ معهم فإذا وجدوا رجلاً طويل الشارب أو طويل الثوب عمدوا إلى قصها بالمقص[2].

يجب أن لا ننسى أن هذا التطرف الذي صاحب حركة الإخوان كان على الرغم من جوانبه السلبية له جانب إيجابي هو أنه خلق من الإخوان جنوداً فدائيين يرمون بأنفسهم إلى الموت وهم واثقون أنهم ذاهبون إلى الجنة. يقول حافظ وهبة: «أصبح الإخوان لا يهابون الموت بل يندفعون فيه اندفاعاً طلباً للشهادة ولقاء الله، وأصبحت الأم حينما تودع ابنها تودعه بهذه الكلمات: «جمعنا الله وإياك في الجنة»، وأصبحت كلمة التشجيع على الحرب: «هبّت هبوب الجنة وين أنت يا باغيها»، وكلماتهم عند الهجوم: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[3]. ولقد شاهدت بعض مواقعهم الحربية فوجدتهم يقذفون بأنفسهم إلى الموت قذفاً ويتقدمون إلى أعدائهم صفاً صفاً، ولا يفكر أحدهم في شيء إلّا هزيمة العدو وقتله. والإخوان على العموم لا تعرف قلوبهم الرحمة على الأعداء، ولا يفلت من تحت يدهم أحد، فهم رسل الموت أينما رحلوا»[4].

ويروي حافظ وهبة قصة رجل من الإخوان جاء إلى أحد شيوخ الدين يسأله عن النفاق وعن الخوف في الحرب، وأخذ يشكو إليه من أن في قلبه نفاقاً حيث قال له: «إنني حينما كنت أهجم وجدت في نفسي شيئاً من التردّد بسبب أزيز الرصاص، ولا بد أن يكون النفاق في جنبي. أخرج النفاق بعصاك أيها الأخ». فقال له الشيخ: إن هذا ليس من النفاق أو الفرار من الزحف، وأفهمه: أنه إذا لم يعط العدو ظهره فلا يسمى ذلك نفاقاً أو فراراً. فقال الرجل: لا، إن شاء الله لا أعطي العدو ظهري، إن هذا كفر يا شيخ!

---

(1) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص 265.

(2) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص 292 ـ 293.

(3) سورة الفاتحة، الآية: 5.

(4) المصدر السابق ـ ص 291.

ويروي حافظ وهبة قصة أخرى هو أن رجلاً من الإخوان وجد صرة فيها نقود ذهبية عقب إحدى المعارك الحربية التي خاضها الإخوان، فجاء بها إلى أحد شيوخ الدين يسأله: هل هي حلال له؟ فقال الشيخ له: إنها من الغنيمة ولا يحل له من الغنيمة إلا ما يصيبه بعد القسمة. فأسرع الرجل إلى متولي الغنيمة فسلم الصرّة إليه قائلاً: «لا والله لا أستحقها»[1].

إن هذه الروح الفدائية التي سيطرت على الإخوان جعلت منهم قوة حربية كبرى في يد ابن سعود أخذ يهدد بها الأقطار المجاورة. وقد صار الإخوان ابتداءً من عام 1919 يشنون الغارات على الكويت والعراق والأردن والحجاز، فأثاروا الرعب في تلك الأقطار. وقد رأينا نموذجاً من أفعالهم في واقعة تربة.

الفرصة المؤاتية:

كان ابن سعود بعد أن تنامت لديه قوة الإخوان يطمح لغزو الحجاز. إن آل سعود قد فتحوا الحجاز في حركتهم الأولى، وهو يريد أن يسير على أثرهم، ولكنه كان يخشى أن يمنعه الإنكليز من ذلك، وهو لم يكن يحب أن يصطدم بالإنكليز على أي حال.

ظل ابن سعود يترقب الفرصة للقيام بحركته تجاه الحجاز. وقد جاءته الفرصة أخيراً في 5 آذار 1924 عندما أعلن الحسين الخلافة في عمان. فقد أدى هذا الإعلان إلى غضب بعض الأوساط الإسلامية في الهند ومصر وغيرها. أضف إلى ذلك أن الإنكليز قاموا في 30 منه بقطع المعونة المالية التي كانوا يدفعونها لابن سعود، فكان ذلك عاملاً إضافياً جعل ابن سعود يصمم على غزو الحجاز. يقول الباحث ترويلر: إن حادثين حدثا في شهر آذار 1924 كان لهما بلا شك أثرهما القوي في دفع ابن سعود إلى مهاجمة الحجاز: أولهما انتحال الحسين الخلافة في 5 منه، والثاني قطع بريطانيا في

---

(1) المصدر السابق ـ ص 292.

30 منه للمعونة المالية التي كانت تدفعها لابن سعود، وقد شعر ابن سعود على أثر ذلك أنه سوف لا يخسر كثيراً لو غضبت عليه بريطانيا، ولم يبق لديه مانع قوي يمنعه من إطلاق اتباعه المتحمسين على الحجاز(1).

وقد أشار حافظ وهبة إلى مثل ذلك في مذكراته، فهو يقول: إن الظروف كانت حينذاك ملائمة لإطلاق سيوف الإسلام ـ ويقصد بهم الإخوان ـ على الحجاز، فإن إعلان الحسين الخلافة أغضب عليه أكثرية العالم الإسلامي، كما أن موقف الحسين من فلسطين أغضب عليه الإنكليز، فلم يبق لدى الحسين من يعتمد عليه سوى أخيلة لم تحققها الأيام. ويضيف حافظ وهبة إلى ذلك قائلاً: إن ابن سعود كان متهيباً من القيام بغزو الحجاز لأنه لم ينس إنذار بريطانيا له في عام 1919 عقب واقعة تربة، ولكنه ـ أي حافظ ـ أوضح له أن الظروف تختلف عنها في أيام تربة، وذكر له كيف أن الحسين كان في أيام تربة حليفاً مطواعاً لبريطانيا أما الآن فقد أصبح مناوئاً لها. وأخذ يؤكد له أنها فرصة ثمينة يجب انتهازها وقال إن الفرص لا يجود بها الزمن إلا مرة واحدة(2).

تأجيل الغزو:

في الوقت الذي صمم فيه ابن سعود على غزو الحجاز أصيب بمرض غريب جعله يؤجل الغزو فترة من الزمن.

بدأ المرض بورم في الوجه عقب ليلة قضاها ابن سعود مع إحدى زوجاته. وكانت امرأة شمرية من آل الرشيد. وأخذ الورم يشتدّ عليه، وتسمم بدنه وارتفعت درجة حرارته ارتفاعاً خطراً(3). وانتشرت الإشاعات عنه أنه مات، غير أن المرض خفّ عنه تدريجياً بمرور الأيام.

---

(1) Troeller (op. cit.) -p.216.

(2) حافظ وهبة (خمسون عاماً في جزيرة العرب) ـ ص 55 ـ 56.

(3) Armstrong (op. cit.) -p.159.

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن عبد الرحمن والد ابن سعود كان معتقداً بأن المرض نشأ من البخور الذي تبخر ابنه به في تلك الليلة، واتهم الزوجة الشمرية بأنها قد وضعت السم في البخور لكي تنتقم لقومها منه. وأمر ابنه بأن يطلقها. فطلقها ابن سعود طاعة لأمر أبيه على الرغم من اعتقاده ببراءتها. ويُروى عن ابن سعود أنه قال عن تطليقه لتلك الزوجة: «لقد طلقتها وهي تبكي وأنا أبكي، لأني كنت واثقاً بأن التورم حصل صدفة وأنها بريئة من أي سوء نية أو سوء قصد، ولكني نزولاً عند أوامر والدي طلقتها». وقد ظلّ ابن سعود بعد ذلك يزور تلك المرأة لأنه كان يحترمها ويودّها كثيراً[1].

والغريب أنه بعد مرور أربعة أشهر على هذا المرض ظهرت بوادر الرمد على عينه اليسرى، والمظنون أنه الرمد الصديدي. فجيء له بأطباء شعبيين فلم ينفعوه شيئاً وأخذ الرمد يشتدّ عليه، وظهرت على عينه لطخة بيضاء أفقدته البصر فيها. فجيء له بطبيب سوري استطاع أن يخفف من التهاب العين، ولكن اللطخة البيضاء ظلت باقية. وفي كانون الثاني 1926 عندما تمّ لابن سعود فتح الحجاز استُدعي له من مصر بعض أطباء العيون المعروفين كان من بينهم سالم الهنداوي وجلال أبو السعود، فأجروا له عملية جراحية تمكّنوا بها من إعادة شيء من البصر إلى عينه المصابة عن طريق فتحة صغيرة في القرنية ينفذ منها الضوء. أما اللطخة فلم يتمكّنوا من إزالتها.

مؤتمر الرياض:

عندما شعر ابن سعود بأن صحته تمكنه من القيام بغزو الحجاز أوعز بعقد مؤتمر في الرياض يحضره رجال الدين وزعماء الإخوان للمداولة في الأمر. وقد انعقد المؤتمر في 4 حزيران 1924 برئاسة عبد الرحمن والد ابن سعود.

افتتح عبد الرحمن المؤتمر فذكر كيف أن الحسين منع الإخوان من الحج، وقال إن كتباً عديدة وردته من الإخوان وهم يبغون الحج، وأنه أرسل

---

(1) أمين المميز (المملكة العربية السعودية كما عرفتها) ـ بيروت 1963 ـ ص 338 ـ 339.

تلك الكتب إلى ولده عبد العزيز، وها هو عبد العزيز أمامكم فاسألوه عمّا تريدون. وعند هذا قام ابن سعود وقال للحاضرين: إن كتبهم وصلته وأن الأمور مرهونة بأوقاتها وأن لكل شيء نهاية. فقام سلطان بن بجاد أحد زعماء الإخوان الأقوياء وقال بلهجته النجدية: «يا الإمام حنا نبغي الحج ولا نريد أن نصبر أكثر مما صبرنا على ترك ركن من أركان الإسلام مع قدرتنا عليه. ليست مكة ملكاً لأحد، ولا يحق لأحد أن يمنع المسلمين أو يصد المؤمنين عن أداء فريضة الحج. نريد أن نحج يا عبد العزيز، فإذا منعنا الشريف حسين دخلنا مكّة بالقوة. وإذا كنتم ترون من المصلحة تأجيل الحج في هذا العام فلا بد من غزو الحجاز لنخلص البيت الحرام من أيدي الظالمين المفسدين».

علق ابن سعود على هذا الكلام قائلاً بأن مسألة الحج هي من المسائل التي يرجع الفصل فيها إلى علماء الدين، وها هم العلماء حاضرون فليتكلموا فتكلم أحدهم وهو الشيخ سعد بن عتيق، فذكر أن من أصول الشريعة النظر إلى المصالح والمفاسد، وإذا كان الحج يؤدي إلى ضرر أو مفسدة وجب تأجيله، وهذا أمر يعود الفصل فيه إلى الواقفين على السياسة، وهو ما نريد أن نسألهم عنه. وعند هذا تكلم ابن سعود فقال ما يلي:

«نحن لا نودّ أن نحارب من يسالمنا، ولا نمتنع عن موالاة من يوالينا. ولكن شريف مكة كان دائماً كما تعلمون يزرع بذور الشقاق بين عشائرنا، وهو الوارث من أسلافه بغضنا. ومع ذلك فقد بذلت كل ما في وسعي لحل المشاكل التي بيننا وبين الحجاز بالتي هي أحسن. وكنت كلما دنوت من الحسين تباعد، وكلما لنت له تجافى، أي وربّ الكعبة! ولست أرى في تطوّر الأمور ما ينعش الأمل، بل أرى الأمور تزداد شدّة وارتباكاً. ولا يحسن الاستمرار في خطة لا تعزز حقوقنا ومصالحنا.

لم يكد ابن سعود يتوقف عن الكلام حتى هتف الجميع توكّلنا على الله! إلى الحجاز! إلى الحجاز![1].

---

(1) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص 326 ـ 327.

غارة الأردن:

أعد ابن سعود رتلين: أحدهما وهو الرئيسي وجهه إلى الحجاز، والثاني وجهه إلى شرقي الأردن. والظاهر أن الرتل الثاني كان المقصود منه صرف الأذهان عن حركة الرتل الأول.

وصل الرتل الثاني إلى مقربة من عمان في 14 آب 1924. وفي صباح ذلك اليوم بينما كان الكولونيل بيك قائد القوات الأردنية يتجوّل على فرسه بالقرب من عمان فوجيء بمجموعة من النساء قادمات نحوه وهن يصرخن: «إخوان.. إخوان!»، ولما سألهن بيك عن الخبر قلن له إن الإخوان هاجموا قرية طنب وذبحوا معظم سكانها وهم متوجهون الآن نحو عمان. فأسرع الكولونيل بيك إلى ثكنات الجنود وأمرهم بالتحرك بمصفحاتهم لقتال الإخوان، كما ذهب إلى مقرّ القوة الجوية طالباً إعداد الطائرات لقصفهم. ثم ركب بيك طائرة استكشافية لكي يشرف على المعركة من الجو.

بوغت الإخوان بالنيران تنصب عليهم من المصفحات والطائرات معاً، فتكبدوا من جراء ذلك خسائر فادحة، وفروا لا يلوون على شيء بعد أن تركوا وراءهم خمسمائة قتيل ونحو ستمائة أسير كان كثير منهم جرحى.

إنها في الواقع لم تكن معركة بل كانت بالمذبحة أشبه. وقد انتقد بعض الكتّاب في بريطانيا هذه القسوة البالغة في مواجهة الإخوان، ووصفوها بأنها كانت أكثر مما ينبغي. فردّ عليهم الميجر جارفز قائلاً: إن هذه القسوة كانت ضرورية لإنقاذ سكّان الأردن من الرعب الذي كان مسيطراً عليهم لأن الإخوان في غاراتهم لا يرحمون حتى النساء والأطفال. ويقول جارفز: إن الإنسان حين يواجه عدواً اعتدائياً سفاكاً يجب أن يأخذ بعين الاعتبار كيف سيعامله العدو لو انتصر عليه[1].

كان الأمير عبد الله في تلك الآونة في الحجاز، وقد عاد إلى عمان في

---

(1) Jarvis (Arab Command) London 1924 -p. 115-118.

19 آب ـ أي بعد وقوع المذبحة بخمسة أيام ـ فقدم له الكولونيل بيك أربع من الرايات الخمس التي كان قد غنمها من الإخوان. فسأله الأمير عن مصير الراية الخامسة، فأجابه بيك أنه أخذها لنفسه إذ هي حصته من الغنائم. فضحك الأمير وقال: احتفظ بها فأنت تستحقها[1].

أرسل ابن سعود إلى بريطانيا احتجاجاً على ما فعلت قواتها بالإخوان، وكانت حجّته أن القبائل الأردنية هي التي بدأت بالعدوان. فردّت عليه بريطانيا ببرقية أرسلتها عن طريق قنصلها في بوشهر، حيث قالت للقنصل ما يلي:

«يجب أن تخبر ابن سعود بأن الحكومة البريطانية قد تسلّمت احتجاجه بكل دهشة. إنها تعتبر نفسها هي صاحبة الحق في الاحتجاج على ما جرى في شهر آب الماضي حين قام جمع من القبائل الوهّابية بغارة مسلحة على منطقة تقع تحت الانتداب البريطاني. إن الحكومة البريطانية ملزمة بأن تصد مثل هذه الغارة بكل وسيلة تقع في يدها. إن ابن سعود يمكن أن يكون واثقاً من أن الحكومة البريطانية ستفعل تجاه أية غارة أخرى بمثل ما فعلت تجاه الغارة الأولى... إنه يجب أن يفهم بوضوح أن الحكومة البريطانية لن تتسامح تجاه أي هجوم على منطقة تقع تحت مسؤوليتها. أما بالنظر إلى شكواه حول البادئ بالعدوان فيجب أن تذكّره بالرسالة المرسلة ببرقيتنا في الأول من آب الماضي. فالوهابيون بدلاً من أن يطالبوا بالتحقيق حول الغارة التي زعموا أنها شُنّت عليهم من شرقي الأردن اختاروا أن يأخذوا القانون بأيديهم. إنهم يجب أن لا يلوموا غير أنفسهم لما قاموا به من عمل عدواني سيئ التوجيه أدّى بهم إلى الاصطدام مع القوات البريطانية...»[2].

واقعة الطائف:

حين بلغ الحسين خبر المذبحة التي حلّت بالإخوان في شرقي الأردن استبشر بها كثيراً. إنه لم يكن يدري أن ابن سعود يعدّ العدّة له وهو على وشك

(1) Ibid. p.118.

(2) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10013).

مهاجمته. لقد كان الحسين واثقاً أن الإخوان لو هاجموه سيحلّ بهم مثلما حلّ بهم في شرقي الأردن. يقول أمين الريحاني: إن الحسين كان حينذاك في قصره متوسداً وسادة الخلافة مطمئن البال واثقاً بما تضمره الأيام وهو يدبج المقالات لجريدة «القبلة»، حيث يقول: «نحن نشكر كمالات حكومة بريطانيا العظمى على ما أظهرته من الحمية في الشرق العربي ـ يقصد شرقي الأردن ـ ولكننا مع ذلك لا نتنازل عن حق من حقوقنا.. إن سوريا جزء من البلاد العربية وإن فلسطين للعرب. ولا نوقع معاهدة فيها ما ينفي هذا القول بل هذا الحق... ومن أعرف منا بالبدو وبالمتدينة ـ يقصد الإخوان ـ أن قنبلة من مدفع تبددهم، وطيارة واحدة تشتت شملهم. والبرهان في الشرق العربي»[1].

كان الإخوان يتجمعون في تربة وقد بلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف، وكانوا برئاسة الشريف خالد بن لؤي وسلطان بن بجاد. وفي أواخر شهر آب 1924 تحركوا نحو الطائف فاجتازوا حدود الحجاز، وفي اليوم الأول من أيلول وصلت طلائعهم قرية «الحوية» التي تبعد بضعة أميال عن الطائف. وهناك جوبهوا بقوة نظامية كانت قد أرسلت من الطائف، فنشبت بين الفريقين معركة دامت بضع ساعات كانت الغلبة فيها للإخوان.

انسحبت القوة النظامية نحو الطائف، ورابطت في الهضاب الغربية منها، وقد انضمّ إليها عدد من البدو. وفي مساء 5 أيلول وصل إلى الطائف الأمير علي ومعه سرية من الخيالة وأخرى من الهجانة. ولكنه لم يمكث فيها طويلاً، بل خرج منها في عصر اليوم التالي وعسكر في موضع يدعى «الهدا» قريب منها.

وفي ظهر 7 أيلول اقترب الإخوان من الطائف وصار رصاصهم يقع داخل السور. فساد الذعر في البلدة، وأخذ بعض سكانها والمصطافون فيها يفرون منها، كما انسحب منها وزير الحربية صبري باشا مع جنوده حيث التحقوا بالأمير علي في الهدا، وانسحب كذلك أمير الطائف الشريف شرف مع موظفيه.

---

(1) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص 330.

وعلى أثر ذلك دخل الإخوان إلى البلدة كالسيل الجارف وهم يكبرون ويطلقون بنادقهم في الفضاء، ثم أخذوا يطوفون في أسواق البلدة وأزقّتها وهم يطلقون النيران على كل من يشاهدونه في طريقهم. ثم تطوّر الحال بعدئذ فصار الإخوان يحطمون أبواب البيوت ويدخلونها قهراً، فينهبون ويقتلون. إنهم يعتبرون جميع الناس غيرهم كفاراً حلال دماؤهم وأموالهم. وكان من جملة قتلاهم الشيخ الزواوي مفتي الشافعية وأبناء الشيخ عبد القادر الشيبي سادن الكعبة. ويروي أمين الريحاني أنهم ظفروا بالشيبي نفسه وأرادوا قتله، ولكنه نجا منهم بحيلة، فهو عندما وقع في أيديهم واستلّ أحدهم سيفه عليه ليقتله أخذ يبكي، فسأله الإخواني: «وليش تبكي يا كافر». فأجابه الشيخ: «أبكي والله من شدّة الفرح. أبكي يا إخوان لأني قضيت حياتي كلها في الشرك والكفر، ولم يشأ الله أن أموت إلّا مؤمناً موحداً. الله أكبر! لا إلٰه إلّا الله!». وقد أثّر هذا الكلام في الإخوان وبكوا لبكاء الشيخ، ثم صاروا يقبلونه ويهنئونه بالإسلام[1].

كان الأمير علي ومن معه قد انسحبوا إلى عرفات، وحين علم الحسين بذلك غضب على الأمير غضباً شديداً، وأمره بالعودة لاسترجاع الطائف. وفي 26 أيلول التقى الفريقان في الهدا فوقعت معركة عنيفة استمرّت بضع ساعات كانت الغلبة فيها للإخوان.

الحسين يتنازل:

عندما وصل إلى مكة خبر الهزيمة التي حلّت بجيش الحسين في الهدا انتشر الرعب والذعر بين الأهالي إذ كانوا يخشون أن تحلّ بهم مذبحة كمذبحة الطائف، وأخذوا يفرون إلى جدة، وسار الكثير منهم على الأقدام لكثرة الفارين وقلّة وسائل النقل. فاكتظت بهم جدة.

كان الحسين يظن أن الإنكليز سيتدخلون لإنقاذه على نحو ما فعلوا في

---

(1) المصدر السابق ـ ص 333.

شرقي الأردن في الشهر الماضي. فأرسل في 26 أيلول برقية إلى المستر بولارد القنصل البريطاني في جدة ذكر فيها: إن الحالة حرجة، وإن علاقته بالحكومة البريطانية تجعله يطلب منها الاهتمام بصد ابن سعود لتجنّب ما وقع في الطائف، وهو يأمل منها النظر في طلبه بأسرع ما يمكن. فأبرق القنصل بهذا الطلب إلى حكومته في لندن، فعاد الجواب منها في 28 منه مفاده: إن الحكومة البريطانية متمسكة بسياستها التقليدية في عدم التدخل في الأمور الدينية، وهي لذلك لا تريد أن تتدخل في أي نزاع بشأن امتلاك الأماكن المقدسة في الإسلام[1].

وفي الوقت نفسه كتب الدكتور ناجي الأصيل مندوب الحسين في لندن إلى وزارة الخارجية البريطانية يقول لها: إن صاحب الجلالة الهاشمية يناشد الحكومة البريطانية طبقاً لروح المعاهدة التي هي تحت المفاوضة أن تتدخل لوضع حد للاعتداء الوحشي الذي يقوم به الوهّابيون ضد الأماكن المقدسة وإخراجهم من الطائف. فأجابته وزارة الخارجية البريطانية قائلة: إن الحكومة البريطانية لا تريد أن تتورط في النزاع القائم بين أمراء عرب مستقلين حول امتلاك الأماكن المقدسة في الإسلام. وقد ألقى رئيس الوزارة البريطانية بياناً بهذا المعنى في مجلس العموم البريطاني.

رد الأصيل على جواب وزارة الخارجية في 2 تشرين الأول أشار فيه إلى ما قام به شعب الحجاز من مخاطرة كبرى في تأييد بريطانيا في الحرب العامة، وهو لذلك يتوقع من بريطانيا مساعدته في إنقاذ مكّة من ويلات الحرب. وذكر الأصيل كذلك أن العالم الإسلامي لا يرضى أن تقع الأماكن المقدسة، ولو لفترة قصيرة جداً، في أيدي طائفة كالوهابية، وهو ينظر بعين الخشية إلى احتمال غزو مكة من قبل سلطان نجد وأتباعه[2].

والغريب أنه بينما كان الحسين يناشد بريطانيا لإنقاذه من الوهابيين، كان

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10014).
(2) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10014).

بعض الأهالي في جدة يناشدونها لإنقاذهم من الحسين نفسه. يقول القنصل البريطاني في جدة في تقريره السري إلى حكومته: إن اثنين من كبار تجار جدة جاءا إليه مطالبين بأن يكون الحجاز تحت حماية بريطانيا أو انتدابها، فرفض القنصل تلبية طلبهما. ثم يقول القنصل: إن الرأي السائد بين أهالي جدة هو أنهم كانوا في العهد التركي مرتاحين على الرغم من تعسّف الأتراك، إذ كان لديهم شيء من الحرية في ممارسة حرفتهم لاستغلال الحجاج، ولم يكن لديهم أي اهتمام فيما يخصّ شؤون الدفاع عن البلاد، ثم جاءت بريطانيا أخيراً فطردت الأتراك من البلاد وأقامت فيها حكماً أشدّ تعسفاً من الأتراك كما وضعت مسؤولية الدفاع عنها على أهلها. إن الأهالي يريدون الآن من بريطانيا أن تدافع عنهم بعد أن تحطمت وسائل دفاعهم، وأن تنقذهم من حكم الحسين الذي كان السبب المباشر لهجوم الوهّابيين[1].

وفي 3 تشرين الأول وصل إلى جدة الأمير علي مرسلاً من أبيه فدعا إليه أعيان جدة وأعيان مكة الذين لجأوا إليها. وقال لهم: إن الموقف يدعو إلى اليأس وإن أباه مستعد للتنازل عن العرش إذا كان ذلك يؤدي إلى تحسين الموقف. فطلب الأعيان مهلة ساعة للتداول في الأمر، وبعد المداولة قرروا قبول تنازل الحسين عن العرش وتولية ابنه علي مكانه. وقد رفض الأمير علي قبول العرش، فأصرّوا عليه، وأبرقوا حالاً إلى الحسين يطلبون منه التنازل لابنه علي وذلك لإنقاذ الحرمين الشريفين من الكارثة وإنقاذ الشعب من الفوضى. فأجابهم الحسين بهذه البرقية: «مع الممنونية والشكر. وهذا أساس رغبتنا التي أصرح بها منذ النهضة وإلى تاريخه. وقد صرّحت قبله بدقائق أني مستعد لذلك بكل ارتياح إذا عينتم غير علي. وإني منتظر هذا بكل سرعة وارتياح ـ حسين».

كان الأعيان لا يزالون مجتمعين عندما وصلتهم البرقية. فقرروا الاتصال به مباشرة بالتلفون. فتناول أحدهم التلفون وأخذ يخاطب الحسين، ولكن

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10015).

الحسين رفض التكلم معه قائلاً له: «أنت من رجال حكومتي فليكلمني غيرك». ولما تناول رجل آخر منهم التلفون رفض الحسين التكلم معه كذلك. وعند هذا تناول التلفون طاهر الدباغ فجرت بينهما المحاورة التالية:

الدباغ: «مولاي بناءً على المركز الحرج الذي وصلت إليه البلاد قررت الأمة تنازل جلالتكم لسمو الأمير علي...».

الحسين (مقاطعاً): «أنا وابني شيء واحد. وإذا كنت أنا قد صرت عندكم بطّال فلا بأس. ولكن لا أفهم ما القصد من هذا. لا يهمني أمر الملك في أي شخص كان. ولكني لا أتنازل لولدي علي أبداً. لأني إذا كنت أنا بطّال فولدي بطّال».

الدباغ: كلا يا مولاي. لا ننسب لجلالتكم شيئاً من ذلك. وإنما نريد أن نسلك سياسة غير السياسة التي سرتم عليها، عسى أن نتمكن من تخليص البلاد من مأزقها الحرج. والأمة قد أجمعت على طلب ذلك من جلالتكم، ونرجو إجابة رغبتها».

الحسين: «يا ابني لكم أن تفعلوا ما تشاؤون. أما أنا فلا أتنازل لولدي أبداً. عندكم الشريف علي أمير مكة السابق، وأخي ناصر، وعندكم خديوي مصر عباس حلمي، وعندكم الأشراف كثيرون. اختاروا أي واحد تشاؤون، وأنا مستعد للتنازل له. أما ولدي فلا يمكن لأني أنا وهو شيء واحد. خيره وشره عائدان لي».

الدباغ: «قد أجمعت الأمة يا مولاي على اختيار الأمير علي ولا ترغب...».

الحسين (مقاطعاً): «لا يمكن أن أتنازل لولدي أقول لا يمكن قطعاً».

الدباغ: «سأخبر الهيئة ثم نعلم جلالتكم»[1].

كان الأمير علي في أثناء ذلك قد زار القنصل البريطاني وسأله هل في

---

(1) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص 337 ـ 338.

مقدوره الاعتماد على مساعدة الحكومة البريطانية في حالة قبوله العرش، فكان جواب القنصل له بالنفي. وعاد الأمير علي إلى هيئة الأعيان وأعلن لهم أنه لن يقبل العرش لأن الوضع لا أمل فيه وأنه لا يرغب أن يكون ملكاً لمدة يومين أو ثلاثة. وعند هذا قرر الأعيان انتداب أربعة منهم لمقابلة القنصل البريطاني، وكان الوقت آنذاك في ساعة متأخرة من الليل فسار المندوبون الأربعة نحو القنصلية وخلفهم جمهور غفير من الناس. وحين اجتمعوا بالقنصل ذكروا له أن الأمير علي رفض قبول العرش، وأنهم لهذا لا يملكون وسيلة سوى طلب الرحمة من بريطانيا، وعرضوا على القنصل: إما أن تضع بريطانيا الحجاز تحت حمايتها أو انتدابها، أو تتدخل لمنع ابن سعود من احتلال مكة، أو تؤيد الأعيان في مفاوضاتهم مع الوهّابيين لكي يمتنعوا عن المذابح، أو تقوم بأي عمل ينقذهم «باسم الإنسانية». فأجابهم القنصل أنه غير مخوّل من قبل حكومته أن يفعل أي شيء مما ذكروه[1].

عاد المندوبون الأربعة من القنصلية خائبين، واضطروا إلى الإلحاح من جديد على الأمير علي لكي يقبل العرش. فوافق الأمير أخيراً على طلبهم. وأرسلوا إلى الحسين في مكة برقية تتضمن ما يشبه الإنذار له، وهذا نصها: «الحالة حرجة جداً، وليس الوقت وقت مفاوضات. فإذا كنتم لا تتنازلون للأمير علي فنترحم بلسان الإنسانية أن تتنازلوا جلالتكم لتتمكن الأمة من تشكيل حكومة مؤقتة. وإذا تأخرتم عن إجابة هذا الطلب فدماء المسلمون ملقاة على عاتقكم».

ظل الأعيان ساهرين في تلك الليلة ينتظرون الجواب. وفي الساعة الرابعة من صباح 4 تشرين الأول وصل الجواب وفيه يقول الحسين: إنه قبل التنازل بكل ارتياح، وإذا قبل الأمير علي فيجب أن تعيّنوه رأساً، فالحالة تقتضي السرعة وإذا تأخّرتم فأنتم المسؤولون![2].

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10015).

(2) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص 339.

سقوط مكة:

جرى الاحتفال في جدة بمبايعة الأمير علي ملكاً للحجاز، وكان الاحتفال بسيطاً للغاية، وقد تقرر فيه أن يكون علي ملكاً دستورياً ينزل على رأي الأمة في تحقيق آمالها ورغباتها، وأن يكون للبلاد مجلس نيابي ينتخب أعضاؤه من جميع أنحاء الحجاز بموجب قانون أساسي تضعه جمعية تأسيسية كما هو جاري في البلاد المتمدنة.

وأوعز الملك علي بتأليف وزارة على الطريقة الدستورية، فجرى تأليفها بالشكل التالي: عبد الله سراج رئيساً، تحسين الفقير وزيراً للحربية، طاهر الدباغ وزيراً للمالية، خالد الخطيب وزيراً للصحّة، محمد طويل وزيراً للرسوم، عبد القادر غزاوي وزيراً للمواصلات عارف الأدلبي وزيراً للبحرية، محمد بن منصور وزيراً للداخلية، فؤاد الخطيب وزيراً للخارجية[1].

غادر الملك علي إلى مكة على أثر تأليف الوزارة، لإعداد قواته للدفاع عنها. أما أبوه الحسين فكان قد قرر مغادرة البلاد، ولهذا أرسل في مقدمته قافلة من الجمال تحمل أمتعته وأمواله بحراسة عدد من عبيده المخلصين، وقيل إنها كانت تحمل مائة وستين ألف ليرة ذهب موضوعة في أربعين صفيحة من صفائح النفط[2]. وحين خرجت القافلة من مكة أخذ بعض الغوغاء يودعونها بكلمات نابية[3].

وفي 9 تشرين الأول غادر الحسين مع حرمه وعبيده إلى جدة، ومكث فيها ستة أيام معتزلاً الناس لم يقابل أحداً منهم. وعند انتهاء الأيام الستة أرسل إلى رئيس الوزارة الجديدة بلاغاً احتجّ فيه على الحكومة الدستورية قائلاً: «أما الحكومة الدستورية، سيما في الحرمين الشريفين، فالعمل فيها ينبذ

---

(1) صلاح الدين المختار (تاريخ المملكة العربية السعودية) - بيروت ج 2 ص 304.

(2) أمين الريحاني (المصدر السابق) - ص 340.

(3) صلاح الدين المختار (المصدر السابق) - ج 2، ص 306.

أحكام كتاب الله وسُنّة رسوله. إن العمل في البلاد المقدسة بالقوانين البشرية لمما تأباه شعائر الإسلام وفرائض الدين والأخلاق الشريفة مادة ومعنى».

وفي مساء 15 منه غادر الحسين جدة على ظهر باخرة له تُدعى «الرقمتين»، وهي باخرة صغيرة شبيهة باليخت كان قد اشتراها من اليونان منذ وقت ليس ببعيد. يُروى أنه عندما شاهدها لأول مرة عقب شرائها أعجب بها وقال: سوف نسافر بها في يوم من الأيام سفرة بعيدة[1]. وقد تحققت نبوءته.

لم يبق الملك علي في مكة سوى أسبوع واحد. إنه أدرك أن القوات التي لديه في مكة لا تكفي للدفاع عنها فقرر الانسحاب منها إلى جدة. وفي مساء 14 تشرين الأول غادر مكة مع قواته التي لم تكن سوى مائتين من الجنود ومثلهم من الشرطة.

كان قائد الجيش الهاشمي رجل عراقي هو صبري باشا العزاوي وقد اختلفت الأقوال في مصيره. فمنهم من يقول إنه انسحب مع الحسين، ولكن فيلبي يخالف ذلك حيث يقول: «لقد ذاب جيش الملك حسين في الهواء منذ المعركة الأولى وكان قائده السابق صبري باشا البغدادي الأصل أول من فرّ من الميدان»[2]. ويقول القنصل البريطاني في تقريره: إن صبري باشا كان مكلفاً بتعطيل المدافع الموجودة في مكة لكي لا يستفيد منها العدو، غير أنه تركها من غير تعطيل وهرب، وقد وقعت المدافع بعدئذ غنيمة باردة في أيدي الإخوان فاستفادوا منها فائدة كبرى[3].

حين علم الإخوان بانسحاب الملك علي من مكة، أرسلوا إليها أربعة رجال منهم وهم عزل من السلاح. ولما وصل هؤلاء الأربعة إلى مكة وجدوا شوارعها خالية، وقد سدت مداخلها بالحواجز، كما وجدوا الحوانيت مقفلة.

---

(1) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص 340 ـ 341.

(2) خيري حماد (عبد الله فيلبي) ـ بيروت 1961 ـ ص 160.

(3) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10807).

فأخذوا يطوفون البلدة على خيولهم وهم ينادون «الأمان ـ الأمان!». وفي 16 تشرين الأول دخل الإخوان إلى مكة وهم بلباس الإحرام، فطافوا حول البيت وسعوا بين الصفا والمروة. فاستقبلهم أهل مكة بالحفاوة والترحيب![1].

عُين خالد بن لؤي حاكماً على مكة، وانطلق الإخوان إلى دور الحكومة والأشراف فنهبوها وعرضوها للبيع. وجاء بعض أهل مكة إليهم يدلونهم على دور أخرى كان أصحابها قد فرّوا من مكة، فصار الإخوان ينهبونها ويعرضونها للبيع أيضاً[2].

ثم انطلق الإخوان إلى القباب المقدسة فهدموها، كالقبة المقامة على قبر خديجة ودار النبي. وفرضوا على السكان حضور صلاة الجماعة خمس مرات في اليوم، كما منعوا التدخين وقراءة المولد النبوي، وزيارة القبور، ومن يشاهدونه يفعل ذلك يشتمونه ويضربونه، وربما ساقوه إلى الحبس أو فرضوا عليه الغرامة. وحين نصب الجاويون سرادق لتلاوة المولد النبوي كعادتهم في كل عام، جاء الإخوان إليهم فطردوهم ونعتوهم بـ «المشركين»، وهدموا السرادق. وحين ذهب اثنان من الهنود لزيارة قبر خديجة ألقي القبض عليهما وأودعا الحبس، ولم يُطلق سراحهما إلّا بعد أن جاء المنشي إحسان الله كاتب القنصلية البريطانية في جدة فدفع غرامة خمسة دولارات عن كل واحد منهما، فأطلق سراحهما[3].

ابن سعود يتردد:

كان ابن سعود في الرياض عندما وصلته أخبار سقوط الطائف في أيدي الإخوان. وفي 11 تشرين الثاني 1924 غادر الرياض متوجهاً إلى الحجاز على رأس جيش يبلغ تعداده خمسة آلاف رجل، ولكنه كان قلقاً متردداً، إذ كان

(1) صلاح الدين المختار (المصدر السابق) ـ ج 2، ص 310.
(2) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص 370.
(3) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10808).

يخشى أن يأتيه إنذار من بريطانيا على نحو ما حدث في عام 1919 عقب واقعة تربة. أنه لم يكن يرغب في محاربة الإنكليز على أي حال، لأنهم يملكون الطائرات والمصفحات بينما هو لا يملكها، وربما جرى عليه في الحجاز مثلما جرى على الإخوان في شرقي الأردن.

وبينما كان ابن سعود في طريقه إلى الحجاز وصلته صحف من العراق وفيها خبر سقوط وزارة العمال في إنكلترا، وتشكيل وزارة جديدة من المحافظين. فأسرع أحد مستشاريه ـ والمظنون أنه يوسف ياسين ـ فاختلى به وذكر له أن وزارة المحافظين الجديدة سوف تتبع تجاه القضايا العربية سياسة جديدة تختلف عن سياسة الوزارة العمالية السابقة، وأن أول أعمالها سيكون المحافظة على حكم الأشراف في الحجاز.

اضطرب ابن سعود عند سماعه هذا القول، وأرسل يستدعي إليه مستشاريه الآخرين اللذين كانا يرافقانه في الحملة وهما: حافظ وهبة المصري وعبد الله الدملوجي العراقي. وحين دخل عليه هذان الرجلان وجداه واجماً مغموماً فسألهما عن الأخبار ثم قال: «هل للمحافظين تأثير في موقفنا؟ هل يؤيدون الأشراف؟». فأجابه حافظ وهبة: إن السياسة الخارجية الإنكليزية ثابتة تقريباً لأن الذين يصنعونها موظفون دائميون وأن الأحزاب الإنكليزية على اختلافها تنفذ ما يصنعه أولئك الموظفون وقلما تغيره تغيراً تاماً. لم يقتنع ابن سعود بصحّة هذا القول وبدت عليه إمارات الشك والتردد، وسأل حافظ وهبة: «هل أنت متحقق مما تقول؟»، فأجابه حافظ بأنه متحقق كل التحقق.

وأخذ حافظ يحاول إقناع ابن سعود بأن لا يتردد في عزمه وأن يواصل الزحف نحو الحجاز، حيث قال له: «إذا كنت في شك من أمرك فخير لك أن ترجع إلى بلدك، وإن كنت واثقاً بالله الذي وعد المؤمنين بالظفر والتأييد فسر في طريقك ولا تتردد. لا تشغل بالك يا مولاي بهذه الشكوك. إن بريطانيا لا يهمها إلّا المحافظة على رعاياها ومصالحها، وسيان عندها الشريف حسين أو ابن سعود. لقد كانت لها آمال كبيرة في الملك حسين، فأنذرتك في سنة

1919، أما الآن فقد تغيّرت الحال، وخابت جميع آمالها فيه، فسر على بركة الله ولا تتردد، إن الله مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون. فقال ابن سعود: «توكّلنا على الله، ولعنة الله على فلان ـ يقصد المستشار الأول ـ الذي بلبل أفكاري، وأسلمني إلى الشك والتردد».

وبعد مرور أربعة أيام من ذلك وصل إلى ابن سعود بريد الحجاز وهو يحمل كتباً من جميع قناصل الدول في جدة يعلنون فيها حياد دولهم في الحرب القائمة في الحجاز ويحمّلون الفريقين مسؤولية ما يقع على رعاياهم من ضرر أو اعتداء. فكان لهذه الكتب وقع حسن لدى ابن سعود وبشارة خير للمستقبل[1].

علماء مكة يوافقون:

وصل ابن سعود مع جيشه إلى مكة في 4 كانون الأول 1924. وفي اليوم التالي استعرض الجيش، ثم جاء الإخوان لتحيته فقبلوا أنفه وجبينه على عادتهم، وجاء من بعدهم أعيان مكة وتجارها وأرادوا تقبيل يده على عادتهم فمنعهم من ذلك وقال: «المصافحة من عادات العرب، أما عادة التقبيل فقد جاءتنا من الأجانب ونحن لا نقبلها»[2].

وبعد أن انتهى ابن سعود من النظر في مشاكله الآتية، استدعى إليه الشيخ عبد القادر الشيبي وطلب منه دعوة علماء مكة للاجتماع به. فاجتمع العلماء به في اليوم التالي وألقى ابن سعود عليهم كلمة قال في ختامها ما يلي:

«والآن أنا بذمتكم وأنتم بذمّتي. إن الدين نصيحة. وأنا منكم وأنتم مني. وهذه عقيدتنا في الكتب بين أيديكم. فإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فردونا عنه، وسلونا عمّا يشكّل عليكم فيها. والحكم بيننا وبينكم كتاب الله وما جاء في كتب الحديث والسُنّة... إننا لم نطع ابن عبد الوهاب وغيره إلا في ما أيّدوه بقول من كتاب الله وسُنة رسوله. أما أحكامنا فهي طبق اجتهاد

(1) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص 61 ـ 63.

(2) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص 373.

الإمام أحمد بن حنبل. إذا كان هذا مقبولاً عندكم تعالوا نتبايع على العمل بكتاب الله وسُنة رسوله وسُنّة الخلفاء الراشدين من بعده».

حين انتهى ابن سعود من كلامه صاح بعض الحاضرين: «كلنا نبايع». فرد عليهم ابن سعود: «قولوا لنا بصريح القول ما عندكم». فقالوا: «ما عندنا غير هذا». فقال ابن سعود: «أعيذكم بالله من التقية، فلا تكتموا علينا شيئاً». فقال أحد الحاضرين: «اجمعنا بعلماء نجد يا حضرة الإمام فنتباحث وإياهم في الأصول والفروع ونقرر ما نتفق عليه إن شاء الله». فوافق ابن سعود على هذا الرأي وقال: «زين، قريباً تجتمعون».

وفي 8 كانون الأول اجتمع خمسة عشر من علماء مكة، وسبعة من علماء نجد، وبعد المناقشة والمباحثة فيما بينهم اتفقوا على صحّة المذهب الوهّابي. ثم أصدر علماء مكة بياناً ورد فيه ما نصّه:

«قد حصل الاتفاق بيننا وبين علماء نجد في مسائل أصولية، منها: من جعل بينه وبين الله وسائط من خلقه يدعوهم ويرجوهم في جلب نفع أو دفع ضرّ، فهذا كافر يستتاب ثلاثاً فإن تاب وإلّا قُتل. ومنها: من سأل الله بجاه أحد من خلقه فهو مبتدع مرتكب حراماً. في هذه المسائل تباحثنا واتفقنا فاتفقت بذلك العقيدة بيننا معاشر علماء الحرم الشريف وبين إخواننا علماء نجد»[1].

إن هذا الاتفاق الذي حصل في مكة يشبه من بعض الوجوه ذلك الاتفاق الذي حصل بين علماء الشيعة والسُنّة في مؤتمر النجف عام 1743. فكلاهما قد حصل وفقاً لرغبة سلطان قاهر، ولولا رغبة السلطان لاختلاف العلماء فيما بينهم وتنازعوا وكفّر بعضهم بعضاً. إن الإنسان لا يتنازل عن رأي أو عقيدة تحت تأثير الجدل والدليل المنطقي وحده. فالدليل المنطقي لا يقنع إلّا صاحبه، أما في نظر خصمه فهو دليل تافه سخيف[2].

---

(1) المصدر السابق - ص 372 - 474.

(2) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب - بغداد 1969 - ص 134 - 137.

الفصل السادس

أيام الملك علي

أيام الملك علي

استغرق حكم الملك عليّ في الحجاز نحو خمسة عشر شهراً، وهو يمثل فترة عجيبة من الزمن مليئة بالعبر والدروس الاجتماعية وسنحاول في هذا الفصل ذكر بعض هذه الدروس بإيجاز.

خط الدفاع:

يذهب الخبراء العسكريون إلى القول بأن الإخوان لو كانوا قد زحفوا على جدة عقب احتلالهم مكة لاستولوا عليها بكل سهولة، ولسقطت حكومة الملك عليّ وتمّ الأمر لابن سعود في الحجاز كله، ولكن الإخوان توقفوا عن الزحف بناءً على الأوامر التي وصلتهم من ابن سعود. فقد كان ابن سعود يخشى أن تقع مذبحة في جدة كالتي وقعت في الطائف وربما أدّى ذلك إلى تدخل الدول الأجنبية وانتكاس الأمر عليه. يقول حافظ وهبة في مذكراته: «وعندما وصلت إلينا الأخبار عن دخول الإخوان مكة، وقد كان دخول مكة خارجاً عن الخطة المرسومة لهم، أخبرت الملك عبد العزيز أن الواجب يقضي عليه أولاً بمنع الإخوان من الهجوم على جدة خشية أن يقع في جدة ما وقع في الطائف فتكون العاقبة وخيمة، وأن الواجب يقضي عليه ثانياً بأن يسافر حالاً إلى الحجاز ليشرف بنفسه على الحالة هنالك، وليعرف الناس بنفسه، وليطمئن الحجازيين، ويزيل من نفوسهم الأثر السيئ من مأساة الطائف»[1].

---

(1) حافظ وهبة (خمسون عاماً في جزيرة العرب) ـ القاهرة 1960 ـ ص 60.

كان توقف الإخوان عن الزحف على جدة فرصة ثمينة للملك علي لكي يحصن بها جدة ويقوّي وسائل الدفاع فيها. والواقع أن الملك علي استغل تلك الفرصة بأقصى جهده، وقد ساعده في ذلك رجلان، أولهما تحسين باشا الفقير وزير الحربية، وهو ضابط شامي أرسله الأمير عبد الله لمساعدة أخيه، وكان من ضباط الجيش العثماني وقد قاتل في خط «شطالجة» لحماية اسطنبول في حرب البلقان، ولما وصل إلى جدة أخذ يبذل جهده لإنشاء خط دفاعي حولها على شاكلة خط «شطالجة». أما الرجل الثاني فهو نورس بك، وهو مهندس عسكري تركي، وقد أبدى براعة ودأباً في إقامة الخط الدفاعي، واعتبر في حينه «دماغ الجيش المفكر».

تم إعداد الخط الدفاعي على شكل قوس يبتدىء من ساحل البحر في شمال جدة. وينتهي إليه في جنوبها. وقد بلغ طوله ستة أميال، يحرسه عشرون مدفعاً وما يزيد على الثلاثين رشاشاً. ونصبت الأسلاك الشائكة أمامه على أعمدة قصيرة تحيط بها الألغام المدفونة، كما وضعت فوقها الأنوار الكشافة.

كان الجيش الهاشمي في جدة خليطاً من فئات شتّى، فكان فيه حجازيون من البدو ومن بعض القرى، كما كان فيه يمانيون وهم من سكنة الحجاز ولكنهم من أصل يماني. وأخذ الأمير عبد الله يرسل إلى جدة المتطوعين الذين جمعهم في شرقي الأردن. فوصلوا على دفعات، وكان معظمهم من الفلسطينيين والسوريين والأردنيين، وقليل منهم مصريون وهم من بقايا فرقة العمل الذين خدموا الجيش البريطاني خلال الحرب وبقوا في فلسطين بعدها. وقد انضمّ إلى هؤلاء بعدئذ عدد من الصعاليك من سكان جدة وهم من السودانيين والصوماليين والزنوج. وقد بلغ مجموع أفراد الجيش الهاشمي في جدة ـ حسب تقدير خير الدين الزركلي ـ نحو 1650 رجلاً[1].

كان الإخوان يحيطون بجدة من جهاتها البرية الثلاث. وكان عددهم بين

---

(1) خير الدين الزركلي (شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز) ـ بيروت 1977 ـ ج 1 ص 345.

خمسة وستة آلاف. وجاء ابن سعود لكي يشرف بنفسه على سير القتال، فخيّم في شمال الرغامة التي تبعد عن جدة بخمس وعشرين دقيقة.

لم يجلب ابن سعود معه مدافعه من الرياض، ولكنه انتفع من المدافع التي استحوذ عليها في مكة، وكانت عشرين مدفعاً وذات مدى أبعد من مدافع جدة وقد استخدم لتشغيلها الضباط الذين كانوا في خدمة الجيش الهاشمي سابقاً[1]. فوجهها على جدة وصار يقصفها ويقصف الخنادق المحيطة بها. وقد سقطت إحدى القنابل على دار القنصل البريطاني فاخترقت جدار غرفة نومه، ودخلت أخرى إلى مكتبه، وأصابت ثالثة دار القنصل السوفيتي وكسرت العلم المنصوب فوقها[2].

اعتاد الإخوان أن يهاجموا الخط الدفاعي في الليالي المظلمة، وذلك لغرضين: ليلقوا الرعب والذعر في قلوب الأهالي بغية إثارتهم على الحكومة أولاً، وليحملوا الجنود على الإسراف بالذخيرة ثانياً. وكان بعض الإخوان حين يقتربون في هجومهم من الخط ينادون حراسه قائلين: «يا إخوانا يا أهل الشام، ويا شمر، ويا حرب، ويا عقيلات، اخرجوا من الخط وأنتم في وجه الله ووجه ابن سعود. لا تخافوا. والله ما نريد لكم إلّا الخير. تعالوا إلينا ونحن إخوانكم، والله والله»[3].

كان الملك علي في بداية الأمر متفائلاً وواثقاً من أنه بما لديه من طائرات ومصفّحات قادر على قهر الإخوان وطردهم من الحجاز. وكان وزير حربيته تحسين باشا أكثر تفاؤلاً وثقة منه. يروي أمين الريحاني قصة شهدها بنفسه في أوائل كانون الثاني 1925 حين بدأت طلائع الإخوان تقترب من جدة، فقد دخل تحسين باشا ومعه زميله وزير البحرية عارف باشا الإدلبي على الملك علي، وكانت سيماء الغضب والاضطراب تبدو على وجهيهما، فقال

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10807).

(2) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) ـ بيروت 1954 ـ ص 409.

(3) المصدر السابق ـ ص 407.

أحدهما: «علمنا أن الإخوان مشوا من بحرة وقريباً يصلون إلى الرغامة». وقال الآخر: «يجب أن نرسل عليهم الطيارات، لعنهم الله ولعن أجدادهم». ثم قالا معاً: «غداً صباحاً نرسل الطيارات كلها عليهم فتمطرهم النار والرصاص وتفنيهم إن شاء الله». ثم أخذ الوزيران ينتقدان بشدة محاولات الصلح التي كان الريحاني وغيره يقومون بها. فقال تحسين باشا: «هذه المساعي السلمية تحول دون تنفيذ خطتنا العسكرية». وقال عارف باشا يخاطب الملك: «بل أفسدت علينا خطتنا وأضرت بمصلحة جلالتكم ومصالح البلاد»[1].

كان في معية الملك علي ضابط عراقي كبير هو جميل باشا الراوي، وهو ابن عم إبراهيم الراوي الذي تحدثنا عنه في واقعة تربة. والمعروف عن هذا الضابط أنه كان يختلف عن تحسين باشا الفقير بكونه أكثر واقعية منه، وكان كثيراً ما ينصح الملك علي بخلاف ما ينصحه به تحسين باشا. يقول القنصل البريطاني في تقريره السري إلى حكومته حول هذا الموضوع ما يلي: «كانت القيادة الحجازية العسكرية مؤلفة من ثلاثة أشخاص بصورة رئيسية هم: تحسين باشا السوري الذي كان وزيراً للحربية وقائداً للجيش، وجميل باشا القائد البغدادي الذي كان ملحقاً بالملك علي، والملك نفسه. والظاهر أنه ليس هناك أي بغدادي يوافق أي سوري. وكان الملك يتمايل من جانب إلى آخر بمثل السرعة والانتظام الذي يتحرك به بندول الساعة، ولهذا كان هناك ضعف في الانسجام والهدف لدى القيادة»[2].

صدرت في مكة جريدة باسم «أم القرى» بدلاً عن جريدة «القبلة» التي كانت تصدر في عهد الحسين. وكان يحررها يوسف ياسين، والغرض منها الدعاية لابن سعود وتشويه سمعة الأشراف وذكر مثالبهم ومثالب الحسين بوجه خاص. وفي كانون الأول 1924 أصدرت الحكومة الهاشمية في جدة جريدة باسم «بريد الحجاز» لكي ترد على جريدة «أم القرى» وتكيل لها بصاعها. وفي

---

(1) المصدر السابق ـ ص 393.

(2) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10807).

18 كانون الثاني 1925 نشرت جريدة «بريد الحجاز» بياناً طويلاً من الملك علي ذكر فيه أنه موشك على الزحف على مكة لتحريرها، وطلب من أهل مكة الصبر قليلاً وتحمل مشقة الحصار الذي ستفرضه الحكومة الهاشمية عليهم[1].

الأصيل مثابراً:

إن الدكتور ناجي الأصيل ظل يمثل الحجاز في لندن في عهد الملك علي، كما ظل يواصل السعي لعقد المعاهدة مع بريطانيا ويطلب منها إنجاد الحكومة الهاشمية ضد ابن سعود. كتب القنصل البريطاني في جدة إلى حكومته يقول: إن الملك علي لم يكن يحمل انطباعاً حسناً عن ناجي الأصيل، وكان يعتقد أن لا فائدة منه في لندن ولكن لا بأس من بقائه فيها إلى أن ينفد المال الذي أخذه من الحسين[2]. ويقول القنصل: إن مجموع ما أخذه الأصيل من الحسين بلغ خمسة عشر ألف باون، وهو مبلغ ضخم يكفيه نحو ثلاث سنوات[3].

في 13 تشرين الأول 1924 كتبت وزارة الخارجية البريطانية إلى ناجي الأصيل كتاباً تقول فيه: إن الحكومة البريطانية ليست مستعدة للدخول في مفاوضات جديدة مع الحكومة الهاشمية حول تعديل مسودة المعاهدة. فأجابها الأصيل في كتاب قال فيه إنه مخوّل بسلطة تامة للتوقيع على المعاهدة التي أراد الملك السابق إدخال تعديلات عليها، وذكر الأصيل أن تعديلات الملك السابق أصبحت الآن لا أهمية لها، وأن الملك علي غير ملزم بها، ولذلك فهو يرجو من الحكومة البريطانية أن تتدخل لإنهاء الفراغ القائم الآن بين الحجاز ونجد، وأنه يرجو أن يحصل على الجواب بالسرعة الممكنة[4].

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10807).
(2) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10808).
(3) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10807).
(4) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10014).

وبعد خمسة أيام من كتابه هذا الكتاب كتب الأصيل كتاباً آخر أطول منه إلى وزارة الخارجية البريطانية ذكر فيه أن الملك علي خوّله لكي يرجو من الحكومة البريطانية التدخّل لردع الوهابيين حسب روح المعاهدة. وأشار الأصيل إلى أن المعاهدة التي جرى التفاوض حولها أصبحت ملزمة وإن لم يتم التوقيع عليها، كما أشار إلى الحلف الذي قام سابقاً بين بريطانيا ومؤسس البيت الهاشمي، وكيف تعهدت فيه بريطانيا باحترام استقلال العرب وتأييده. وذكر الأصيل كيف أن بريطانيا أعلنت الحرب على ألمانيا في عام 1914 لمجرد أن ألمانيا انتهكت معاهدة كانت بريطانيا قد وقّعت عليها، فهي إنما قامت بهذا العمل العظيم في سبيل الشرف والعدالة. ثم تطرّق الأصيل إلى الحجة التي تذرّعت بها بريطانيا لعدم التدخل في النزاع القائم في الحجاز باعتبار أنه نزاع حول قضايا دينية، فقال إن النزاع في الواقع ليس دينياً، فليس هناك دين على وجه الأرض يسمح بسفك الدماء البريئة وقطع الطرق والقيام بالمذابح الجماعية. إن الوهابية هي حركة سياسية وليست دينية، إنها بلشفية في أبشع صورها، وغريبة عن الإسلام في كل وجه من الوجوه. ثم ذكر الأصيل أن الملك علي إنما انسحب من مكة ليس من جرّاء هزيمة حلّت بجيشه بل إنه أراد حقن الدماء في تلك البلدة المقدسة، ولهذا فهو يناشد الحكومة البريطانية بحقوق المعاهدة التي بينه وبينها، والمواعيد السابقة التي أعطيت لصاحب الجلالة الهاشمية، أن تتخذ الإجراءات العاجلة لإنقاذ أرواح الآلاف من الأنفس البريئة، ولضمان انسحاب الوهّابيين من مكة والطائف[1].

لم تثمر هذه الجهود التي بذلها ناجي الأصيل شيئاً، وظلت الحكومة البريطانية متمسكة بموقفها الحيادي تجاه النزاع القائم في الحجاز لم تتزحزح عنه. وقد أصبح موقف الأصيل حرجاً، فهو لا يستطيع أن يؤثر في الحكومة البريطانية من جهة، وهو لم يتسلّم من الملك علي أي مبلغ من المال من

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10015).

الجهة الأخرى. وفي شهر نيسان 1925 أبرق إلى الملك علي يقول: «أتوسل إلى جلالتكم أن ترسلوا لي من النقود ما تقدرون عليه. إن المصير السياسي للبلاد في يد جلالتكم»[1]. فلم يرسل الملك إليه شيئاً، والواقع أنه لم يكن لديه فضل من المال يرسله إليه. وفي شهر أيار أعلن الأصيل في لندن أنه سوف يحتكم إلى عصبة الأمم لإنهاء النزاع القائم الآن في الحجاز، كما أعلن أنه سيذهب بنفسه إلى جدّة ليستعمل نفوذه الشخصي في هذا السبيل. وقد فوجئت الحكومة الهاشمية في جدة بهذا الإعلان الذي نشرته وكالة رويتر، فأذاعت بياناً ذكرت فيه أنها لم توعز إلى الأصيل باتخاذ هذه الخطوة وأن الأصيل إنما قام بها من تلقاء نفسه. وعند هذا أبرق الأصيل إلى جدة مقدماً استقالته، فقبلت الحكومة الهاشمية استقالته فوراً.

وفي شهر تموز 1925 أراد الملك علي تعيين رجل مصري ـ هو المحامي حسن صبري ـ ليكون ممثلاً له في لندن بدلاً من الأصيل. ولكنه عندما استفسر من الحكومة البريطانية حول هذا الأمر أجابته بأنها غير مستعدة في الظروف الحالية لقبول أي ممثل له في لندن رسمي أو غير رسمي[2].

أما ناجي الأصيل فقد بقي في لندن حتى نفد ما لديه من مال، وصار في حالة يرثى لها[3]. وقد اضطر إلى العودة إلى بغداد في عام 1928، وكان توفيق السويدي حينذاك قد تولّى وزارة المعارف، وهو يشير في مذكراته إلى أن نبوءته التي كان قد تنبأ بها في عام 1922 عن ناجي الأصيل قد تحققت. فقد جاء إليه الأصيل يطلب منه الحصول على وظيفة، فعينه في وظيفة لا يزيد راتبها على خمسة وعشرين ديناراً. ويعلق السويدي على ذلك قائلاً: «فما أعجب الصدف والأقدار»[4].

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10807).
(2) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10809).
(3) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في 10 أيار 1925.
(4) توفيق السويدي (مذكراتي) ـ بيروت 1969 ـ ص 89 ـ 90.

فيلبي يتوسط:

جاء إلى جدّة ثلاثة رجال للتوسط في الصلح باعتبار أنهم أصدقاء للفريقين، وهم: فيلبي وأمين الريحاني والسيد طالب النقيب. ولكل واحد من هؤلاء في توسّطه قصة جديرة بالذكر هنا.

كان فيلبي أول القادمين إلى جدة، وهو قد جاء بصفته الشخصية ولم تكن له أية صفة رسمية، وقد أعلن الملك علي عن مجيئه قبل وصوله، فأحدث ذلك ابتهاجاً بين أهل جدة ظناً منهم أنه مكلف من حكومته للصلح بين الفريقين المتحاربين. ذهب القنصل البريطاني إلى الملك علي ليخبره بأن فيلبي ليست له أية صفة رسمية تخوّله التوسّط أو التفاوض باسم الحكومة البريطانية، ولكن الأهالي ظلوا بالرغم من ذلك يبنون الآمال على وجود فيلبي في جدة وعلى نتائج مسعاه في الصلح.

كان وصول فيلبي إلى جدة في 28 تشرين الأول 1924، وكانت طريقة وصوله غريبة مما قوى الإشاعة المنتشرة حوله بين الأهالي من أنه جاء بمهمة رسمية. فهو عندما كان في السويس فاتته باخرة البريد فاضطر إلى ركوب زورق شحن بغية الإسراع. وحين وصل إلى مياه جدة أرسل إليه الملك علي زورقاً بخارياً لنقله إلى الشاطىء[1]. وقد قابله الملك فور وصوله، وكان استقباله له ودياً وحاراً.

يقول فيلبي في مذكراته: «كان من المنتظر أن أقوم بدور رئيسي في المسرحية، ولكن متاعبي سرعان ما بدأت بعد وصولي بساعات قليلة، فقد تلقيت من المستر بولارد قنصل حكومة صاحب الجلالة البريطانية ومعتمدها الرسالة التالية: «أرجو أن أبلغك يا سيدي أن حكومة جلالته عندما نما إلى علمها خبر مجيئك إلى جدة قد أمرتني بإبلاغك أنه بالنسبة إلى الأوضاع

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10015).

المضطربة في أواسط الجزيرة العربية فإنها لا يسعها أن تسمح لك بالدخول إلى داخل الجزيرة. أكون ممتناً إذا أشعرتني بوصول هذا الكتاب إليك»[1].

ومن الجدير بالذكر أن الصحف في بعض البلاد الإسلامية أخذت تهاجم فيلبي لذهابه إلى جدة وتتهمه بأنه عميل بريطاني متستر. وفي الوقت نفسه أخذت بعض الصحف البريطانية تصف فيلبي بالانتهازي الذي يحاول الدخول إلى المسرح الذي خرجت منه بريطانيا قانطة يائسة[2].

أرسل فيلبي رسالتين إحداهما موجّهة إلى خالد بن لؤي حاكم مكة، والثانية موجهة إلى ابن سعود الذي كان حينذاك في الرياض. وقد وصل إليه الجواب من خالد فحواه أنه يريد إزاحة علي بن الحسين من جدة. ثم وصل إليه بعدئذ جواب ابن سعود وهو يقول فيه: «إن الموضوع من أوله إلى آخره متوقف على رأي العالم الإسلامي الذي يقف كله معارضاً معارضة قوية لأبناء الحسين... سنصل بمشيئة الله قريباً إلى مكة، وسنجتمع بك بكل تأكيد إن شاء الله لتبادل الرأي. نرجو لك العافية والسلام»[3].

انتظر فيلبي وصول ابن سعود إلى مكة. وقد ابتلي أثناء ذلك بالزحار كما ابتلي به فيما بعد زميلاه الآخران. وعندما وصل ابن سعود إلى مكة في 5 كانون الأول كتب إليه فيلبي وزميلاه يطلبون منه السماح بمقابلتهم. وفي 22 منه وصل الجواب إلى كل منهم على حدة. وكان جواب ابن سعود إلى فيلبي على النحو التالي:

«إلى الصديق العزيز المستر فيلبي. إذا كنتم حضرتم لمقابلتنا ومباحثتنا في بعض الشؤون الخاصة بنا فعلى الرحب والسعة، وسنسهل الطريق للاجتماع بكم خارج الحرم. أما إذا كنتم تنوون التدخل في مسائل الحجاز فلا أرى في

---

(1) خيري حماد (عبد الله فيلبي) ـ بيروت 1961 ـ ص 157.
(2) المصدر السابق ـ ص 158.
(3) المصدر السابق ـ ص 174.

البحث فائدة. . . وأنه ليس من مصلحتي الخاصة ومصلحتك يا صديقنا جعلكم وسيطاً في هذه المسألة الإسلامية المحضة»[1].

اتّضح لفيلبي خلال مكوثه في جدة أن انتصار ابن سعود محتوم لا بد منه. فهو يقول في مذكراته إن موضوع الصلح أو أية تسوية سلمية أصبح أمراً مستحيلاً، فقد تقرر مصير عرش الهاشميين في الحجاز، ولم يكن في وسع أية قوة بشرية إنقاذه، ولكن وزير الحربية تحسين باشا الفقير كان على الرغم من ذلك يتصور أنه قادر على إنقاذ عرش مولاه. ويقول فيلبي في وصف تحسين باشا: «كان هذا القائد العسكري مغتراً بالدور الذي لعبه في معركة شطالجة في البلقان. . . وخيّل إليه أن في وسعه أن يصمد أمام الجيوش الوهّابية البالية السلاح على حدّ تعبيره، فطاف بي بالمراكز الدفاعية التي أقامها بالاشتراك مع رئيس مهندسيه التركي الأصل نورس بك حول المدينة»[2].

كان في نية فيلبي مغادرة جدة في أواخر كانون الأول 1924 ولكن الملك علي أصرّ عليه في البقاء. ويقول القنصل البريطاني في تقرير إلى حكومته: إن سبب هذا الإصرار من الملك هو أن القيادة العسكرية كانت تخشى أن يذهب فيلبي إلى ابن سعود بعد مغادرته جدة ويطلعه على أسرار خط الدفاع عنها، علماً أن فيلبي كان قد ساعد الضابط التركي في وضع خطة الخنادق[3].

غادر فيلبي جدة أخيراً في 3 كانون الثاني 1925 متوجهاً إلى عدن. وكان لا يزال مريضاً بالزحار، وكان يأمل أن ينال علاجه على أيدي الأطباء فيها.

---

(1) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص 381.

(2) خيري حماد (المصدر السابق) ـ ص 159.

(3) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10807).

وساطة السيد طالب:

كان السيد طالب النقيب في الإسكندرية عندما وصل فيلبي إلى جدة، فأبرق إليه الملك علي يخبره بوجود فيلبي في جدة ويدعوه للمجيء إليها. وحين تسلّم السيد طالب برقية الملك علي أبرق إلى المستر بولارد القنصل البريطاني في جدة يطلب منه الرأي، فكتب إليه القنصل جواباً بالبريد يقول فيه: إن ليس في وسعه إبداء أي رأي وأن فيلبي ليس مخولاً رسمياً للتوسط في الصلح[1].

قرر السيد طالب الذهاب إلى جدة على أي حال، وقد وصلها في 25 تشرين الثاني 1924. والظاهر أنه لم يكن مهتماً بأمر الوساطة بقدر اهتمامه بنفسه، فهو ـ كما عرفناه من قبل ـ رجل شديد الطموح يريد الوصول إلى العُلا بأية وسيلة وفي أي طريق.

كان ابن سعود يعرف السيد طالب معرفة شخصية جيدة، ولما كتب إليه السيد طالب يطلب مقابلته للتوسّط في الصلح أجابه قائلاً: إن التوسّط لا فائدة فيه، وإذا كان الشريف علي يريد حقن الدماء فعليه أن يتخلّى عن جدة، أما إذا قبله العالم الإسلامي واختاره حاكماً للحجاز فمحله غير مجهول[2].

أمضى السيد طالب في جدة سبعة وثلاثين يوماً كان يلتقي فيها بزميليه فيلبي وأمين الريحاني، وكان كثيراً ما يقضي المساء مع فيلبي تارة، ومع الريحاني تارة أخرى. والمعروف أنه كان مولعاً بشرب الويسكي، فإذا تناول منه كثيراً انطلق يكشف عن خفايا نفسه. يصف الريحاني اجتماعه بالسيد طالب في جدة، ويشير إلى شيء من ملامح شخصيته، حيث يقول ما نصّه:

«إلا في سبيل المجد ما أنا فاعل ـ وفي سبيل الوطن. فقد كان السيد

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10015).
(2) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص 381 ـ 382.

طالب مغواراً في وطنيته، جباراً في أعماله، طياراً في آرائه، وكان شديد الإيمان حتى في ساعات شربه بما حواه ذلك الرأس القائم بين كتفيه كبرج العاج. إني لأذكر اجتماعنا في جدة في خريف 1924، وأذكر من الأحاديث حديثاً عن العراق. فقد قصّ علينا بعض وقائع أيامه تلك، ونحن نشرب الويسكي والصودا، ثم وضع الكأس على المائدة ورفع يده إلى ذلك الرأس اللامع الشريف يمسحه ويربته: «إن ها هنا شيئاً لا يغلب ـ لا يغلب». وكان يفكر بالعودة إلى العراق وإلى السياسة. كان لا يزال يحلم الأحلام الذهبية. فقال يستأنف الحديث: «الأمور مرهونة بأوقاتها، وستسمعون عندما أعود ما يدهش ويسرّ إن شاء الله. وسأطلبك يومئذ يا أستاذ وأعينك وزير المعارف...»[1].

وقد تطرق فيلبي في مذكراته إلى السيد طالب كذلك. فهو يقول: إن السيد طالب صارحه عن سبب قدومه إلى جدة، فهو لم يأت في الواقع من أجل التوسط في الصلح، بل من أجل الاتصال بابن سعود لكي يساعده هذا في نيل إمارة شرقي الأردن. إن السيد طالب كان قد علم قبل قدومه إلى جدة بأن الإنكليز غير راضين عن الأمير عبد الله ويريدون استبداله بغيره. وذكر السيد طالب لفيلبي أن ابن سعود لا يستطيع التسامح بوجود عدوه عبد الله في شرقي الأردن، وطلب من فيلبي أن يقابل ابن سعود لكي يقنعه بجدارته لإمارة شرقي الأردن. وتعهد السيد طالب أنه إذا تولّى تلك الإمارة فسوف يتخلّى لابن سعود عن وادي السرحان وقريات الملح. ثم قال لفيلبي إنه في حالة توليه الإمارة سيطلبه ليكون المعتمد البريطاني فيها...[2].

في 31 كانون الأول 1924 غادر السيد طالب جدة إلى مصر وهو خالي الوفاض من نيل العُلا ـ مع الأسف الشديد!.

---

(1) أمين الريحاني (فيصل الأول) ـ بيروت 1958 ـ ص 84.
(2) خيري حماد (المصدر السابق) ـ ص 173.

وساطة الريحاني:

وصل أمين الريحاني إلى جدة في 5 تشرين الثاني 1924 بناءً على دعوة تلقاها من وزير الخارجية فؤاد الخطيب. ولما كتب إلى ابن سعود يطلب منه مقابلته من أجل الصلح كان جواب ابن سعود له يختلف عن جوابه لزميليه إذ هو لم يقطع في وجهه الأمل بل ترك له باباً مفتوحة يمكن الولوج منها إلى المفاوضة. وقد استند الريحاني على هذا الجواب فأرسل إلى ابن سعود رسولاً يحمل رسالة منه. فغادر الرسول جدة في مساء 22 كانون الأول، وفي 25 منه عاد الرسول وهو يحمل جواب ابن سعود.

كان الريحاني في مجلس الملك علي عند عودة الرسول حاملاً جواب ابن سعود. ولما قرأ الملك الجواب بدت على وجهه علامات الفرح، وقال: «قضي الأمر. وما تبقى غير الجزئيات. بارك الله فيك يا حسين ـ يقصد الرسول ـ وبارك الله فيك يا أمين». وقبل الملك أمين الريحاني كما قبّل الرسول لشدة فرحه. ثم نزع العقال والكوفية عن رأسه ونادى: «هاتوا شاي... يشهد الله أني لا أحب أن تهرق نقطة دم واحدة من دم العرب»...[1].

لم تدم هذه الفرحة طويلاً، ذلك أن طائرة هاشمية حلقت فوق مكة في نفس الوقت الذي كان الرسول فيه يغادرها حاملاً جواب ابن سعود، فألقت منشورات تؤكد لأهل مكة أن الاستعداد قد تمّ لضرب العدو المغتصب وتطهير البلاد منه، وتتعهد لهم بأن الطائرات سوف تبدأ بقصف العدو، وتطلب منهم منع العدو من الفرار. ومن الجدير بالذكر أن هذه المنشورات كانت قد أعدّت من قبل، وكان الملك قد أوعز بتأجيل إلقائها فوق مكة إلى حين ظهور نتيجة التوسّط. ولكن بعض العسكريين الذين لم يكونوا راغبين في التوسّط أرسلوا الطائرة بغير علم الملك.

---

(1) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) ـ ص 387.

انزعج الريحاني مما وقع، وذهب إلى الملك ليستوضح الأمر منه، وقد دهش حين وجد الملك ووزراءه لا يعلمون عن الأمر شيئاً. ولما أخبر الريحاني الملك بما وقع، قرع الملك الجرس الموضوع أمامه على المنضدة وطلب حضور تحسين باشا وزير الحربية حالاً. ولما حضر وزير الحربية وواجهه الملك بالخبر أخذ يعتذر ببعض المعاذير، فقال له الريحاني وفي صدره غضب مكموم: «لا أظن يا باشا أن هذا السبب كاف لتبرير التجاوز، وأنت أدرى بنتيجة المخالفة للأوامر العالية في أيام الحرب». فقال وزير الحربية: «ما هو بالأمر المهم». فرد عليه الريحاني قائلاً: «كل أمر ملكي مهم يا باشا». وعند هذا أخذ الملك يتكلم مع وزير الحربية بالتركية، ثم نهض مسلّماً وخرج. وفي اليوم التالي عندما قابل الريحاني الملك وشرح له تأثير المنشورات على ابن سعود، قال له الملك: «إني أميل إلى حسن الظن بالناس، ولا أسيء الظن إلّا بعد التثبت والتحقيق. وقد تحققت أشياء، تحققتها يا أمين، وسيسافر فلان وفلان وفلان في الباخرة القادمة. وسأوبّخ تحسين باشا، ولكني أفضل أن يكون ذلك في مجلس خاص له»[1].

نشاط القنصل السوفياتي:

إن العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفياتي والحكومة الهاشمية بدأت منذ أواخر عهد الحسين، فقد تمّ الاتفاق بينهما في نيسان 1924 على أن يكون للاتحاد السوفياتي في الحجاز ممثلية وقنصلية عامة، وأن يكون للحجاز بالمقابل بعثة رسمية في الاتحاد السوفياتي.

عين الحسين حبيب لطف الله مبعوثاً له في موسكو، وقد وصل هذا الرجل إليها في بداية تشرين الأول. أما الاتحاد السوفياتي فقد عيّن لتمثيله في الحجاز رجلاً مسلماً اسمه «كريم عبد الغفور حكيموف»، وقد وصل هذا الرجل إلى جدة في شهر آب 1924، وكان معه نحو أربعة عشر رجلاً كلهم

(1) المصدر السابق ـ ص 390.

مسلمون ما عدا واحداً. واستأجر داراً له في جدة لتكون مقراً له ولموظفيه. ويقال إنه أخذ منذ بداية وصوله إلى جدة يبدي نشاطاً ملحوظاً في الدعاية للشيوعية، وكان الحسين يغض النظر عن نشاطه نكاية بالإنكليز.

ولما تولى الملك علي الحكم بعد تنازل أبيه اتّخذ تجاه الشيوعية موقفاً مغايراً لموقف أبيه، ولعله فعل ذلك تقرّباً للإنكليز. وقد نشرت جريدة «المفيد» البغدادية في عددها الصادر في 17 حزيران 1925 صورة الملك علي وكتبت تحتها العبارة التالية: «صاحب الجلالة الملك علي المعظم ننشر رسمه لمناسبة تصريحه ضد الشيوعية التي قيل إنها انتشرت في الحجاز».

عندما حل شهر رمضان في 26 أيار 1925 عزم القنصل السوفياتي كريم حكيموف على الذهاب إلى مكّة للقيام بشعائر العمرة. وقد رافقه في ذلك القنصل الإيراني بالوكالة أحمد لاري، ونائب القنصل الهولندي الشيخ برافيره الجاوي. ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء القناصل الثلاثة كانوا أول جماعة من الأجانب يدخلون مكة بعد احتلال الإخوان لها. فصار الإخوان ينظرون إليهم بعين الريبة ويحسبونهم كفاراً جاؤوا يدنسون البلد المقدس. يقول حافظ وهبة: إن الإخوان حاولوا قتلهم على الرغم من أنهم كانوا يحملون الإذن من ابن سعود، ولكن عناية الله هي التي أنقذتهم من موت محقق[1].

كان ذهاب القنصل السوفياتي إلى مكة قد أثار اهتمام القنصل البريطاني، ولهذا نجده يكتب في تقريره السري إلى حكومته قائلاً: «إن حكيموف الوكيل السوفياتي في جدة يقوم بزيارة إلى مكة بصفته مسلماً يرغب في أداء الحج الصغير. أنه يسخر علانية من الدين الإسلامي، ولهذا نفترض أن زيارته لمكّة لم تكن بدافع التقوى. أنه أخذ معه شاباً إيرانياً هو ابن تاجر يقوم حالياً بإدارة المصالح الإيرانية. وهذا الشاب هو في جيب حكيموف

(1) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ـ القاهرة 1967 ـ ص 283.

ويردد العبارات البلشفية في أن إيران قد أنقذتها الحكومة السوفياتية النبيلة من مخالب الإمبريالية البريطانية»[1].

ويقول القنصل البريطاني في تقرير آخر له: «إن حكيموف استُقبل من ابن سعود بصفته الشخصية، وكان ابن سعود يسميه «الشيخ كريم»، ولم ينل هناك احتراماً كبيراً. فإن عبد الله الدملوجي، وهو من رجال ابن سعود الرئيسيين، سأل الشيخ برافيره على مسمع من الناس: كيف يسمح لنفسه بمرافقة شخص قاصر يدّعي أنه قنصل عام. وكان الدملوجي يتكلم بصوت عالي بحيث كان في مقدور حكيموف أن يسمعه. أما من الناحية السياسية فقد أقام ابن سعود وليمة للقناصل الثلاثة وتطرق في كلامه أثناء الوليمة بطريقة تأكيدية إلى الكلام عن نفسه وقال إنه ليست له أية خصومة مع الدول الأوروبية وهي الدول التي يفكر هو أن يتعلم منها كثيراً».

ويقول القنصل البريطاني في هذا التقرير أيضاً: إن هناك دليلاً قوياً على أن حكيموف كان في مكة مشغولاً بالدعاية العلنية العنيفة ضد الحكومات الامبرالية، ولا سيما الحكومة البريطانية. ويذكر القنصل: أن حكيموف قضى في مكة خمسة أو ستة أيام، ولما عاد إلى جدة انهمك في تعاطي الخمرة لمدة أربع وعشرين ساعة، وذلك بمثابة رد فعل شديد للتقوى المصطنعة التي أظهرها في مكة، وظل ثماني وأربعين ساعة بعد ذلك غير واعي قليلاً أو كثيراً[2].

لم يكن القنصل البريطاني قادراً أن يذهب إلى مكة لكونه غير مسلم، ولعله شعر أن من الضروري له أن يرسل من ينوب عنه إلى مكة لإزالة الأثر الذي ربما أحدثه حكيموف فيها. وقد اختار القنصل البريطاني للقيام بهذه المهمة كاتبه الهندي المنشي إحسان الله. ويصف القنصل هذا الكاتب بأنه كان تاجراً في المدينة قبل الحرب العامة، وكانت له فيها سمعة عالية، ولكن

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10807).

(2) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10807).

الحرب حطمت تجارته وأصبح منذ ذلك الحين موظفاً في القنصلية البريطانية. ويقول القنصل عنه: إنه خبير بشعائر الحج كما أنه موثوق كمصدر للاستخبارات، فهو متّصل بمختلف الطبقات ويعرف الأشخاص المهمين في مكة، يضاف إلى ذلك أنه يجمع بين عقيدته الإسلامية القوية وإخلاصه للحكومة البريطانية إذ هو يعتبرها أفضل حارسة لحقوق ومصالح المسلمين في الهند.

سافر المنشي إلى مكة وقام بالمهمة التي كلفه القنصل بها. ويقول القنصل في تقريره إلى حكومته: إن المنشي قابل ابن سعود، وأخذ ابن سعود يتحدث إليه عن علاقته بالحكومة البريطانية، وتطرق إلى موضوع العلاقة التي قامت بين بريطانيا والحسين أثناء الحرب العامة، وصار يشكو من الاعتماد الذي وضعته بريطانيا على الحسين، وهو الاعتماد الذي لا مبرر له في نظره، ثم قال ابن سعود: إنه كان قادراً أن يفعل أكثر جداً مما فعله الحسين لقاء نصف المبالغ التي دفعتها بريطانيا للحسين[1].

قصة الطائرات:

ذكرنا من قبل أن الحكومة الهاشمية في جدة كانت معتزّة بما لديها من طائرات ومصفحات، وكانت واثقة من قهر الإخوان بها وطردهم من البلاد. والواقع أن هذه الطائرات والمصفحات لم تكن في حالة يمكن الاعتماد عليها في قتال جدي. ومن الممكن القول إن الحكومة الهاشمية وقعت من هذه الناحية في مثل الورطة التي تقع فيها الشعوب النامية عادة حين تشتري الآلات التكنولوجية الحديثة اعتقاداً منها أنها تستطيع أن ترتفع فوراً إلى مستوى الشعوب المتقدمة. أنها تنسى أن تلك الآلات لا أهمية لها في ذاتها بل في الأيدي الفنية التي تحركها وتشرف عليها.

كان لدى الحسين قبل بدء القتال في الحجاز ست طائرات إيطالية لم

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10807).

يكن يصلح للطيران منها سوى اثنتين، وكان لديه طياران روسيان من بقايا العهد القيصري. وقد سقطت إحدى الطائرتين الصالحتين بين الإخوان أثناء معركة الطائف فذبح الإخوان طيارها. ولم يبق لدى الحسين سوى طيار واحد اسمه شيركوف. وقد ترك هذا الطيار الحجاز على أثر تنازل الحسين عن الملك، وذهب إلى مصر.

وفي تشرين الثاني 1924 استطاع مندوب الملك علي في مصر إقناع شيركوف بالعودة إلى الحجاز، فعاد ومعه أربعة ميكانيكيين روس. وقد اشترط شيركوف لقاء عودته أن يُعطى قنينة ويسكي في كل يوم مع راتب شهري قدره ستون ليرة ذهب. فوافقوا على شرطه هذا.

وفي 22 منه وصلت إلى جدة الباخرة «نور» وهي تحمل على ظهرها ثلاث طائرات اشتريت من إنكلترا، وكانت طائرات قديمة من بقايا الحرب. وفي 2 كانون الأول قام شيركوف بتجربة إحداها، وعند هبوطه بها ارتطم جناحها بشجرة فتعطلت عن العمل وظهر فيما بعد أن طائرة أخرى من الطائرات الثلاث لا تصلح للطيران. أما الثالثة فكانت صالحة إلى حد ما.

أخذ شيركوف يقوم بتحليقات استطلاعية على مواقع العدو في كل يوم صباحاً ومساءً. ويقول القنصل البريطاني في تقريره إلى حكومته: إن نتائج استطلاعات شيركوف لم تكن ذات قيمة كبيرة لأنه كان يرفض التحليق على ارتفاع يقل عن تسعة آلاف قدم، كما أن المراقب الذي يصحبه في الطائرة كان أعور وكان يلبس النظارات الداكنة دائماً[1].

كان وزير الحربية تحسين باشا يصر على شيركوف أن يقذف بالقنابل على تجمعات العدو، ولكن شيركوف كان يرفض ذلك لسبب وجيه هو عدم وجود قنابل جوية لديهم. فطلب تحسين باشا منه أن يستعمل القنابل اليدوية في القصف، فأوضح له شيركوف أن هذه القنابل قد تنفجر قبل وصولها إلى

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10807).

الأرض وربما نسفت الطائرة بمن فيها. اقترح تحسين باشا استعمال قنابل المدافع، وجربها بنفسه مرتين فلم ينجح في التجربة[1].

كانت قد أقيمت في جدة ورشة عسكرية لتصليح الأسلحة. وأخذت هذه الورشة بإيعاز من تحسين باشا تعمل على تحويل قنابل المدافع إلى قنابل جوية، فصنعت نوعاً من القنابل توقد بعود الثقاب. وارتأى تحسين باشا قصف تجمعات العدو قرب مكة بتلك القنابل. ولكن شيركوف أظهر للملك علي خطأ هذا الرأي، لأن قصف مكة بالقنابل على يد طيار «كافر» سيتخذه ابن سعود دعاية قوية له في العالم الإسلامي ضد العائلة الهاشمية. والظاهر أن الملك علي كان متردداً لا يدري إلى أي جانب يميل، جانب تحسين باشا أو جانب شيركوف.

في أوائل كانون الأول 1924 وصل إلى جدة طياران جديدان، وميكانيكيان، وكلهم روس. فأصبح لدى الحكومة الهاشمية ثلاثة طيارين وستة ميكانيكيين، مع طائرتين صالحتين. وأخذت الطائرتان تطيران بين آونة وأخرى فتسقط بعض القنابل على تجمعات العدو بالقرب من جدّة وفي منتصف الطريق بين جدة ومكة.

في 18 كانون الثاني 1925 حدثت حادثة مؤسفة انفجرت فيها إحدى الطائرتين وقُتل شيركوف. وخلاصة الحادثة: أن شاباً سورياً اسمه عمر شاكر كان لاجئاً في الحجاز منذ عهد الحسين، وحين اشتدّت الحرب حول جدة أصبح هذا الشاب متحمساً في بغضه لابن سعود والإخوان وكان يتمنى أن يرميهم من الجو ولو بقنبلة واحدة. وفي ذلك اليوم صدر الأمر إلى شيركوف بالتحليق لقصف تجمعات الإخوان في الرغامة. فانتهز عمر الفرصة وحشر نفسه في الطائرة مع المراقب، وكان يحمل معه قنبلتين من تلك القنابل التي توقد بعود الثقاب، وسمعه أحد الحاضرين يقول: «سألقيها على رأس عبد العزيز». ولما وصلت الطائرة فوق الرغامة، وكانت على ارتفاع ألفي قدم،

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10807).

شاهد من فيها معسكر الإخوان وهو يضم الخيمة التي كان ابن سعود يجلس فيها. وكان من السهل إلقاء القنبلتين على ابن سعود وقتله، ولكن عمر لم يكد يوقد عود الثقاب لتفجير إحدى القنبلتين حتى انفجرت القنبلة في يده، وانفجرت الطائرة في الجو، ثم هوت إلى الأرض مشتعلة أمام خيمة ابن سعود. ويعدّ خير الدين الزركلي هذه الحادثة من جملة الحوادث التي تدلّ على وجود موهبة «الحظ» لدى ابن سعود[1].

في شهر تموز 1925 وصل إلى جدة من مصر أربع طيارين ألمان[2]. ثم وصلت بعد ذلك ستة طائرات ألمانية وكانت طائرات جديدة مجهزة بالرشاشات ومعها قنابلها الخاصة بها. وكان من الممكن أن يكون لهذه الطائرات أثرها الحاسم في الحرب، غير أنها جوبهت بمشكلتين، إحداهما أن الحكومة الهاشمية لم يكن لديها ما يكفيها من البنزين[3]، والثانية أن الطيارين امتنعوا عن التحليق بها لانقطاع الراتب عنهم، وغادروا جدة. وبقيت الطائرات عاطلة عن العمل إلى أن سقطت جدة في كانون الأول 1925، فاستحوذ عليها ابن سعود غنيمة باردة[4].

قصة المصفحات:

لم تكن حالة المصفحات بأفضل من حالة الطائرات. ففي 31 كانون الثاني 1925 وصلت من ألمانيا خمس سيارات لوري، ولكنها كانت قديمة وفي حالة سيئة، وقد وصفها أحد الميكانيكيين الروس بأنها ربما كانت من مخلفات الجيش الأمريكي بيعت في ألمانيا على شكل خردة بسعر خمسة باونات لكل واحدة منها[5].

---

(1) خير الدين الزركلي (المصدر السابق) ـ ج 2، ص 584 ـ 585.

(2) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10809).

(3) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص 401 ـ 402.

(4) حسين محمد نصيف (تاريخ الحجاز) ـ القاهرة 1349 ـ ج 1 ص 198.

(5) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10807).

وصلت مع السيارات أربعة عشر صندوقاً تضم صفائح من الحديد. وصار عمال الورشة يعملون في تصفيح السيارات بها، واستمروا على ذلك شهراً. وعندما تمّ تصفيح السيارات تبيّن أنها تحتاج إلى الماء كثيراً، إذ هي تكاد لا تسير ساعتين حتى يظهر عليها العطش[1]. أضف إلى ذلك أن محركات السيارات لم تكن قادرة على السير كثيراً لثقل الصفائح عليها. وقد جُربت واحدة منها على طرق جدة فكانت تسير بسرعة ثمانية إلى عشرة أميال في الساعة[2]. وشوهدت إحدى السيارات وقد تعطّلت عن السير، فاضطروا إلى سحبها بواسطة الأباعر[3].

في 25 كانون الأول وصل إلى جدة ستة ألمان مختصين بسياقة السيارات المصفحة، وكانوا مرسلين من الأمير عبد الله. ولكنهم لم يبقوا في جدة طويلاً، والظاهر أن عبد الله كان قد وعدهم برواتب ضخمة أكثر مما تستطيع حكومة جدة توفيرها لهم. ولهذا تركوا جدة في 9 كانون الثاني 1925[4].

في 8 آذار 1925 عم الابتهاج والتفاؤل جدة حين وصلت إليها باخرة إيطالية وهي تحمل سيارتين مصفحتين وألف بندقية ونحو سبعمائة صندوق من العتاد. يقول القنصل البريطاني في تقريره إلى حكومته: إن هذه الشحنة قد أضافت قوة كبيرة إلى الجيش الهاشمي، وكانت للسيارتين المصفحتين أهمية خاصة فهما لم تكونا زائفتين كالسيارات الخمس التي وصلت من ألمانيا قبل ذلك، إنهما كانتا صغيرتان ولكنهما سريعتان وخفيفتان وكل منهما مجهّزة بثلاثة رشاشات، اثنان في المؤخرة وواحد في المقدمة. وقد وصل من مصر ثلاثة سواق لسياقة هاتين السيارتين والمظنون أنهم سوريون[5].

---

(1) أمين الريحاني (المصدر السابق) - ص 402.
(2) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف. أو. 371 - 10807).
(3) حسين محمد نصيف (المصدر السابق) - ج 1، ص 198 (حاشية).
(4) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف. أو. 371 - 10807).
(5) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف. أو. 371 - 10807).

كان لهاتين المصفحتين دور لا يستهان به في المعركة التي نشبت حول جدة في 14 آذار، ولكنهما مع ذلك لم يكن لهما أثر حاسم فيها.

معركة ١٤ آذار:

كانت معركة 14 آذار 1925 أكبر معركة خاضها الجيش الهاشمي حول جدة. وكانت الحكومة الهاشمية قد استعدّت لها كثيراً، وكانت متفائلة من نتائجها، إذ كانت تظن أنها ستنزل بالإخوان ضربة ساحقة، وستعيد احتلال مكة والطائف قريباً.

وصلت إلى جدة من المدينة عن طريق معان والعقبة أربعة مدافع كبيرة. وأخذت هذه المدافع تقصف مواقع الإخوان طيلة اليوم السابق للمعركة. وفي الساعة العاشرة من صباح يوم المعركة خرجت من جدة أربعة أرتال من الجنود في جبهة عرضها ميلان، وكان في صحبتها خمس مصفحات من ضمنها المصفحتان الجديدتان[1]، فنشب بينها وبين قوات الإخوان قتال استمر نحو خمس ساعات.

كان الإخوان يقاتلون بالروح الفدائية التي عُرفوا بها، وصار بعضهم يدورون حول المصفحات وهم يطلقون نيران بنادقهم غير مبالين برصاص الرشاشات الذي كان ينهال عليهم كالمطر. وشوهد أحدهم، وهو زنجي من العبيد، يصعد على إحدى المصفحات وهو يطلق النار من مسدسه، فأصابته رصاصة أسقطته على الأرض[2].

كانت المعركة تُشاهد من فوق سطوح الدور في جدة، وكان من بين الذين شاهدوها القنصل البريطاني وأمين الريحاني، وكذلك كان الملك علي يراقبها بناظوره. وقد انتهت المعركة في الثالثة بعد الظهر، بعد أن سقط من الفريقين نحو ثلاثمائة قتيل. وتراجعت المصفحات إلى داخل الأسلاك الشائكة

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10807).

(2) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص 411.

وقد تمزّقت وتكسّرت جوانب بعضها، وأصيب اثنان من سواقها بجروح بليغة[1].

كتب القنصل البريطاني إلى حكومته في وصف المعركة يقول: إن الوهابيين حاربوا بكل ضراوة، أما جنود الحكومة الهاشمية فلم يكونوا مقبلين على المعركة بكل قلوبهم، وقد دلّ على ذلك أن نسبة عالية من جروحهم كانت في ظهورهم وأردافهم. وكانت أكثر الخسائر في الجنود الحجازيين واليمانيين وهم من بقايا جيش الحسين القديم. أما الفلسطينيون وهم من المتطوعين الجدد وكانوا مدعومين بالمصفحات فكانوا يقاتلون بحذر شديد. ويقول القنصل عن نتيجة المعركة بوجه عام: إنها أوهنت عزيمة القيادة الهاشمية وقوت عزيمة القيادة السعودية، فهي كانت ضربة قوية على القيادة الهاشمية، والظاهر أن هذه القيادة أدركت أنها بحاجة إلى قوات أكبر وأفضل لكي تتمكن من طرد الوهابيين من البلاد[2].

خمدت حدة القتال بعد معركة 14 آذار. وعندما حلّ شهر رمضان في 26 منه حصل فيه ما يشبه الهدنة. وقد أشيع في جدة أن المعركة الفاصلة ستكون في شوال، ولكن شوال جاء ولم يقع فيه شيء[3]. وحين اقترب موسم الحج في أواخر حزيران أخذ الإخوان الذين كانوا يحاصرون جدة يغادرون مواضعهم بغية الذهاب إلى الحج، فظنت الحكومة الهاشمية أن الإخوان انسحبوا من القتال نهائياً. وأرسل الملك علي إلى أخيه فيصل في بغداد برقية مؤرخة في 21 حزيران يقول فيها: إن ابن سعود اضطر إلى إخلاء مواقعه من حول جدة وأنه انسحب إلى أطراف مكة. فكان لهذه البرقية تأثير سار على الملك فيصل، وأصدرت الحكومة العراقية بياناً رسمياً تبشر الأمة بهذا النصر. وعلقت جريدة «العراق» على هذا البيان قائلة: «فالعراق ترفع التهاني للأمة

---

(1) المصدر السابق - ص 411.

(2) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف. أو. 371 - 10807).

(3) أمين الريحاني (المصدر السابق) - ص 410 - 412.

العربية بهذا الفوز المبين وتبتهل إلى الله أن يكلل هذا الفوز بإخراج العدو من جميع البلاد الحجازية وينصر الجيش الهاشمي على خصوم الوحدة العربية وأعدائها»[1].

تبين أخيراً أن بشارة النصر كانت قائمة على أساس من الوهم، فقد عاد الإخوان إلى مواضعهم السابقة بعد انتهاء موسم الحج.

حالة السكان:

عانى سكان جدة كثيراً من المشقّة والضيق والأذى خلال أشهر الحرب. وكان نصيب الفقراء من ذلك أكبر جداً من نصيب غيرهم ـ كما هو حظ الفقراء دائماً. فقد ارتفعت أسعار الأغذية في البلدة، ولا سيما أسعار الخضروات والفواكه، وانتشرت بين السكان الملاريا والزحار وأمراض نقص الفيتامين كالاسقربوط والبريبري. وصار عدد الوفيات في البلدة يزداد يوماً بعد يوم.

تعتمد جدة في ماء شربها على ماكنة لتقطير الماء تسمى عندهم بـ «الكونداسة». وصارت هذه الماكنة تعمل خلال الحرب فوق طاقتها، وكان معظم إنتاجها يخصص لحاجات الجيش، وبدأ العطل ينتابها بين فترة وأخرى. وأخذ الناس يعانون من العطش مثلما عانوا من الجوع. وبيعت صفيحة الماء بعشرة قروش، وهذا سعر يصعب على الفقير تحمله[2]. يقول فيلبي في التعليق على ذلك: «إن سياسة الحياد المطلق التي اتبعتها بريطانيا قد كلفت مدينة جدة غالياً إذ فقد فيها ما يربو على الخمسة والعشرين ألفاً، ذهبوا ضحية المرض والجوع والشقاء في سنة كاملة في الحصار، انتهت وقد ركع أهل المدينة يتوسلون طالبين الماء وباحثين عن الشعير والعلف ليأكلوه بدلاً من طعام الإنسان»[3].

وظهرت في جدة مشكلة أخرى بالإضافة إلى مشاكل الجوع والعطش،

---

(1) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في 23 حزيران 1925.

(2) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10809).

(3) خيري حماد (المصدر السابق) ـ ص158.

هي مشكلة العبيد. فقد كان في جدة كما في غيرها من مدن الجزيرة العربية كثير من العبيد، وكان بعض هؤلاء العبيد في الأيام الماضية يهربون من أسيادهم ويلجؤون إلى القنصلية البريطانية لتسفرهم إلى مواطنهم في أفريقيا. وعندما اشتدّت المجاعة في جدة ازداد عدد اللاجئين إلى القنصلية، ففي شهر تموز سفرت القنصلية ستة وعشرين عبداً كان معظمهم سودانيين، وفيهم بعض الأحباش. وقد غضب أهالي جدة من ذلك وذهب وفد منهم إلى وزير الخارجية الهاشمية فؤاد الخطيب يحتجون على ما فعلته القنصلية، وكانت حجتهم أن العبيد الهاربين سارقون ويجب أن ينفذ حكم الشرع فيهم. واضطر الملك علي أن يتدخل في الأمر فطلب من القنصلية أن تكف عن تسفير العبيد متذرعاً بحالة التذمر العام الموجود في جدة، فإن هذا العمل قد يزيد من تذمر الأهالي وربما أدّى إلى ثورتهم. فاستجاب القنصل لرجاء الملك مؤقتاً[1].

أعيان جدة:

كان أعيان جدة خلال أشهر الحرب فريقين، أحدهما هاشمي الهوى والآخر سعودي الهوى. وكان بينهما صراع مكتوم.

كان على رأس الفريقي الهاشمي رجل اسمه محمد طويل، وكان في الواقع شديد الولاء للملك علي وللبيت الهاشمي، وقد أنفق معظم ثروته في مساعدة الملك علي في أثناء الحرب. ويفسر خصومه هذا الولاء منه بأن البيت الهاشمي كان سبب ثروته[2]. ومهما كان السبب فإن ثبات هذا الرجل في ولائه يدلّ على وفائه، ومن النادر أن يكون الإنسان وفياً في مثل تلك الظروف.

أما الفريق ذو الهوى السعودي فكان على رأسه قاسم زينل، وكان هذا الرجل يعلن مراراً أن مصلحة جدة تقضي بأن تستسلم لابن سعود وأن يغادرها

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10809).

(2) حسين محمد نصيف (المصدر السابق) ـ ج 1، ص 163.

الملك علي. وقد وصل إلى علم الملك علي أن هذا الرجل مع أعوان له أربعة على اتصال بابن سعود وأنهم يمدونه بالأسرار، فأوعز الملك إلى وزير الحربية بإحالتهم إلى محكمة عسكرية، فحكمت عليهم المحكمة بالسجن. وفي 7 تشرين الثاني 1924 أعادت المحكمة محاكمتهم وحكمت عليهم بالإعدام. وقد أصرّ وزير الحربية على تنفيذ الحكم فيهم، غير أن الملك دعاهم إلى قصره في 14 منه وأعلن عفوه عنهم بعد أن نصحهم بعدم التعرّض للحكومة أو التكلم في السياسة[1]. ويقول فيلبي: إن المتهمين دفعوا للملك علي ثمناً للعفو عنهم، حيث تبرّع كل واحد منهم بألفي جنيه لمشروع الدفاع عن جدة[2].

لم يمض على ذلك سوى شهر، أو أقلّ منه، حتى بدأ قاسم زينل يجهر برأيه المعارض للحكومة الهاشمية مرة أخرى، وأخذ يدعو إلى وجوب إخراج الملك علي من جدة. والظاهر أن هذا الرجل كان واثقاً من طيبة قلب الملك علي وتسامحه، فصار يتجرأ عليه. يقول فيلبي في وصف الملك علي: إنه كان سليم الطوية إلى الحد الذي يصل إلى درجة السذاجة[3]

مشكلة البشر أنهم يكونون أجرياء في مجابهة الطيب المتسامح، ولا يكادون يلقون القوي الصارم حتى يستخذوا له. وهذا أمر لاحظناه واضحاً في التلاميذ تجاه معلميهم، وهو أوضح في عامة الناس تجاه حكامهم.

قصة الجنود:

حين نقارن بين جنود ابن سعود وجنود الملك علي نجد فرقاً واضحاً. فأولئك كانوا مستميتين في القتال - كما ذكرناه من قبل - يعتقدون أنهم إذا قُتلوا دخلوا الجنة، بينما هؤلاء كانوا مرتزقة متنابذين. وقد وصفهم القنصل البريطاني في تقريره السري إلى حكومته بقوله: إنهم باستثناء عدد قليل منهم

---

(1) المصدر السابق - ص 167.

(2) خيري حماد (المصدر السابق) - ص 163.

(3) المصدر السابق - ص 162.

ليسوا سوى زمرة من المرتزقة السفاكين، كل فئة منهم ترتاب من الفئة الأخرى، وهم بوجه عام يتحدون في الشغب ولكنهم في النفع متفرقون[1].

كان أكثر فئات الجنود شغباً وإثارة للمشاكل هم الفلسطينيون، ويليهم السوريون وهم من الدروز في الغالب. وقد بدأ الفلسطينيون يعلنون تذمرهم بعد فترة قصيرة من وصولهم إلى جدة، وصاروا يذهبون إلى القنصل البريطاني يشكون إليه من سوء حالهم ورداءة لباسهم وطعامهم، وادّعوا أنهم لم يتطوعوا للقتال بل للعمل في سكة حديد معان غير أنهم نُقلوا إلى جدة رغم إرادتهم. وقد بدأ تذمرهم يزداد عندما عجزت الحكومة الهاشمية عن دفع رواتبهم منذ أواخر عام 1924. وفي 15 شباط أضربت جماعة من الفلسطينيين بلغ عددهم مائة وخمسين، وأعلنوا رفضهم طاعة الأوامر إلى أن تدفع لهم الحكومة رواتبهم المتأخرة. فجاء إليهم بعض ضباطهم ليتكلموا معهم، فرفضوا الكلام معهم وأخذوا يوجهون نيران بنادقهم فوق رؤوس الضباط. ثم جاء الملك علي إليهم ووعدهم بدفع رواتبهم خلال خمسة أو ستة أيام. فعادوا إلى الطاعة، وتمّ دفع الرواتب لهم في الوقت المحدد[2].

تفاقمت المشكلة من جديد في شهر نيسان 1925 حين أعلن الفلسطينيون والمصريون تذمرهم لتأخر دفع رواتبهم، وطالبوا بتسفيرهم إلى بلادهم. وقد اضطرت الحكومة إلى تسفير خمسة وثلاثين رجلاً منهم. وأدّى هذا التسفير إلى تشجيع آخرين لإعلان التذمر والمطالبة بالتسفير، وذهب بعضهم إلى القنصلية البريطانية طالبين تدخلها. وذُعرت الحكومة، وخشيت أن ينهار نظام جيشها، فاعتقلت عدّة جنود من الذين ذهبوا إلى القنصلية، وجلدتهم وأبعدتهم إلى ينبع والوجه. وقد احتجّ القنصل لدى الملك على ذلك، فأكّد له الملك أن الجلد لم يكن بعلمه وأنه أصدر أوامر مشددة بعدم جلد الجنود في المستقبل[3].

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 11432).
(2) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10807).
(3) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10807).

تحسّنت الحالة في شهر أيار، وذلك على أثر وصول عشرين ألف ليرة من الحسين في العقبة. وقد وصل من العراق أيضاً مبلغ خمسة عشر ألف روبية، وهو المبلغ الذي أرسله الملك فيصل من واردات الأوقاف النبوية. فتمكّن الملك علي بهذين المبلغين من دفع رواتب شهر واحد للجنود، فهدؤوا أملاً بالحصول على جميع رواتبهم المتأخرة بعدئذٍ.

في أواخر تموز استدعى قائمقام جدة كبار التجار إلى اجتماع، وطلب منهم قرضاً للحكومة قدره عشرون ألف ليرة، فرفضوا طلبه. وبعد مجادلات معهم أُنزل المبلغ إلى أربعة آلاف ليرة، فدفعوه. وفي شهر آب باع الملك علي عدداً من الدكاكين العائدة له في جدة بمبلغ خمسة آلاف ليرة، وقد اشتراها منه سليمان قابيل أحد تجار جدة الأغنياء[1]. واضطر الملك أخيراً إلى رهن أطيانه الخاصة في مصر لقاء قرض قدره خمسة عشر ألف جنيه[2]وقيل إنه اضطر أيضاً إلى بيع بعض مقتنيات عائلته الشخصية حتى حلي زوجته وجواهرها[3].

إن هذه المبالغ التي حصلت عليها الحكومة لم تكن تكفي لسد طلبات الجنود المتزايدة. فاضطرت الحكومة في 12 آب إلى تسفير 475 جندي من الفلسطينيين حيث أرسلتهم إلى العقبة على الباخرة. «طويل»[4]. وأخذ الجنود الباقون يتّخذون شتى الوسائل للحصول على المال. يقول حسين محمد نصيف وهو من أهل جدة: إن بعض الجنود أخذوا ينهبون ما يجدونه أمامهم، وعمد فريق آخر منهم إلى اقتحام بعض الدور الخالية فهدموها وانتزعوا أخشابها وباعوها، وقد بلغ قيمة ما خرّبوه بهذه الطريقة عشرين ألف جنيه. ولجأ بعض الجنود إلى الاستجداء في الشوارع[5].

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10909).
(2) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص 401.
(3) أمين سعيد (تاريخ الدولة السعودية) ـ بيروت ـ ج 2، ص 177.
(4) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10809).
(5) حسين محمد نصيف (المصدر السابق) ـ ج 1، ص 199.

اشتدت الأزمة في عصر 28 تشرين الثاني، وذلك حين اجتمع الجنود وقرروا نهب البلدة في اليوم التالي. فعلم الملك بالخبر في منتصف الليل، وأرسل يستدعي إليه شيوخ القبائل الحجازية واليمانية التي ينتمي إليها فريق من الجنود، ورجا منهم أن يمنعوا أتباعهم من الاشتراك في التمرّد. فاستجاب الشيوخ له ومنعوا أتباعهم. أما الفلسطينيون والسوريون فظلوا مصرين على موقفهم[1]. وفي صباح اليوم التالي تظاهر نحو 220 رجل منهم، فخرجوا يسيرون في الأسواق وهم يطلقون الرصاص، حتى انتهوا إلى المسجد الكبير، فدخلوه وتحصّنوا فيه، وأخرجوا فوهات بنادقهم من منافذه، مهددين كل من يقترب منهم بالقتل. وجاء إليهم وزير الحربية فهددوه بالقتل فعاد من حيث أتى[2].

أحاط بالمسجد حرس الملك وعبيده المسلحون وتدخل القنصل البريطاني في الأمر، يؤيده القنصل الإيطالي الذي كان في ذلك الحين نائباً عن القنصل الفرنسي، وطلبا الكفّ عن الفلسطينيين والسوريين بحجة أنهم رعايا بلاد واقعة تحت انتداب حكومتيهما. فانسحب الحرس والعبيد من حول المسجد.

تمّ الاتفاق مع الجنود المتمردين على تسفيرهم بعد عشرة أيام ودفع ليرة واحدة لكل واحد منهم مع تموين يكفيهم خمسة عشر يوماً. وفي 12 كانون الأول جرى تسفيرهم على الباخرة الصغيرة «رشدي» إلى العقبة[3]. ولكن المشكلة لم تقف عند هذا الحد، لأن الجنود الباقين شعروا بأنهم حرموا من العطاء لسكوتهم وطاعتهم، وبدأ التذمر ينتشر بينهم، وخيف على البلدة من النهب[4].

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 11442).

(2) حسين محمد نصيب (المصدر السابق) ـ ج 1، ص 199.

(3) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 11443).

(4) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 11442)

أصبح الوضع في جدة خطراً، وأدرك الملك علي أنه في موقف يائس لا أمل فيه. ومما زاد في يأسه وصول الخبر إليه بسقوط المدينة المنورة في أيدي القوات السعودية منذ 6 كانون الأول. واتضح لديه أن ابن سعود ربما تمكّن من نقل مدافعه من المدينة إلى ما حول جدة في وقت قريب. وعند هذا قرر الملك علي التسليم لابن سعود ومغادرة البلاد ـ لكي يريح ويستريح!

كيف جرى التسليم:

يقول القنصل البريطاني في تقريره السري إلى حكومته: «زارني الملك علي برفقة وزير خارجيته فؤاد في مساء 9 كانون الأول، وذلك بعد أيام من وصول الخبر إليه بسقوط المدينة، وأخذ يتحدث في شؤون شتى. ولكنه قبل مغادرته القنصلية طلب مني النصيحة حول ما ينبغي أن يفعل في الأيام القادمة. فأخبرته أني غير قادر على إعطائه أية نصيحة بالنظر للموقف الحيادي الشديد الذي اتخذته حكومة صاحب الجلالة. فغادر الملك القنصلية، وفي صباح اليوم التالي طلب مني مقابلته، فذهبت إليه، وسألني نفس السؤال وأعدت عليه نفس الجواب. وفي مساء 13 منه، عندما ازداد الوضع تأزماً، طلب مني الملك عليّ شفهياً أن أتوسط لتسليم البلدة. فأخبرته أني سوف أتصل بحكومتي في هذا الشأن وأبلغه بالنتيجة حال وصول جوابها. إنه طلب مني أيضاً السماح بالإقامة في فلسطين أو شرقي الأردن أو العراق، وقال إنه عربي ويرغب أن يعيش في بلاد عربية إن أمكن وبالقرب من أحد أخويه فيصل أو عبد الله. وفي صباح اليوم التالي أكّد الملك علي طلبه الشفهي السابق بطلب تحريري، وقدم لي قائمة بالشروط التي يمكن أن تكون أساساً للتوسط...»[1].

أبرق القنصل البريطاني إلى حكومته يطلب منها الإذن بالتوسط، فوصل الجواب منها في صباح الأربعاء 16 منه تسمح له بذلك. فأسرع القنصل فكتب كتاباً إلى ابن سعود يطلب منه التفضل بمقابلته في الرغامة في ضحى اليوم

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 11432).

التالي، وأرسل الكتاب مع كاتبه الهندي المنشي إحسان الله. وغادرت سيارة القنصلية جدة تحمل الكاتب الهندي ويرفرف فوقها علم أبيض. والتقت السيارة بموكب ابن سعود بالقرب من بحرة، وقدم الكاتب له كتاب القنصل. فلما قرأ ابن سعود الكتاب قال للكاتب: إنك جئت في اللحظة المناسبة لأنك لو كنت قد تأخرت يوماً واحداً لكان الوقت قد فات. وأخبره ابن سعود بأنه كان متوجهاً إلى الرغامة لتوجيه الهجوم على جدة بناء على طلب أهالي جدة الذين وعدوه بالمساعدة عند الهجوم.

يروي خير الدين الزركلي: أن ابن سعود كان في ذلك الوقت الذي جاء فيه كاتب القنصل في ساعة من أحرج ساعات حياته، ذلك أن رؤساء الإخوان كانوا آنذاك قد سئموا المقام في حصار جدة وصاروا يجادلون ابن سعود جدالاً عنيفاً حيث خيّروه بين أمرين: إما أن يأذن لهم في فتح جدة عنوة، أو يرحلوا عنها إلى ديارهم في نجد. فأجابهم ابن سعود قائلاً: «لن أدخل جدة في قتال، وسأبقى على أبوابها، ولكم أن تقيموا أو ترحلوا». وبينما كان الإخوان يتهيأون للرحيل وصل الخبر إلى ابن سعود بعزم الملك علي على التسليم. وفي رأي الزركلي أن هذا الحادث هو دليل آخر على وجود موهبة «الحظ» لدى ابن سعود[1].

وافق ابن سعود على مقابلة القنصل البريطاني في اليوم التالي الخميس. وفي الساعة العاشرة من صباح الخميس التقى القنصل بابن سعود في الرغامة، وكانت تلك أول مقابلة له معه. وكتب القنصل في تقريره إلى حكومته يبدي إعجابه بما شاهد في ابن سعود من جاذبية في الخلق وتسامح كريم في ساعة النصر. وذكر القنصل أن ابن سعود وافق على معظم الشروط التي طلبها الملك عليّ، وكان ذلك عملا كريماً منه[2].

---

(1) خير الدين الزركلي (المصدر السابق) ـ ج 2، ص 585.

(2) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 11432).

كانت الشروط مؤلفة من سبعة عشر مادة ملخصها أن ابن سعود يجب أن يعفو عن جميع من عاون الملك علي من الموظفين والضباط والأعيان، ويضمن سلامتهم وسلامة عائلاتهم وأموالهم، وأن يوزع على الضباط والجنود مبلغ خمسة آلاف جنيه، ويتعهد بترحيل من يرغب منهم إلى أوطانهم مع إبقاء من يجد الكفاءة فيهم من الموظفين، ويمنح عائلة آل الحسين جميع ممتلكاتهم الشخصية التي ورثوها من آبائهم، ويمنح الملك علي الحق في أن يأخذ معه عند خروجه جميع أمتعته الشخصية بما فيها سيارته الخاصة وسجاداته وخيوله. ويتعهد الملك علي من جانبه بتسليم جميع الأسلحة والرشاشات والطائرات والمدافع والمصفحات سالمة من غير تخريب، وكذلك تسليم البواخر الحجازية الأربعة وهي «طويل» و«رشدي» و«الرقمتين» و«رضوى»، مع السماح للملك علي باستعمال الباخرة «الرقمتين» لنقل أمتعته الشخصية ثم تعود بعد ذلك[1].

عاد القنصل إلى جدة بعد الغروب في اليوم نفسه، وقابل الملك علي بعد العشاء. وقد اعترض الملك بمرارة على التعديلات التي أجراها ابن سعود على شروطه. ولكنه وافق عليها أخيراً ووقّعها. وأخذ الملك عليّ بعدئذٍ يستعد لمغادرة جدة في أقرب وقت ممكن.

وفي صباح 22 منه غادر الملك عليّ جدة على ظهر البارجة البريطانية «كورن فلاور». وقد أعتق قبل مغادرته واحداً وعشرين عبداً من عبيده، وسلمهم إلى القنصلية البريطانية لكي تسفرهم إلى مواطنهم في أفريقيا[2].. ويقال إنه أخذ معه عند مغادرته جدة جميع ما كان في دوائرها من طوابع البريد[3].

أبحرت البارجة بالملك عليّ وحاشيته متّجهة بهم نحو عدن، وعند

(1) أمين سعيد (الثورة العربية الكبرى) ـ القاهرة ـ ج 3 ص 218 ـ 219.
(2) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 11442).
(3) أنيس صائغ (الهاشميون والثورة العربية الكبرى) ـ بيروت 1966 ـ ص 246.

وصولهم إليها نزلوا فيها. وقد حاول القيّم البريطاني في عدن الحصول على باخرة تنقلهم إلى البصرة، فلم يجد. فاضطر إلى حجز أماكن لهم في باخرة تحملهم إلى بومبي. وقد غادروا عدن في 27 منه. وحين وصلوا إلى بومبي لم يتمكّنوا من النزول فيها لعدم وجود جوازات سفر لديهم، فنُقلوا إلى باخرة أخرى حملتهم إلى البصرة[1]. ومن هناك ركبوا القطار إلى بغداد فوصلوها في 8 كانون الثاني 1926، وكان في استقبالهم في المحطة الملك فيصل وابنه غازي[2].

دخول ابن سعود جدة:

كانت قد تشكّلت في جدة حكومة مؤقتة للمحافظة على الأمن خلال الفترة بين الحكمين. وعلى أثر مغادرة الملك عليّ جدة توجّه القنصل البريطاني إلى الرغامة ومعه رئيس الحكومة المؤقتة، فقدمه إلى ابن سعود. ثم أخذ القنصل يشكر ابن سعود على قبوله وساطته في الصلح، وذكر له أن حكومته إنما سمحت له بالتوسط من أجل حقن الدماء في البلاد المقدسة، وجلب السلام والرخاء لها، وتأمين سلامة ملايين الحجاج الذين هم من رعايا صاحب الجلالة البريطانية المفخمة. فأجابه ابن سعود قائلاً أمام الحاضرين: إنه يشكر الحكومة البريطانية بحرارة على ذلك بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن قومه وجميع العالم الإسلامي. وذكر أنه يعتبر بريطانيا الصديقة الوحيدة المخلصة له في العالم، وأنه ليس له أية علاقة صغيرة أو كبيرة مع غيرها من الدول. ويقول القنصل البريطاني في تقريره السري إلى حكومته: إن ابن سعود أعاد هذا الكلام عدّة مرات وبكل حماس وإخلاص، وكان يدعم كلامه بإشارة من يده إذ كان يحرك قبضة يده مع كل كلمة يفوه بها. وقد واصل ابن سعود كلامه مع القنصل فقال: إنه بناءً على قدسية الكلمة وما يأمر به دينه وعقيدته ملتزم ومنفذ للمعاهدة المعقودة بينه وبين بريطانيا العظمى، وأنه على تمام الوفاق مع صديقته وحليفته الأمة البريطانية، فسياستها هي سياسته ما دامت لا

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 11433).

(2) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في 9 كانون الثاني 1926.

تتعرض لأمرين هما أعزّ عليه من حياته وهو مستعد أن يريق آخر قطرة من دمه في سبيلهما هما: دينه وشرفه. إن أوثق روابط الصداقة موجودة دائماً بين شعبه وبريطانيا العظمى «إن شاء الله!»[1].

تحرك ابن سعود في صباح اليوم التالي من الرغامة في موكب كبير متوجهاً إلى جدة. ولما وصل إلى الكندرة نزل في دار الضيافة فيها. وكان قد رفع العلم النجدي فوق الدار كما أطلقت المدافع مائة طلقة وطلقة. وجاء القناصل والأعيان والضبّاط يسلّمون على ابن سعود، وتقدم القنصل الإيطالي نحوه فتكلم باللغة العربية قائلاً: «نظراً لكوني كبير القناصل سناً أتقدم بالنيابة عن نفسي وبالوكالة عن رفاقي بتقديم تهنئتنا لعظمتكم بدخولكم جدة في هذه الطريقة السلمية التي حقنت بها الدماء، ونتمنى لعظمتكم التوفيق الدائم والسعادة». فأجابه ابن سعود قائلاً: إنه لم يتباطأ في الأعمال الحربية إلّا لهذه النتائج السليمة. ثم أبدى ابن سعود شكره للمعتمد البريطاني على مسعاه، كما شكر جميع القناصل[2].

أقام ابن سعود يوماً واحداً في الكندرة، وفي صباح اليوم التالي انتقل إلى داخل جدة، فنزل في دار الشيخ محمد أفندي نصيف، وجاء الأهالي بمختلف طبقاتهم يسلمون عليه، كما ألقى الشعراء بين يديه القصائد الرنانة ـ كما هو ديدنهم في هذه المناسبات!.

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 11432).

(2) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص 425 ـ 426.

الفصل السابع

الحسين في سنواته الأخيرة

الحسين في سنواته الأخيرة

إن الحسين بعد مغادرته جدة في 15 تشرين الأول 1924 ذهب إلى العقبة، فأمضى فيها ثمانية أشهر، ثم أجبره الإنكليز على مغادرتها إلى قبرص. وقد ظل الحسين في قبرص حتى تشرين الثاني 1930 عندما أصيب بشلل نصفي، فنقل إلى عمان حيث مات في 4 حزيران 1931. وسنحاول في هذا الفصل ذكر ما جرى له خلال تلك الفترة بمقدار ما حصلنا عليه من معلومات.

أين يقيم:

لم يكد الحسين يغادر جدة متوجهاً إلى العقبة حتى صارت البرقيات تتوالى بين لندن وبغداد والقدس للبحث عن المكان المناسب الذي يجب أن يقيم فيه الحسين. تقول المس بيل في رسالة لها في 15 تشرين الأول: «هناك تنافس شديد بيننا وبين حكومة فلسطين كل يحاول أن يبعد عنه الحسين. لا شك أن الحسين سيكون ثقيل الظل في فلسطين غير أنه لا يقدر أن يسيء كثيراً في البلد الذي ليس ابنه حاكماً فيه. إني أسلي نفسي في أنه مهما فعل من استفزازاته المعهودة في هذا الكون فهو لن يفعل ذلك بصفته ملك الحجاز وخليفة المسلمين»[1].

وصل الحسين إلى العقبة في 18 منه، وقبل وصوله بيوم واحد ذهب المعتمد البريطاني في عمان المستر كركبرايد لمقابلة الأمير عبد الله، وأخبره

Burgcyne (Gertrude Bell) -London 1961 -vol. 2, p.356. (1)

بأن الحكومة البريطانية قررت السماح لأبيه الحسين بالبقاء في العقبة مؤقتاً إلى أن تجد له مقراً آخر. وحين وصل الحسين إلى العقبة ذهب إليه المستر كركبرايد وأخبره بقرار الحكومة البريطانية على نحو ما أخبر به ابنه عبد الله بالأمس. ثم كتب كركبرايد بعدئذ تقريراً سرياً إلى حكومته في لندن حول مقابلته للحسين وابنه، ننقل فيما يلي أهم ما ورد فيه:

«تحدثت مع سمو الأمير عبد الله في الساعة الثانية بعد الظهر في 17 تشرين الأول، وأخبرته بقرار الحكومة البريطانية، فتأثر الأمير من هذا القرار تأثراً شديداً، ومن الواضح أنه كان راغباً في مجيء أبيه إلى عمان قبل أن تتخذ الحكومة البريطانية قرارها. وأخذ الأمير يتكلم بمرارة حول الحكومة البريطانية وكيف خذلت أصدقاءها العرب، وأبدى ندمه (ربما بصورة غير رسمية) لأنهم لم يبقوا على ولائهم للأتراك. فطلبت من الأمير أن يبلغ أباه الحسين في العقبة بقرار الحكومة البريطانية على وجه السرعة. فأرسل الأمير برقية في مساء ذلك اليوم يخبره بالقرار ويخبره أيضاً أنه قادم إلى العقبة...

«توجهت إلى العقبة في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين من صباح 18 منه، فوصلت إليها في اليوم التالي في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والخمسين بعد الظهر... فنزل الحسين من الباخرة في الساعة الثالثة والنصف، وأخبرته حالاً بقرار الحكومة البريطانية... فقال الحسين إن ابنه عبد الله قد أخبره به بالأمس، وأنه يأسف لأن الحكومة البريطانية لم يبق لديها سوى ثقة قليلة به، وهي لذلك تخشى أن يبقى في بلد أراق العرب دماءهم من أجله في سبيل القضية المشتركة بينهم وبين بريطانيا. أوضحت له أن مصلحة الجميع تقتضي بأن لا يتسرع في أفعاله، وأن الحكومة البريطانية مشغولة للعثور على مقرٍ له في المستقبل. وأنها بالتأكيد سوف تعمل جهدها لحل القضية بأسرع ما يمكن.

«تكلم الملك السابق الحسين بإسهاب في موضوع علاقته ببريطانيا منذ بداية الثورة العربية ضد الأتراك، وأشار إلى الاتفاق القديم والوعود، وإلى

الدواعي التي جعلته يرفض المعاهدة التي قدمتها بريطانيا، كما أشار بشيء كثير من التأكيد إلى المؤامرات التي قام بها ضده القنصل البريطاني الحالي في جدة واتهمه بأنه كان يسعى متعمداً لإسقاطه. وذكر الحسين بشكل محدد أن السبب الوحيد الذي جعله يترك مملكته هو إدراكه أن الحكومة البريطانية غير راضية عنه، وقد تأكد لديه أنها ستكون مسرورة للتخلص منه. إنه يعتقد بأن الحكومة البريطانية إنما انقلبت عليه سعياً لترضية الأتراك والهنود والمصريين. ولما كانت عواطف الصداقة منه لبريطانيا لم تتغير، فإنه ارتأى أن من الأصلح له أن ينسحب.

«وصل الأمير عبد الله إلى العقبة في صباح اليوم التالي مبكراً. أخبرته بأن الملك السابق وافق على رغبة الحكومة البريطانية، وأعربت له عن أملي بأن لا يقول له شيئاً يغير من رأيه. أظهر الأمير بروداً حول هذه القضية كلها، وأظن أنه يشعر بأن كرامته قد جرحت لعدم تمكّنه من دعوة أبيه للإقامة في بلاده.

«في الساعة السابعة والنصف من ذلك الصباح رافقت الأمير في الصعود إلى الباخرة «الرقمتين» فقابلنا الملك السابق فيها، وأخذ الملك يتحدث مرة أخرى بتفصيل عن ماضيه، وكان يؤيد حديثه بوثائق موقعة من مكماهون وآخرين. والظاهر أنه يحمل معه كثيراً من الوثائق الرسمية. ولعل من الممل أن أكتب في تقريري جميع ما قاله الملك السابق بالتفصيل. فإن معظم حججه قديمة، وهي لا بد معروفة لحكومة صاحب الجلالة، ولكن في مقدوري تقديم تقرير منفصل عنها عند الحاجة. وقد قال الملك السابق في ختام حديثه إنه راغب كل الرغبة في مقابلة السير جلبرت كلايتون وبحث الأمور معه...»[1].

تم الاتفاق بين العراق وبريطانيا أخيراً على أن يكون مقر الحسين في

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10016).

البصرة، واشترطت بريطانيا أن لا يتدخل أثناء إقامته فيها في الأمور السياسية. كتبت المس بيل في رسالة لها في 22 تشرين الأول تقول: «. . .إننا مقبلون على تحمل مسؤولية الملك الحسين. إنه سيقيم في البصرة ويبقى ساكناً لا يتدخل في السياسة. وهل في مقدور البرغوث أن يبقى ساكناً. . .»[1].

أبرق الملك فيصل إلى أبيه يدعوه للإقامة في العراق باسم الشعب والحكومة. وفي 10 تشرين الثاني وصل إلى العقبة المستر كركبرايد وقابل الحسين، ثم كتب إلى حكومته التقرير التالي:

«في العاشر من الشهر الجاري قابلت الملك السابق الحسين في العقبة وأخبرته أن الحكومة البريطانية ليس لديها مانع لقبوله دعوة العراق بشرط أن يوافق على الشروط التي وضعتها الحكومة العراقية من حيث محل إقامته وأن لا يتدخل في السياسة. وأخبرته أيضاً أن الحكومة البريطانية ترغب في أن يذهب عن طريق البحر إلى البصرة. ثم سألته هل تسلم الدعوة مع تفاصيل الشروط التي وضعتها الحكومة العراقية.

«أجاب الملك السابق أنه تسلم رسالة من الملك فيصل يخبره بأن العراق حكومة وشعباً سيكون مسروراً بإقامته فيه، ولكن الرسالة لم تتضمن أية شروط من هذه التي ذكرتها، غير أنه سمع من مصادر أخرى بأن الحكومة العراقية تخشى من تدخله في الأمور السياسية والدينية، وهي لذلك ترغب منه أن يعطي تعهداً محدداً في أنه لن يتدخل في هذه الأمور. إنه أكد لي أنه سوف لا يقبل الدعوة على أي حال في الوقت الحاضر. لأنه مرتاح في العقبة وليس لديه رغبة في القيام برحلة غير ضرورية قد تؤدي إلى إتعاب عائلته، وأنه حتى لو كان قد قبل الدعوة فإن عدم ثقة الحكومة العراقية به قد مسّ كرامته مما يجعله يرفض الذهاب إلى هناك. إنه يدرك أن ليس من اللائق به أن يتدخل في

(1) Burgoyne (op. cit.) -vol. 2, p. 357.

السياسة عندما يقيم في العراق ضيفاً على حكومته، وإذا كانوا لا يستطيعون الوثوق به من غير تعهد مسبق فإنه يفضل أن لا يذهب...

«دعاني الحسين لمقابلته في صباح اليوم التالي، ولكنه لم يكن لديه ما يقوله سوى تكرار ما كان قد قاله من قبل، وأعرب عن رأيه في أن الوقت قد حان لكي تتدخل الحكومة البريطانية من أجل وقف إراقة الدماء في البلاد العربية...»[1].

إرسال المساعدات:

كانت الحرب حول جدة في بدايتها عند وصول الحسين إلى العقبة، فأرسل إلى ابنه علي في جدة يحثّه على الصمود ويتعهّد له بإرسال المعونة له نقداً ومعدات حربية. وقد حقق الحسين لابنه ما تعهّد به. ففتح صفائح النقود التي حملها معه من مكة، وأخذ يرسل مبالغ منها إلى جدة على دفعات، كما أرسل مبالغ منها إلى عبد الله لكي يشتري بها الطائرات والمصفحات ويستأجر المتطوعين.

بذل عبد الله جهوداً كثيرة في جمع المتطوعين وشراء المعدات والأسلحة. ولكن الذي يؤسف له أن كثيراً من الذين كلفوا بالقيام بذلك كانوا ممن نشأوا في العهد العثماني وتشبعوا بقيمه وعاداته، ولهذا رأيناهم ينتهزون الفرصة للإثراء السريع، وضاعت من جرّاء ذلك معظم أموال الحسين عبثاً. يقول صلاح الدين المختار الذي كان شاهد عيان لما جرى:

«لقد تلقّى الأمير عبد الله بن الحسين من والده في العقبة أربعين ألف ليرة ذهباً لقاء إرسال المتطوعين وشراء بعض الأسلحة الآلية والطيارات في طرد ابن سعود من الحجاز... ولكني أقرر هنا... أن جلّ هذا المبلغ قد تسرّب إلى جيوب المنافقين والمستغلّين واللصوص ومدخولي الضمير. ولن

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10807).

أقرر هذه الحقيقة اعتباطاً، فلقد تحرّكت من عمان إلى معان على رأس 145 جندياً دون أن نستلم قرشاً واحداً باستثناء كمية من الخبز والمواد الغذائية الأخرى التي لا بد منها فلا نهلك جوعاً بين عمان ومعان!»[1].

ويقول صلاح الدين المختار أيضاً: إن المستودعات العسكرية في معان كانت مليئة بالسلاح والعتاد، كما كان فيها ثلاثة مدافع. فجاء الأمير عبد الله بنفسه إلى معان وأمر بنقل المدافع والأسلحة إلى جدة، وتقرر دفع عشرة ريالات مجيدية أجرة لكل جمل يعمل في نقل الأسلحة إلى العقبة. وقد اتّضح فيما بعد أن قسماً كبيراً من الأسلحة بيع للعشائر القريبة. وشاهد المختار بنفسه أحد المدافع الثلاثة، وكان أضخمها، ملقى في قعر أحد الوديان بين معان والعقبة[2].

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن الحسين لم يترك عادته القديمة في تقريب المتزلفين والمدّاحين، وفي تصديق أقوالهم. وقد حفت به في العقبة نفر منهم[3] يشهبون أولئك الذين كانوا يحفون به في مكة، وصاروا يختلفون له الأخبار التي يرغب فيها، وكان هو من جانبه يقدم لهم المبالغ الكبيرة لجمع المتطوعين وشراء السلاح، فيضعون معظمها أو كلها في جيوبهم.

يروي أمين الريحاني: أن الحسين أعطى قبل خروجه من مكة لرجل من هؤلاء المتزلفين عشرة آلاف ليرة لكي يشتري بها الطائرات والمصفحات من أوروبا، ولكن الرجل ذهب إلى مصر واشترى بالمبلغ عقارات لنفسه. ويروي الريحاني أيضاً: أن ثلاث طائرات قديمة اشتريت من إنكلترا بسبعة آلاف باون، وأرسلت إلى جدة، فتبين أنها لا تسوى غير ألف وخمسمائة باون، أما الباقي فقد ذهب إلى جيوب السماسرة والوكلاء[4].

---

(1) صلاح الدين المختار (تاريخ المملكة العربية السعودية) ـ بيروت ـ ج 2، ص 313.

(2) المصدر السابق ـ ج 2 ص 318.

(3) Storrs (Orientations). London 1939 -p.518.

(4) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) ـ بيروت 1954 ـ ص 246، 401.

مشكلة العقبة:

كانت منطقة العقبة ومعان قبل الحرب ضمن حدود ولاية الشام، ولكن الحسين ضمّها إلى الحجاز بعد الحرب. ولما نشبت الحرب في الحجاز شعر الإنكليز بوجوب إخراج هذه المنطقة من حدود الحجاز وضمّها إلى شرقي الأردن. فقد كان الإنكليز يعتبرونها ذات موقع استراتيجي مهم، ولهذا أرادوا إلحاقها بشرقي الأردن لكي تكون تحت انتدابهم فلا تقع في يد ابن سعود[1].

وفي منتصف شهر أيار 1925 أرسل ابن سعود كتاباً إلى الحكومة البريطانية يخبرها بأنه مرسل قوة لمهاجمة العقبة ليقينه بأن إقامة الحسين فيها هو السبب الرئيسي لإطالة الحرب في الحجاز، لأن الحسين يمدّ جدة بالمال والسلاح والجنود[2]. وقد أثار هذا الكتاب عند وصوله أزمة في الوزارة البريطانية، فقد ارتأى وزير المستعمرات المستر ايمري وجوب توجيه إنذار إلى ابن سعود بعدم مهاجمة العقبة، ولكن وزير الخارجية المستر تشامبرلن خالفه في الرأي ودافع عن ابن سعود قائلاً إن هجومه على العقبة له ما يبرره لوجود الحسين فيها ولهذا يجب إخراج الحسين منها باللطف أو بالقوة وبأقصى سرعة ممكنة. وكان من رأي تشامبرلن أن الحسين لا يستحق أن تدخل بريطانيا في حرب مع ابن سعود من أجله[3].

قررت الحكومة البريطانية أخيراً بأن تحسم المشكلة بضم العقبة ومعان إلى شرقي الأردن وبنقل الحسين إلى قبرص. وأخبرت ابن سعود بذلك عن طريق قنصلها في جدة. وأنذرته بأن العقبة أصبحت تحت مسؤوليتها. وفي 28 أيار وصلت إلى مياه العقبة البارجة البريطانية «كورن فلاور»، وقدم ربانها إلى الحسين إنذاراً من الحكومة البريطانية تطلب منه مغادرة العقبة في خلال ثلاثة

---

(1) Jarvis (Arab Command) -London 1942 -p.119.

(2) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10809).

(3) Troeder (The Birth of Saudi Arabia) -London 1976 -p.225.

أسابيع. ولمّا تسلّم الحسين الإنذار خاطب الربان قائلاً: «أنا لا أذهب من هنا ولو هلكت أنا وعائلتي بقنابل حليفتي بالأمس». فرد عليه الربان قائلاً ما معناه أنه رسول مكلف بالتبليغ فقط وأنه سيعود في صباح الغد لتسلم الجواب. ثم خرج دون أن يجلس. وعندما عاد الربان في الموعد المعين سلّمه الحسين كتاباً طويلاً يتضمن رفضه للإنذار. وفيما يلي ننقل جزءاً كبيراً منه:

«إنني منذ ابتداء النهضة العربية حتى هذه الساعة وأنا مخلص في ولائي لحكومة جلالة ملك بريطانيا، ثابت على مبدئي اعتماداً على شرفها وبناءً على عهودها ومواثيقها الرسمية... وإني ضحّيت بكل شيء وتخلّيت عن الملك وغادرت وطني حباً بالسلم وحقن الدماء، وأتيت العقبة لأبرهن للعالم أجمع بأن لا مطمح لي سوى إسعاد أقوامي وتحرير بلادي بعد أن قمت بواجباتي... وها أني اليوم مقيم في إحدى قرى الحجاز معتزلاً عن العالم ومبتعداً عن كل ما من شأنه أن يوجب الشغب وسوء التفاهم. ولما كان هذا الاعتزال والابتعاد لم يخلصني من أمثال هذه الشوائب فلا شك بأنني أينما ذهبت لا يخلو الأمر من حدوث شيء كما في التبليغات الأخيرة. وربما كانت أشدّ هولاً من موقفي الحالي إذ لا أضمن هياج الشعب العربي وقتئذٍ وحدوث ما لا تحمد عقباه نحو الحليفة وغيرها. ولهذا فإني لا أرى مندوحة عن بقائي في مكاني، وإن شاءت حكومة جلالة الملك فلتبعث بي إلى عالم المريخ فإني مستعد لإنفاذ رأيها في هذه البعثة في أول دقيقة التبليغ، أو أنها إذا نسبت ورأت عظمتها أن تبعث إحدى وسائطها الحربية لتهلكني وعائلتي وخلاص الجميع من هذه الغوائل فلتفعل لأني آليت على نفسي بأن لا أحجم عن مساعدة أبناء وطني وقومي. وإني أفتخر أمامكم بكوني ما زلت ولن أزال أساعد الحكومة الحجازية بمالي الخاص الذي أدّخرته لمستقبلي المجهول، لأن من لا خير فيه لوطنه لا يرجى منه خير لحلفائه وأصدقائه. ولي الشرف أيضاً بكوني ثبت على مبدئي وأخلصت في عملي وقمت بواجباتي، فما عليَّ من غيري فيما إذا لم يفِ بوعده ولم يقم بإنجاز عهده، ونفذ مطامعه بقوة مدرعاته وبرؤوس حرابه، فهناك يكون الحكم لمن غلب... وفضلاً عن ذلك

فإن لم أعترف بالانتداب على البلاد العربية من أساسه، وما زلت أحتجّ على الحكومة البريطانية التي جعلت فلسطين وطناً قومياً لليهود، وشمالي سوريا تحت الانتداب ومأوى للأرمن. وإني لأعجب من تغافل الحكومة البريطانية عمّا حلّ بالحجاز بل بمكة المكرمة من السحق والمحق في الأموال والأنفس، والدمار الذي لا يمكن تلافيه إلّا بعد عشرات من السنين، ثم اهتمامها بمحافظة معان والعقبة الأمر الذي لا يبقي محل لإطالة البحث فيه، لأن ذلك كاف لأقل تأمل... إني لا أبرح العقبة مهما كانت النتيجة ولو أدى الأمر لهلاكي ومحو عائلتي من الوجود. وإني لا أقصد بهذا معاداة بريطانيا وسواها، وإنما هو في سبيل إنقاذ وطني وبني قومي. وكل ما تفعله بي الحكومة البريطانية لمما يزيدني شرفاً وفخراً بين شعبي وأقوامي، حيث يسجل التاريخ لكل منّا عمله. وفي هذا بلاغ»[1].

يبدو أن هذا الرد الشديد من الحسين وضع الحكومة البريطانية في موقف دقيق، فقد كان من الصعب عليها تنفيذ إنذارها إلى الحسين بالقوة لأن ذلك سيكون سبباً في تشويه سمعتها أمام الرأي العام العالمي، فماذا تفعل؟

لجأت الحكومة البريطانية إلى الأمير عبد الله طالبة منه أن يقنع أباه بمغادرة العقبة إلى قبرص. وذهب الأمير إلى العقبة، فدخل على أبيه مقبلاً يديه وقال: «يا ولي النعم، إن سياسة العنف والشدّة لا تفيد تجاه القوة. الآن وقد قمتم بواجباتكم تجاه أمتكم وأدّيتم رسالتكم فعلى الأمة العربية أن تقوم بواجباتها»[2]. ويقال إن عبد الله ذكر لأبيه أن عرشه في شرقي الأردن وعرش فيصل في العراق مهددان بالزوال إذا ظلّ هو مصراً على الرفض[3]. فاضطر الحسين تجاه توسلات عبد الله إلى الاستجابة للإنذار البريطاني.

---

(1) أمين سعيد (الثورة العربية الكبرى) ـ القاهرة ـ ج 3، ص 209 ـ 211.

(2) سليمان موسى (صفحات مطوية) ـ عمان 1977 ـ ص 193.

(3) صلاح الدين المختار (المصدر السابق) ـ ج 2، ص 315.

وصلت إلى مياه العقبة بارجة ثانية تدعى «دلهي» وانضمّت إلى البارجة الأولى. وفي الساعة الخامسة من عصر الخميس 18 حزيران نزل الحسين مع حاشيته وحرمه وعبيده إلى زورق البارجة «دلهي». ويروي أحد الذين شاهدوه عند ركوبه أنه أخذ يتمتم قائلاً: «لا وفّقك الله يا عبد الله»[1]. ويروى أيضاً أنه كان طيلة المدّة التي قضاها في البارجة بين العقبة وقبرص يردد مع نفسه البيت التالي:

مشيناها خطىً كتبت علينا ومن كتبت عليه خطىً مشاها[2]

وفي 24 حزيران ـ أي بعد أسبوع واحد من مغادرة الحسين العقبة ـ أصدر الأمير عبد الله بياناً رسمياً أعلن فيه انضمام العقبة ومعان إلى شرقي الأردن وانفصالها عن الحجاز، وذكر البيان أن ذلك جرى «نظراً لتنسيب صاحب الجلالة الهاشمية علي المعظم ملك البلاد الحجازية أيّده الله وأدام نصره»[3]. وفي اليوم التالي جرى في معان احتفال رسمي فخم لرفع علم الإمارة فيها حضره الأمير عبد الله ومعه رئيس وزرائه رضا باشا الركابي[4].

كان لانضمام العقبة ومعان إلى شرقي الأردن وقع سيئ على حكومة جدة، لأنه يؤدي إلى قطع الإمداد عن المدينة المنورة، وقد يؤدي بالتالي إلى سقوطها في أيدي القوات السعودية. أما الملك علي فكان تأثير الخبر عليه مزدوجاً. يقول القنصل البريطاني في جدة في تقريره إلى حكومته: «إن الملك علي أعرب عن سروره لابتعاد أبيه عن طريقه، ولكن سروره كان مختلطاً لأن ابتعاد أبيه يؤدي إلى توقف المعونة المالية عن جدّة. فهو يحب مال أبيه دون أبيه طبعاً، ولكنه بالتأكيد يفضل بقاء أبيه مع المال على خسارته للمال»[5].

---

(1) المصدر السابق ـ ج 2، ص 315.
(2) أمين سعيد (أسرار الثورة العربية الكبرى) ـ بيروت ـ ص 385.
(3) عبد الله بن الحسين (مذكراتي) ـ القدس 1945 ـ ص205.
(4) حسين محمد نصيف (تاريخ الحجاز) ـ القاهرة 1349هـ ـ ص 185.
(5) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10809).

الحسين في قبرص:

في الساعة السابعة من صباح الاثنين 22 حزيران 1925 وصلت البارجة «دلهي» إلى ميناء «لارناكا» في قبرص، وهي تحمل الحسين ومن معه، وكان في استقباله هناك مدير الشرطة الميجر نورثكوت. وقد نزل الحسين إلى رصيف الميناء في الساعة الحادية عشرة، وكان معه 192 بآلة كبيرة مع سيارات فيات ليموزين كبيرة، كما كانت ترافقه زوجته الملكة عادلة هانم وابنتاه، وسكرتيره الخاص صالح، ومرافقه العسكري كامل باشا، ونحو 25 عبداً وعبدة[1].

أقام الحسين في أول الأمر في فندق في نيقوسيا يدعى «بلاس هوتيل»، ثم استأجر له بعدئذٍ داراً في نيقوسيا سكن فيها. وكانت الدار مؤلفة من بنايتين بينهما حديقة،فخصص إحداهما للحرم والأخرى لأعماله وزوّاره. وفي 1928 التحق به ولده الأصغر الأمير زيد للعناية به في شيخوخته، وقد بذل زيد في الواقع جهداً مشكوراً في خدمة أبيه، وظل معه حتى آخر أيامه في قبرص. وقد ماتت أمه عادلة هانم في قبرص، ودفنت فيها.

عندما كان الحسين في العقبة ـ قبل نقله إلى قبرص ـ كان لديه بقية من الأمل في أن تأتي بريطانيا لنجدته وطرد ابن سعود من الحجاز. فهو لم يكن يتصوّر أن بريطانيا تتنكر لصداقتها معه بمثل هذه السهولة. ولم يكتشف خطأه إلّا عندما حملته بريطانيا قسراً على مغادرة العقبة والانتقال إلى قبرص. يروى عنه أنه صرّح لأحد الذين رافقوه في البارجة بعد مغادرته العقبة قائلاً: إنه كان مخطئاً وإنه لم يكن يعرف أخلاق الأوروبيين وما ينطوون عليه[2]. . . .

حدثت للحسين في قبرص حادثتان جعلته يفقد أمله من بريطانيا نهائياً ويحقد عليها حقداً شديداً، أولاهما أن الصحف البريطانية دأبت على الاستهانة به ووصفه بالأوصاف المستهجنة. وقد غضب الحسين حين وجد جريدة

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10809).

(2) أمين سعيد (الثورة العربية الكبرى) ـ ج 3، ص 211.

«التايمس» المعروفة بأتزانها تسلك مسلك الصحف الأخرى فتنتقده انتقاداً لاذعاً وتتهكم عليه. وفي 24 آب 1926 كتب رسالة إلى وزير الخارجية البريطانية يشكو إليه من نقدات الصحف ويقول إنها أهانت شرفه وعزّته واحترامه الذاتي، وذكر الحسين في رسالته كيف أنه اعتمد على بريطانيا وسعى للحفاظ على شرفها وتقدمها، وخاطر بنفسه حين دخل الحرب العظمى من أجلها في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا مهددة بالأخطار في الكوت والدردنيل وباريس. ثم قال إن هذا الهجوم من الصحف البريطانية عليه سيعتبره الجميع دليلاً على أن بريطانيا أصبحت ضده وأنها تساعد خصومه عليه. وأشار الحسين في ختام رسالته إلى ما ورد في أحد المراجع البريطانية التاريخية حول الحركة الصهيونية من أن وعد مكماهون للحسين جرى تفسيره خطأ، وقد رد الحسين على ذلك طالباً من وزير الخارجية الرجوع إلى رسالة مكماهون المؤرّخة في 15 آب 1915[1].

أما الحادثة الثانية التي أثارت حقد الحسين على بريطانيا فهي حادثة الدار التي سكن فيها في نيقوسيا، فهو بعد أن أقام فيها ثمانية أشهر أراد الانتقال منها إلى دار أخرى، ولكن صاحب الدار حاول ابتزازه وأقام عليه الدعوى في المحكمة وأظهر عقداً كتبه الحسين له يتعهد فيه بدفع تسعة آلاف باون في حالة تركه للدار. ولما عرضت القضية في المحكمة طلبت المحكمة حضور زوجة الحسين أمامها للشهادة. فغضب الحسين من ذلك غضباً شديداً ولم يسمح لزوجته بحضور المحكمة.

وكتب الحسين في 27 أيلول 1926 رسالة إلى رئيس الوزراء البريطانية يشكو إليه من معاملة المحكمة له، وذكر أنه يعتبر نفسه ضيفاً على الملك جورج الخامس وهو يتوقّع معاملة تتناسب مع شرف جلالته وعزّته. فلم يجب عليه رئيس الوزراء بشيء. وفي أواخر تشرين الأول وصل كتاب إلى حاكم قبرص من وزير الخارجية البريطانية فحواه أن الحسين ليست له أية حقوق

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 11450).

وامتيازات قانونية تميزه عن غيره من الأجانب في قبرص، وهو إنما أعطي حق اللجوء في قبرص لحمايته من أعدائه، ولكن وزير الخارجية مع ذلك يوصي الحاكم قائلاً بأنه بالاتفاق مع وزير المستعمرات يرى أن مقتضيات المجاملة والإنسانية تفرض عليه أن يعامل الحسين بشيء من المرونة على قدر الإمكان من حيث وساوسه الدينية أو غيرها في حضور المحكمة[1].

الشكوى إلى عصبة الأمم:

بلغ حقد الحسين على بريطانيا أوجه في تشرين الثاني 1926، مما دفعه إلى أن يكتب إلى رئيس عصبة الأمم في جنيف كتاباً يستغيث به ويشكو إليه من بريطانيا. وهو كتاب طويل ننقل صورة مختزلة عنه فيما يلي:

يا صاحب الرئاسة

إنني أنا الموقع بذيله أدناه الملك حسين بن علي ملك الحجاز وعضو مؤسس في جمعية الأمم وحليف الحلفاء في الحرب الكبرى أبين لجنابكم ما يأتي:

أولاً: إن جمعية الأمم لم تخلق إلّا لأمر واحد وهو منع تعدي أية دولة مستقلة على أخرى. ومن الغريب المدهش أن هذا القانون الأساسي لم يطبق في مسألتي مع الوهابيين الذين اجتاحوا بلادي وبلاد آبائي وأجدادي حتى محمد عبد الله النبي العربي الهاشمي ﷺ. ولذلك فإني أحتجّ أشد الاحتجاج أولاً على هذا العمل من قبل قائد الوهابيين، وثانياً على الجمعية لعدم معاملتي بموجب قانونها الأساسي. وإني أطلب بإلحاح من الجمعية الموقرة إخراج الوهابيين من بلادي بقوة الدول أعضاء جمعية الأمم.

ثانياً: تتذكر جمعية الأمم أن قادة الوهابيين كانوا قبل ذلك قد دخلوا

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 11450).

إمارة الكويت مما حمل الدولة البريطانية على إرسال الجنود الإنكليزية المقيمة في العراق مع طياراتها ودباباتها وسياراتها المسلحة إلى الكويت وإرجاع الوهابيين بالفشل عن مقاصدهم.

ثالثاً: اقتحمت عصابات الوهابيين بعدئذ مملكة شرق الأردن فوقف في وجههم ولدي الأمير عبد الله بكل ما عنده من القوات الحربية والرجال الأشداء، وانضمت إليه فرق من الجنود الإنكليزية بطياراتها ودباباتها وسياراتها المسلحة، فتغلّب على هذه العصابات وردها. وقد رأى وشاهد بالعين بعض كبار القوم، وهم شهود عدول، أن الوهابيين بعد فرارهم كانوا إذا وجدوا جريحاً ترجّلوا عن خيولهم وأغمدوا خناجرهم في قلبه.

رابعاً: أما أنا الموقع بذيله ملك الحجاز وعضو جمعية الأمم وحليف المنتصرين في الحرب الكبرى فلم أعن بشأن هذه العصابات عناية الخائف من تعدّيها على ملكي لأني كنت أدري بأننا لسنا اليوم في العصور الوسطى، ولأنني كنت على أكثر من اليقين بأنها لا تتجاسر أن تهاجم بلاداً يقدسها ثلاثمائة مليون من المسلمين الموحدين، وتضمن استقلالها جمعية الأمم، وتحمي وتحترم استقلالها جميع دول الحلفاء. وما كنت لأظنّ أن واحدة من هذه الدول العظمى - يقصد بريطانيا - توعز إلى رجال هذه العصابات بواسطة بعض ساستها الأغبياء، فيدخلون الأراضي المقدسة ويدمرون الأضرحة والمعابد والمشاعر الدينية. أجل ما كنت لأتصور أن الحليفة الكبرى تأتي من وراء أكبر حليف لها في الشرق، وأعظم ساعد لها في الحرب الكبرى، فتطعنه في ظهره دون أن يكون لها ضمير يوبخها أو مروءة ووفاء يمنعانها عن هذا العمل الفظيع الظالم. أما الحليفة الكبرى فإنها شعرت بفظاعة عملها هذا على الأخص عندما رأت اشمئزاز الشعب البريطاني النبيل من سياستها المتخبطة المضطربة بل السقيمة الخرقاء، ومن حرمان الإنكليز من حليف شريف، وملك عريق في الحسب والنسب، ومسالم لم يفكر قط في الإضرار بالآخرين. أجل إن رجال الحكومة الإنكليزية الذين أتوا بهذا الغلط الفاضح وهذا الخطأ الفادح

يقعون مطأطيء الرؤوس خافضي العيون أمام الرأي العام الإنكليزي النبيل الذي سيحاسبهم أشد الحساب عند عودة افتتاح البرلمان الإنكليزي. . .

خامساً: إنني أطلب من جمعية الأمم الموقرة إخلاء البلاد المقدسة من الوهابيين واستفتاء أهاليها، لكي ترى أن ما فوق التسعين في المائة من هؤلاء الأهالي يصوتون ضدهم. إنني أطلب إطلاق يدي في العمل لإعادة ملكي وملك آبائي وأجدادي المغتصب، ورفع حكم رجال الحكومة الإنكليزية الجائر عني. إنني أطلب إبلاغ صوتي الشاكي من منفاي في جزيرة قبرص إلى جميع رجال الدول، وعلى الأخص كافة الشعب الإنكليزي النبيل لأفهمهم الحقيقة بكل صدق وصراحة بأن سياسة حكومتهم غير الشريفة لا تثمر غير الضغائن والبغضاء بين الإنكليز والمسلمين الأصحّاء ـ أقول المسلمين الأصحّاء أي عامة المسلمين الذين يغارون على دينهم وعلى نبيهم وآله، ولا عبرة بأفراد لا يعدون إلّا القليل من المسلمين الذين هم جهلة أغبياء يضللهم المضللون وعمال السوء فلا يعلمون من دينهم شيئاً ولا يسيرون على النهج الذي أوصاهم به الكتاب العظيم، فهم مسلمون بالاسم فقط. ولو كانوا أصحّاء الإسلام لاحترموا آل نبيهم ﷺ، وقد أوصاهم بهم خيراً، ولوقفوا جميعاً وقفة واحدة كوقفة البطل المغوار والمسلم الصحيح المغفور له ساكن الجنان كبير العائلة العلوية الكريمة في مصر وباقي أركان الدولة المصرية عندما بعث بأولاده ثم ذهب بالذات إلى الحجاز لقتال الوهابيين وإخراجهم من الأراضي المقدسة الحجازية من بدعهم في الدين.

إنني أكتب هذا الاحتجاج الشديد لرئاسة جمعيتكم لكي تعمل الدول كافة، ويعلم الشعب الإنكليزي النبيل خاصة، إن أعمال رجال حكومته في الحجاز غير العادلة وغير الحقّة تحط من مقامها ومن مقامه السامي في أعين عامة المسلمين الأصحّاء، خصوصاً في الهند وفي جميع المستعمرات البريطانية والدولية أيضاً، لأن هؤلاء يريدون بكل قواهم المحافظة على شعائرهم الدينية في أراضيهم المقدسة. نعم فليعلم الشعب الإنكليزي النبيل

هذه الحقائق وليتحرك من جموده وليقف موقف المنقذ العادل الشريف، ليضع حداً بين الظالم والمظلوم، فيرفع الظلامة التي سببتها حكومته عن المظلوم. وعندئذٍ فقط يجوز أن نقول بأن الشعب الإنكليزي هو نبيل عادل ويحب العدالة والحق، وإن الدول العظمى تحترم رعاياها المسلمين وتحترم شعائرهم الدينية.

مغتنماً هذه المناسبة يا جناب الرئيس لتقديم احتراماتي الفائقة الحد لشخصكم المحترم ودمتم.

الحسين بن علي[1].

أقوال ستورز:

لم تمض سوى أيام معدودة على كتابة الحسين كتابه الآنف الذكر إلى عصبة الأمم حتى عيّنت الحكومة البريطانية السر رونالد ستورز حاكماً على قبرص. ولا ندري هل كان ذلك مجرد مصادفة أم كان أمراً مبيتاً. ومهما يكن الحال فقد لوحظ أن ستورز أخذ يعامل الحسين معاملة لا تخلو من لؤم. يقول الأمير زيد: «...وفي قبرص أظهر ستورز الكثير من قلّة الوفاء بعد أن كنّا نعتقد أنه صديق لنا ولسيدي عبد الله خاصة»[2].

تطرق ستورز في مذكراته إلى ذكر حياة الحسين في قبرص، وحاول أن يكون موضوعياً في كتابته عنه، ولكننا نحسّ مما كتب أنه كان لا يميل إليه قلبياً. إنه يقول عنه ما نصّه: «لم يكن ـ في قبرص ـ معروفاً من أحد أو يعرفه أحد. وكان بالنسبة للموظفين الكبار في الجزيرة بمثابة سجين، وللموظفين الصغار نكرة. وجدته يسكن في دارة صغيرة يحيطه ابنه الأصغر زيد بإخلاص بنوي. وكان منظراً مؤثراً أن أشاهد هذا الأمير الشاب، وهو الذي قاد الكتائب في الحرب وأمضى سنة في كلية باليول، يقرأ لأبيه بصوت مرتفع التعليقات المملة لصالح البخاري على القرآن ـ يقصد صحيح البخاري ـ ويخدمه ليلاً نهاراً».

---

(1) أمين سعيد (المصدر السابق) ـ ج 3، ص 213 ـ 217.

(2) سليمان موسى (مذكرات الأمير زيد) ـ عمان 1976 ـ ص 201.

ويقول ستورز: إن المسرة الوحيدة التي بقيت لدى الحسين! قبرص انحصرت في ثلاث من المهرات العربية الأصيلة، وكانت أجملها وألطفها تدعى «زهرة»، فهي تصعد برشاقة الدرجات الموصلة بين الحديقة وقاعة الضيوف، وكان الحسين يهتف لها قائلاً: «أهلاً»، «ما شاء الله»، «الله أكبر»، «قربي يا بنت العم». وكان الحسين يدعو هذه المهرة «قرة العين»، وكان يقدم لها التمر فتأكله ببطء ثم تلفظ النوى في الصحن. ولكن مسرة الحسين هذه انتهت بخاتمة محزنة، فإن سائس هذه المهرات طرده الحسين من خدمته، فانتقم السائس منه بأن بقر بطونها. ويقول ستورز: بينما كنت في صباح أحد الأيام في مقري الرسمي جاء الحسين طالباً الإذن بالدخول عليَّ حالاً، ولما دخل رمى بنفسه بين ذراعي ودموعه تنهمر.

ويذكر ستورز أن الحكومة البريطانية كانت قد منحت الحسين عندما كان حليفاً لها في الحرب وسام الصليب الأكبر مع وشاح، ولكن الوسام وصل متأخراً حينما كان الحسين مبعداً في قبرص، وقد قدمه ستورز إليه عند افتتاح مكتبة قبرص العامة. ويعلق ستورز على ذلك قائلاً: إني رأيت وعرفت كثيراً من تقلبات الزمان ولكني لم أعرف مثل هذا الحدث المليء بسخرية القدر، وذلك حين قدمت إليه الوسام الذي يتمناه السفراء والقواد العظام وملوك أوروبا. لقد كان الحسين حينئذٍ عجوزاً مطروداً غير أنه ما زال مهيباً!

ويشير ستورز إلى الإشاعات التي راجت بين الناس حول ما لدى الحسين من مئات الألوف من جينهات الذهب موضوعة في صفائح النفط، وهي الجنيهات التي أعطتها بريطانيا له عند قيامه بالثورة على الأتراك، فيقول إن الباقي منها الآن أقلّ مما ذكرته الإشاعات التي هي من شأنها المبالغة في مثل هذه الأمور. ويذكر ستورز أن الفلسطينيين الذين أحاطوا بالحسين في العقبة استطاعوا أن يستخلصوا منه قسطاً كبيراً من تلك الجنيهات لأنهم في ذلك خبراء حاذقون. وكذلك فعل معه بعض التجار الماكرين في قبرص، ولهذا كان الحسين يأتي إليه - أي إلى ستورز - يريد منه أن يتدخل في المحاكم لمصلحته على طريقة مكة. ويذكر ستورز: إن أبناء الحسين كانوا يأتون إلى

الحسين يطلبون منه بعض المبالغ ولكنه كان يخيب ظنهم قبل أن يفاتحوه وذلك بأن يطالبهم بتقديم قرض له. ويقول ستورز: إن الملك فيصل اشتكى إليه من ذلك عندما كان يلعب معه «الروكيت» في جبل «ترودوس»[1].

ومن الجدير بالذكر أن هذا الذي ذكره ستورز عن أموال الحسين لا يؤيده فيه الأمير زيد. يقول زيد: عندما وصل الحسين إلى قبرص كنا نعتقد أنه يملك مالاً كثيراً، ولكنه تبيّن أنه لم يكن يملك سوى أربعة آلاف ليرة. وبعد ذلك أخذ سيدي عبد الله وسيدي فيصل يرسلان له مبالغ محدودة، ولكن حتى هذه لم تكن تصل بانتظام...»[2].

أيامه الأخيرة:

كان الحسين مصاباً بمرض تصلب الشرايين، وقد بدأ به المرض في عام 1919 على أثر واقعة تربة ـ كما أشرنا إليه في حينه. وفي تشرين الثاني 1930 حدث له نزيف خفيف في المخ أدّى إلى إصابته بشلل نصفي، وقد حصل له هذا النزيف عقب إهانة وجهها إليه ستورز. وفيما يلي أذكر ملخصاً للحادثة كما رواها لي رجل أثق به نقلاً عن الأمير زيد:

كان الحسين قد نفد ما لديه من مال في أيامه الأخيرة، ولهذا كان ابنه الملك فيصل يرسل إليه من العراق في كل شهر حوالة بمبلغ مائة باون. ولسبب غير معروف تأخرت هذه الحوالة في شهر آب 1930، واستمرّ التأخّر أكثر من شهرين، فأبرقوا إلى بغداد يستوضحون عن سبب التأخّر، فلم يصلهم من بغداد أي جواب. ويعزو الأمير زيد ذلك إلى كيد الإنكليز ورغبتهم في إيذاء أبيه. وقد أدّى تأخر الحوالة إلى امتناع البقال المجاور لهم عن تزويدهم بمواد المعيشة التي اعتاد أن يزودهم بها من قبل. واضطر الحسين أن يذهب بصحبة ابنه زيد إلى ستورز آملاً أن يجد له حلاً للمشكلة.

يقول زيد: إنهما حين دخلا على ستورز في مكتبه لم يقم لهما بما ينبغي

---

(1) Storrs (op. cit.) - p.518 - 519.

(2) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص 201.

من مقتضيات المجاملة، ولم يطلب منهما الجلوس. فجلس الحسين على أحد المقاعد من غير إذن، وتابعه في ذلك زيد. وأخذ الحسين يحدث ستورز عن مشكلته ثم طلب منه قرضاً إلى أن تأتي الحوالة إليه من بغداد. فجابهه ستورز بوقاحة قائلاً: «ما هو الضمان لهذا القرض؟». فقدّم الحسين خنجره المحلّى بالذهب إلى ستورز وقال له: «هذا هو الضمان». وكان ستورز ممسكاً في يده بقلم رصاص، فحرك الخنجر بقلمه مع شيء من الاستهانة كأنه يقول إن هذا لا ينفع. ثم استدعى كاتبه وأمره أن يقدم للحسين القرض الذي طلبه. ولكن الحسين لم يتحمل تلك الإهانة، وصارت يده ترتجف من شدة التأثر، ثم غادر مكتب ستورز حالاً. ولم يكد يصل إلى البيت حتى أصيب بالنزيف في المخ.

في 21 تشرين الثاني 1930 غادر الملك فيصل بغداد إلى قبرص بالطائرة. وتمكّن فيصل من الحصول على موافقة الحكومة البريطانية على نقل أبيه إلى عمان، وبعد نقله عاد إلى بغداد. وتألفت في عمان لجنة طبية لفحص الحسين من خمسة أطباء هم: جميل التوتونجي وحسام الدين أبو السعود وتوفيق كنعان وعزّت طنوس وولخ. وبعد الفحص كتبوا التقرير التالي:

«لقد تشرّفنا بإجراء الكشف الطبي على حضرة صاحب الجلالة الهاشمية الملك حسين بن علي في قصر رغدان بعمان، فوجدنا أن جلالته نظراً لتقدم سنه مصاب بتصلب الشرايين، ومن ذلك حصل له قبل شهر تقريباً نزيف خفيف يف الدماغ، إلا أن صحته العمومية تحسّنت بواسطة التدابير الصحية التي اتخذت له ولا يزال التحسن مستمراً، والذي يزيد في اطمئناننا أننا وجدنا جميع أجهزة الجسم بحالة حسنة»[1].

وفي 15 كانون الأول وافق مجلس النواب العراقي على إرسال وفد إلى عمان باسم الحكومة العراقية لتحية الحسين ودعوته للإقامة في بغداد. وكان الوفد مؤلفاً من السيد محمد الصدر رئيساً ومن علي الإمام ورؤوف اللوس عضوين. وسافر الوفد إلى عمان في 29 منه. وقد شكرهم الحسين على

---

(1) نقلاً عن الكتاب المخطوط للسيد هبة الدين الشهرستاني.

الدعوة ووعد بتلبيتها عند تحسّن صحته. ولكن صحته لم تتحسن. وفي 4 حزيران لفظ أنفاسه الأخيرة. فنُقل جثمانه إلى القدس ودفن في ساحة الحرم الشريف بالقرب من المسجد الأقصى.

الواقع أن الحسين أخفق في أمور كثيرة، ولكنه نجح في أمر واحد هو أنه جعل من حياته دعاية صارخة ضد بريطانيا. فلقد كان في مقدور بريطانيا أن تداري الحسين في سنواته الأخيرة، وتراعي شيخوخته ـ لغرض الدعاية على الأقل. ولكنها لم تفعل. ودلّت بذلك على أنها لا تعرف مصلحتها أحياناً.

الشعراء يهيمون:

أقيمت لتأبين الحسين حفلتان كبيرتان، إحداهما في القدس في 12 تموز 1931، والأخرى في الأعظمية في 14 آب. وقد ساهم في هاتين الحفلتين كثير من الشعراء والخطباء، ففي الأولى ساهم أحمد شوقي وخليل مطران وشبلي ملاط وعبد الحميد الرافعي وشفيق جبري وفؤاد الخطيب ومحمد علي الحوماني ومصطفى الغلاييني وسليمان الظاهر وغيرهم. وفي الثانية ساهم معروف الرصافي ورضا الشبيبي وحبيب العبيدي وعبد الحسين الأزري وكاظم الدجيلي وغيرهم. ولا حاجة بنا إلى القول إن هؤلاء الشعراء لم يخرجوا في قصائدهم عن القوالب التقليدية في الرثاء حيث أصبحت الدنيا ـ حسب قولهم ـ في ظلام دامس، وضاع العرب، وانهدّ ركن الإسلام، وما شاكل ذلك. ولم يكن من فرق بينهم إلّا في صياغة الألفاظ والتفنن في الأخيلة.

كانت قصيدة الرصافي في حفلة الأعظمية ملفتة للنظر لأنها جاءت على النقيض من قصيدته المشهورة التي نظمها في هجاء الحسين في عام 1916 على أثر إعلان الحسين ثورته على الأتراك. نعرض فيما يلي أبياتاً نموذجية من كلتا القصيدتين لكي يقارن القارىء بينهما. فقد ورد في قصيدة الرثاء الأبيات التالية:

بدا وجه العروبة في حلوك غداة قضى الحسين أبو الملوك
قضى متنازلاً بعد اعتلاء كذاك الشمس تجنح للدلوك
قضى في المجد ليس بذي نظير وفي العزمات ليس بذي شريك

وقد سلك الطريق إلى المعالي إلى أن مات محمود السلوك
وجدد للعروبة غرس مجد قديم كان كالعذق التريك
وأحدث نهضة في العرب هزت جنوب الأرض كالريح السهوك
وأثبت بالسيوف لهم حقوقاً مؤيدة بكل دم سفيك
قرين القبلتين عليك تبكي وما بالدمع من طرف مسيك
فقدنا منك خير زعيم قوم وخير نضيج تجربة حنيك
فقد ناح العراق عليك حزناً وضج من الخليج إلى دهوك
وناح المسجد الأقصى جميعاً إلى أرض الشآم إلى تبوك
لقد نُزّهتَ من غمز ولمز كما نُزّهتُ من شعر ركيك(1)

أما قصيدة الهجاء التي نظمها الرصافي في عام 1916 فقد وردت فيها الأبيات التالية:

قد كنت أحسب أن اللؤم أجمعه على الحسينين في مصر قد انقسما
حتى بدت مخزيات اللوم مشركة من الحجاز حسيناً ثالثاً بهما
لكنما ذاك قد أربت جريمته عليهما فهو أخزى جارم جرما
فذان قد أخجل الأهرام بغيها وبغي هذاك أبكي البيت والحرما
هذا الذي منه تنشق السماء أسى والأرض ترتج حتى تقذف الحمما
فأنت يا قدرة الله التي عظمت خذي حسيناً بذنب منه قد عظما
وأنت يا أرض مجّي نحوه ضرماً ويا سماء عليه أمطري نقما
بغى ففرق شملاً كان مجتمعاً للمسلمين وشعباً كان ملتئما
قالوا الشريف ولو صحّت شرافته لم ينقض العهد أو لم يخفر الذمما
وكيف لا وهو الذي بانت خيانته فصرحت عن طباع تخجل الكرما
لم تكفه في مجال البغي فتنته حتى غدا بعدو الله معتصما
إذ راح بالإنكليز اليوم ممتنعاً فضاعف الشر فيما جر واجترما(2)

---

(1) مصطفى علي (ديوان الرصافي) ـ بغداد ـ ج 1، ص 221 ـ 224.
(2) مصطفى علي (المصدر السابق) ـ بغداد 1975 ـ ج 3 ص 60 ـ 62.



الفصل الثامن

ابن سعود يعاني المشاكل

ابن سعود يعاني المشاكل

في الوقت الذي كان فيه الحسين يجترّ همومه في قبرص كان خصمه ابن سعود يعاني مشاكل الحكم، وهي المشاكل التي أقضّت مضجعه وأشقته كثيراً.

من طبيعة الإنسان أنه يفضل أن يعاني المشاكل وهو في صعود على أن يكون خالياً منها وهو في توقف أو نزول. وهذا دليل على أن طبيعة الإنسان حركية تميل إلى الارتفاع، وأن السكون المريح لا يلائمها.

سنحاول في هذا الفصل استعراض بعض المشاكل التي واجهها ابن سعود في وضعه الجديد عقب احتلاله الحجاز، وهي مشاكل قد يجد القارىء فيها دروساً اجتماعية غير قليلة.

مبايعة ابن سعود:

كان ابن سعود منذ بداية الحرب في الحجاز قد أعلن مراراً بأنه لا يطمع في ملك الحجاز بل سيجعل أمره شورى بين المسلمين، وأنه سينزل على ما يقرره ذلك المؤتمر[1].

وحين تم لابن سعود احتلال الحجاز كله وجد نفسه ملزماً بإنجاز ما وعد به، وكانت بعض الوفود الإسلامية قد بدأت تصل إلى الحجاز تلبية للدعوة التي أرسلت إليها من قبل، كان من بينها وفد يمثل جمعية الخلافة

(1) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ـ القاهرة 1967 ـ ص 268 ـ 275.

الإسلامية في الهند، ووفود تمثل سوريا ولبنان وشمالي أفريقيا وجاوة وسومطرة. ولوحظ أن وفد الخلافة الإسلامية كان متحمساً لإنشاء حكم جمهوري في الحجاز يشارك فيه المسلمون جميعاً على أساس أن الحجاز بلد يهم المسلمين كلهم ولا يجوز أن ينفرد بالحكم فيه فريق دون فريق. وصار هذا الوفد يدعو لهذا الرأي ويسعى لتحقيقه.

شعر ابن سعود بأنه أصبح في ورطة لا يدري كيف يخرج منها. وأخذ رجاله ينشطون لإيجاد حل لها. وقد وجدوا الحل أخيراً، حيث تألفت لجنة من أعيان مكة وجدة، وقررت هذه اللجنة مبايعة ابن سعود ملكاً على الحجاز. وعرضوا الأمر على ابن سعود فوافق عليه، ونشر هو بياناً أعلن فيه إلغاء المؤتمر الإسلامي الذي وعد به، وذكر أنه استجاب لطلب أهل الحجاز في منح الحرية التي وعدهم بها لتقرير مصيرهم.

جرى الاحتفال بالبيعة عند باب الصفا في المسجد الحرام عقب صلاة الجمعة في 7 كانون الثاني 1926، وتقدم عبد الله الدملوجي فتلا صيغة البيعة وفحواها أنهم يبايعون عظمة السلطان عبد العزيز آل سعود ملكاً للحجاز على كتاب الله وسُنة رسوله وما كان عليه الصحابة والسلف الصالح والأئمة الأربعة، وأن أهله هم الذين يقومون بإدارة شؤونه. فتقدم الحاضرون يبايعون ابن سعود طبقة بعد طبقة، وكانت المدافع تطلق طلقات التحية المعتادة.

وبعد انتهاء البيعة سار ابن سعود نحو الكعبة، فطاف حولها سبعاً، وصلّى في المقام، ثم انتقل إلى سرادق كبير لاستقبال المهنئين. وقام الخطباء يمجدون ابن سعود، فقال أحدهم: «ما أعطاك الله هذا العطاء يا عبد العزيز إلّا لأنك سائر في مرضاته». وقال آخر كلمة أخرى. فتكلم ابن سعود وقال: «أسمع خطباءكم يقولون: هذا إمام عادل، وهذا كذا وكذا. فاعلموا أن ما من رجل، مهما بلغ من المنازل العالية، يستطيع أن يكون له أثر وأن يقوم بعمل جيد إذا كان لا يخشى الله. وإني أحذركم من اتباع الشهوات التي فيها خراب الدين والدنيا، وأحثكم على الصراحة والصدق في القول، وعلى ترك الرياء

والملق في الحديث. لم يفسد المُلك إلا الملوك وأحفادهم وخدامهم والعلماء المملقون وأعوانهم... إني أنصح لكم كما أنصح لنفسي وأولادي». فهتف الحاضرون: «جزاك الله خيراً.. جزاك الله خيراً!»[1].

أثارت بيعة ابن سعود استياءً في مصر والهند وبعض الأقطار الإسلامية الأخرى، حيث عدوا ذلك نكثاً من ابن سعود بوعوده الكثيرة التي أعلنها من قبل في شأن المؤتمر الإسلامي والانصياع لقراراته. يقول حافظ وهبة في مذكراته: إنه كان في مصر عند مبايعة ابن سعود وقد شعر بحرج عظيم حين بلغه الخبر، فأبرق إلى ابن سعود يطلب منه التفاصيل، كما كتب إليه كتاباً قال فيه ما نصّه: «...إن روتر اليوم نشر بأنكم ناديتم بأنفسكم ملكاً على الحجاز، فإن كان هذا الأمر صحيحاً فقد غشّكم من أشار عليكم بذلك لأن هذه المسألة أثارت الرأي العام في الخارج ضدكم. هذا من جهة، ومن الجهة الأخرى أنه لا ينطبق مع العهود التي قطعتموها على أنفسكم أمام العالم الإسلامي وملوك المسلمين في تشكيل حكومة الحجاز، ولو تريثتم قليلاً لحين انعقاد المؤتمر الإسلامي وتقريره مصير البلاد لكان خيراً وأبقى، والنتيجة كانت لكم على كل حال. ويظهر أن هناك أيدياً أثيمة حسنت في نظركم هذا الأمر حتى تقضي على فكرة المؤتمر الإسلامي وتقضي في الوقت نفسه على سمعتكم في الخارج...». فكتب ابن سعود إلى حافظ وهبة جواباً قال فيه ما معناه: أنه إنما قبل البيعة بهذه السرعة اضطراراً لأن أهل الحجاز قاموا قومة رجل واحد ليلزموه بذلك، كما قامت قيامة أهل نجد، وكلما طلب منهم التريّث أبوا. وختم ابن سعود جوابه قائلاً: «فإزاء هذا الموقف الحرج الذي يتوقف عليه أمن الحجاز الحاضر واستقرار الأمر فيه لم أجد بداً من تلبية البيعة متوكلاً على الله. وإني لا أزال على عهدي من رعاية ما للمسلمين من الحقوق المشروعة في هذه الديار المقدسة»[2].

---

(1) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) ـ بيروت 1954 ـ ص 427 ـ 430.

(2) حافظ وهبة (خمسون عاماً في جزيرة العرب) ـ القاهرة 1960 ـ ص 134 ـ 135.

أما في الهند فقد أعلنت بعض الجمعيات الإسلامية استنكارها لبيعة ابن سعود. وكان أشد تلك الجمعيات استنكاراً جمعية خدام الحرمين، ويليها في ذلك جمعية الخلافة الإسلامية. وأعلن شوكت علي رئيس جمعية الخلافة استنكاره للبيعة وقال: لا يجوز لبضعة عشر حجازياً من أعداء الشريف حسين أن يقرروا مصير الحجاز الذي يجب أن يقرره العالم الإسلامي كله[1].

قررت كل من جمعية الخلافة وجمعية خدام الحرمين إرسال وفد منها إلى الحجاز للتحقيق حول ما أشيع من هدم القبور المقدسة فيه. وقد وصل الوفدان إلى جدة في 22 كانون الثاني 1926. فقوبلا فيها ببرود. واتّخذ وفد جمعية خدام الحرمين موقفاً انتقادياً صلباً تجاه ابن سعود والإخوان، وحاول ابن سعود مجاملتهم والتلطّف معهم دون جدوى. إنهم قدموا لابن سعود أسئلة في بعض الأمور الدينية، وكانت أجوبته غير مرضية أو مقنعة لهم. وطلبوا منه رجلاً للمناظرة معه، كما طلبوا منه شخصياً أن يصلّي أمامهم خلف إمام من أحد المذاهب الأربعة لكي تزول شكوكهم حوله. فلم يلب ابن سعود طلبهم[2].

نفد صبر ابن سعود أخيراً من هذا الموقف الانتقادي الشديد الذي اتّخذه الوفد، فأمر بإخراجه من الحجاز بدعوى أنه من دعاة الفتنة. وفي 3 آذار 1926، غادر الوفد جدة متوجهاً إلى مصر[3].

وفي شهر تشرين الثاني 1926 عُقد مؤتمر إسلامي في لكنو في الهند تحت إشراف جمعية خدام الحرمين، واتخذ قرارات مضادة لابن سعود كما أوصى بعدم تشجيع الحج ما دام الحكم الوهابي قائماً في الحجاز. وقد

---

(1) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في 17 شباط 1926.
(2) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في 17 شباط 1926.
(3) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في 17 شباط 1926.

هاجمت جريدة «أم القرى» هذا المؤتمر وانتقدت قراراته، ووصفت جمعية خدام الحرمين بأنها جمعية أعداء الحرمين[1].

المجتمع الجديد:

يتميز العهد الجديد في الحجاز عن العهد الهاشمي البائد بأمور كثيرة نذكر أهمها فيما يلي:

أولاً: هبوط مكانة الأشراف بحيث صاروا لا يتميزون عن غيرهم بشيء، وربما عند بعض العامة إلى إهانتهم انتقاماً لما سلف منهم. يروي حافظ وهبة قصة لها دلالتها في هذا الشأن خلاصتها: أن أحد الأشراف أعطى ناظوراً له إلى رجل ساعاتي في مكة لإصلاحه، ثم ادّعى بعدئذ أن الساعاتي لم يصلح الناظور طبق الشرط، وأقام عليه الدعوى لدى قاضي مكة. ولما جرت المحاكمة كان حاكم مكة خالد بن لؤي حاضراً فيها، وأراد الشريف أن يجلس إلى جانبه فانتهزه القاضي وأمره أن يقف أمامه مع خصمه. وقال الساعاتي يخاطب خصمه: «إن وقوفي معك جنباً إلى جنب أمام القاضي يساوي عندي الدنيا وما فيها. لقد مضى وقت الظلم، فلقد كانوا يكلفوننا بعمل الأشياء ولا يعطوننا أجرة، بل لا يتنازلون أن يكلمونا، بل كانوا يضربوننا في بعض الأحيان، الحمد لله». فعلق القاضي على هذا الكلام قائلاً: «إن الناس جميعاً أمام الشرع سواء، وأن الأشراف أولى الناس بأتباع جدهم سيد الرسل محمدﷺ الذي يقول: يا فاطمة بنت محمد إني لا أملك لك من الله شيئاً. والله يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[2]. ويقول: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[3]. وحين كان القاضي يتكلم كان

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 11442).

(2) سورة الحجرات، الآية: 13.

(3) سورة المؤمنون، الآية: 101.

الإخوان الواقفون قريباً منه يؤمنون على كلامه ويسمعون الشريف همساً ما يكره من قوارص الكلم. . .[1].

ثانياً: زوال عادة السرقة وقطع الطريق التي كانت شائعة في العهد البائد. ففي أواخر نيسان 1926 ألقي القبض في جدة على لص فقطعت إحدى يديه طبقاً لحكم الشرع، ثم غمست في الدهن المغلي، وطيف به بعدئذٍ في الأسواق ليكون عبرة لغيره[2]. وفي أحد الأيام اعترضت إحدى القبائل البدوية قافلة للحجاج فنهبتها وقتلت بعض أفرادها، فأرسل إليها ابن سعود قوة أحاطت بمقر القبيلة وقتلت كل رجل فيها. وقد استغرب أحد القناصل من هذه القسوة وأبدى استغرابه لابن سعود، فقال له ابن سعود: إن هذه ليست قسوة بل هي رحمة، فهي الطريقة الوحيدة لمعاملة البدو، إذ هي ستشيع أخبارها بين القبائل البدوية وسوف يمتنعون عن نهب القوافل بعدئذ[3].

ثالثاً: تشدد الإخوان تجاه من يخالف السُنّة في نظرهم كالتدخين أو زيارة القبور والأماكن المقدسة. ففي شهر شباط 1926 ذهب أربعة أفغانيين لزيارة غار حراء، وبينما كانوا يصلون عنده لمحهم بعض الإخوان ورموهم بالرصاص، فأصيب اثنان منهم بجروح بسيطة. وفي شهر شباط نفسه حدث حادث آخر كان مثيراً خلاصته: إن سائقاً مصرياً كان جالساً في مقهى بالقرب من الكعبة وهو يدخن، فاقترب منه رجل من الإخوان واختطف السيكارة من فمه وضربه بالعصا. فغضب السائق ونهض واقفاً وانهال على الرجل بلكمات أصابت إحداها عينه. وتبين بعدئذ أن هذا الرجل من آل الشيخ أي من سلالة مؤسس المذهب الوهّابي، فسيق السائق إلى القاضي فأمر القاضي بجلده، وقد مات السائق تحت الجلد[4].

---

(1) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ـ ص 105 ـ 106.

(2) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف .أو. 371 ـ 11442).

(3) David Hawarth (The Desert King) -London 1964- p.148.

(4) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف .أو. 371 ـ 11442).

وفي شهر نيسان 1926 عندما اشتطّ الإخوان في نشاطهم ضد من يخالف السنّة في نظرهم اضطر ابن سعود إلى إصدار تعليمات لتحديد المخالفات وتعيين عقوبة لكل منها. وقد نشرت جريدة «أم القرى» تلك التعليمات، وهي كما يلي:

(1) كل من لا يحضر صلاة الجماعة عن قصد يُعاقب بالسجن من يوم واحد إلى عشرة أيام مع الغرامة.

(2) كل من يشرب الخمرة يُعاقب طبقاً لحكم الشرع، ثم يُسجن من شهر إلى ستة أشهر مع الغرامة، وإذا عاد إلى ذلك مرة أخرى يُنفى من البلد الحرام سنتين.

(3) كل من يصنع الخمر أو يبيعه أو يهيىء محلاً لشربه يُسجن من ستة أشهر إلى سنتين، كما يُصادر محله. وإذا عاد إلى ذلك مرة أخرى يُنفى من البلد الحرام من سنتين إلى ثلاث سنين.

(4) إن التدخين أمر سيئ ومضرّ للبدن والمال والعقل، وقد حرمه بعض العلماء، ولهذا وجب تطهير الأماكن المقدسة من هذا الشر. فكل من يُدخّن علانية يُسجن من يوم واحد إلى ثلاثة أيام مع الغرامة.

(5) كل من يشارك في اجتماع لغرض ترويج الإشاعات الكاذبة، أو التآمر ضد سياسة الحكومة، يُسجن من سنتين إلى خمس سنين، أو يُنفى من الحجاز.

(6) كل من يساعد على إخفاء المجرمين المذكورين في المادة السابقة يعتبر مثلهم ويعاقب مثل عقوبتهم.

(7) كل من يشارك في اجتماع مخالف للشرع يُسجن من ثلاثة إلى ستة أشهر مع الغرامة.

(8) كل اجتماع مقصود به الفائدة يجب أن تُخبر به الحكومة وبموضعه للحصول على الإذن منها.

(9) إن الموظفين المعنيين يجب أن ينفذوا هذه المواد باهتمام بالغ، ومن يهمل منهم يُعاقب بشدة[1].

هدم قبور البقيع:

كان البقيع مقبرة المدينة في عهد النبي وما بعده، ولهذا دُفن فيه العباس عم النبي، والخليفة عثمان، وزوجات النبي، والكثير من الصحابة والتابعين، كما دُفن فيه أربعة من أئمة أهل البيت هم: الحسن بن علي، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، وقد صنع الشيعة لقبور هؤلاء الأربعة ضريحاً باهراً يشبه الأضرحة المعروفة في العراق وإيران، لكن على نطاق أصغر. واعتاد الشيعة أن يزوروا هذا الضريح فيقبلونه ويتبركون به ويصلون عنده على نحو ما يفعلون في أضرحة العراق وإيران.

ظلت هذه القبور سليمة في العهد السعودي أكثر من أربعة أشهر دون أن يمسّها أحد بسوء، وقد بدأ التذمر ينتشر بين الإخوان من جرّاء ذلك، وصاروا ينتقدون ابن سعود ويتهمونه بالتساهل في تنفيذ أوامر الله[2]. فاضطر ابن سعود في أواسط نيسان 1926 إلى إرسال كبير علماء نجد الشيخ عبد الله بن بليهد إلى المدينة للعمل على هدم القبور. وعندما وصل ابن بليهد إلى المدينة اجتمع بعلمائها ووجه إليهم الاستفتاء التالي:

«ما قول علماء المدينة زادهم الله فهماً وعلماً في البناء على القبور واتخاذها مساجد، هل هو جائز أم لا؟ وإذا كان غير جائز بل ممنوع منهي عنه نهياً شديداً، فهل يجب هدمها ومنع الصلاة عندها أم لا؟ وإذا كان البناء في مسبلة كالبقيع وهو مانع من الانتفاع بالمقدار المبني عليها، فهل هو غصب يجب رفعه لما فيه من ظلم المستحقين ومنعهم استحقاقهم أم لا؟ وما يفعله الجهّال عند هذه الضرائح من التمسّح بها ودعائها مع الله والتقرّب بالذبح

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 11442).

(2) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 11442).

والنذر لها وإيقاد السرج عليها، هل هو جائز أم لا؟ وما يُفعل عند حجرة النبيﷺ من التوجّه إليها عند الدعاء وغيره والطواف بها وتقبيلها والتمسّح بها، وكذلك ما يُفعل في المسجد من الترحيم والتذكير بين الأذان والإقامة وقبل الفجر ويوم الجمعة، هل هو مشروع أم لا؟ أفتونا مأجورين وبيّنوا لنا الأدلة المستند إليها لا زلتم ملجأً للمستفيدين».

وافق سبعة عشر رجلاً من الحاضرين على وجوب هدم القبور، وكتبوا في ذلك فتواهم ووقّعوا عليها. وهذا هو نص الفتوى:

«أما البناء على القبور فهو ممنوع إجماعاً لصحة الأحاديث الواردة في منعه، ولهذا أفتى كثير من العلماء بوجوب هدمه مستندين على ذلك بحديث عليّ أنه قال لأبي الهياج: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول اللهﷺ أن لا تدع تمثالاً إلّا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلّا سوّيته»، رواه مسلم. وأما اتخاذ القبور مساجد والصلاة فيها وإيقاد السرج عليها فممنوع لحديث ابن عباس: «لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج»، رواه أهل السنن. وأما ما يفعله الجهّال عند الضرائح من التمسّح بها والتقرّب إليها بالذبائح والنذور ودعاء أهلها مع الله فهو حرام ممنوع شرعاً لا يجوز فعله أصلاً. وأما التوجّه إلى حجرة النبيﷺ عند الدعاء فالأولى منعه كما هو معروف من معتبرات كتب المذهب ولأن أفضل الجهات جهة القبلة. وأما الطواف والتمسح بها وتقبيلها فهو ممنوع مطلقاً. وأما ما يُفعل من التذكير والترحيم والتسليم في الأوقات المذكورة فهو محدث. هذا ما وصل إليه علمنا»[1].

وعلى أثر صدور هذه الفتوى شُرع بهدم قبور البقيع. فأحدث هدمها ضجة في أقطار العالم الإسلامي. وكانت الضجة في الأقطار الشيعية أشدّ مما في غيرها طبعاً.

---

(1) محسن الأمين (كشف الارتياب) ـ ط 3 ـ ص 359 ـ 360.

صدى الحادث في العراق:

وصلت إلى أحد علماء الشيعة في العراق رسالة من رجل شيعي كان في المدينة عند هدم القبور، وهي مؤرخة في 8 شوال 1344هـ، الموافق ليوم 21 نيسان 1926، كان هذا نصها:

«أعرض لكم أن جميع البلاد الحجازية مقهورة تحت سيطرة ابن سعود وحكمه المطلق فيها، ولا يوجد في هذه البلاد من أقصاها إلى أدناها فرد واحد سواء من سكان المدن أو البوادي يسعه أن يقف دون أوامره وإرادته النافذة. ومنذ أيام ورد المدينة قاضي قضاة الوهّابيين - يقصد الشيخ عبد الله بن بليهد - وبينما كان مجلسه غاصاً بعلمائها صرح أمامهم بتحريم زيارة القبور وأنها بدعة في الدين وشرك بالله وأنه يلزم تحصيل الاتفاق من جميع علماء المذاهب الأربعة على تخريبها تماماً ومحو آخر أثر من آثارها على وجه الأرض. ونظراً لذلك فقد مُنعت زيارة جميع المراقد المطهرة وأُغلقت أبوابها. ومنذ عشرين يوماً لم نجرأ على قصد هذه المشاهد المشرقة وزيارتها، إذ إن جنود الوهابيين (الإخوان) قد رصدوا الحرم المطهر النبوي ومنعوا أي زائر من التشرف بزيارة سيدة نساء العالمين عليها السلام ومن التقرّب إلى ضريح رسول الله صلى الله عليه وآله. ثم أن قاضي قضاة الوهابيين لم يتمكن من تحصيل الاتفاق المطلوب من علماء المدينة إلّا بعد أيام إذ استعمل معهم الوسائل الأخرى المخوفة من القوة، والبعض الآخر وافق ابتداءً، فحكموا جميعاً طبق رغبته بتحريم زيارة القبور مطلقاً والتمسح بها إلى الله والاستشفاع بها إليه وتلاوة الزيارة فيها. ثم صدر الأمر بهدم وتخريب المراقد الشريفة، فشرع الجند أولاً بنهب جميع ما تحتويه تلك البنايات المقدسة في البقيع من الفرش والستائر والمعلقات والسرج وغير ذلك. ثم بدؤوا يخربون تلك المشاهد المقدسة وفرضوا على جميع بنائي المدينة الاشتراك في التخريب والتهديم. والغرض الآن أن يقف على خبر هذه الفاجعة جميع المؤمنين الذين يأملون بواسطة هؤلاء الأئمة الطاهرين الشفاعة والزلفى من الله تعالى، ويشتركوا جميعاً سواء العربي والفارسي والهندي

والتركي، فيضج كل منهم إلى حكومته للتدخل في رفع هذه الغائلة العظمى وتدارك ما وقع. اليوم وهو ثامن شوال وقع التخريب والهدم في القبة المقدسة في البقيع، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. يلزم عليكم أن تبادروا إلى إخبار علماء العراق جميعاً بهذه الحادثة الفجيعة»[1].

وفي الوقت نفسه بدأت البرقيات ترد تباعاً إلى علماء الشيعة في العراق، ننقل فيما يلي البرقية التي وصلت إلى السيد حسن الصدر في الكاظمية وهي: «عظم الله أجوركم في مصيبة الرسول وأهل بيته. الوهابيين خربوا القبور المقدسة».

قرر علماء الشيعة على أثر تلقيهم هذه الأخبار إعلان الحزن وإظهار الحداد وترك التدريس وإقامة صلاة الجماعة. وعُقد في صحن الكاظمية اجتماع حضره جمهور كبير من الناس، وتُليت فيه البرقيات والرسائل الواردة في هذا الشأن، كما نظمت البرقيات التي تقرر إرسالها إلى ملوك وعلماء العالم الإسلامي في أقطارهم المختلفة. وجرى مثل ذلك في كربلا والنجف. ننقل فيما يلي نص البرقية التي أبرقها علماء النجف إلى رضا شاه في طهران:

«حسب الأنباء الموثوقة إن الوهابية بعد نهبهم حرم أئمة البقيع حكم قاضي القضاة بهدم وتخريب البقيع الشريف بما فيه من القباب والضرائح المقدسة. وقد بوشر بالعمل في الثامن من شوال. ومن المتيقن أن حفظ نواميس الدين الإسلامي بوجه عام والمذهب الجعفري على الأخص في ذمة الملك الجعفري. وآمال العموم معقودة ومقصورة على غيرة وحمية جلالتكم. ونحن منتظرون بفارغ الصبر قيامكم بأكبر الواجبات في أسرع وقت إن شاء الله»[2].

وأخذت الجرائد العراقية تنشر المقالات في التنديد بابن سعود وشجب

---

(1) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في 25 أيار 1926.

(2) مجلة (المرشد) ـ في عددها الصادر في حزيران 1926.

أعماله. فقد كتبت جريدة «العراق» في مقالة افتتاحية لها تقول: «قضي الأمر وأصدر ابن بليهد الفتوى المعلومة فقام بأكبر خدمة لسيده ابن سعود ولم يعلم بأن مسعاه كان سهماً أصاب كبد العالم الإسلامي فآلمه أيما ألم»[1]. كما نشرت مقالة أخرى بقلم إسماعيل آل ياسين من الكاظمية عنوانها «الطاغية الكبرى والأماكن المقدسة في الحجاز» ورد فيها ما نصّه: «أيها المسلمون ما هذا السبات وما هذا الجمود الذي أدّى بكم إلى السكون وإلى عدم الاكتراث بهذه القضايا المؤلمة والأدوار المخزية التي يمثلها ذلك الطاغية في البلاد المقدسة...»[2].

وفي 4 حزيران 1926 نشرت جريدة «العراق» حديثاً جرى بين أحد محرريها والسيد محمود الكيلاني نقيب أشراف بغداد أعلن فيه السيد محمود انتقاده لما قام به الوهابيين من هدم قبور البقيع، وذكر أن بناء القبب على القبور ليس مخالفاً للسُنّة النبوية لأن النبي نفسه دُفن في حجرة عائشة وهي حجرة ذات جدران وسقف كالقبة. وذكر أيضاً أن تقبيل الأضرحة هو من باب تقبيل المحبوب وهو أمر غير ممنوع في الإسلام.

ونشرت «العراق» بعدئذٍ ثلاثة أبيات من الشعر طالبة من الشعراء تشطيرها وتخميسها، وهي:

لعمري أن فاجعة البقيع يشيب لهولها فود الرضيع

وسوف تكون فاتحة الرزايا إذا لم نصح من هذا الهجوع

فهل من مسلم لله يرعى حقوق نبيه الهادي الشفيع

وقد شارك في تشطير هذه الأبيات وتخميسها عدد من الشعراء كان من بينهم مصطفى جواد وإسماعيل آل ياسين وكمال نصرت وعبد المهدي الأزري ومسلم متفجع من الكاظمية[3].

---

(1) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في 27 أيار 1926.

(2) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في 29 أيار 1926.

(3) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في 2 أيلول 1926، وعددها الصادر في 16 أيلول 1926.

حل شهر محرم عامذاك في 12 تموز، فكانت خطب مجالس التعزية ونوحيات المواكب الحسينية تدور في معظمها حول «فاجعة» البقيع، وتناشد الإمام الغائب للظهور للانتقام من ابن سعود.

ومن الجدير بالذكر أن يوم 8 شوال ـ وهو اليوم الذي هُدمت فيه قبور البقيع ـ أصبح يوم حداد في السنوات التالية في النجف وكربلا، حيث تُغلق فيه الأسواق وتخرج مواكب اللطم، على نحو ما اعتادوا عليه في وفيات الأئمة. ويقال إن أهل كربلا ظلّوا مستمرين على ذلك بضع سنوات، وقد أطلقوا على الثامن من شوال اسم «وفاة البقيع».

ما زال الشيعة حتى الآن يأملون أن تسنح لهم الفرصة لكي يعيدوا بناء قبور البقيع. ولو أتيحت لهم الفرصة لبنوها خيراً مما كانت أضعافاً. حدثني أحد الثقات أن شيعة البهرة في الهند جمعوا الأموال الوفيرة ووضعوا التصاميم لإعادة بناء القبور. وأذكر أني عند زيارتي لجامع الشيعة الاثني عشرية في كراجي عام 1958 شاهدت فيه ضريحاً ذهبياً ثميناً. وحين سألت عنه قيل لي إنه ضريح قبور البقيع، وقد صُنع من تبرعات الشيعة في باكستان والهند بانتظار السماح له بنقله إلى المدينة عندما تتاح الفرصة. ولست أدري متى سوف تُتاح هذه الفرصة؟

في موسم الحج:

في شهر حزيران 1926 حلّ أول موسم للحج في العهد السعودي، وقد جاء إلى الحجاز فيه حجاج كثيرون يقرب عددهم من عدد الذين حجوا في الموسم الأسبق. وقد أدّى ذلك إلى اصطدامات ومشاحنات كثيرة بين الحجاج والإخوان. فالحجاج كانوا يريدون القيام بشعائرهم حسب عاداتهم القديمة بينما كان الإخوان يعدّون ذلك مخالفاً للسُنّة ويقاومونه.

كان ابن سعود قد عيّن حافظ وهبة نائباً عنه في إدارة شؤون مكة للحد من غلواء الإخوان. ويقول حافظ وهبة في كتابه: إن الإخوان كانوا قساة في

معاملتهم لمن يرتكب في نظرهم معصية أو يخالف أمراً من أوامر الله، إذ كان كل واحد منهم يعتبر نفسه حاكماً تجاه ذلك، وكانت العصا تعمل عملها باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويروي حافظ وهبة: أنه في يوم من أواخر شهر ذي القعدة في عام 1926 بينما كان في دار الحكومة في مكة حضر إلى الدار قنصل مصر ونائب قنصل الهند ونائب قنصل هولندا ومعهم نحو عشرة من الحجاج والدماء تسيل منهم بسبب اعتداء الإخوان عليهم، فوعدهم حافظ بمعالجة الموضوع وأكّد لهم أن مثل هذه الأمور لا يخلو منها بلد في العالم، ولكنهم احتجوا بأن هذا التعدّي كان باسم الدين وبتأييد الحكومة وأنه حدث على مرأى من رجال الشرطة، فأكّد لهم حافظ أن الحكومة لا علم لها بأمثال هذه الحوادث وأنها لا تقرّ هذا التعدّي. ويقول حافظ وهبة: إنه ذهب إلى ابن سعود ليشرح له خطورة الأمر وما سوف تؤدي إليه أعمال الإخوان من الفوضى. فلم يهتم ابن سعود بكلامه مما اضطره إلى الاستقالة من منصبه. وقد أدرك ابن سعود فيما بعد مبلغ تطرف الإخوان فكلف رجال حرسه لتأديب الإخوان، وعيّن قاضياً للنظر في المشاكل التي تنتج عنهم[1].

كانت حادثة المحمل المصري أهم ما حدث في ذلك الموسم من نزاع بين الإخوان والحجاج، وهي كادت تؤدي إلى مذبحة عامة. وخلاصة الحادثة: أن الحكومة المصرية اعتادت منذ زمن بعيد أن ترسل في كل موسم محملاً يدعى «المحمل النبوي» ومعه جنود ومدافع وموسيقى عسكرية وقائد يدعى «أمير الحج». وتلك أمور يستنكرها الإخوان استنكاراً شديداً، إذ هم يعتبرون المحمل وثناً يُعبد من دون الله، كما يسمون البوق الذي يتقدمه بـ «صوت الشيطان».

ولمّا اقترب موسم الحج في عام 1926 كتبت الحكومة السعودية إلى الحكومة المصرية تطلب منها الالتزام بثلاثة شروط عند مجيء المحمل

---

(1) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص 306 ـ 308.

والحجاج إلى الحجاز، وهي: (1) عدم مصاحبة الموسيقى للمحمل بعد جدة، (2) عدم التدخين، (3) عدم زيارة القبور والطواف حولها. فكتبت الحكومة المصرية إلى شيخ الأزهر ومفتي الديار المصرية تستفتيهما في ذلك، فأفتى هذان الرجلان بأن الأمور الثلاثة التي ذكرتها الحكومة السعودية ليست مخالفة للكتاب والسُنّة، وذكرا الأدلة الشرعية التي تؤيد فتواهما[1].

ظهرت أولى بوادر الأزمة عند وصول المحمل إلى ساحة الحرم في مكة. فقد أُنزل المحمل في الساحة وجاء إليه بعض الحجاج يتبركون به. فثارت ثائرة الإخوان. فأرسل ابن سعود إلى أمير الحج محمود عزمي باشا يرجوه أن يُدخل المحمل في موضع محجوب تجنباً للفتنة، فلبّى الباشا الرجاء بعد الإلحاح الشديد من قبل بعض الوسطاء.

وفي عصر 8 ذي الحجة 1344هـ، الموافق ليوم 19 حزيران 1926م، خرج المحمل من مكة متوجهاً إلى جبل عرفات، وفي الساعة السابعة والنصف من مساء ذلك اليوم حين توقف المحمل بالقرب من منى اقترب منه جمع من الإخوان وأخذوا يسبونه صارخين: «هبل، هبل»، وقذفوه بالحصى والأحجار. فأمر محمود عزمي باشا جنوده بالاصطفاف العسكري، وطلب من الإخوان التفرّق، فلم يأبهوا له. فأمر الباشا جنوده بإطلاق القنابل والرصاص في الهواء إرهاباً للإخوان، فلم يؤثر ذلك فيهم. وقيل إن الإخوان أطلقوا الرصاص على جنوده[2]. وعند هذا أمر الباشا بإطلاق القنابل والرصاص على الإخوان مباشرة، فسقط منهم خمسة وعشرون قتيلاً وعدداً أكبر من الجرحى[3].

كان قد حج في ذلك العام نحو ستين ألف شخص من نجد، وكانوا قد خيّموا في منى. وحين بلغ هؤلاء ما حل بإخوانهم هرعوا إلى موضع الحادثة

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 11442).
(2) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 11442).
(3) Armstrong (Lord of Arabia) -London 1938 -p.193.

وهم يحملون بنادقهم. وبلغ ذلك ابن سعود، وكان مخيماً بالقرب من الموضع، فجاء يعدو، ثم وقف بين الفريقين وهو ينادي فيهم: «أنا عبد العزيز! أنا عبد العزيز!». فتوقف إطلاق النار. وأمر ابن سعود جنوده بإخفاء المحمل وحمايته، ثم أرسله بعدئذٍ إلى جدة بحراسة جنود سعوديين تحت قيادة الأمير مشاري بن سعود بن جلوي[1].

ويروي أرمسترونج: أن ابن سعود اقترب عقب الحادثة من أمير الحج المصري محمود عزمي باشا، وأخذ يعنّفه على ما فعل، فردّ عليه الباشا قائلاً مع شيء من الزهو والعجرفة: «احتراماً لجلالتكم توقفت عن الضرب، ولولا ذلك لأفنيت هؤلاء الغوغاء كلهم». فسيطر ابن سعود على أعصابه وقال له: «ليس هذا وقت التفاخر، فهنا مكان مقدس أمر الله أن لا يُقتل فيه أحد، وأنتم ضيوفنا وتحت حمايتنا، ولولا ذلك لعاقبتك»[2].

حين وصل الخبر إلى الملك فؤاد، ملك مصر، اشتدّ غضبه، وأمر بالانقطاع عن إرسال كسوة الكعبة التي اعتادت مصر إرسالها في كل عام، كما أمر بالانقطاع عن إرسال المال إلى الحجاز من ريع أوقاف الحرمين في مصر. وفي 13 أيار 1927 ـ عندما اقترب موسم الحج التالي ـ نشرت جريدة «الأهرام» المصرية بلاغاً رسمياً ورد فيه: إن الحكومة المصرية قررت العدول عن إرسال المحمل في هذا العام وهي تعلن للحجاج المصريين بأنهم قد يستهدفون لبعض المخاطر عند سفرهم إلى الحجاز، وأنها غير مسؤولة عن حمايتهم، فإذا أرادوا السفر كان ذلك على مسؤوليتهم.

ظلّت الحكومة المصرية تتبع هذه السياسة تجاه الحج حتى آخر أيام الملك فؤاد. ويُروى أن الملك فؤاد عندما كان على فراش الموت في عام

---

(1) خير الدين الزركلي (شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز) ـ بيروت 1977 ـ ج 2 ص 663 ـ 664.

(2) Armstrong (op. cit.) -p.193.

1930 دخل عليه رئيس ديوانه علي ماهر باشا وقال له: «ألا تجعل في صحيفة عملك الدخول في مفاوضة مع بلاد الحرمين الشريفين؟». فأشار الملك بما معناه: «لا بأس».

عادت العلاقات الودّية بين مصر والمملكة السعودية بعد موت الملك فؤاد، وسُمح للمصريين بالحج، كما عاد إرسال الكسوة إلى الكعبة في كل عام. غير أن المحمل ظلّ ممنوعاً من الدخول إلى الحجاز. وصار المصريون يحتفلون بالمحمل في كل سنة لكنهم لا يتجاوزون به مدينة السويس[1].

عقد المؤتمر الإسلامي:

كانت الرسائل والبرقيات ترد إلى ابن سعود من الهند وغيرها تطالبه بعقد المؤتمر الإسلامي الذي وعد به من قبل. وكان حافظ وهبة من جانبه يكرر إلحاحه على ابن سعود في سبيل ذلك. وقد وافق ابن سعود أخيراً على عقد المؤتمر بشرط أن لا يتعرض المؤتمر لموضوع نظام الحكم في الحجاز. وفي 26 آذار 1926 وجهت الدعوة إلى جميع الهيئات والحكومات الإسلامية لحضور المؤتمر الذي سيعقد في 20 ذي القعدة 1344هـ الموافق ليوم 2 حزيران 1926.

استجاب للدعوة ممثلون من مختلف الأقطار الإسلامية ما عدا إيران والعراق. ووصل الإخوان محمد علي وشوكت علي لتمثيل جمعية الخلافة الإسلامية، كما وصل ضياء الدين بن فريد الدين لتمثيل مسلمي الاتحاد السوفياتي. وكان يمثل الجانب السعودي فيه أربعة هم: حافظ وهبة ويوسف ياسين وعبد العزيز العتيقي وعبد الله بن بليهد كبير علماء نجد.

جرى افتتاح المؤتمر في مكة في 7 حزيران. وألقى حافظ وهبة خطبة الافتتاح بالنيابة عن ابن سعود. وقد تضمنت الخطبة الأسباب التي حدت بابن سعود لقبول البيعة بملك الحجاز، وخلاصتها: إن أهل الحل والعقد في

---

(1) خير الدين الزركلي (المصدر السابق) ـ ج 2، ص 669.

الحجاز ونجد اضطروه إلى ذلك، وهو قد رفض طلبهم في أول الأمر ثم وافق استجابة لحكم الشرع «لأننا آل سعود لسنا ملوكاً مستبدين، ولا حكّاماً شخصيين، بل نحن في بلادنا مقيدون بأحكام الشرع ورأي أهل الحل والعقد. . . وإذا أنا خالفتهم بغير حجة شرعية يقبلونها فإنهم لا يطيعونني، وفي ذلك من الفساد ما لا يخفى. وقد بايعني جمهور الحضر ورؤساء قبائل البادية وهؤلاء يُعدّون من أهل الحل والعقد لأن قبائلهم تتبعهم سلماً وحرباً». ثم طلب ابن سعود من الحاضرين في المؤتمر أن يتشاوروا في مصالح الحجاز الدينية والعمرانية، وفي تطهيره من البدع والخرافات والفواحش والمنكرات التي كانت فاشية فيه بدون نكير، ثم قال لهم: إن لهم الحرية المطلقة فيما يتناقشون فيه إلّا في أمرين يجب أن يبتعدوا عنهما أحدهما: الخوض في السياسة الدولية، والثاني: ما بين بعض الشعوب الإسلامية وحكوماتها من خلاف، فإن هذا من المصالح الموضعية الخاصة بتلك الشعوب. وختم ابن سعود الخطبة قائلاً: «إن المسلمين قد أهلكهم التفرّق في المذاهب والمشارب، فائتمروا في التأليف بينهم والتعاون على مصالحهم ومنافعهم العامة المشتركة، وعدم جعل اختلاف المذاهب والأجناس سبباً للعداوة بينهم. . .»[1].

استمرّت جلسات المؤتمر عشرة أيام. وفي 17 حزيران تأجّلت جلساته لإتاحة الفرصة للوفود للقيام بشعائر الحج. وفي أثناء ذلك وصل إلى مكة وفدا مصر وتركيا، فاستؤنفت جلسات المؤتمر من جديد في 22 منه، وقد شهدت الجلسات الأخيرة مجادلات حادّة ومشاجرات قام الوفد المصري بالدور الأول فيها.

نشاط الوفد المصري في المؤتمر:

كانت الحكومة المصرية قد تجاهلت دعوة المؤتمر في بداية الأمر، وذلك حينما كانت وزارة زيور باشا في الحكم، فلما سقطت تلك الوزارة

(1) حافظ وهبة (خمسون عاماً في جزيرة العرب) ـ ص 140 ـ 144.

وتشكّلت وزارة جديدة برئاسة عدلي باشا تقرر إرسال وفد يمثل مصر في المؤتمر. فتألف الوفد من الشيخ محمد الظواهري رئيساً ومن محمد المسيري بك ومحمد توفيق بك عضوين. وقد وجد الوفد مشكلة في الوصول إلى مكة لتأخر الوقت وسفر جميع بواخر الحجاج، فأوعز عدلي باشا بإعداد باخرة الحكومة المصرية «عائدة» لنقل الوفد إلى الحجاز بالسرعة الممكنة. وقد تمكّن الوفد من الوصول إلى مكة والاشتراك في الجلسات الأخيرة للمؤتمر ـ كما ذكرناه آنفاً.

يبدو أن الشيخ محمد الظواهري رئيس الوفد المصري إنما أرسل إلى المؤتمر لغرض معيّن هو انتقاد تطرّف الوهابيين وشجب أعمالهم، ولذا رأيناه يأتي إلى المؤتمر وهو مشحون بالأدلّة النقلية والعقلية التي تناقض أدلة الوهابيين. فكان أوّل عمل قام به في المؤتمر هو أنه قدم اقتراحاً مكتوباً وطلب من الوفود تأييده، وهذا نصه:

«نظراً إلى أن الحجاز الشريف مركز ديني عام لأهل القبلة جميعاً يفِد عليه المسلمون من كل فج على اختلاف مذاهبهم الفقهية والكلامية ليعبدوا ربهم وليقضوا مناسكهم، يقرر المؤتمر أن يُمكّنوا جميعاً من أن يؤدوا عباداتهم ومناسكهم وفق مذاهبهم المذكورة وأن لا يُمنعوا إلّا ما يمسّ كرامة أحد من الأحياء أو الأموات أو يخالف الإجماع المعتبر عند علماء أصول الفقه، ويقرر أن الحكم بأن ما يأتي به الحاج موافق للمذهب الذي ينتسب إليه أو غير موافق إنما يكون لعلماء ذلك المذهب لا لغيرهم».

وقد ألقى الشيخ الظواهري كلمة ارتجالية حثّ بها الوفود على قبول قراره، حيث قال: «. . .سأقول بصراحة وأرجو أن لا يتألم أحد. كم قال القائلون إن النجديين يكفرونكم في كذا وكذا، وقد جئنا لنتبين الأمور ولنتآلف ولنتصافى. . . لقد رأيت بعيني هنا أمراً آلم نفسي. فقد كنت بالحرم أمر خلف المقام بعد الطواف فشاهدت جماعة يلتفون حول شخص مصري ويقولون له بعنف شديد وقسوة: «أأنت قلت يا رسول الله». هنا خاف الشخص في نفسه

وأنكر وانكمش وذعر إلى درجة أفاضت عيني. وقد جاءني بعد ذلك ومعه كثيرون من المصريين يقولون لي: «أرأيت كيف ينكرون علينا»، فهدأت روع من جاءني وقلت لهم: «اطمئنوا ولا تفزعوا واصبروا حتى يتبين الحق إنما الهدى هدى الله». هذا أيها السادة بعض ما يدعونني إلى إقرار هذا الاقتراح الذي أطلب الموافقة عليه. أناشدكم الله ورسوله. وإذا قلت «رسوله» فأرجو أن لا يعترض عليّ معترض، فإن هذا اعتقادي الذي أدين الله عليه. أناشدكم الله ورسوله أن تعملوا بالتسامح وسعة الصدر وعسانا نقضي على أسباب هذه الخلافات التي أضرّت بالمسلمين ضرراً بليغاً».

ناقش المؤتمر اقتراح الظواهري، وبعد مجادلات حوله وافق عليه مما أدّى إلى امتعاض ابن سعود وحاشيته، وقد حدا ذلك بابن سعود إلى إلقاء خطاب أوضح فيه موقفه حيث قال: «. . . لا أريد أن أتدخل في أعمالكم ولا أقيد حرية المؤتمر في البحث كما وعدت بذلك في خطبة الافتتاح، ولكني أريد أن ألفت نظركم إلى بعض الأمور بصفتي زعيماً من زعماء الإسلام الذين أُلقيت إليهم مقاليد أمور هذه البلاد. . . إني لا أريد علواً في الأرض ولا فساداً، ولكن أريد الرجوع بالمسلمين إلى عهدهم الأول عهد السعادة والقوة، عهد الصحابة ومن تبعهم بإحسان. . . إننا لا نكره أحداً على اعتناق مذهب معين أو السير في طريق معين في الدين، فذلك موكول أمره لعلماء الدين وحملة الشريعة. ولكني لا أقبل بحال من الأحوال التظاهر بالبدع والخرافات التي لا يعتبرها الشرع وتأباها الفطرة السليمة. لا يُسأل أحد عن مذهبه وعقيدته، ولكن لا يصحّ أن يتظاهر أحد بما يخالف إجماع المسلمين أو يثير فتنة عمياء بين المسلمين، وخير لنا أن ننظر إلى صالح المسلمين ونترك هذه الأمور الجزئية للعلماء فهم أحرص منّا على ذلك. . .».

كتب الشيخ الظواهري مذكرة في الرد على خطاب ابن سعود، وهي مذكرة طويلة، نقل فيما يلي بعض المقتطفات منها:

(1) أعرب جلالة الملك عن رغبته في ترك المسائل الدينية للعلماء،

ولكن هذا غير ممكن لأن العلماء مختلفون فإذا اجتمعوا تجادلوا وأيقظوا بذلك التعصب المذهبي.

(2) قال جلالته إنه لا يقبل التظاهر بالبدع والخرافات، وهذا قول حق إذا كان المراد به ما يقرره جميع علماء المذاهب الإسلامية، لا ما يقرره فريق منهم دون فريق.

(3) قال جلالته إنه لا يصح أن يتظاهر أحد بما يخالف إجماع المسلمين أو يثير فتنة عمياء، ولكن هذا التعبير واسع النطاق غير محدد المعنى وقد يفهم قوم منه أن منع الناس من أمور جائزة في مذهبهم هو الذي يؤدي إلى إثارة فتنة عمياء. خذ مثلاً منع التدخين، فإن الشيخ ابن بليهد يقول: «نحن لا نمنعه لأنه حرام... وإنما نمنعه لأن النجديين إذا رأوا من يشربه ذبحوه». فمن هم الذين يثيرون الفتنة العمياء؟ هل هم الذين يفعلون ما يبيحه مذهبهم، أم الذين يذبحونهم؟!.

(4) قال جلالته: خير لنا أن ننظر إلى مصالح المسلمين ونترك هذه الأمور الجزئية للعلماء، وقد كنا نودّ أن يُراعى هذا المبدأ من أول الأمر فلا تهدم المآثر وغيرها حتى يرى علماء المذاهب الإسلامية رأيهم فيها...

شاع أمر هذه المذكرة بين الوفود قبل عرضها على المؤتمر، واستحسنوها كلهم ما عدا الوفد السعودي. وجاء أعضاء هذه الوفد إلى الشيخ الظواهري يرجونه عدم تقديم المذكرة إلى المؤتمر، فقال لهم الظواهري إنه يفعل ذلك بشرط أن يسحب الملك خطابه. وقد تمّ الاتفاق على ذلك، وسحب الملك خطابه من المؤتمر فعلاً.

كان اليوم الأخير من المؤتمر حافلاً بالمناقشات الحادة. ففي ذلك اليوم طلب شوكت علي المداولة في اقتراح كان قد قدمه سابقاً وهو يتضمن أموراً ثلاثة: (1) إعادة بناء القباب والمآثر المهدومة في أقرب وقت ممكن، (2) حفظ وصيانة القبور التي لم تُهدم، (3) إناطة أمر بناء القبور التي هُدمت إلى لجنة علماء المذاهب السنية والشيعية، ويكون رأي هذه اللجنة نهائياً.

تكلم الشيخ محمد الظواهري حول هذا الاقتراح قائلاً: «اليوم آخر يوم من أيام المؤتمر ونريد أن ننصرف على سلام وصفاء، وأرى حركة من جانب إخواننا الهنود تدل على شيء من الامتعاض، كما أرى حركة تقابلها من الجانب الحكومي تدل على شيء من الشدة، فأرجو أن لا يكون ذلك. فلينظر الاقتراح الخاص بالقبور والمآثر». فانبرى للرد عليه يوسف ياسين حيث قال: «إذا كنتم لا تريدون خلافاً وتودون أن ينتهي الأمر بسلام فأرجو أن لا يُنظر في هذا الاقتراح لأنه هو نفسه يفتح باباً للشقاق والخلاف». فقال الظواهري رداً عليه: «إننا نريد إزالة سوء التفاهم، أما السكوت على ما نحن عليه فضارّ ونريد أن يصل الصفاء إلى قرارات القلوب. والحق حق مشاع بين الجميع. ومن الحق ما هو حق مر ويجب تلطيفه. وأنتم أدرى وأبصر بعواقب إغضاء القلوب. فاطلب عرض الاقتراح وقراءته». وهنا قام سكرتير المؤتمر فتلا نص الاقتراح، وتكلم شوكت علي في شرحه، ثم وافق المؤتمر على أن يحال الاقتراح على هيئة من العلماء ليروا رأيهم فيه. فقام الشيخ عبد العزيز العتيقي وقال: «أريد التنبيه إلى أننا لا نوافق على اتخاذ القبور أوثاناً، وأن الذي جرى ما مسّ رفاتاً وإنما كان المساس بالأحجار». فرد عليه الظواهري قائلاً: «معاذ الله أن يقول أحد إن المسلمين اتخذوا القبور أوثاناً، ونريد أن لا يتشدد قوماً منا ويتغالون فيما لا فائدة فيه».

انتهى المؤتمر دون أن يتوصل المشاركون فيه إلى نتيجة حاسمة. وفي مساء اليوم الأخير من المؤتمر أقام ابن سعود وليمة للوفود، وقد انتهز الظواهري الفرصة فألقى فيها كلمة طالب فيها بإعادة بناء المآثر التي هُدّمت باعتبار أنها كانت مساجد بينما هي الآن تبول فيها الكلاب. وحين سمع ابن سعود هذا الكلام نهض وغادر المكان...[1].

يقول القنصل البريطاني في تقريره السري إلى حكومته: المظنون أن

(1) فخر الدين الظواهري (السياسة والأزهر) ـ القاهرة 1945 ـ ص 240 ـ 250.

المؤتمر كلف ابن سعود ما لا يقل عن العشرين ألف جنيه كان بعضها نفقات للوفود والبعض الآخر رشوات لهم. وذكر القنصل أن أعضاء الوفود باستثناء القليل منهم قبضوا الرشوات من ابن سعود كل حسب أهميته. فالشيخ رشيد رضا مثلاً قبض ألفي جنيه، وأمين الحسيني قبض ألفاً، وأبو العزائم قبض ثلاثمائة. وكان قصد ابن سعود من ذلك أن يجتذب قلوبهم ويضمن دعاية حسنة له في بلادهم[1].

مأزق ابن سعود:

رأينا ابن سعود في المؤتمر يدافع عن الإخوان ويبرر أعمالهم، ولكنه في أعماق نفسه لم يكن راضياً عنهم. ومن الممكن القول إن ابن سعود كان تجاه الإخوان في مأزق ذي حدين، وهو ما يسمى في الاصطلاح العلمي بالـ (Dilemma)، أي الوقوف بين خيارين كلاهما سيئ. إنه كان من جهة مديناً للإخوان بما قدموه له من تضحيات وما خاضوا في سبيله من حروب، ولكنه كان من الجهة الأخرى رجل سياسة يسير وفق ما يمليه عليه فن الممكن، وهو لذلك كان يرى في الإخوان حركة تعصبية تثير المشاكل وتعرقل نموّ الدولة. وقد يصحّ أن نقول بعبارة أخرى: إن ابن سعود كان يعاني صراعاً نفسياً تجاه الإخوان، فهو لا يستطيع أن يتحمل تعصبهم من جهة، ولا يستطيع أن يستغني عنهم من الجهة الأخرى.

قلنا إن ابن سعود لم يكن في أعماق نفسه راضياً عن الإخوان. والواقع أنهم هم أيضاً لم يكونوا راضين عنه. إنهم كانوا منذ بداية حركتهم ينتقدون ابن سعود لكونه يلبس العقال بدلاً من العمامة ويطيل شاربه وملابسه. وكانوا كذلك ينتقدون المشايخ ـ أي علماء الدين النجديين ـ حيث يتهمونهم بأنهم مقصرون في دينهم يداهنون ابن سعود ويكتمون الحق عنه.

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 11442).

اتّبع ابن سعود مع الإخوان في البداية مبدأ التسامح والتساهل، فكان يقول دائماً: «إن الإخوان يجب احتمالهم. ومهما فعلوا فحالتهم الآن خير من حالتهم الأولى. وأما العصبية والشدّة فالزمن كفيل بتخفيف حدتها». وحين نصحه بعض أصحابه بوجوب الحدّ من غلوّ الإخوان قال لهم: «هؤلاء أولادي وواجبي احتمالهم والتجاوز عن سيئاتهم وخطئهم، وبذل النصح لهم، وإني لا أنسى أعمالهم وأعتقد أنهم حسنوا النية وسينكشف الحق لهم»[1].

كان ابن سعود يظن أن الإخوان سيخف تطرفهم بمرور الزمن، ولكنه وجد أخيراً أن تطرفهم قد اشتدّ بدلاً من أن يخف. وفي عام 1914 اضطر ابن سعود إلى عقد اجتماع لعلماء نجد للبحث في هذا الأمر. وقد اجتمع العلماء في 30 أيلول، وبعد المناقشة أصدروا منشوراً ينصحون الإخوان فيه بالاعتدال. وقد تضمّن المنشور الأمور التي جرت المناقشة حولها، والتي اعتاد الإخوان تكفير الناس بها، وهي خمسة نذكرها فيما يلي:

الأول: هل يطلق الكفر على بدو المسلمين الثابتين على دينهم القائمين بأوامر الله ونواهيه؟ أم لا؟

الثاني: هل من فرق بين لابس العقال ولابس العمامة إذا كان معتقدهما واحداً؟ أم لا؟

الثالث: هل في الحضر الأولين وفي المهاجرين الآخرين فرق؟ أم لا؟

الرابع: هل في ذبيحة البدوي الذي هو في ولاية المسلمين، ودربه دربهم، ومعتقده معتقدهم، وفي ذبيحة الحضر الأولين أو المهاجرين فرق حلال أو حرام؟ أم لا؟

الخامس: هل للمهاجرين أمر أو رخصة في اعتدائهم على الذين لم يهاجروا، فيضربونهم أو يؤدبونهم أو يهددونهم أو يلزمونهم بالهجرة؟ أم لا؟

---

(1) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ـ ص 293 ـ 294.

وهل لأحد أن يهجر أحداً، بدوياً كان أو حضرياً، بغير أمر واضح أو كفر صريح أو شيء من الأعمال التي يجب هجره عليها بغير إذن من ولي الأمر أو الحاكم الشرعي؟

وجاء في ختام المنشور أن العلماء أفتوا بما نصّه: «إن كل هذه الأمور مخالفة للشرع وما أمرت به الشريعة، وإن الذي يفعلها يُنهى عنها ويُزجر، فإن تاب وأقرّ بخطئه فيُعفى عنه، وإن استمرّ على أمره وعاند فيجب عليه تأديب ظاهر بين المسلمين، وأن لا يعادي ولا يصادق إلّا على ما أمرت به الولاية أو حكم به حاكم الشرع. والذي يفعل ما يخالف ذلك فطريقته غير طريق المسلمين. وهذا الذي ندين به ونشهد الله عليه، ونرجو أن يوفقنا وإياكم للخير، وصلّى الله على محمد وآله وصحبه وسلّم ـ سنة 1337 ـ الإمضاءات والأختام»[1].

وزع هذا المنشور في قرى الإخوان ، كما وزع معه منشور آخر موقع من ابن سعود ينصحهم بأتباع ما أفتى به علماء الدين باعتبارهم أعلم بالشريعة منهم. والظاهر أن هذين المنشورين لم يكن لهما أي تأثير جدي في الإخوان. وعلى أي حال فإن الإخوان قد ازداد تطرفهم عند فتح الحجاز. يقول حافظ وهبة: إن تطرّق الإخوان قد ازداد بعد فتح جدة واستسلام الحجاز كله، وكثيراً ما كان ابن سعود يشتد عليهم ويتبرأ من غلوائهم ولكن تعديهم لم ينقطع وقسوتهم كانت مستمرة[2].

والواقع أن الإخوان لم يقفوا عند حد التدخل في شؤون الناس، بل صاروا يتدخلون في شؤون ابن سعود نفسه. ففي شهر تشرين الأول 1925 عندما كان السر جلبرت كلايتون يفاوض ابن سعود في بحرة بالقرب من جدة خرج مساعدوه يتمشون خارج المخيم، وكان هناك جماعة من الإخوان

---

(1) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص 433 ـ 434.
(2) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص 327 ـ 308.

يصلون، فانبرى لهم رئيسهم وأخذ يهددهم، وقال لهم إنهم قد نجسوا الأرض المقدسة التي كانوا يصلون عليها. ولما بلغ ابن سعود ذلك استدعى إليه رئيس الجماعة وأخذ يعنفه قائلاً: «بأي حق تكلم ضيوفي بهذه الطريقة، وبأي حق تحتكر الأرض المقدسة لك ولأصحابك. أيها الكلب، إن الأرض كلها لله، وكلها للصلاة». ثم أمر بجلد الرجل ليكون عبرة لغيره[1].

وعندما بدأ ابن سعود يستعمل بعض المخترعات الحديثة في مكة، كالتلفون والدراجة الهوائية استنكر الإخوان منه ذلك. فالدراجة في نظرهم تسير بقوة السحر وعمل الشيطان، بدليل أن الراكب إذا نزل عنها لا تقف، وهم يسمونها بـ «عربة الشيطان» أو «عربة إبليس». وحدث مرة أن خادماً لابن سعود كان راكباً دراجة في حاجة له فاعترضه أحد الإخوان وضربه.

وحين أمر ابن سعود بمد أسلاك التلفون بين مكة ومعسكره خارجها أخذ الإخوان يقطعون الأسلاك بحجّة أنها منكر يجب إزالته[2]. وقد اضطر ابن سعود إلى تأجيل مد الأسلاك بضعة أسابيع، وظلّ يعمل في إقناعهم بأن التلفون ليس من عمل الشيطان بدليل أنه ينقل آيات القرآن حين تتلى فيه مع العلم أن الشيطان يفرّ من تلاوة القرآن حسب معتقدهم. وقد اقتنعوا أخيراً بصحة ما قال، وتمّ مد الأسلاك[3].

فيصل الدويش:

إن فيصل الدويش رئيس قبيلة المطير كان من أكثر الإخوان تطرفاً وتعصباً، وكان أول من أعلن التذمر من ابن سعود حيث اعتبره متساهلاً في دينه ليناً مع الكفار. وقد ظهرت أولى بوادر تذمره في عيد الفطر من عام 1343هـ، ويوافق 25 نيسان 1925. يقول حافظ وهبة: إنه ذهب في ذلك

---

(1) Armstrong (op. cit.) p.199-200.

(2) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص 293.

(3) خير الدين الزركلي (المصدر السابق) ـ ج 2، ص 742.

اليوم هو وعبد الله الدملوجي لمعايدة حاكم مكة خالد بن لؤي، فوجد عنده فيصل الدويش وجماعة من الإخوان، وأخذ فيصل يتكلم كلاماً فيه معنى الإنذار حيث قال: «نحمد الله يا خالد ويا الإخوان على نعمته، فقد دخلنا بلد الله الحرام وطردنا الشريف من هذا البيت. إننا جند الله وخدّام لدينه، لا نريد إلا أن تكون كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهر، ولا نريد إلّا رفع المظالم وإزالة البدع والمنكرات. وإن هذا السيف وهذا الجند سيعمل هذا العمل في كل من يسير في طريق الشريف ويعمل عمله». فأمّن الإخوان على كلامه[1]...

كان فيصل الدويش قد نيط به أمر حصار المدينة. فهاجم قرية «العوالي» القريبة من المدينة، وأخذ يقتل سكانها وينهبهم على عادته في كل بلدة يفتحها. ويقال إنه كان عازماً على هدم قبة النبي في المدينة حيث وجّه عليها مدافعه، فقد كان يعتقد بأن هذه القبة لا تختلف عن غيرها من القباب المقدسة ويجب هدمها. وهو كاد يفعل ذلك لو لم يتدارك أمره ابن سعود، فأوعز إليه بترك المدينة والعودة إلى قريته «الأرطاوية». ثم ناط أمر حصار المدينة بابنه محمد.

عاد فيصل إلى الأرطاوية وهو حانق حاقد على ابن سعود، وصار يبثّ الإشاعات في قرى الإخوان متهماً ابن سعود بأنه باع نفسه إلى الإنكليز الكفار. وأخذ يلتف حوله الكثير من الإخوان المتذمرين مثله. وفي خريف 1926 عقد الإخوان المتذمرون في الأرطاوية مؤتمراً لهم تعهدوا فيه بنصرة دين الله والجهاد في سبيله، وأعلنوا استنكارهم للأعمال التي قام بها ابن سعود والتي هي في نظرهم مناقضة لدين الله، وكانت سبعة هي:

(1) إرسال ولده سعود إلى مصر. (2) إرسال ولده الثاني فيصل إلى لندن بلد الشرك. (3) استخدام السيارات والتلغرافات والتليفونات. (4) فرض

---

(1) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص 294 ـ 295.

الضرائب في نجد والحجاز. (5) إذنه لعشائر العراق وشرقي الأردن بالرعي في أراضي المسلمين. (6) منع المتاجرة مع الكويت، فإذا كان أهل الكويت كفاراً حوربوا وإذا كانوا مسلمين فلماذا مقاطعتهم. (7) التساهل مع روافض الأحساء والقطيف وعدم إجبارهم على الدخول في دين أهل السُنّة والجماعة.

كان ابن سعود في مكة حين وصلته أخبار مؤتمر الأرطاوية، فأسرع عائداً إلى الرياض، واستدعى إليه رؤساء الإخوان لعقد مؤتمر يجتمعون فيه مع علماء الدين. وقد انعقد المؤتمر في 7 كانون الثاني1927 وحضره فيصل الدويش وجميع المتذمرين ما عدا واحداً منهم هو سلطان بن بجاد رئيس قبيلة عتيبة. وتكلم ابن سعود فقال عن نفسه إنه ما زال خادماً للشريعة يحافظ عليها كل المحافظة، وأنه لم يتغير عما كان عليه من قبل كما يتوهم بعض الناس. وانتهى المؤتمر بفتوى أصدرها العلماء يجيبون فيها على المسائل التي أثارها الإخوان. ننقل فيما يلي أهم جزء من الفتوى:

«أما مسألة البرقي ـ يقصدون التلغراف ـ فهو أمر حادث في آخر الزمان، ولا نعلم حقيقته، ولا رأينا فيه كلاماً لأحد من أهل العلم، فتوقفنا في مسألته، ولا نقول على الله ورسوله بغير علم، والجزم بالإباحة والتحريم يحتاج إلى الوقوف على حقيقته. وأما مسجد حمزة وأبي رشيد فأفتينا الإمام، وفّقه الله، بهدمهما على الفور. وأما القوانين فإن كان موجوداً منها شيء في الحجاز فيزال فوراً ولا يحكم إلّا بالشرع المطهر... وأما الرافضة فأفتينا الإمام أن يلزمهم البيعة على الإسلام ويمنعهم من إظهار شعائر دينهم الباطل، وعلى الإمام أيضاً أن يلزم نائبه على الإحساء أن يحضرهم عند الشيخ ابن بشر ويبايعوه على دين الله ورسوله وترك دعاء الصالحين من أهل البيت وغيرهم، وعلى ترك سائر البدع من اجتماعهم على مآتمهم وغيرها مما يقيمون به مذهبهم الباطل، ويمنعون من زيارة المشاهد، وكذلك يلزمون بالاجتماع على الصلوات الخمس هم وغيرهم في المساجد، ويُرتّب فيهم أئمة ومؤذنون من أهل السُنّة، ويلزمون بتعليم ثلاثة الأصول، وكذلك إن كان لهم محال مبنية

لإقامة البدع تهدم، ويمنعون من إقامة البدع في المساجد وغيرها. ومن أبى قبول ما ذكر ينفى من بلاد المسلمين... وأما رافضة العراق الذين انتشروا وخالطوا بادية المسلمين فأفتينا الإمام بكفهم عن الدخول في مراعي المسلمين وأرضهم. وأما المكوس فأفتينا إنها من المحرمات الظاهرة فإن تركها فهو الواجب عليه وإن امتنع فلا يجوز شق عصا طاعة المسلمين والخروج عن طاعته من أجلها. وأما الجهاد فهو محول إلى نظر الإمام وعليه أن يراعي ما هو الأصلح للإسلام والمسلمين على حسب ما تقتضيه الشريعة الغرّاء. ونسأل الله لنا وله ولهم ولكافة المسلمين التوفيق والهداية، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. حرر في 8 شعبان سنة 1345هـ»[1].

حاول ابن سعود تنفيذ هذه الفتوى ترضية للإخوان، وكان من جملة ما فعله من أجل ذلك أنه أمر بهدم مسجد حمزة الواقع عند جبل أحد بالقرب من المدينة وهو مشيّد على قبر حمزة عم النبي. وكذلك أمر بالتضييق على شيعة الإحساء والقطيف، فهم كانوا قبلئذ يقومون بشعائرهم الحسينية في داخل دورهم وحسينياتهم، فمنعوا من ذلك منعاً باتاً وأغلقت حسينياتهم. وقد شمل هذا المنع أيضاً الشيعة الذين يسكنون في حارة النخاولة في المدينة.

الإخوان يهاجمون العراق:

في عام 1927 قررت الحكومة العراقية بالتفاهم مع الحكومة البريطانية إقامة مخافر للشرطة مجهزة باللاسلكي والسيارات المصفحة بالقرب من الحدود النجدية للإشراف على تنقلات البدو ومنع الغزو. وفي تشرين الأول بدأ ببناء أول مخفر في موضع يدعى «البصية» يقع على بعد 125 كيلومتراً من حدود نجد. وحين بلغ ابن سعود ذلك تخوّف منه، وظنّ أن الملك فيصل إنما يبني تلك المخافر بالتفاهم مع الإنكليز ليجعلها حصوناً أمامية في الصحراء تمهيداً لغزو بلاده في المستقبل.

---

(1) المصدر السابق ـ ص 296 ـ 297.

وفي مساء 5 تشرين الثاني هاجمت جماعة من الإخوان مخفر «البصية» وكان لا يزال قيد الإنشاء، فقتلوا عدداً من العمال والشرطة الذين كانوا فيه، ثم عادوا من حيث أتوا. وتقدر المصادر البريطانية عدد القتلى بعشرين كان من بينهم امرأة واحدة[1].

ضج الرأي العام العراقي لهذا الاعتداء، واضطربت الحكومة العراقية. وأرسل المندوب السامي السر هنري دوبس احتجاجاً إلى ابن سعود، فأجاب ابن سعود يقول بأن غزو الإخوان سببه «القصر المشؤوم» ـ يقصد به مخفر البصية ـ فهو لم يشيّد إلّا لإيقاد الفتنة وإيجاد الشرور، وقد أدّى تشييده إلى إثارة الإخوان بحيث أصبح من الصعب السيطرة عليهم وكبح جماحهم. وأبدى ابن سعود أسفه لما وقع ووعد بمنع الغزو بكل الوسائل المتيسرة لديه، ولكنه طالب بهدم المخفر وقال: إن أهل نجد يفضلون أن يغزوهم أهل العراق كل صباح ومساء ولا يرضون ببناء «قصر» واحد[2]...

صار الإخوان يشنون غاراتهم على العشائر العراقية، ويعيثون فيها نهباً وتقتيلاً. وغضب السر هنري دوبس، وهو المعروف بسرعة الغضب، فأبرق إلى حكومته في لندن يطلب منها فرض الحصار على ابن سعود لكي يقوم بتأديب المعتدين ودفع التعويضات عن القتلى. ولكن الحكومة البريطانية لم توافق على هذا الاقتراح. فقدم إليها دوبس اقتراحاً آخراً هو أن تقوم الطائرات بإلقاء المنشورات على البادية تنذر الإخوان بالابتعاد عن الحدود العراقية بمسافة أربعمائة ميل، فإذا رفضوا الانصياع لهذا الطلب فإن الطائرات تقصفهم بالقنابل. وقد وافقت الحكومة البريطانية على هذا الاقتراح.

وفي منتصف كانون الثاني 1928 بدأت الطائرات الإنكليزية تلقي المنشورات على البادية، فلم يعرها الإخوان أي اهتمام، أو لعلهم لم

---

(1) Report on Iraq Administration, 1927, London 1928, p.57.

(2) صادق حسن السوداني (العلاقات العراقية السعودية) ـ بغداد 175 ـ ص 271.

يفهموها. وفي شهر شباط بدأت الطائرات بقصف تجمعات الإخوان وقراهم. وقد أحدث هذا القصف جدالاً في مجلس العموم البريطاني حيث وجهت الأسئلة إلى وزير المستعمرات عن الأسباب التي دعت إلى قصف الطائرات للأراضي السعودية، فرد الوزير قائلاً إن ابن سعود قد أعلن بأنه لم يعد يسيطر على رعاياه[1]...

يقول حافظ وهبة: إنه كان حينذاك في مصر فأبرق إليه ابن سعود في 24 شباط 1928 قائلاً: «الحالة في نجد مضطربة لأن العهود نقضت من قبل العراق. الطائرات ضربت الحدود في الشرق والغرب، الإنسانية لم تحترم، الحالة خطرة جداً، والهمّة مبذولة لتسكين الأحوال، والنتيجة مجهولة»[2].

نلاحظ هنا أن ابن سعود يقول: «الإنسانية لم تحترم»، فهو ينسى ما فعل الإخوان من تقتيل ونهب بينما هو يذكر ما فعلت الطائرات بهم من قصف. وهذا هو ديدن البشر دائماً حين يتخاصمون، إذ هم ينسون الاعتداء الذي وقع منهم بينما هم يبالغون في ذكر الاعتداء الذي وقع عليهم.

مؤتمر الرياض:

إن قصف الطائرات وضع ابن سعود بين نارين: نار الإنكليز ونار الإخوان. أولئك يطلبون منه ردع الإخوان ومنعهم من الغزو، وهؤلاء يطلبون منه إعلان الجهاد على الكفار. وقد وجد ابن سعود أخيراً أن من الأفضل له أن يتفاوض مع الإنكليز بدلاً من محاربتهم. وبعد مخابرات معهم تمّ الاتفاق على التفاوض معهم في جدة في أيار 1928.

ارتأى ابن سعود أن يجتمع برؤساء الإخوان قبل التفاوض مع بريطانيا لطمأنتهم وتهدئتهم. فاجتمع بهم في شهر نيسان في بلدة بريدة وأفهمهم أنه

---

(1) عبد الله فيلبي (تاريخ نجد) ـ ترجمة عمر الديراوي ـ بيروت ـ ص 359.

(2) حافظ وهبة (خمسون عاماً في جزيرة العرب) ـ ص 91.

يشاركهم في السخط على بناء المخافر على الحدود ولكنه يفضّل حل المشكلة عن طريق المفاوضات. وأخبرهم أنه مسافر إلى جدة للالتقاء بالمفاوض البريطاني، ووعدهم بالاجتماع بهم مرة أخرى في الرياض بعد عودته من جدة لإطلاعهم على نتيجة المفاوضات[1].

جرت المفاوضات في جدة مرتين، أولاهما في أيار والثانية في آب. وكان يمثل الجانب البريطاني فيها السر جلبرت كلايتون. وقد شارك فيها في المرة الثانية توفيق السويدي وبهاء الدين نوري ومعهما أحمد حامد الصراف بصفته كاتباً. وكان مصير المفاوضات في المرتين فاشلاً.

غادر ابن سعود جدة بعد هذا إلى الرياض لكي يجتمع بالإخوان حسب وعده لهم. وحين وصلها دعا الإخوان إلى مؤتمر يحضرونه مع المشايخ أي علماء الدين. وقد انعقد المؤتمر في 25 تشرين الأول 1928، وحضره نحو ثمانمائة شخص، ولكن ثلاثة من رؤساء الإخوان لم يحضروه هم فيصل الدويش وسلطان بن بجاد وضيدان بن حثيلين، غير أنهم أرسلوا بعض أبنائهم وأقربائهم ليحضروه بالنيابة عنهم.

افتتح ابن سعود المؤتمر قائلاً: «لا يخطرن ببال أحد منكم أن الخوف منكم هو الذي حملني على عقد هذا الاجتماع. اسمعوا، لقد بنيت ملكي بعون الله وقوة ساعدي، وهو جلت قدرته قد منحني النصر، وإن خوفي منه وحده هو الذي حملني على جمعكم هنا لأستنير بآرائكم ونقضي أمره بيننا بالشورى، فلا يتملكني ما يتملك بني البشر من غرور وصلف». ثم أخذ ابن سعود يتحدث عن فضله عليهم إذ هم كانوا متفرقين يقتل بعضهم بعضاً، وينهب بعضهم من بعض، فوحّدهم وجعل منهم أمة عظيمة قوية. ثم قال: إن الكثيرين منهم غير راضين عنه، وأنه قد بلغه عنهم شكاوى كثيرة، ولكنه ليس من الذين يتنازلون عن ملكهم تحت الضغط والإكراه وهو كذلك لا يرغب في حكم رعية

---

(1) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ـ ص 297.

غير راضية عنه. وهو لذلك يعرض عليهم أن يختاروا أي واحد من أفراد أسرته ليكون ملكاً عليهم، وهو يتعهد أمام الله أن يحمل هذا الرجل إلى العرش، ويخدمه بأمانة وإخلاص. وعند هذا ارتفعت الأصوات من الحاضرين: «لا.. لا.. لا نريد ملكاً سواك يا عبد العزيز!»[1].

وبعد هذا عرض عليهم أن يتكلموا بصراحة عن كل ما يشكون منه، وتعهد لهم بأنه سوف لا يلوم أو يعاقب أحداً على ما يقول. فبدؤوا يعرضون شكاويهم، وذكروا منها علاقته بالكفار وصداقته مع الإنكليز واستعمال مخترعاتهم الشيطانية كالسيارات و«الأتيال» ـ أي التلفون والتلغراف ـ وتساهله تجاه المخافر التي يبنيها الكفار على الحدود ومنع المسلمين من الجهاد لإعلاء كلمة الله ونصر دينه.

رد ابن سعود على شكاويهم بالتروي وعلى قدر عقولهم، وذكر لهم أنه لا يحب الكفار أو النصارى أو الإنكليز ولكنه وجد في صداقتهم مصلحة للمسلمين، وكانت سياسته معهم أن يستحصل منهم كل ما هو ممكن من فائدة للمسلمين الحقيقيين، فهو يستعمل معهم سياسة «خذ واعط» ولكن فيصل الدويش هو الذي أربك الوضع عليه[2].

ثم تطرق ابن سعود إلى «الأتيال» فقال: إن الشريعة الإسلامية ليس فيها ما يمنع استعمالها، وأنها ليست من السحر أو عمل الشيطان. والتفت إلى المشايخ الحاضرين سائلاً لهم: هل تجدون في أقوال النبي ما يعارض الانتفاع بهذه المخترعات الحديثة؟ فأجاب المشايخ: كلا[3].

وحين جرى النقاش حول المخافر قال ابن سعود إنها إنما بُنيت لمنع التعدّيات التي قام بها فيصل الدويش على العراق فإن فيصل هو السبب وعليه

---

(1) صلاح الدين المختار (تاريخ المملكة العربية السعودية) ـ بيروت ـ ج 2 ص 442.

(2) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 13713).

(3) عمر أبو النصر (ابن سعود) ـ بيروت 1935 ـ ص 105.

تقع التبعة. فأعلن الحاضرون براءتهم من فيصل الدويش، وذكروا أنهم قطعوا علاقتهم به، ولكنهم ظلوا مصرين على وجوب هدم المخافر. وقد أيّدهم المشايخ في ذلك وأفتوا أن المخافر مضرّة بالمسلمين والعرب وخاصة بسكان نجد، وأن هدمها هو من باب دفاع المسلم عن ماله ودينه. فقال ابن سعود: إن ما أفتى به المشايخ هو حق، وأنه هو نفسه يعتقد بأن المخافر خطر على المسلمين، ولكنه يرغب في أن تكون المناقشة حول هذا الموضوع وحول موضوع الجهاد في اجتماع خاص، وطلب منهم أن يختاروا خمسين رجلاً منهم لكي يوضح لهم الأمور كلها فوافق الحاضرون على ذلك، وجددوا البيعة له[1].

وعلى أثر انفضاض المؤتمر عُقد اجتماع خاص مساءً بعد صلاة العشاء، حضره الخمسون الذين اختيروا للمداولة مع ابن سعود. واستمرّت المداولة من الساعة الثانية بعد الغروب حتى السادسة. ولا نعرف ما جرى فيها، والمظنون أن ابن سعود استطاع أن يقنعهم بأن جهاد الكفار لا يجوز أن يكون مطلقاً بل يجب أن يكون ضمن حدود الطاقة والمقدرة لدى المسلمين وإلّا حلّت بهم الكارثة. فخرجوا من عنده راضين.

ثورة الإخوان:

إن النتيجة التي انتهى إليها مؤتمر الرياض لم يرض عنها رؤساء الإخوان الثلاثة فيصل الدويش وسلطان بن بجاد وضيدان بن حثيلين، فصاروا ينشرون الإشاعات السيئة في قرى الإخوان ضد ابن سعود متهمين إياه بهدم الدين وموالاة الكفار وطلب الملك، وأخذوا يقطعون الطرق على القوافل ويفرضون الأتاوة على القرى ويهاجمون عشائر العراق ونجد.

كان عدد الإخوان الثائرين نحو خمسة آلاف رجل، فأعد ابن سعود

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 13713).

جيشاً كبيراً لقتالهم بلغ عدد رجاله خمسة عشر ألف. وتقابل الفريقان في موضع يدعى «السبلة» يقع قريباً من الزلفى إلى الشرق من بريدة. وقبل أن يبدأ القتال بينهما أرسل الإخوان إلى ابن سعود رسولاً اسمه ماجد بن خثيلة ومعه كتاب. وحين دخل للرسول على ابن سعود لم يسلم عليه، فغضب ابن سعود من هذه الإهانة، وقال للرسول مؤنباً: «من أنت؟ ألست ماجد بن خثيلة...»، ثم أخذ يسرد عليه تاريخه مع التقريع، ثم قال له: «أتدخل عليّ ولا تسلم؟! اذهب من فورك إلى من أرسلك وأخبره أننا قادمون للهجوم عليهم غداً، فإذا أرادوا أن يحقنوا دماءهم فليستسلموا بلا قيد ولا شرط، والشريعة هي الحكم بيني وبينهم، وهؤلاء العلماء حاضرون. قم واذهب إلى رفيقك».

عاد الرسول إلى الإخوان ينصحهم بتقديم خضوعهم إلى ابن سعود قبل فوات الأوان. فآرتأى فيصل الدويش أن يذهب بنفسه إلى ابن سعود ليرى مبلغ قوته. وحين دخل فيصل على ابن سعود أخذ يتملقه وأظهر استعداده للتسليم وأنه سيقضي الليلة عنده، ولكن ابن سعود قال له: «قم فنم عند قومك وموعدكم غداً بعد شروق الشمس...». وعاد فيصل إلى أصحابه، فلما سأله بعضهم عمّا رأى من قوة ابن سعود أجابهم قائلاً: «ماذا رأيت! رأيت حضرياً ترتعد فرائصه من الخوف، وليس حوله إلّا طبابيخ لا يعرفون إلّا النوم على الدواشج. أبشروا يا إخوان، لقد وجدت لديهم حلالاً كبيراً وأموالاً عظيمة. فأبشروا بالكسب والغنيمة. وسنقهر هذا الطاغوت غداً ونستولي على ماله»[1].

وقعت المعركة بين الفريقين في صباح اليوم التالي - 30 آذار 1929 - واستمرت بضع ساعات، وانتهت بهزيمة الإخوان. ويبدو أن من عوامل هزيمتهم هو وجود علماء الدين إلى جانب ابن سعود، فهذا لا بد أن يؤدي إلى الوهن في عزيمة الإخوان ويقلل من فدائيتهم وحماسهم الديني.

كان فيصل الدويش قد أصيب بجروح شديدة في المعركة، فجيء به إلى

---

(1) حافظ وهبة (المصدر السابق) - ص 299 - 300.

ابن سعود محمولاً على نقالة من سعف النخيل وكانت تحيط به زوجته وبناته وهنّ يبكين ويستشفعن فيه. فتأثر ابن سعود من هذا المنظر وعفا عنه، وأوعز بنقله إلى بيته في الأرطاوية، كما بعث طبيبه الخاص مدحت شيخ الأرض لمعالجته.

وبعد ثلاثة أيام استسلم سلطان بن بجاد إلى ابن سعود، فأمر ابن سعود بتقديمه إلى محكمة مؤلفة من قضاة الشرع، فحكمت عليه بالسجن المؤبد في قلعة الرياض. أما ضيدان بن حثيلين فقد تمكّن من الفرار إلى الكويت.

القضاء على الإخوان:

سافر ابن سعود إلى الحجاز لحضور موسم الحج الذي حلّ في شهر أيار ولكن إقامته في الحجاز لم تطل كثيراً، فقد بلغه أن فيصل الدويش شفي من جراحه وأعلن الثورة من جديد. فعاد ابن سعود مسرعاً إلى الرياض في شهر تموز وهناك أعدّ قواته وكان فيها سيارات مجهزة بالرشاشات. وتوجّه بها نحو فيصل الدويش.

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن فيصل الدويش كتب في 15 كانون الأول 1929 إلى الملك فيصل في بغداد يخاطبه بلقب «سلطان المسلمين» ويدعوه للتعاون معه في محاربة ابن سعود. وكذلك كتب إلى الكابتن كلوب مفتش البادية الجنوبية في العراق مبدياً رغبته في أن يكون من رعايا الحكومة العراقية وتحت تصرفها[1].

في أوائل كانون الثاني 1930 وقعت المعركة الفاصلة بين ابن سعود وفيصل الدويش في موقع قريب من الحدود الكويتية العراقية. وحلّت الهزيمة بفيصل ففر مع بعض أصحابه إلى داخل حدود العراق، واستسلموا للإنكليز. فنقلهم الإنكليز إلى الشعسة. وبعد مفاوضات جرت بين ابن سعود والإنكليز قرر الإنكليز تسليم فيصل الدويش وأصحابه إلى ابن سعود على شرط أن يبقي

(1) صادق حسن السوداني (المصدر السابق) ـ ص 308 ـ 209.

على حياتهم وأن يتعهد بتسليم المنهوبات التي نهبوها من أهل الكويت والعراق[1].

وفي 28 كانون الثاني نُقل فيصل الدويش وأصحابه بطائرة إلى ابن سعود الذي كان مخيماً في موضع يدعى «خباري وضحة» على بعد مائة ميل من جنوب الكويت. وجيء بفيصل في سيارة إلى خيمة ابن سعود، وكانت اللعنات تنصبّ عليه من الجانبين أثناء نقله. فشكر ابن سعود الضباط البريطانيين الذين جاؤوا معه، كما شكر الحكومة البريطانية على صداقتها ومودّتها، وقال: «إنها في كل يوم تقيم له برهاناً جديداً على مودّتها الوطيدة».

وبعد أن انصرف الضباط تقدم فيصل الدويش نحو ابن سعود وهو ذليل، فخاطبه ابن سعود قائلاً: «أنت تعلم يا فيصل ما عملت معك في الماضي، ما قصرت في شيء نحوكم، لقد كنت في حرب دائمة مع أهل نجد من أجلكم، فهل هذا جزائي منكم؟ هل كنتم تريدون الملك لقد كنتم ملوكاً في الجهات التي كنتم فيها. من منكم له الفضل عليّ؟ الفضل لله وحده. من منكم لم آخذه بسيفي؟ ليس منكم إلّا من قتلت أباه أو أخاه، ولم أخضعكم إلّا بالله ثم بالسيف. قد كنت أنفذ رغائبكم، فكنت أشقى لأجلكم، وأواصل الليل والنهار لراحتكم وسعادتكم. ألا تخاف الله حينما تكتب لجلوب ـ يقصد الكابتن كلوب ـ أنك تريد الهجرة للعراق وأنك تحب أن تكون تابعاً له؟ فهل تظن أنك كنت ستكون في منزلة أعلى من منزلتك التي كنت عندي فيها؟».

أجابه فيصل: «يعلم الله يا عبد العزيز أنك لم تقصر معنا وقد فعلت كل ما يبيّض وجهك، وقد قابلنا معروفك بالإساءة، لقد فررنا من وجهك إلى الكفار، فحملونا إليك في طيارة من طياراتهم. ويكفي ما أشعر به من الهوان والصغار أمام الإخوان بعد ما كنت عزيزاً محترماً. قاتل الله الشيطان، لقد أغرانا وزين لنا سوء أعمالنا فأوصلنا إلى ما أصبحنا فيه الآن»[2].

---

(1) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص 303.

(2) المصدر السابق ـ ص 303 ـ 304.

نُقل فيصل إلى الرياض في سيارة، وقدّم إلى محكمة شرعية كصاحبه سلطان بن بجاد، فحكمت عليه المحكمة بالسجن المؤبد في قلعة الرياض. وبعد بضعة أشهر مات فيصل في سجنه، كما مات صاحبه ابن بجاد.

كان ذلك إيذاناً بانتهاء حركة الإخوان، تلك الحركة التي أثارت دهشة الناس بأمرين: بفدائيتها في الحرب وتعصّبها الشديد في السلم. يقول فيلبي «لقد كان خلق ابن سعود لحركة الإخوان في سنة 1912 ضربة معلم عبقري لا يوازيها غير تصفيته لهذه الحركة بعد ثمانية عشر عاماً حينما ثبت لديه أنها لم تعد إلّا عقبة كأداء في سبيل استقرار الأوضاع التي بناها بطول صبره وجهده. فلقد كان يمكن لهذه الحركة التي أوجدها ابن سعود من العدم أن تدمره وتنهكه لو لم يبادر هو إلى تدميرها بنفسه»[1].

دلّ التاريخ على أن معظم بناة الدول يقتلون من ساعدهم على بنائها، وسبب ذلك أن أولئك المساعدين يريدون أن يشاركوا الباني في ثمرة بنائه، بينما هو لا يريد أن يتنازل لهم عن تلك الثمرة، فينشب النزاع بينهم، وقد ينتهي النزاع إلى القضاء على أولئك المساعدين. وقد صدق من قال: «السياسة لا قلب لها».

مشكلة المشايخ:

بعد الانتهاء من القضاء على حركة الإخوان قال ابن سعود معبراً عن ابتهاجه: «من اليوم سنحيا حياة جديدة»، إنه في الواقع بدأ حياة جديدة، حيث صار يفتح المدارس الحديثة في بلاده، وأنشأ جيشاً نظامياً من الحضر تحت إشراف بعض الضباط العرب من بقايا الجيش العثماني، كما استورد السيارات وأجهزة اللاسلكي لربط أنحاء مملكته الواسعة. وقد عاونه في ذلك فيلبي معاونة كبيرة.

إن هذه الحركة التجديدية التي قام بها ابن سعود جوبهت بمعارضة من المشايخ أي علماء الدين النجديين. فهو قد تخلّص من معارضة الإخوان ليبتلي

---

(1) عبد الله فيلبي (المصدر السابق) ـ ص 367 ـ 368.

من جديد بمعارضة المشايخ. ولكن معارضة المشايخ تختلف عن معارضة الإخوان بكونها هادئة تخلو من العنف أو التدخل في شؤون الناس.

أول بادرة من معارضة المشايخ ظهرت في حزيران 1928، وذلك عندما فتح ابن سعود بعض المدارس الابتدائية في الحجاز. فقد قامت ضجّة بين المشايخ من جرّاء ذلك، وعقدوا اجتماعاً لهم في مكة وضعوا فيه قراراً يحتجون فيه على فتح تلك المدارس لما يجري فيها من تعليم الرسم أولاً، وتعليم اللغات الأجنبية ثانياً، وتعليم الجغرافيا ثالثاً.

أرسل ابن سعود إليهم حافظ وهبة لكي يباحثهم في الموضوع. وحين اجتمع بهم حافظ أخذوا يذكرون له الأسباب التي دعتهم إلى تحريم الرسم واللغات الأجنبية والجغرافيا، حيث قالوا: «...لقد بيّنا للإمام عبد العزيز الأدلة والمفاسد التي تترتب على هذه العلوم. أما الرسم فهو التصوير وهو محرم قطعاً. وأما اللغات فإنها ذريعة للوقوف على عقائد الكفار وعلومهم الفاسدة، وفي ذلك ما فيه الخطر على عقائدنا وعلى أخلاق أبنائنا. وأما الجغرافية ففيها كروية الأرض ودورانها والكلام على النجوم والكواكب مما أخذ به علماء اليونان وأنكره علماء السلف».

أخذ حافظ وهبة يجادلهم في هذا الموضوع ويذكر لهم الأدلة التي يجيز تعليم الرسم واللغات والجغرافيا. ولما رأى المشايخ أن الجدال قد طال قالوا: «لقد قررنا ما نعتقد ورفعناه إلى الإمام، ولسنا في حاجة إلى الجدل المنهي عنه شرعاً. فإن قبل الإمام ما رأينا فالحمد لله، وإن خالفنا فليست هذه أول مرة يخالفنا فيها»[1].

وبعد أن انتهت مشكلة المدارس بدأت مشكلة اللاسلكي. فقد اعترض المشايخ على هذا الاختراع اعتقاداً منهم أنه لا بد أن يكون من السحر وعمل الشيطان، ودليلهم في ذلك أن اللاسلكي ينقل الخبر بين مكة والرياض في

(1) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص 126 ـ 127.

لحظة واحدة مع العلم أن الإبل تقطع المسافة بينهما في عشرين يوماً. وهذا عمل لا يمكن أن يقوم به البشر إلّا بمعونة الشيطان، وهم لا بد أن يقدموا للشيطان قرباناً لقاء خدمته لهم.

عندما أُنشأت أول محطة للاسلكي في الرياض، أخذ بعض المشايخ يذهبون إلى المحطة ويسألون العامل فيها عن موعد زيارة الشياطين، وهل الشيطان الكبير في مكة أو الرياض، وكم عدد أولاده الذين يساعدونه في مهمة نقل الأخبار؟ وكان بعض المشايخ يغرون العامل بالنقود ويتعهدون له بكتمان السر إذا أفشاه لهم.

ويحدثنا حافظ وهبة عن محاورة جرت بينه وبين أحد المشايخ حول اللاسلكي في المدينة، فقال الشيخ «لا شك أن هذه الأشياء ناشئة عن استخدام الجن، وقد أخبرني ثقة أن التلغراف اللاسلكي لا يتحرك إلّا بعد أن تذبح عنده ذبيحة ويذكر عليها اسم الشيطان». ثم أخذ الشيخ يذكر بعض القصص عن استخدام بني آدم للشيطان. وقد حاول حافظ وهبة إقناعه بأن اللاسلكي اختراع فيزيائي لا صلة له بالجن والشيطان، ولكنه لم ينجح في إقناع الشيخ، بل سكت الشيخ على مضض...[1].

ظلّ المشايخ يستنكرون المخترعات الحديثة التي ترد إلى البلاد، فاستنكروا الحاكي والسينما والأنوار الكشافة والطائرات. فهم يعتقدون في الطائرات مثلاً أن ركابها يتحدون ربهم بها[2]. وحين بدأ الأمريكيون ينقبون عن النفط في منطقة الظهران قال المشايخ لابن سعود: «لا يجوز دخول الكفار إلى داخل البلاد لأنهم يفسدون الرجال والنساء ويدخلون الخمر والفوتوغراف وما شاكل ذلك من الأمور الشيطانية إلى داخل البلاد»[3].

---

(1) المصدر السابق ـ ص 286 ـ 287.

(2) عبد الله فيلبي (المصدر السابق) ـ ص 356.

(3) أمين المميز (المملكة العربية السعودية كما عرفتها) ـ بيروت 1963 ـ ص 229.

كان ابن سعود يداريهم أحياناً ويتغافل عنهم أحياناً أخرى. اعترضوا عليه في 1930 لأنه أذن بإقامة الاحتفالات بمناسبة عيد جلوسه على عرش الحجاز إذ اعتبروها مخالفة للسنة، فنزل ابن سعود عند رأيهم وألغى الاحتفالات[1]. وحدث مثل هذا في عام 1950 عندما قررت الحكومة السعودية الاحتفال بمناسبة مرور خمسين سنة على فتح الرياض، فقد صدر بيان من وزارة الخارجية السعودية هذا نصه: «كانت الحكومة قد قررت الاحتفال بالذكرى الذهبية لدخول جلالة الملك إلى الرياض منذ 50 سنة، وقد استفتي علماء الدين مؤخراً في ذلك، فأفتوا بأنه ليس من سنن المسلمين ولا يجوز أن يتّخذ المسلمون عيداً إلّا في عيدي الفطر والأضحى. ونزولاً من جلالته على حكم الشريعة أمر بإلغاء المراسيم والترتيبات»[2].

ويروى أن أحد المشايخ دخل على ابن سعود في قصره في الرياض، وهو يتمشّى وعليه ثوب طويل يمسّ الأرض، فقال له: «الله الله يا عبد العزيز! لقد دخلك الكبر، وصرت تجر ذيلك وراءك!». فالتفت ابن سعود نحو الخدم وقال: «هاتوا المقص!». فلما جاؤوا به أعطاه إلى الشيخ وقال له: «قصّ ما تراه مخالفاً للدين»[3]. ويروي أرمسترونج قصة مشابهة مفادها أن أحد المشايخ جابه ابن سعود ذات يوم على مشهد من الناس قائلاً له: إن شواربك طويلة أكثر مما تجيزها السنة. فتقبل ابن سعود ذلك برحابة صدر، وطلب مقصاً ثم قص شواربه في الحال[4].

يبدو أن ابن سعود كان يصبر على انتقادات المشايخ له حين تكون تلك الانتقادات شخصية بسيطة حيث يجد من اللباقة السياسية أن يستجيب لها لتحسين سمعته بين الناس. إنما هو لا يصبر عليها حين يراها تضرّ بمصلحة الدولة ومستقبلها. يروي حافظ وهبة: أن بعض كبار المشايخ اجتمعوا ذات يوم في عام

(1) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص 284.
(2) خير الدين الزركلي (المصدر السابق) ـ ج 2، ص 742 ـ 744.
(3) المصدر السابق ـ ج 2 ص 744.
(4) Armstrong (op. cit.) -p.208.

1931 بابن سعود وأخذوا يلومونه على إدخاله اللاسلكي في بلاده حيث قالوا له: «يا طويل العمر، لقد غشك من أشار عليك باستعمال التلغراف وإدخاله إلى بلادنا، وأن فيلبي سيجر علينا المصائب ونخشى أن يسلم بلادنا للإنجليز». فرد عليهم ابن سعود قائلاً: «لقد أخطأتم، فلم يغشنا أحد، ولست ـ ولله الحمد ـ بضعيف العقل، أو قصير النظر، لأخدع بخداع المخادعين، وما فيلبي إلّا تاجر وكان وسيطاً في هذه الصفقة، وإن بلادنا عزيزة علينا لا نسلمها لأحد إلّا بالثمن الذي استلمناها به. إخواني المشايخ، أنتم الآن فوق رأسي، تماسكوا بعضكم ببعض لا تدعوني أهز رأسي فيقع بعضكم أو أكثركم، وأنتم تعلمون أن من وقع على الأرض لا يمكن أن يوضع فوق رأسي مرة ثانية. مسألتان لا أسمع فيها كلام أحد لظهور فائدتها لي ولبلادي، وليس هناك من دليل من كتاب الله أو سُنة رسول الله ﷺ يمنع من إحداث اللاسلكي والسيارات»[1].

ومن الطرائف التي تروى في هذا الصدد أن جماعة من البريطانيين زاروا ابن سعود في قصره في الرياض، وبينما هم في القصر حلّ وقت الصلاة، فقام ابن سعود وحاشيته يصلون خلف إمام لهم. فقرأ الإمام في الركعة الأولى هذه الآية: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[2]. ثم أعاد قراءة الآية في الركعة الثانية، ولما انتهت الصلاة زحف ابن سعود من مكانه نحو الإمام وأشبعه وخزاً وركلاً وهو يؤنبه قائلاً: «ما لك بالسياسة يا خبيث، وما الذي تقصده من ترديد هذه الآية في كل ركعة؟ أفلا توجد آيات غيرها؟»[3].

اجتماع لوبن:

على أثر القضاء على حركة الإخوان أخذ المندوب السامي الجديد في بغداد السر فرنسيس همفريز يبذل جهده للجمع بين فيصل بن الحسين وابن سعود

(1) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص 287.

(2) سورة هود، الآية: 113.

(3) أمين المميز (المصدر السابق) ـ ص 609.

وإحلال الصفاء بينهما بدلاً من الخصام. وبعد مخابرات كثيرة تمّ الاتفاق على أن يجتمع الملكان على ظهر بارجة بريطانية في مياه الخليج العربي.

غادر الملك فيصل بغداد بقطار خاص في 20 شباط 1930 تصحبه حاشية مؤلفة من ناجي السويدي وكورنواليس ورستم حيدر وعبد الله المضائفي وخليل إسماعيل والكابتن كلوب والدكتور سندرسن مع مرافقين وكاتب ومصور. وكان في صحبته أيضاً أربعة صحفيين هم: رفائيل بطي عن جريدة «البلاد» والمستر كرمي عن جريدة «الأوقات العراقية»، وسليم حسون عن جريدة «العالم العربي»، وعبد الرزاق الحسني عن جريدة «الأهرام» المصرية.

كانت البارجة البريطانية «لوبن» راسية في مياه الخليج على بعد خمسة عشر ميلاً من الفاو، وفيها السر فرنسيس همفريز مع حاشيته. وبعد قليل اقتربت منها باخرتان إحداهما تحمل فيصل، والأخرى تحمل ابن سعود. وكانت حاشية ابن سعود مؤلفة من حافظ وهبة ويوسف ياسين وعبد العزيز القصيبي والدكتور مدحت شيخ الأرض والكاتبين محمد المانع وإبراهيم المعمر. ولوحظ وجود مائة وخمسين رجلاً مسلحاً مع ابن سعود لحمايته[1].

كان ابن سعود قد اشترط لاجتماعه بفيصل شرطين، أولهما: أن يكون الحديث بينهما قاصراً على تصفية الجو، وإبداء المودة والصداقة، دون التطرّق إلى مسائل الخلاف بين الحكومتين. والثاني: أن يكون الاجتماع خالياً من الموسيقى ومن التدخين. وكانت الحكومة السعودية قد أبلغت هذين الشرطين إلى المندوب السامي في بغداد السر فرنسيس همفريز، وإلى رئيس الوزارة العراقية ناجي السويدي. ولكن ابن سعود حين اجتمع بفيصل على البارجة «لوبن» وجده يتطرّق في حديثه إلى مسائل الخلاف بين الحكومتين. فصبر ابن سعود حتى انتهى فيصل من حديثه، وعند هذا أشار ابن سعود إلى ما كان له من شرط مسبق في عدم التطرّق إلى مثل تلك المسائل. فتكلم المندوب

(1) صادق حسن السوداني (المصدر السابق) ـ ص 335 ـ 336.

السامي قائلاً بأنه يأسف لأنه لم يخبر الملك فيصل بهذا الشرط. وكذلك تكلم ناجي السويدي فقال إنه رأى المصلحة تقضي باجتماع الملكين وأن لا مانع من التطرّق إلى مسائل الخلاف بين الحكومتين. فالتفت الملك فيصل نحو ناجي السويدي وأخذ يؤنبه على ما فعل. واستدرك ابن سعود الأمر حيث قال: إن الأمر متروك لجلالة الملك فيصل إن شاء بحث مسائل الخلاف وإن شاء تركها. فكان جواب فيصل أنه يرى إحالة تلك المسائل إلى مندوبي الحكومتين للتداول فيها. وعند هذا انسحب المندوبون إلى جانب من الباخرة وصاروا يتداولون في الموضوع[1]...

عاد الملكان بعد هذا إلى الحديث الخاص بينهما، وكان حديثاً مليئاً بالمجاملة، فكان يخاطب أحدهما الآخر بـ «أخي» أو «خوي»[2]. وقد أوضح ابن سعود كيف بدأت العداوة بينه وبين الحسين، وذكر أن السبب فيها لم يكن منه. وهنا لم يتردد فيصل في توجيه بعض اللوم إلى أبيه، كما أشار إلى أن المحرض الأول له كان خالد بن لؤي[3]...

والواقع أن هذا الاجتماع بين الملكين كان فاتحة عهد جديد في العلاقات بين الدولتين، فلم يقع بعده ما يعكر صفو العلاقات بينهما. ويجب أن لا ننسى في هذا الصدد أن كلا الرجلين كانا من أولي السياسة الواقعية، وقد رأيا أن من المصلحة أن يتناسيا الأحقاد، فمن شأن الحقد أنه لا يؤذي إلا صاحبه.

حرب اليمن:

كان هناك خلاف بين ابن سعود وإمام اليمن يحيى حميد الدين حول منطقة نجران التي تقع بين اليمن ونجد، كل منهما يدّعي أنه أحق بها من الآخر. وقد جرت مفاوضات بين الفريقين مدة طويلة دون جدوى. وفي شهر

(1) خير الدين الزركلي (المصدر السابق) ـ ج 2، 510 ـ 512.
(2) صادق حسن السوداني (المصدر السابق) ـ ص 336.
(3) خير الدين الزركلي (المصدر السابق) ـ ج 2، ص 513.

آذار 1934 نفد صبر ابن سعود، فأنذر الإمام يحيى. وفي 21 منه أعلن ابن سعود الحرب على اليمن، وزحفت قواته عبر الحدود اليمانية.

كانت القوات السعودية تعتمد على السيارات في تنقلها، وكانت مؤلفة من رتلين: أحدهما زحف بمحاذاة الساحل تحمله نحو ثمانمائة سيارة بقيادة الأمير فيصل بن عبد العزيز، والثاني زحف باتجاه العاصمة صنعاء عن طريق صعدة بقيادة الأمير سعود بن عبد العزيز. ولم يلق الرتل الأول أية مقاومة في زحفه، فقد كانت خطة الإمام يحيى أن تنسحب قواته من الساحل وتتحصن في الجبال. وفي 6 أيار تمكن الرتل من احتلال ميناء الحديدة من غير مقاومة. أما الرتل الثاني فكان زحفه بطيئاً جداً ولم يستطع أن يحقق أهدافه لوعورة الطريق وكثرة الجبال والوديان فيه.

أثارت هذه الحرب اهتماماً كبيراً في البلاد العربية وأوروبا، وألّف المجلس الإسلامي الأعلى في فلسطين وفداً للتوسّط في الصلح بين الفريقين من الحاج أمين الحسيني رئيساً، والأمير شكيب أرسلان ومحمد علي علوية باشا وهاشم بك الأتاسي أعضاء، وعلي أفندي رشدي سكرتيراً. وكان المتوقع أن ينضم إلى الوفد ياسين الهاشمي ونوري السعيد، ولكن موانع حالت دون ذلك. وفي 13 نيسان غادر الوفد السويس متوجهاً إلى مكة، وحين وصلها قابل ابن سعود، ثم سافروا جميعاً إلى الطائف.

وصلت إلى ابن سعود البرقية التالية من الإمام يحيى: «يكفي ما قد كان، ونعوذ بالله من شرور المتربصين بالإسلام الدوائر لتحقيق مطامعهم. بلاد يام تحت حكمكم وقد أمرنا برفع جندنا من بلاد نجران. وتفضلوا بطلب السيد عبد الله ابن الوزير إلى حضرتكم لاستكمال المعاهدة الأخوية، عافاكم الله. وقد كان سحب هذه البرقية بواسطة أسمرة لاختلاط طائر الهواء لدينا ـ يقصد جهاز اللاسلكي ـ ويجري العمل على إصلاحه. فتفضلوا بالجواب عن طريق أسمرة»[1].

رد ابن سعود على برقية الإمام يحيى مبدياً استعداده للصلح على شروط

(1) أمين سعيد (تاريخ الدولة السعودية) ـ بيروت ـ ج 2 ص 376 ـ 377.

معينة. فأبرق الإمام قبوله للشروط. وفي 1 أيار وصل إلى الطائف عبد الله ابن الوزير مندوب الإمام يحيى. وقد بذل أعضاء وفد المجلس الإسلامي جهوداً لا يُستهان بها في التوفيق بين الفريقين. وفي 21 أيار تمّ التوقيع على معاهدة الصلح، وانتهت الحرب.

أثار هذا الصلح السريع انتباه الرأي العام العالمي واستغرابه، لأن ابن سعود وافق بهذا الصلح على انسحاب قواته من الأرضي اليمانية لقاء شروط اعتبرت بسيطة جداً هي: (1) جلاء القوات اليمانية عن نجران، (2) تسليم الأدارسة اللاجئين في اليمن إلى ابن سعود، (3) إطلاق سراح الرهائن المعتقلين عند الإمام يحيى.

المظنون أن هناك سببين رئيسيين دفعا ابن سعود إلى الصلح هما:

أولاً: كان ابن سعود يخشى من تدخل الدول الأجنبية في اليمن، والظاهر أنه كان يخشى بوجه خاص من إيطاليا، إذ المعروف عن هذه الدولة أنها كانت ترنو بعين الطمع إلى اليمن. ولما احتلّت القوات السعودية ميناء الحديدة في 6 أيار وصلت ثلاث سفن حربية إيطالية إلى الميناء بحجّة المحافظة على الرعايا الإيطاليين، وحاول القائد الإيطالي إنزال بعض جنوده إلى البر ولكن القوات السعودية منعته من ذلك. ويقال إن وزارة الخارجية الإيطالية أعلنت في ذلك الحين أن إيطاليا لن توافق على انتقال اليمن إلى حكومة غير يمانية[1].

ثانياً: كانت القوات السعودية ليس لها تمرّس في حرب الجبال، بينما كانت القوات اليمانية على النقيض منها قد اعتادت على حروب الجبال زماناً طويلاً. وقد أذاعت بعض وكالات الأنباء من القاهرة أن رتل الأمير سعود تكبد في بعض معاركه الجبلية خسائر فادحة[2]. ومن الممكن القول إن ابن

---

(1) أمين السعيد (المصدر السابق) ـ ص 378 ـ 379.

(2) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في 10 أيار 1934.

سعود كان يخشى أن تحل بقواته في الجبال هزيمة ساحقة لا يعلم مغبتها إلا الله.

يروى أن ابن سعود صرح لأحد الأشخاص الذين يثق بهم عن السبب الذي حدا به إلى الصلح قائلاً: «كثيرون في بلدي وفي غيرها من بلاد العرب والمسلمين هم الذين أشاروا علي بحماس وإيمان بمتابعة العمل العسكري في اليمن وضمه إلى المملكة لإقامة الدولة العربية الموحدة في شبه الجزيرة العربية، ولكني لم أصغ لكل هذه المشورات والنصائح، لأني عندما كنت أجيل النظر في شواطىء شبه الجزيرة في الجنوب العربي كنت أرى أن بريطانيا قد احتلّت كل هذه المناطق عسكرياً وفرضت حمايتها عليها، في حين أنها لم تجرب احتلال اليمن عسكرياً لتفرض حمايتها عليه. ومن الواضح أن الحكومة البريطانية لم تعف عن اليمن زهداً فيه، وإنما فعلت ذلك لأنها تعرف اليمنيين معرفتها لليمن وطبيعته. ولذلك فقد كان من خطل الرأي أن أقدم على إنجاز خطوة ابتعدت عنها بريطانيا وهي في أوج قوتها العسكرية والسياسية والمالية، وأن أعرض نفسي وبلدي الناشىء لمغامرة تهيبتها بريطانيا وهي أمبراطورية عظمى، بالإضافة إلى الخلاف الأساسي بين أهدافي العربية الإسلامية والأهداف البريطانية»[1].

إن هذا القول يفصح عن طبيعة ابن سعود في تجنب المغامرات، فهو لا يقدم على خطوة إلّا بعد تمحيص وتروي، وكأنه كان يخشى أن يحلّ به ما حلّ بأسلافه حين غامروا وتوسّعوا في الفتح من غير توقف، وكان مصيرهم الأسر والقتل وضياع المملكة.

صدى الحرب في العراق:

كان الشيعة في العراق أكثر الناس تحسساً بحرب اليمن واهتماماً بها. فهم قد تحمسوا في تأييد الإمام يحيى تحمساً عظيماً، وكانوا يأملون منه أن

(1) أحمد عسه (معجزة فوق الرمال) ـ بيروت 1966 ـ ص 123.

يفتح الحجاز ويعيد تعمير قبور البقيع. وصادف أن حل شهر محرم في نفس الوقت الذي كانت فيه الحرب ناشبة في اليمن، فصارت نوحيات المواكب الحسينية وأهازيجها تدور حول تأييد الإمام يحيى والدعاء له بالنصر المبين.

ومما يلفت النظر أن الجرائد العراقية أخذت تنشر الأخبار المثيرة حول انتصارات القوات السعودية، وأصدرت بعض الجرائد عقب احتلال الحديدة في 6 أيار ملاحق خاصة ذكرت فيها أن ثورة قامت في اليمن على الإمام يحيى، وهجمت الجماهير على قصره في صنعاء، واضطر هو إلى التنازل عن العرش لابنه. وذكرت الجرائد أيضاً أن القوات السعودية احتلت صنعاء ونودي بالأمير فيصل بن عبد العزيز ملكاً على اليمن الخ...

ولم يهن على الشيعة قبول هذه الأخبار، فصاروا من جانبهم يختلقون الأخبار المضادة. وانتشرت الإشاعات بينهم عن ضخامة الجيوش اليمانية وكيف أنها سوف تصل إلى مكة قريباً وتسحق الجيوش السعودية وتفنيها عن بكرة أبيها. وأبرق بعضهم إلى الإمام يحيى يعربون عن تأييدهم له، فأجابهم شاكراً بواسطة «طائر الهواء».

مشكلة أخبار حرب اليمن أنها كانت من مصدر واحد تقريباً، هو المصدر السعودي. فقد كان لابن سعود وكلاء وأعوان منتشرون في البلاد العربية وبعض البلاد الأخرى، وكانوا ينشرون الأخبار المبالغ فيها حول انتصارات الجيوش السعودية. أضف إلى ذلك أن الصحف الأوروبية كانت تجد في تلك الأخبار ما يجذب القرّاء خاصة فيما يتعلق بابن سعود وصعود نجمه وشخصيته البدوية الرومانتيكية. أمام إمام اليمن فكان قد اتّخذ سياسة العزلة عن العالم، ولم يكن له في العالم معجبون أو دعاة. ولهذا اتخذت وكالات الأنباء العالمية موقف التحيّز إلى جانب ابن سعود وأهملت جانب الإمام يحيى. ولكنها عقب إعلان الصلح صارت تنفي كثيراً من الأخبار التي نشرتها من قبل.

محاولة اغتيال ابن سعود:

بعد مرور عشرة أشهر على توقيع معاهدة الصلح جرت في مكة محاولة لاغتيال ابن سعود قام بها ثلاثة يمانيون. وخلاصة الحادثة: أن ابن سعود بينما كان يطوف حول الكعبة في اليوم الأول من عيد الأضحى من عام 1353هـ ـ الموافق ليوم 16 آذار 1935م ـ خرج إليه من حجر إسماعيل رجل يماني وهو شاهر خنجره ويصيح: «الله أكبر، الله أكبر»، فاعترضه أحد رجال الشرطة، ولكن اليماني تغلّب عليه حيث طعنه بالخنجر وأرداه قتيلاً، وعند هذا أسرع إليه أحد عبيد ابن سعود فصوّب نحوه بندقيته وقتله. وفي الوقت نفسه ظهر رجل يماني آخر وبيده خنجر، فاقترب من ابن سعود، ولكن الأمير سعود الذي كان يطوف خلف أبيه وقاه بجسمه، وقد أصيب الأمير من جرّاء ذلك بطعنة في أسفل كتفه اليسرى. وأسرع إليه أحد عبيده فأطلق على اليماني رصاصة من الخلف أردته قتيلاً. وكان هناك رجل يماني ثالث كامناً في حجر إسماعيل، وقد خرج جارياً يريد الفرار بعد ما رأى مصير صاحبيه، فأطلق عليه أحد رجال الشرطة النار من بندقيته، فأصابه. وقد ألقي عليه القبض وفيه رمق من الحياة، ولكنه مات قبل أن يصلوا به إلى المخفر.

كان في مكة يومذاك كثير من الحجاج اليمانيين، وقد خيف عليهم أن يهاجمهم النجديون للانتقام منهم، ولكن ابن سعود أصدر أمره بعدم التعرّض لأحد منهم، وأنذر بالعقوبة الرادعة كل من يعتدي عليهم. وأصدرت جريدة «أم القرى» ملحقاً خاصاً طبعت منه كميات كبيرة ووزّعته بين الحجاج مجاناً لتهدئة الخواطر وتسكين الأعصاب[1].

وكان في مكة أيضاً وفد كشافي عراقي مؤلف من المعلمين والطلاّب برئاسة يوسف عز الدين الناصري. وقد ذهب هذا الوفد مع الوفود الأخرى لتهنئة ابن سعود بنجاته ولمعايدته، وهتف بحياته وحياة مملكته عدة مرات. ثم ذهب الوفد لتهنئة الأمير سعود، وألقى عبد الهادي الشماع من أعضاء الوفد

(1) نعمان الأمين العاني (في المملكة العربية السعودية) ـ بغداد 1937ـ ص78.

قصيدة لتحية ابن سعود باسم الشعب العراقي، كما ألقى عضو آخر هو يحيى قاف كلمة قصيرة.

دعي الوفد العراقي مع غيره من الوفود والشخصيات البارزة لحضور استعراض الجيش السعودي. وحدث آنذاك حادث كاد يؤدّي إلى قتل أحد أعضاء الوفد. وخلاصة الحادث أن عبد الكريم عسيران، وهو من أعضاء الوفد، حاول أن يأخذ صورة فوتوغرافية لابن سعود عند قدومه إلى الاستعراض. فظن أحد عبيد ابن سعود المرافقين له أن آلة التصوير نوع من السلاح يراد قتل سيده به، فصوّب بندقيته نحو عبد الكريم بغية قتله، ولكن ابن سعود صاح بالعبد: «حلي! حلي!». ونجا عبد الكريم[1].

تولى التحقيق في حادثة محاولة الاغتيال مدير الأمن العام، وهو عراقي الأصل اسمه «مهدي بك». وبعد جهد عنيف استمرّ ثلاثة أيام اتّضح له أن اليمانيين الثلاثة ينتمون إلى قرية بيت حاضر في اليمن، وهم علي بن علي، وأخوه صالح، ومبخوت بن مبخوت. وقد أرسل الإمام يحيى إلى ابن سعود برقية يستنكر فيها الحادث ويستفظعه ويبرأ إلى الله منه[2]. وصرح ابن سعود قائلاً: «والذي أعتقده في الإمام أنه رجل شريف ولا يمكنني مطلقاً أن أتهمه بأن له يداً في هذه المؤامرة..»[3]. وقد دار التهامس بين الناس في مكة مؤدّاه أن سيف الإسلام أحمد كبير أبناء الإمام يحيى له ضلع في تدبير المؤامرة[4]. والله أعلم!

من الشدة إلى الرخاء:

كانت سنة 1930 وما بعدها سنوات منحوسة على ابن سعود وعلى سكان الحجاز بوجه عام. ففيها كانت الأزمة الاقتصادية الكبرى قد خيّمت

---

(1) مجلة (التربية البدنية والكشافة) البغدادية - في عددها الخاص في 15 أيار 1935.

(2) خير الدين الزركلي (المصدر السابق) - ج 2، ص 621.

(3) نعمان الأمين العاني (المصدر السابق) - ص 134 - 135.

(4) خير الدين الزركلي (المصدر السابق) - ج 2، ص 621.

بكابوسها على معظم أقطار العالم، وبذا قل مجيء الحجاج إلى الحجاز. فبعدما كان معدل عدد الحجاج في السنوات السابقة يقدر بمائة ألف، انخفض إلى أربعين ألف في عام 1931، وإلى ثلاثين ألف في عام 1932، وإلى عشرين ألف في 1933[1]. فساد البؤس والحرمان في أنحاء الحجاز، وأصبح الكثير من سكانه على حافة المجاعة، وصار الحجاج أينما ساروا يحيط بهم المتسولون والأطفال من كل جانب يلحفون عليهم في الاستجداء، وإذا رمى أحد الحجاج بفضلات الطعام أو قشور الفواكه تهافت عليها الأطفال متكالبين من شدة الجوع.

وانخفضت عائدات الحكومة السعودية في عام 1930 من خمسة ملايين جنيه إلى مليونين[2]. وقد عانى وزير المالية السعودي عبد الله السليمان من ذلك أشدّ العناء فهو أصبح بين نارين: طلبات ابن سعود التي لا يمكن ردها من جهة، وشحة الموارد من الجهة الأخرى. ويقال إنه أبدى حذقاً عجيباً في اجتياز تلك الأزمة.

وقد تحمل الموظفون من ذوي الرواتب القليلة قسطاً غير قليل من هذا العناء. فقد فرض عليهم أن يساهموا في قرض كبير للحكومة، ومرّت فترة تأخّر فيها دفع الرواتب للموظفين ثمانية أشهر. واضطر الموظفون أن يشركوا أصحاب الدكاكين في مصيبتهم إذ كانوا يبتاعون منهم ضروريات الحياة على الحساب واعدين إياهم أن يدفعوا لهم عند تسلم رواتبهم[3].

كان فيلبي يومذاك قوي الصلة بابن سعود، وهو يحدثنا في مذكراته عن الحالة النفسية السيئة التي سيطرت على ابن سعود عام 1930 حيث يقول: «بدأ القلق يستحوذ على الملك عبد العزيز، وبدأت أرى معالم اليأس تتسلط على نفسه فتضعف من حيويته ومن تفاؤله. وكنت في ذات يوم أستقل السيارة

---

(1) Monroe (Philly of Arabia) London 1973 -p.178.

(2) خيري حماد (عبد الله فيلبي) ـ بيروت 1961 ـ ص 208.

(3) عبد الله فيلبي (المصدر السابق) ـ ص 369.

الملكية في معيته في جولة قمنا بها بعد الظهيرة، عندما انطلق يتحدّث عن آمال بلاده وأوضاعها، فأعرب عن قلقه بأن ضعف موسم الحج في السنة التالية سيؤدي إلى كارثة اقتصادية تحلّ بالبلاد، بالنظر إلى عدم وجود موارد أخرى لها». ويقول فيلبي إنه انتهز الفرصة وقال لابن سعود: «ليس ثمة من داع لليأس شريطة أن تكون على استعداد للسعي بدلاً من الاتكال على مشيئة الله لإنقاذك، إذ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]. فأنت تنام على كنوز مدفونة في الأرض ثم تشكو من الفقر بينما لا تحاول القيام بأي عمل لاستغلالها». فسأله ابن سعود: «ماذا تعني؟»، فأجابه فيلبي: «أعني أن بلادك ملأى بالكنوز الدفينة من نفط وذهب وأنت عاجز عن استغلالها بنفسك ولا تسمح في الوقت نفسه للآخرين باستغلالها بالنيابة عنك». فقال ابن سعود وقد بدا عليه الجهد: «اِسمع يا فيلبي، لو وجدت من يدفع لي مليون جنيه الآن فإنني سأمنحه كل ما يريده من امتيازات في بلادي». فقال له فيلبي: «إن هذه الامتيازات تساوي أكثر من هذا المبلغ بكثير، وإذا كنت تعني حقاً ما تقول فأنا أعرف رجلاً يستطيع أن يساعدك. لقد جاء لزيارتك قبل عدة سنوات ولكنك رفضت أن تقابله. وهذا الرجل موجود في القاهرة الآن، وإذا حددت لي الموعد الذي ستكون فيه في جدة فسأبرق إليه، وأنا أضمن لك أنه سيجيء. إنه على استعداد للتضحية بإحدى عينه في سبيل لقائك»[2].

إن الرجل الذي أشار إليه فيلبي هو الثري الأمريكي المستر كرين الذي ترأس لجنة الاستفتاء في سوريا عام 1920 ـ كما ذكرناه في الفصل الثالث. فكتب إليه ابن سعود يدعوه لزيارته في جدة. فجاء الرجل في أيار 1931، وتعهد لابن سعود بأن يستدعي على نفقته الخاصة المهندس الجيولوجي المشهور كارل تويتشل للبحث عن إمكانيات البلاد المعدنية.

وقد أنجز المستر كرين وعده، فوصل المهندس تويتشل إلى جدة في

---

(1) سورة الرعد، الآية: 11.

(2) خيري حماد (المصدر السابق) ـ ص 208 ـ 209.

صيف 1931، وتجول في أنحاء المملكة السعودية بحثاً عن مكامن الثروات الأرضية فيها. وفي ربيع 1932 قدم لابن سعود تقريراً ذكر فيه أن هناك علامات تدل على وجود النفط في منطقة الظهران بالقرب من الخليج العربي.

وعلى أثر تقديم هذا التقرير حصل تنافس للحصول على امتياز التنقيب عن النفط في الأراضي السعودية بين شركتين: إحداهما أمريكية والأخرى بريطانية. وقد تمكّنت الشركة الأمريكية أخيراً من الحصول على الامتياز. وفي 29 أيار 1933 وقعت الاتفاقية في جدة من قبل المستر هاملتون ممثل الشركة الأمريكية والشيخ عبد الله السليمان ممثل الحكومة السعودية.

بدأت الشركة الأمريكية تبحث عن النفط في المنطقة التي عيّنها تويتشل، غير أنها لم تعثر على شيء. وظلّت الشركة دائبة في البحث طيلة أربع سنوات دون جدوى، حتى أدركها اليأس، وكادت تحزم أمتعتها وتعود إلى بلادها خالية الوفاض. وفي شهر آذار من عام 1938 بينما كان مهندسو الشركة يقومون بمحاولتهم الأخيرة، وهم بين اليأس والرجال، انبثق النفط بين أيديهم بشكل أثار دهشتهم وفرحهم العظيم[1].

أخذ إنتاج النفط في المملكة السعودية يزداد عاماً بعد عام، وقد تحوّلت هذه المملكة به من دولة فقيرة إلى دولة تعد من أغنى الدول في العالم. إنها الآن المصدِّرة الأولى للنفط في العالم، والمنتجة الثالثة للنفط بعد الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية، وهي تحتل الآن المرتبة الأولى في العالم من حيث كمية النفط الكامن تحت أرضها، إذ تقدر هذه الكمية بنحو عشرين مليار طن.

زوجاته وأولاده:

كان ابن سعود مزواجاً إلى درجة يندر أن يكون له مثيل في عصرنا. فقد كان يتزوج ويطلق مرة بعد مرة على أن لا يزيد عدد زوجاته على الأربع، وهو

(1) Howarth (op. cit.) p.195.

العدد الأقصى الذي تجيزه الشريعة الإسلامية. إنه كان يحتفظ دائماً بثلاث زوجات ليكون قادراً على الزواج بالرابعة عند الحاجة، وقد سأله أحد البريطانيين في عام 1917 عن مجموع زوجاته بما فيهن المطلقات فأجاب: إنهن مائة وسوف أتزوج أكثر إن شاء الله»[1]. والمعروف عنه أنه يتزوج ويطلق عدة مرات في السنة الواحدة، ولكنه قرر في عام 1930 أن لا يتزوج أكثر من زوجتين جديدتين في السنة الواحدة[2].

إن كثرة الزواج هذه قد أدّت إلى كثرة النسل طبعاً. يروي توفيق السويدي في مذكراته: أنه عندما قابل ابن سعود في جدة في عام 1928 بصحبة السر جلبرت كلايتون، وجه كلايتون إلى ابن سعود سؤالاً عن عدد أولاده الذكور، فأجابه ابن سعود: «إنهم ثمانية عشر». وهنا اعترض عليه أخوه محمد الذي كان معه قائلاً: «يا محفوظ، هم أكثر، والبركة فيهم». فتناول ابن سعود مسبحته وصار يعدّ أولاده بها، وتبيّن أنهم واحد وعشرون. فضحك الحاضرون وضحك ابن سعود معهم[3].

بلغ مجموع أولاده الذكور أخيراً خمسة وأربعين ولداً، مات منهم عشرة وبقي خمسة وثلاثون. أما بناته فلا نعلم عن عددهن شيئاً. وكان آخر ولد لابن سعود ولد في عام 1947 عندما كان هو في الواحد والسبعين من عمره. ومما يذكر أن عدد أولاده وأحفاده، بما فيهم البنات، بلغ عند موته أكثر من ثلاثمائة[4].

ومن الجدير بالذكر أن ابن سعود لم يكن وحده محباً لكثرة الأنسال، بل كان يشبهه في ذلك بعض أبنائه وإخوته وأبناء عمه. ولهذا تكاثر عدد أفراد

---

(1) Armstrong (op. cit.) -p. 137.

(2) Monroe (op. cit.) p.171.

(3) توفيق السويدي (مذكراتي) ـ بيروت 1969ـ ص 127.

(4) خير الدين الزركلي (المصدر السابق) ـ ج 3، ص 957، 1002، ج 4 ص 1400.

الأسرة السعودية بشكل يثير الدهشة، حتى قيل إن عدد الأمراء والأميرات من آل سعود بلغ مؤخراً نحو خمسة آلاف.

إن هذا العدد الكبير من الأمراء أصبح ظاهرة اجتماعية لها أثرها الكبير في المملكة السعودية. فهم صاروا طبقة متميزة تعيش فوق القانون. وقد توافر لدى أفراد هذه الطبقة من جرّاء تدفق النفط مال كثير يكاد لا يحصى. ولا حاجة بنا إلى القول إن اجتماع هذين العاملين ـ أي التميز الطبقي وتوافر المال ـ لا بد أن يؤدي بطبيعته إلى الترف الباذخ والانهماك في الشهوات بلا حدود.

أعطانا المؤلف البريطاني هوارث في كتابه «ملك الصحراء» صورة عجيبة تكاد لا تصدق عن الترف والتبذير اللذين ابتلي بهما الأمراء السعوديون. وهو يذكر أن ابن سعود لم يكن يعرف عمّا كان يفعله أبناؤه إلّا قليلاً، وكان إذا بلغه شيء عنهم يتملكه الغضب وقد يضربهم بالعصا. ولهذا كان في أواخر أيامه يشعر بالتعاسة العميقة[1].

يقول فيلبي في هذا الشأن ما نصّه:

«كانت المشكلة الكبرى التي واجهها الملك ـ يقصد ابن سعود ـ في هذا التضخم الذي طرأ على الأسرة المالكة التي غدت تكوّن بمفردها طبقة خاصة قائمة بنفسها. وكانت لدى رجال الأمن أوامر شفوية بعدم التعرّض للأمراء أو المساس بهم مخافة أن تنتشر أخبارهم بين الناس... أما المشكلة الثانية التي ازدادت نتائجها مع الأيام فهي إغراق الملك في سخائه وعطاياه، وهو كرم عُرف عنه منذ أيامه الأولى... ولكن مع تكاثر الأموال والموارد وتوقّع استمرارها في المستقبل أخذ سخاء الملك يفوق كل حدود الحكمة والعقل، ويبذر بذور الفساد في طريقه. وكان أول المنتفعين من هذا السخاء حتماً نساء الحريم والأمراء، ويتلوهم رجال البلاط والحاشية والموظفون. واشتدّت الشهوة عند هؤلاء في الحصول على المال كلما زاد الملك إغداقاً عليهم في

(1) Howarth (op. cit.) -p.212-229.

عطاياه، وبلغت الهبات حداً لم تعرفه أي بلاد في العصر الحديث. ولكن الملك نفسه لم يبدل طريقته البسيطة في الحياة، فقد ظلّت ملابسه على ما كانت عليه، وقد ظلّ على غرامه بإيجاب الأطفال حتى اللحظة الأخيرة في حياته، وإن كان آخر أولاده قد ولد في عام 1947[1].

كان الأمراء السعوديون يخشون أباهم في حياته، ولهذا كانوا يتكتمون في أفعالهم بمقدار جهدهم. فلما مات أبوهم في عام 1953 انطلقوا في الملذات ينهلون منها كما يشتهون. فلقد ذهب بموته الرادع الذي كانوا يخشونه أو يستحون منه.

يتداول الناس في المملكة السعودية قصصاً مذهلة عن مبلغ الانهماك في الشهوات الذي ابتلي به الأمراء بعد موت أبيهم. وربما كان في هذه القصص قسط من المبالغة أو التزويق، كما هي عادة الرواة في مثل هذه الأمور، إنما هي على أي حال قد لا تخلو من الحقيقة قليلاً أو كثيراً. إن الانهماك في الشهوات أمر طبيعي في الإنسان حين يغيب عنه الرادع. ولا يشذّ عن ذلك إلّا القليل النادر من الناس.

فيلبي:

لا بد لنا في ختام هذا الفصل من إلقاء شيء من الضوء على حياة فيلبي، وهو الرجل الذي ارتبطت حياته بابن سعود ارتباطاً وثيقاً. والواقع أن هذا الرجل عاش غريباً ومات غريباً، وعدّه الكثيرون لغزاً من الألغاز.

ولد فيلبي في جزيرة سيلان عام 1885 من أبوين بريطانيين. ويروي فيلبي في مذكراته حادثة غريبة وقعت له في طفولته خلاصتها: أنه ضاع من أمه وهو رضيع، وبعد البحث عنه وجدوا امرأة غجرية تحمل رضيعين في عمر واحد وبينهما تشابه عجيب كان هو أحدهما، فاسترجعوه من الغجرية. ويتساءل فيلبي في مذكراته: هل كان هو الذي استرجعوه، أم استرجعوا ابن الغجرية؟!

---

(1) خيري حماد (المصدر السابق) ـ ص 237.

في عام 1904 دخل فيلبي في جامعة كمبردج، وأخذ يتّجه في حياته الجامعية نحو الاشتراكية والحرية الفكرية. وحين تخرّج من الجامعة في 1907 دخل في خدمة الحكومة الهندية. وفي 1910 تزوج من فتاة بريطانية اسمها «دورا». وفي 1915 انضم إلى الحملة البريطانية في العراق، وعمل في البصرة والعمارة وبغداد حيث تعلم اللغة العربية.

وفي عام 1917 سافر فيلبي في بعثة سياسية إلى الرياض، فوصلها في 30 تشرين الثاني، وقابل ابن سعود، ثم عبر الصحراء بملابس عربية قاصداً جدة، فوصلها في 31 كانون الأول، وقابل الحسين فيها. وكانت سفرته تلك ذات أثر قوي في حياته إذ هو شعر بالتعاطف مع ابن سعود وأحب الصحراء والتغلغل في مجاهلها.

عند عودة فيلبي إلى العراق أوعز إليه بالسفر إلى الرياض مرة أخرى، فقابل ابن سعود للمرة الثانية، وقد سرّ به ابن سعود سروراً كبيراً، أو تظاهر له بذلك. وقد انتهز فيلبي الفرصة فتجول في الصحارى الجنوبية لاكتشاف مجاهلها وكان معه حرس مؤلف من عشرين رجلاً جهزه بهم ابن سعود. ثم عاد فيلبي من بعد ذلك إلى العراق.

في أواخر 1918 مُنح فيلبي إجازة يقضيها في بلاده، فوصل إلى إنكلترا بعد غياب عنها أكثر من عشر سنوات. وبعد انتهاء إجازته قام ببعض المهام التي كلفته بها حكومته. وفي آب 1920 أُمر بالعودة إلى العراق في معية المندوب السامي السر برسي كوكس، ولكنه لم يمكث في العراق طويلاً لأنه اختلف مع كوكس حول السياسة التي انتهجها في العراق، فقد كان فيلبي يدعو إلى إنشاء النظام الجمهوري فيه بينما كان كوكس مأموراً بتنظيف فيصل ملكاً. وقد اضطر كوكس أخيراً إلى نقل فيلبي إلى شرقي الأردن[1].

أمضى فيلبي سنتين ونصف في وظيفته في شرقي الأردن، وقد اختلف

---

(1) انظر تفاصيل ذلك في الجزء السادس من هذا الكتاب ـ الفصل الثاني.

مع السر هربرت صموئيل المندوب السامي في فلسطين على نحو ما اختلف قبل ذلك مع السر برسي كوكس. فاستقال من وظيفته، وكتب إلى صديق له يذكر سبب استقالته حيث قال: «إني استقلت من هذا العمل لأسباب كثيرة جداً وفي مقدمتها أني لا أقدر أن أواصل العمل مع المندوب السامي الحالي الذي هو يهودي صهيوني والذي لا يستطيع أن يحفظ التوازن بين المصالح الصهيونية والعربية. أضف إلى ذلك أن عبد الله قد خذلني بإسرافه الذي وصل إلى حد أدّى إلى تدخل الحكومة البريطانية، وهذا معناه تدخل النفوذ الصهيوني. ولهذا خرجت»[1].

وفي نيسان 1924 مُنح فيلبي إجازة طويلة كمقدمة للاستقالة، فغادر عمان في 17 منه، وبعد أن تجوّل في تركيا ذهب إلى إنكلترا. وفي 28 تشرين الأول وصل إلى جدة للتوسط في الصلح بين الملك علي وابن سعود ـ على نحو ما ذكرناه في الفصل السادس.

بعد استيلاء ابن سعود على جدة عاد فيلبي إليها، وفتح محلاً تجارياً فيها. وقد حصل على وكالة فورد للسيارات، كما استورد آلاف المسح وأدوات الهندسة والمراوح التي تعمل بالنفط. وفي الوقت نفسه صار فيلبي مستشاراً لابن سعود وصديقاً، وكان فيلبي يثق به ويستمع إلى نصيحته.

إن التقارير السرية التي كتبها القنصل البريطاني في جدة إلى حكومته في تلك الفترة تدلّ على أن فيلبي كان يبدي نشاطاً ملحوظاً في بث الدعاية المضادة لبريطانيا وفي عرقلة مصالحها. ففي أحد تقاريره يقول القنصل: «إن فيلبي متمسك بكل عناد بديانته التي هي ديانة ثنوية تمثل بريطانيا فيها إله الظلام»[2]. وفي تقرير آخر يقول: «إني أعتقد أن وجود فيلبي في جدة لن يؤدي إلى تحسين العلاقات بين بريطانيا وابن سعود»[3]. وفي تقرير ثالث

---

(1) Monroe (op. cit.) -p.132.

(2) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 10807).

(3) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 11431).

يقول: «إن نشاط المستر فيلبي مستمر. ويبدو أنه لا يضيع أية فرصة لخلق المصاعب لحكومة صاحب الجلالة البريطانية. ولست أدري ما هو قصده من ذلك، هل هو لتملق المسؤولين هنا من أجل الحصول على امتيازات معيّنة، أم من جرّاء كونه موظفاً سابقاً متذمراً يريد الانتقام من حكومته...»[1].

وفي شهر آب 1930 أعلن فيلبي اعتناقه للإسلام، وسمى نفسه «عبد الله». وقد اختلفت الأقوال في السبب الذي حدا به إلى ذلك، فمنهم من قال إن مناخ جدة لم يلائم فيلبي، وقد أغمي عليه فيها صيفاً، فأراد الانتقال منها إلى بعض المدن السعودية الأخرى. كما أنه كان يطمح إلى تحقيق هدفه الأكبر وهو أن يكون أول من يخترق منطقة الربع الخالي، وقد وجد أن اعتناقه الإسلام يسهل عليه ذلك[2]. وهناك من يقول إن سبب اعتناق فيلبي للإسلام هو حبه للنساء، ولا سيما الشابات منهن، وقد وجد في الإسلام وسيلة سهلة للتزوج بهن كما يشتهي.

أما فيلبي فيكذب هذه الأقوال كلها ويقول إنه إنما اعتنق الإسلام عن اقتناع وإخلاص. وقد أشار إلى ذلك في مذكراته حيث قال ما نصّه:

«لقد اجتذبني الإسلام منذ أيامي الأولى في الهند، إذ تأثرت بما فيه من بساطة في تناول حقائق الحياة الخالدة وفلسفتها. وكنت قد توقفت منذ أمد طويل عن أن أكون مسيحياً وأصبحت فيلسوفاً أتطلع إلى الحياة بنظرة فلسفية عميقة دون أن تكون لي أية معتقدات أو مشاعر دينية، على الرغم من اعترافي بأن الديانة تؤلف لغالبية الناس ضرورة لا مناص منها. ومع ذلك فقد بدا لي أن الإسلام في الهند قد أصبح محاطاً بسلسلة من الطقوس والمظاهر الغريبة عنه، وهي طقوس ومظاهر لا يمكن للإنسان أن يتقبلها إلّا بعد تمحيص دقيق. وعندما انتقلت إلى العراق وجدت طائفتها السنية كثيرة التعلّق بالرسميات

---

(1) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. 371 ـ 11442).

(2) Howarth (op. cit.) p.179.

والمظاهر في أداء الفروض الدينية، بينما وجدت من الصعب أن أؤمن بالنظرية الشيعية التي تستند إلى الأئمة والأولياء. وعندما مضيت إلى السعودية اتصلت بما بدا لي الفكرة المبسطة عن الإسلام تستمد وحيها وإلهامها من القرآن الكريم وسُنة الرسول الأعظم، وتبتعد عن النظريات والعقائديات الدينية المتشابكة والمعقّدة. وبدا لي أن المذهب الوهابي هو الدين المثالي، ولم أجد في تعصب أتباعه ما يسؤوني أو ينفرني، ورأيت أن مذهبهم يتّفق مع حاجات الحياة البشرية والمجتمع في أبسط صورهما. واعتقدت أن الإسلام على هذه الطريقة هو المذهب الذي يستطيع الإنسان أن يتقبله قبولاً حسناً ويؤمن به إيماناً صادقاً كوكيل موجّه للحياة والسلوك، وأن مقاييسه الدينية تنسجم مع الحاجات الأساسية للبشرية أكثر من أي دين آخر. وإذا كانت فيه بعض الخشونة فإنه من الناحية الأخرى يرفض كل زيف وخداع، كما أنه يرى في تعدد الزوجات خير سبيل لمنع العهر والدعارة من سبيل الوصايا العشر»[1].

مهما كان الحال فقد أصبح فيلبي خبراً مثيراً في البلاد العربية والعالم، وكان معظم الناس في البلاد العربية يظنون أن إسلامه مصطنع لغرض التجسس أو الدس. وقد كتب إليه السر برسي كوكس يقول له: إنه قام بحركة سيئة. كما انتقده السر آرنولد ويلسون في جريدة «الأوقات البغدادية». أما زوجته «دورا» التي كانت حينذاك في إنكلترا فقد انزعجت من إسلامه خشية أن يتزوج عليها امرأة أخرى، ولكنها تظاهرت أمام الناس بالرضا وقالت لهم: «أظن أنكم تعلمون أنني الآن مسز عبد الله»[2].

ومن الجدير بالذكر أن ما كانت تخشاه «دورا» قد حصل فعلاً. فبعد مدة قصيرة من اعتناق فيلبي للإسلام كان جالساً في مجلس ابن سعود، فتحدث ابن سعود عن عزمه أن لا يتزوج بعد الآن أكثر من زوجتين جديدتين في كل سنة، فقال له فيلبي معاتباً: «لا تنس أني ليست لي سوى زوجة واحدة طيلة حياتي».

---

(1) خيري حماد (المصدر السابق) ـ ص 253 ـ 254.

(2) Monroe (op. cit) p.169.

فرد عليه ابن سعود قائلاً: «إنك الآن بعد دخولك الإسلام سوف تستفيد من حرية أكبر في هذا الشأن». وعلى أثر ذلك أهدى ابن سعود إلى فيلبي جارية صغيرة اسمها «مريم بنت عبد الله الحسن». وقد كتب فيلبي إلى زوجته «دورا» يصف تلك الجارية بقوله: «إنها ليست جميلة على أية حال، ولكنها شابة وحلوة إلى درجة كافية»[1].

مرّت بفيلبي خلال الحرب العالمية الثانية فترة عسيرة جداً. فقد اتهمته حكومته بالميل إلى ألمانيا النازية، وحين ذهب إلى الهند اعتقلته ونقلته إلى بريطانيا، وظل هناك طيلة الحرب. ويدّعي فيلبي أن نوري السعيد هو الذي وشى به إلى الحكومة البريطانية[2]. ولما عاد فيلبي إلى المملكة السعودية بعد إطلاق سراحه أهداه ابن سعود جارية جديدة من أصل بلوشي أو فارسي اسمها «روزي العبد العزيز». وكانت هذه الجارية نحيلة قصيرة في السادسة عشرة من عمرها ولكنها جميلة[3]. أما جاريته الأولى فلا ندري ماذا صنع الدهر بها، وربما أعتقها فيلبي أو أهداها ـ والله أعلم!

كانت لفيلبي داران متواضعتان أهداهما له ابن سعود، إحداهما في الرياض والأخرى في مكة. وصار فيلبي يقيم في الرياض تارة وفي مكة تارة أخرى. وقد أنجبت له جاريته الجديدة أربعة أولاد مات اثنان منهم، وبقي اثنان هما: خالد وفارس. وكان فيلبي حريصاً على تربية هذين الولدين تربية عربية إسلامية.

يحدثنا أمين الميز: أنه زار فيلبي في 24 كانون الأول 1954، في داره التي في مكة وكانت مجاورة للحرم. فوجد الدار بسيطة مكوّنة من طابق واحد، وكانت غرفة الاستقبال مؤثثة بأبسط الأثاث. وقد جاء إليه ولداه الصغيران خالد وفارس، فطلب فيلبي من خالد أن يذهب إلى أمه يدعوها

---

(1) Ibid. p.171.

(2) أمين المميز (المصدر السابق) ـ ص. 277.

(3) Monroe (op. cit.) -p.244.

للسلام على الضيف، فذهب خالد إلى أمه ثم عاد مكسور الخاطر وهو يقول بلهجة نجدية: «ما تبغي تجي». ويقول المميز إنه صحب فيلبي بعد ذلك للصلاة في الحرم، فرآه يؤدّي الصلاة بكل خشوع ويتلو الأدعية والآيات القرآنية من أعماق قلبه. ويعلّق المميز على ذلك قائلاً: «فهو، والحق أشهد، مسلم مؤمن بكل معنى الكلمة»[1]. . .

ظلت علاقة فيلبي بابن سعود حسنة حتى النهاية، ولما مات ابن سعود أخذت علاقته مع ابنه الملك سعود تسوء تدريجياً. وسبب ذلك أن فيلبي بدأ ينتقد الترف والتفسخ اللذين سادا المملكة في العهد الجديد، وكتب بعض المقالات حول ذلك في الصحف الأجنبية مما أغضب عليه الملك سعود وحاشيته. وفي أواخر نيسان 1955 أُخرج فيلبي من البلاد.

ذكرت الحكومة السعودية للقائم بأعمال السفارة البريطانية في جدة الأسباب التي دعتها لإخراج فيلبي من البلاد، وهي:

(1) نشره للشيوعية في داخل المملكة السعودية، (2) عمالته للصهيونية ودعوته لليهود، (3) دأبه في كتاباته على الانتقاص من منزلة الملك سعود بالمقارنة إلى أبيه، (4) استمراره على نشر المقالات في الصحف الأجنبية في انتقاد المملكة السعودية وسياستها، (5) إلقائه أخيراً سلسلة من المحاضرات على موظفي شركة أرامكو في الظهران تتضمن الطعن بالمملكة ورجالاتها[2].

اتخذ فيلبي بعد نفيه بيتاً له في قرية عجلتون في لبنان، واستدعى إليه من الرياض زوجته الجديدة وولديه خالد وفارس. وفي 7 أيلول 1955 وصلت الزوجة والولدان إلى مطار بيروت، فطلب منها فيلبي أن تسفر عن وجهها حالاً[3]، فأطاعت أمره مرغمة.

---

(1) أمين المميز (المصدر السابق) ـ ص 276.

(2) المصدر السابق ـ ص 332 ـ 333.

(3) Monroe (op. cit.) -p.284.

أصبح إخراج فيلبي من المملكة السعودية محوراً لدعاية سيئة ضدها، وأخذت بعض الصحف البريطانية تنشر المقالات حول ما يجري في المملكة السعودية من تفسّخ وتبذير. وقد ساهمت إذاعة بغداد في هذه الحملة مما أدّى إلى توتر شديد في العلاقة بين العراق والمملكة السعودية. واضطر الملك سعود أخيراً إلى مصالحة فيلبي وإلى السماح له بالعودة إلى الرياض.

وفي صباح 30 أيلول 1960، عندما كان فيلبي في بيروت في زيارة عابرة لها، أصيب بهبوط بالقلب، فنقل إلى مستشفى الجامعة الأمريكية. وفي غروب ذلك اليوم لفظ فيلبي أنفاسه الأخيرة، وكانت آخر كلمة نطق بها هي: «أنا سئمت». وفي ظهر اليوم التالي نقل جثمانه إلى مقبرة «الباشورة» الإسلامية في حي البسطة. ولم يكن في تشييع جنازته سوى عشرة أشخاص كان فيهم ولده الأكبر «كيم». وقد أمر «كيم» أن ينقش على قبر أبيه هذه العبارة: «أعظم مكتشفي جزيرة العرب»[1].

مهما اختلفت الآراء في فيلبي وأهدافه في الحياة، فهناك اتفاق بين الباحثين على أنه كان نزيهاً مترفعاً عن الدنايا، وقد كان في مقدوره أن يكسب الملايين من ابن سعود أو من ابنه سعود، كما فعل الكثيرون، ولكنه مات ولم يملك من حطام الدنيا إلّا القليل. والواقع أنه أفضل من أولئك الذين جمعوا الملايين، إذ هم تركوها لغيرهم يتنعمون بها وتحملوا هم أوزارها.

---

(1) Ibid' p.295.

خاتمة

دروس من التاريخ

دروس من التاريخ

عند صدور الأجزاء الأولى من هذا الكتاب أخذ بعض النقاد ينتقدونني على أني أصبحت مؤرخاً وأهملت الجانب الاجتماعي من التاريخ. مشكلة هؤلاء النقاد أنهم يفهمون علم الاجتماع فهماً محدوداً، أو مغلوطاً من بعض الوجوه. إن الحقيقة التي أودّ أن يعرفها هؤلاء النقاد هي أنه لا يوجد فاصل حدي يفصل بين التاريخ والاجتماع. فكلا الأمرين مترابطان، أو هما وجهان لشيء واحد.

قبل ربع قرن تقريباً كان بعض علماء الاجتماع يسيرون في دراساتهم على الطريقة التي يريدها هؤلاء النقّاد، إذ هم كانوا إذا أرادوا دراسة مجتمع انكبوا على دراسة حاضره دون الاهتمام بدراسة ماضيه. وقد شاعت هذه الطريقة في الولايات المتحدة شيوعاً كبيراً، حيث كان العلماء يريدون أن يجعلوا من الاجتماع علماً كعلوم الطبيعة، ولهذا صاروا يستندون في دراستهم على مناهج الإحصاء والاستبيان وما أشبه. وقد تبيّن للكثيرين منهم مؤخراً أن طريقتهم هذه ناقصة وقد لا تصل بهم إلى نتيجة مجدية. أنقل فيما يلي قولاً في هذا الشأن لعالم مشهور من علماء الاجتماع الأمريكيين، هو الأستاذ روبرت نيسبت، ذكره في كتاب له صدر في عام 1970، حيث قال:

«إن الفجوة بين علم الاجتماع والتاريخ أخذت في السنوات الأخيرة تتقلص باستمرار، وهي الفجوة التي كانت موجودة لمدة طويلة ولا سيما في الولايات المتحدة الأمريكية. ففي السنوات العشر أو العشرين الأخيرة صار المؤرخون ينتفعون من مفاهيم علم الاجتماع تدريجاً، وكذلك صار

الاجتماعيون ينتفعون من المعلومات التاريخية. . . إن أكبر منفعة جناها الاجتماعيون من التاريخ هي في موضوع التغير الاجتماعي. . .»[1].

بين الماضي والحاضر:

الواقع أن الباحث الاجتماعي الذي يتجول في صفحات التاريخ قد يستمد منها دروساً لا تقل أهمية عن تلك التي يستمدها من التجول في أنحاء المجتمع. وبعبارة أخرى: إن تجول الباحث في الزمان لا يقل نفعاً عن تجوّله في المكان، كلاهما يمده بالمعلومات الضرورية لفهم المجتمع البشري وطبيعة الإنسان.

خذ مثلاً حركة «الإخوان» التي استفحلت في نجد عقب الحرب العالمية الأولى، والتي درسناها على شيء من التفصيل في فصول سابقة. فإن هذه الحركة قد تعطينا دروساً اجتماعية لا تقل قيمة عن تلك التي نستمدها من دراسة ظاهرة اجتماعية معاصرة.

إن القارىء حين يرى مظاهر التعصب المفرط لدى الإخوان كتحريمهم للتلفون والتلغراف، أو للدراجة والطائرة، قد تتملكه الدهشة إذ هو لا يستطيع أن يتصوّر كيف يمكن للعقل البشري أن يهبط إلى مثل هذا المنحدر العجيب. إن القارىء لا يدري أن عقله لا يختلف عن عقل الإخوان في شيء، فكلاهما من طبيعة واحدة، ولكن الظروف التي ينشأ فيها العقل هي التي تجعله يفكر على هذا النمط أو ذاك. ولو أن القارىء كان قد نشأ في مثل تلك البيئة الاجتماعية التي نشأ فيها الإخوان لكان مثلهم في تفكيره وسلوكه، ولربما رأيناه يحمل السيف ليقتل به أمثال كاتب هذه السطور!

إني أدركت في صباي أناساً في العراق كانوا يحرمون قراءة الجريدة ودخول المدرسة وتعلم اللغة الإنكليزية ولبس القبعة وحلق اللحية واستعمال

---

(1) Robert Nisbet (The Social Bond) NewYork - 1970 - p. 344-345.

الملعقة في الأكل. وفي عام 1924 صدر في النجف كتاب مطبوع لأحد رجال الدين هو الشيخ عبد الله المامقاني كان عنوانه: «السيف البتار في الرد على من يقول إن الغيم من البخار». وشهدتُ في تلك الآونة رجلاً من العامة يعتدي على آخر لأنه سمعه يقول بأن المطر من البخار. وقد يعجب القارىء إذا علم أن خمسة كتب صدرت في العراق في موضوع تحريم حلق اللحية وهي:

(1) «إرشاد أهل الحجى في حرمة حلق اللحى» لمحمد حسن كبة، (2) «تحريم حلق اللحية» لقاسم الجليلي، (3) «التفتيش في حلق الريش» لهبة الدين الشهرستاني، (4) «ذكرى ذوي النهى في حرمة حلق اللحى» لحسن الصدر، (5) «زينة الرجال ـ رسالة في إثبات حرمة حلق اللحية» لمحمد حسين الأديب. وربما كانت هناك كتب أخرى في هذا الموضوع لا نعرفها.

لا يجوز أن نلوم هؤلاء على ما قالوا أو فعلوا، فهم ليسوا إلّا نتاج بيئتهم وظروفهم. ومن يدرس تاريخ الشعوب الأوروبية يجد أنها لم تكن تختلف عنّا من هذه الناحية عندما كانت ظروفها تماثل ظروفنا.

إن العقل البشري يخضع في تفكيره للقوالب التي تصبّها البيئة الاجتماعية فيه. فلو أن إنساناً نشأ في بيئة مليئة بالخرافات، وظلّ يعيش في تلك البيئة لا يعرف غيرها، لرأيناه يعتقد اعتقاداً جازماً بأن تلك الخرافات حقائق واضحة، وهو يعجب حين يجدنا لا نوافقه على معتقداته، وقد يحقد علينا ويضمر لنا الشر.

رأيت ذات مرة رجلاً يتحمّس لعقيدته التي نشأ عليها تحمساً شديداً، فسألته: لو أنه كان قد نشأ في البلدة الفلانية، وهي بلدة مخالفة في عقيدتها لبلدته، فهل كان يتحمس لتلك العقيدة مثل هذا الحماس؟ فكان جوابه: «نعم بكل تأكيد لأن الحق واضح وضوح الشمس!». إنه لا يدري أنه لو كان قد نشأ في البلدة الأخرى لوجد الحق واضحاً في الجانب الآخر.

طبيعة الإنسان:

إني حين أدرس أحداث التاريخ أشعر كأني أنظر إلى أحداث تجري في أيامنا. لا أنكر أن هناك فروقاً كثيرة بين أحداث الماضي والحاضر، ولكننا يجب أن لا ننسى أن هذه الفروق ظاهرية، أما الجوهر فهو واحد لا يتغير، وأقصد به هذا الحيوان العاقل الذي يُدعى «الإنسان».

إن الإنسان قد تغير كثيراً في عاداته وأزيائه، وفي قيمه ومعتقداته، حسب تغير الزمان والمكان، إنما هو في أساس طبيعته لم يتغير، حيث بقي هو هو ذلك الحيوان المتعصب الذي عرفناه منذ قديم الزمان. وأرجح الظن أنه سيبقى كذلك إلى ما شاء الله.

اتفق الفلاسفة على أن أهم فرق بين الإنسان والحيوان هو العقل، ولكنهم اختلفوا في تعريف كنه هذا العقل وفي تحديد مجاله. فقد كان الفلاسفة القدماء يعتقدون أن العقل البشري قادر أن يدرك الحقيقة كاملة إذا تخلص من التعصب والأنانية والعاطفة وغيرها من معوّقات التفكير الصحيح، وكانوا يتصورون أن التخلص من هذه المعوّقات أمر يسير وأنه في مقدور أي إنسان أن يفعله إذا أراد.

قيل لهؤلاء الفلاسفة: إذا كان في مقدور الإنسان أن يتخلّص من معوّقات التفكير الصحيح كما تزعمون، فلماذا لم تتخلصوا أنتم منها؟! فنحن نراكم تختلفون فيما بينكم وتتنازعون كما يختلف العوام ويتنازعون. وهذا معناه أن عقولكم في أساس طبيعتها لا تختلف كثيراً عن عقول العوام.

أثبتت الدراسات العلمية الحديثة أن العقل البشري متحيّز ومحدود بطبيعته، وأن معوقات التفكير الصحيح كالتعصب والأنانية والعاطفة ليست طارئة عليه بل هي دوافع أصيلة فيه.

إن الإنسان قادر أن يكون منصفاً وموضوعياً في حكمه على أمر من الأمور إذا كان ذلك الأمر خارجاً عن نطاق تعصّبه الاجتماعي أو مصلحته

الخاصة أو عاطفته. ولا يكاد الأمر يدخل في نطاق هذه الدوافع، كلها أو بعضها، حتى نجد الإنصاف والموضوعية بدأتا تختفيان من ذهن الإنسان، وعند هذا يصبح الإنسان كغيره من الناس ظالماً وهو يظن أنه عادل.

تمكّن الإنسان الحديث من الصعود إلى القمر، ولكنه في الوقت نفسه ظلّ كما كان أسلافه منذ آلاف السنين يشن الحروب ويقترف الفظائع ويمارس التمييز العنصري والطائفي. فهو قد تقدم تقدماً عظيماً من ناحية، إنما هو من الناحية الأخرى ظل يراوح في مكانه.

رأينا الإخوان النجديين يقترفون الفظائع المنكرة وهم يحسبون أنهم سائرون على سنة الله ورسوله، فاعتبرنا ذلك منهم همجية تنافي الحضارة ثم جاءت الحرب العالمية الثانية بعدئذٍ فرأينا بعض المتحضرين لا يقلّون همجية عن الإخوان، وربما تفوّقوا عليهم من بعض الوجوه. فإن ما فعلوه في معسكرات الاعتقال وغرف الغاز والمذابح الجماعية ما يمكن أن يستنكره حتى الإخوان. يجب أن لا ننسى أن الإخوان كانوا يتيحون فرصة لمن يقع في أيديهم في أن يتوب من كفره ويستغفر الله عنه، وهم عند ذلك يعفون عنه ويقبلونه ويهنئونه بالإيمان. أما المتحضرون فلم يكونوا يقبلون توبة ولا استغفاراً!

إن الإنسان بوجه عام يكون طيباً بشوشاً نحوك حين تكون منسجماً مع دوافعه التي ذكرناها. إنما هو لا يكاد يراك معارضاً له فيها أو منافساً له عليها حتى تنقلب ابتسامته إلى تكشيرة، والويل لك حين يسلّطه الله عليك.

نلاحظ هذا في الطفل البشري منذ سنواته الباكرة، فهو لطيف جداً معك لأنه يجد نفسه ضعيفاً تجاهك وهو يتوقّع منك المنفعة والرعاية. غير أنه لا يكاد يلمح طفلاً أضعف منه وبيده لعبة يلهو بها حتى يسرع إلى مهاجمته، ويلطمه وينتزع اللعبة منه قسراً، ثم يتركه يبكي دون أن يشعر بأية شفقة عليه.

* * *

إني أعتذر للقارىء لتكرار هذه الأقوال في كتبي مرة بعد مرة. فهي في نظري تتضمن حقيقة كبرى يجب علينا استيعابها لكي نفهم بها أحداث التاريخ وظواهر المجتمع.

إن الذي أردت قوله في هذه الخاتمة هو أن الدنيا سارت، وما زالت تسير، على وتيرة واحدة لا تتغير، ومن يريد أن ينجح فيها ينبغي أن يفهمها كما هي في الواقع لا كما يجب أن تكون.